الدكتور وجدى الفيشاوى

موسى
فى
الأساطير الإسرائيلية

المركز الهندسى
للطباعة و النشر والتوزيع

الدكتور وجدى الفيشاوى

موسى

فى

الأساطير الإسرائيلية

المركز الهندسى
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١ يناير ٢٠٠٠

جميع حقوق الطبع محفوظة

المركز الهندسى

للطباعة والنشر

القاهرة - المعادى - ٢ ش ١٠٠ ت ٣٧٨٦٧٤٣ - ٥٢٦٠٢٤٩

جمع كمبيوتر : ايهاب رهونى

مراجعة كمبيوتر : محمد محمود ابراهيم

تصميم : الغلاف : عادل طحيمر

للباحثين عن الحقيقة
أترك كلماتى

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ماكنتم تعملون »

صدق الله العظيم

تصــــدير

هذا الكتاب يعالج حياة موسى وفكره ، من وجهة نظر إسرائيلية ، ويبين بوضوح شديد كيف زَيَّفَ اليهود أحداث التوراة .

ونحن ، في تحليلنا لشخصية هذا النبي الإســـرائيلي وتعاليمــه ، لا نخرج أبداً عن نطاق الكتب الخمسة المنسوبة إليه والمسماة بالتوراة .

وهذا معناه أن ما نكتبه لا صلة له مطلقاً بما جــاء فــي القــرآن الكريم.

إن موسى الذي صورته أحداث التوراة ، التي بين أيدينا ، يختلــف اختلافاً كلياً عن موسى الذي قدمته آيات القرآن ، والــذي يحتــاج إلــى دراسة أخرى تختلف عن هذه الدراسة كل الاختلاف .

إننا على إيمان مطلق بسلطان القرآن المطلق .

وهذا الكتاب لا صلة له مطلقاً بما جاء في القرآن .

كامل الشكر والتقدير للذين أسهموا وساعدوا علــى ظــهور هــذا الكتاب. أخص بالذكر **الأستاذ الدكتور عبد الرحيــم زلــط** عميد آداب طنطا، **والأستاذ الدكتور محمد البلتاجي** ــ عميــد كليــة دار العلــوم **والأستاذ الدكتور خيري طلعت** بآداب المنيا . وتلميذي وزميلي **الأســتاذ الدكتور أحمد شفيق الخطيب** بكلية اللغات والترجمة ، وتلميذي الســابق الأستاذ **إبراهيم جاد** .

"يهدي الله لنوره من يشاء .. والله ولي التوفيق"

دكتور

وجدي الفيشاوي

فيلا الكرمتان ــ طنطا

الفصل الاول
مدخل

الفصل الأول

مدخــــــل

"العهد القديم" ، وهو الكتاب الذي يعتقد اليهود بأنه مقدس ، عبـــارة عن مجموعة من النصوص الأدبية بعضها على مستوى عال من البلاغة اللغوية والتأثيرية الشاعرية والقوة الوجدانية ، بحيث اعتبرهـــا بعـض النقاد - وعلى رأسهم الناقد الإنجليزى الرومانسي وليام هازليت -. عمل من أعمال الشعر القديم .. رائع الروعة ، بديع الإبداع ، من النـــادر أن يصل إليه في عمقه وتأثيره أي عمل شعري آخر ، خلال كل العصور .

هل هناك غزل أكثر إثارة وأعمق إمتاعا ممـــا جـــاء فـــي "نشـيد الإنشاد"[1] ؟ لنقرأ هذه السطور التي ربما يعجز عن الإتيان بمثلها فحـــول شعراء الغزل في كل اللغات :

"أنا ســـوداء وجميلة يا بنات أورشـــليم ...

لا تنظرن إلى لكوني سوداء لأن الشمس لوحتني ...

أخبرني يا من تحبه نفسي أين ترعى أين تربض عند الظهيرة ...

إن لم تعرفي أيتها الجميلة بين النساء فاخرجي

على آثار الغنم . وارعي جداءك عند مساكن الرعاة ...

ها أنت جميلة يا حبيبتي ها أنت جميلة ، عيناك حمامتان.

ها أنت جميل يا حبيبي وحلو وسريرنا أخضر. . .

---

[1] النص الإنجليزي "The Song of Songs"، أي "نشيد الأناشيد" على خلاف ما جاء في التوراة التي بين أيدينا .

ها أنت جميلة يا حبيبتي ها أنت جميلة ، عيناك حمامتان
من تحت نقابك .. شفتاك كسلكة من القرمِز
وفمك حلو . خدك كفلقة رمانة تحت نقابك.
ثدياك كخشفتي ظبية توأمين يرعيان بين السوسن ..
شـفتاك يا عروس تقطران شـهدا .
تحت لسانك عسل ولبن ..
دوائر فخذيك مثل الحلي ..
سـرتك كأس مـدورة ..
بطـنك صبرة حـنطة ..
ثدياك كخشفتين توأمي ظبية .
عنقك كبرج من عاج ..
ما أجملك وما أحلاك أيتها الحبيبة باللذات ..
قامتك هذه شبيهة بالنخلة
وثـدياك بالعنـاقيد .
قلت إني أصعد إلى النخلة وأمسك بعذوقها ...
وتكون ثدياك كعناقيد الكرم
ورائحـة أنفك كالتفـاح
وحنكك كأجود الخمر ....

اجعلني كخاتم على قلبك ، كخاتم على ساعدك

لأن المـحبة قـوية كالموت[1].

هل يجرؤ أحد على القول بأن هذه المنظومة الغزلية مقدسة لمجـرد أنها ضمت إلى مجموعة أخرى من النصوص الأدبية ونشـرت تحـت عنوان : الكتاب المقدس ؟

الحب له قدسيته . هذا صحيح . لكنه عندما يتعلق بالشفتين والخدين، والسرة والفخذين ، هنا يجب أن ننأى بتفكيرنا عن الإلـه ، أي إلـه .. وعن النبي ، أي نبي .. وعن الوحي ، أي وحي .. كـي لا تضطـرب الأمور وتختلط الأشياء .. وعندها نعجز عن التمييـز بيـن البشـري واللابشري ، والإنساني والإلهي .. وتضيع الحقيقة في جوف العـدم ، كما ضاع تابوت العهد وقدس الأقداس وعصا هرون المفرخة ، وعـاش اليهود على وهم الذكرى .

"العهد القديم" ، متضمنا الكتب الخمسة الأولى التي يطلق عليها اسم "التوراة" ، ليس وحيا مقدسا ، إنما هو منظومة جيدة التأليف من وضـع الكهنة اليهود . وكما يقول د. عبد المحسن الخشاب : إن اليهود كتبـوا تاريخهم بيدهم ، ويكادون أن يكونوا الوحيدين في ذلك ، ووضعوه فـي إطاره الإنساني حسب هواهم ، بل وضعوه في إطار المقدسات والغيبيات وجعلوه كله وحيا من السماء نازلا بإرادة الله وبألفاظ فمه بحيـث يعلـو فوق الجدل والنقاش[2] .

إن "التوراة" وكل أسفار "العهد القديم" - كما يقول الأستاذ شفيق مقار - مؤلفة ومحررة ومعدلة وملونة بأقلام بشرية في عصور مختلفة ،ممـا يجعل حكاية "قال الرب الإله لموسى" هذه - فـي أفضـل الأحـوال - تخمينا ليس هناك ما يرغم العقل على التسليم بصحته ، وفي أسـوئها ،

---

[1] "نشيد الإنشاد" ، الكتاب المقدس ، القاهرة ، دار حلمي للطباعة ، ١٩٨٢ ، ص٩٨٥-٩٩١

[2] د. عبد المحسن الخشاب ، تاريخ اليهود القديم بمصر ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٨٩ ، ص١٧٠.

إدعاء أقل ما يقال فيه أنه اجتراء على الألوهة بإجراء أسطر الحوار على لسانها كما لو كانت شخصية روائية أو شخصية سينمائية[1].

لقد حاول الكتاب اليهود – في استماتة غير مستغربة في تركيبة الشخصية اليهودية – أن يوهموا القارئ ، بل أن يوهموا العالم كله ، أن توراتهم هذه وحي من السماء ، وأنها مقدسة ، وأن بعض الوصايا فيها قد كتبت – كما يدعون – بإصبع الله .. ونسوا ، أو حاولوا أن ينسوا – على أمل أن ينسى الآخرون – أنهم لم يأتوا في توراتهم هذه بجديد ، إذ أن أغلب ما فيها مأخوذ ومنقول عن حضارات عريقة ، ضاربة بجذورها في عمق الزمن ، قبل أن يكون هناك إسرائيل أو موسى أو يهوذا أو يهودية أو يهود . لكنهم ، برقابهم الصلبة ، كما تم وصفهم بذلك في كتابهم "المقدس" ، ينكرون – وبإصرار مثير – أنهم قد أخذوا من أية حضارة أخرى ، فهم كما يدعون أصل كل الحضارات !!

يتشبث كتبة "التوراة" و"العهد القديم" بالقدم والتاريخ التليد والأصل العريق ، ومبعث هذا التشبث – كما يقول الأستاذ شفيق مقار – هو الشعور بصغر الشأن والضياع ... لهذا فقد عمد هؤلاء المؤلفون والمحررون إلى إعادة كتابة تاريخ العالم والبشرية بالتمني ليصنعوا لأنفسهم وشعبهم تاريخا مقدسا فريدا .. لا يجعلهم متساوين مع غيرهم من البشر فحسب ، بل ويجعلهم أعلى وأرفع وأعظم امتيازا[2].

لقد شكلوا أول الأمر رواياتهم طبقا لاحتياجاتهم وميولهم. هذا ما يؤكده رائد علم النفس الشهير سيجموند فرويد ، وهو يهودي لا يخجل من أن يتهم اليهود بالتزوير والتزييف . ونص كلماته بالحرف الواحد يقول :

---

[1] شفيق مقار ، **السحر في التوراة والعهد القديم** ، رياض الريس للكتب والنشر ، لندن ، ١٩٩٠، ص٣٣٨.

[2] شفيق مقار ، ص٣٢٨.

لقد شكلوا أول الأمر رواياتهم طبقا لحاجاتهم وميولهم التي كانت اللحظة تفرضها ، بضمير مستريح ، كما لو كانوا لم يفهموا بعد معنى التزييف . وكنتيجة لذلك بدأ اختلاف يتطور بين النسخة المكتوبة والرواية الشفاهية – أي التراث – لنفس الموضوع . وما طمس أو غير من النسخة المكتوبة كان من الممكن جدا أن يحفظ دون إتلاف في التراث . ولقد كان التراث هو التنمية وهو في نفس الوقت النقيض للتاريخ المكتوب . وكان أقل عرضة للتأثيرات المشوهة – وربما كان في جزء منه متحررا منها كلية – ولذلك ربما يكون أصدق من الرواية المكتوبة . ومع ذلك فقد فسد صدقه لغموضه وسيولته أكثر من النص المكتوب ، لتعرضه لتغيرات وتشويهات كثيرة بانتقاله من جيل إلى الجيل التالي بالشفاهة[1] .

ولا يختلف رأي موريس بوكاي عما يقول به فرويد ، عندما يقرر أن "الكتاب المقدس" قبل أن يكون مجموعة أسفار ، كان تراثا شعبيا لا سند له إلا الذاكرة ، وهي العامل الوحيد الذي اعتمد عليه نقل الأفكار . وكان هذا التراث يغني[2] .

ومن الواضح أنه في كل حضارات الدنيا سبق الشعر النثر ، وتقدمت القصة المسموعة على الكلمة المكتوبة ، وتغنت الشعوب بأحداث أضاف لها الخيال الكثير حتى فقدت صلتها بالواقع وتحولت إلى أساطير ، خلقتها الشعوب ثم آمنت بها ، لكن هذا لا يمنع كونها مجرد أساطير .

هذا ما حدث لشعب إسرائيل : خلق الأسطورة وصدقها .. تخيل الرب ماشيا في الجنة عند هبوب ريح النهار ، باحثا عن آدم وحواء ..

---

[1] سيجموند فرويد ، موسى والتوحيد : اليهودية في ضوء التحليل النفسي ، ترجمة د. عبد المنعم الحفني ، مطبعة الدار المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص١٤٣ .

[2] موريس بوكاي ، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، ترجمة دار المعارف ، لبنان ، الطبعة الرابعة ، ١٩٧٧ ، ص٢٠ .

ويختبئ آدم وامرأته من وجه الرب في وسط شجر الجنـــة .. وينـــادي الرب الإله : آدم .. أدم .. أين أنت يا آدم[1] .

النص يتميز بالخيال ، ولا جدال ، وهو خيال في بداياته الأولـــى ، لذا فقد اتسم بالبساطة والسذاجة في رسم صورة الإله ، وكأنـــه صبـــي معصوب العينين يبحث عن صبي وصبية يلعبان معه .. يختبئان منه ما بين الأشجار كي يختبرا مقدار ذكائه وسرعة بديهتـــه وعمـــق حاسـة الاستشعار في أعماقه . ورغم أن الرب الإله – إله إسرائيل – لم يكـــن معصوب العينين كما الغلام ، ورغم أن آدم وحـــواء كانـــا علـــى بعـــد خطوات منه وهو يتمشى بين أشجار الجنة ،إلا أن "الرب الإله" لم يعرف مكانيهما، مما أضطره أن يرفع صوته مناديا : آدم .. آدم .. أين أنت ؟!!

يقول برنارد أندرسون إن "العهد القديم" هو قصة حياة إســـرائيل . وهو باختصار شديد – شاهد على التقاء إســـرائيل بـــالرب ، إذ يقـــدم بإسهاب شديد إسهامات الرب في إقامة أمة من مجموعة مجهولـــة مـــن البشر[2] .

ويتألف "**العهد القديم**" من تسعة وثلاثين سفرا يمكن تقســـيمها إلـــى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : كتب موسى الخمسة ويطلق عليها اســـم "التـــوراة" ، رغم أن هذا الاصطلاح غالبا ما يطلق على "العهد القديم" ككـــل ، كـــي يضفي نوعا من القدسية على بقية الأسفار.

والتوراة كلمة عبرية عادة ما تترجم خطأ على أنها تعني الشـــريعة ، وهي ليست كذلك ، وما كانت لتعني ذلك أبدا ، وإنما معناها التعـــاليم . وهي في البداية وبصفة عامة أي نوع من أنواع التعاليم يقدمها شـــخص

---

[1] أنظر (تكوين٣: ٨-٩).

[2] Bernhard W. Anderson , **The Living World of The Old Testament** , Fourth Edition , Longman House , Essex , England , 1988 , P. 9.

ما لشخص آخر ، وبصورة أكثر تحديدا وتخصيصا هي تعاليم الله التي تصل إلى البشر عن طريق كاهن أو نبي .

والتعاليم الموحاة - من وجهة النظر اليهودية - والتي لا ترقى إليها أية تعاليم أخرى هي ما أنزل على موسى ، وسجل في الكتب الخمسة الأولى المنسوبة إليه ، وهي ما تعرف عادة باسم : أسفار موسى الخمسة "Pentateuch" . هذه الكتب الخمسة كانت وما زالت تعرف باسم "التوراة" وهذا يبين أن كلمة "التوراة" تترجم خطأ بكلمة "الشريعة" ، ذلك لأنه يوجد في الأسفار الخمسة الكثير مما لا صلة له بالشريعة على وجه الإطلاق[1] .

وقد سمي كل سفر في "التوراة" حسب مضمونه ، فسفر "التكوين" يتحدث عن خلق العالم وبداية الإنسان ، ثم يركز على تاريخ "الشعب" وكيف أصبح " مختارا " من إله إسرائيل . وفي سفر "الخروج" وصف لخروج أتباع موسى من مصر ، أو من أطلق عليهم اسم "بني إسرائيل"، وكذا عملية الوحي عند جبل سيناء ولوحي الشهادة الحجريين وعليهما الوصايا العشر . وفي السفر الثالث ، وهو سفر "اللاويين" يتم التركيز على من تم اختيارهم - وهم من أبناء لاوي - كي يكونوا كهنة للرب ، وما يجب عليهم تأديته من طقوس . وفي سفر "العدد" ، وهو السفر الرابع ، يوجد إحصاء للشعب "المختار" . أما السفر الأخير ، وهو سفر "التثنية" ، أو كما يسمى سفر "تثنية الاشتراع" ، فهو إعادة وإضافة وتأكيد لما قال به موسى من قبل .

وفي السفرين الرابع والخامس وصف لبعض المعارك التي خاضها موسى ، وانتصار "بني إسرائيل" في الجانب الشرقي من الأردن بقيادة يشوع بن نون وبتوجيه من موسى ، وكذا توزيع الغنائم والأسلاب والأرض المكتسبة على سبطين ونصف من أسباط "بني إسرائيل" . وتنتهي الأسفار الخمسة بموت مريم وهارون وموسى وتولي يشوع قيادة بني "إسرائيل".

---

[1] أنظر كتابنا **لا تصلبوا المسيح** ، دار الحسام للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٩٦، ص٢٢.

وتنص كلمات "التوراة" بوضوح شديد ، وبصراحة أشد على أن موسى قد كتب بنفسه هذه الأسفار الخمسة وكلها ثم سلمها للكهنة : "فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب إلى تمامها أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلا خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهد عليكم لأنني أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة .... لأني عارف أنكم بعد موتي تفسدون وتزيغون عن الطريق الذي أوصيتكم به ويصيبكم الشر في آخر الأيام" (تثنية ٣١:٢٤-٢٩) .

القسم الثاني : من "العهد القديم" خاص بالأنبياء وعادة ما يسمى "نبييم" . ويمكن تقسيمه إلى مجموعتين : المجموعة الأولى خاصة بالأنبياء الأول ، والثانية خاصة بالأنبياء المتأخرين .

ومجموعة الأنبياء الأول تشتمل على ثمانية أسفار هي :

يشوع ، القضاة ، صموئيل الأول ، صموئيل الثاني ، الملوك الأول، الملوك الثاني ، أخبار الأيام الأول ، أخبار الأيام الثاني .

المجموعة الثانية الخاصة بالأنبياء التالين ، أو ما يطلق عليهم عادة اسم الأنبياء المتأخرين ، فتضم أربعة عشر سفرا هي :

اشعياء ، ارمياء ، حزقيال ، يوئيل ، عاموس ، عوبديا ، يونان ، ميخا ، ناحوم ، حبقوق ، صفنيا ، حجي ، زكريا ، ملاخي .

أما **القسم الثالث** والأخير من "العهد القديم" فيحتوي على مجموعة من الكتابات النثرية والأشعار ، وعادة ما يطلق عليه اسم "كتوبيم" ، ويحتوي على أثنى عشر سفرا هي :

مزامير داود ، أمثال سليمان ، أيوب ، نشيد الإنشاد ، راعوث ، هوشع ، مراثي إرميا ، الجامعة ، استير ، دانيال ، عزرا ، نحميا .

و"العهد القديم" مقدس لدى المسيحيين كما هو مقدس لدى اليهود ، فالمسيح عيسى يعلن صراحة أنه ما جاء لينقض الناموس بل ليكمله .

لكن الأسفار ، كما يقرر الدكتور أحمد شلبي ، غير متفق عليها ، فبعض أحبار اليهود يضيفون أسفارا لا يقبلها أحبار آخرون . فإذا جئنا إلى المسيحيين وجدنا النسخة الكاثوليكية تزيد تسعة أسفار عن النسخة البروتستانتية ، فمجموع الأسفار التي تعتمدها الكنيسة البروتستانتية تسع وثلاثون ، وقد سبق ذكرها من قبل . أما الكنيسة الكاثوليكية فتضيف سبعة أسفار أخرى هي : طوبيا ، يهوديت ، الحكمة ، يسوع بن سيراخ ، باروخ ، المكابيين الأول ، والمكابيين الثاني . وبعض رجال اللاهوت لا يوافقون على ضم سفري الجامعة ونشيد الأناشيد لأسفار "العهد القديم"[١].

أما السامريون ، وهم فئة قليلة من اليهود ، فهم لا يؤمنون من كل ما جاء بالعهد القديم إلا بالأسفار الخمسة الأولى فقط ، أي بالخمس كتب المنسوبة إلى موسى ، والتي يعتبرونها هي أصل الديانة اليهودية ، وكل ما عداها باطل وضرب من ضروب الإلحاد والكفر . وقد عرفوا باسم السامريين نسبة إلى السامرة . ويقول الدكتور أحمد سوسة إن لديهم نسخة قديمة من الأسفار الخمسة على رق يدعون أنها ترجع إلى ما قبل عهد المسيح ، وهم يرفضون كل ما عداها وما يزالون يتمسكون بها حتى اليوم .

وقد استقلت تلك الفئة بكيانها الديني ، وعمل اليهود على إخراجها من الحظيرة اليهودية فلم يفلحوا . وقد بنى السامريون لهم هيكلا خاصا على جبل "جرزيم" عند نابلس واعتبروه بمثابة "جبل الطور" . وقد قام بينهم وبين اليهود عداء استمر قرونا حتى راح السامريون يعينون في كثير من الأحيان من يريد ضرب اليهود من الغزاة .

وتقوم عقيدة السامريين على خمس أركان : وحدانية الله ، ونبوة موسى ، وقداسة جبل جرزيم ، والإيمان بأن التوراة ، أي الأسفار

---

[١] الدكتور أحمد شلبي ، مقارنة الأديان : اليهودية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٣، ص٢٣٠.

الخمسة الأولى من "العهد القديم ، منزلة من عند الله ، والإيمان بيوم الدينونة والبعث وأنه لا ريب فيه[1] .

ويؤكد أندرسون أن الخلاف بين اليهود والسامريين لم يكن بخصوص "التوراة" كتعاليم سماوية ، ولكن بخصوص تفسير بعض نصوص التوراة ومن هم شعب الله المختار . ولقد اتسع الشقاق بين اليهود والسامريين بالتدريج حتى وصل مداه في منتصف القرن الرابع تقريباً عندما أقام السامريون لأنفسهم معبداً خاصاً بهم في جبل جرزيم .. وما زالت هناك مستعمرة للسامريين تعيش بالقرب من ذلك الجبل حتى الآن[2] .

وتختلف أسفار "العهد القديم" في طولها ، وكذا في نوعيتها وأسلوب صياغتها ، مما يدفع إلى الاعتقاد بتعدد من قاموا بكتابتها ، إذ أنه من المستحيل الإدعاء بنسبة كتابتها إلى فرد واحد . ويشير موريس بوكاي إلى أن هذه الأسفار قد كتبت على مدى يربو على تسعة قرون وبلغات مختلفة واعتماداً على التراث المنقول شفاهة . وقد صُححت وأكملت أكثرية هذه الأسفار ، بسبب أحداث حدثت أو بسبب ضرورات خاصة ، وفي عصور متباعدة أحياناً[3] .

ويتفق الدكتور أحمد شلبي مع ما يقول به موريس بوكاي ، عندما يقرر أن : هذه الأسفار من صنع أجيال متعددة ، وأن فترة التدوين بدأت من عهد عزرا واستمرت بعده ، وأن الكهنة كانوا يعتمدون على ما سمعوه وما تلقاه الخلف عن السلف من أخبار وأساطير وأقوال ، وكثيراً ما كان الكهنة يكتبون ما يجيش بصدورهم أو ما يأملونه على أنه حقيقة

---

[1] الدكتور أحمد سوسة ، **مفصل العرب واليهود في التاريخ** ، دار الرشيد للنشر ، الجمهورية العراقية ، ١٩٨١. أنظر صفحات ٣٣٥- ٣٣٧.

[2] أندرسون ، ص٥٣٠.

[3] موريس بوكاي ، ص٢٣.

واقعة أو تاريخ سابق ، وليس ذلك في الحقيقة إلا من الوهم الذي يتخذ في نفس الواهم صورة الحقائق المقررة[1].

ويجمع العلماء على أن أقدم ما كتب من أسفار التوراة هما القصتان المتشابهتان المنفصلة إحداهما عن الأخرى في سفر التكوين .. تتحدث إحداهما عن الخالق باسم "يهوه" ، ويطلق عليها اسم الرواية اليهوية (J) ، وقد كتبت حوالي عام ٨٥٠ ق.م في مملكة يهوذا ، أي المملكة الجنوبية .. أما الأخرى فتتحدث عن الخالق باسم "إلوهيم" ، ويطلق عليها اسم الرواية الإلوهيمية (E) ، وقد كتبت حوالي عام ٧٧٠ ق.م في مملكة إسرائيل أي المملكة الشمالية .. وأن هذه وتلك قد امتزجتا في قصة واحدة (JE) بعد سقوط السامرة حوالي عام ٦٥٠ ق.م . وقد أضيف إلى هذه الشرائع عنصر ثالث يُعرف بالتثنية (D) ، أغلب الظن أن كاتبه أو كتّابه هو أو هم من غير كتّاب الأسفار السالفة الذكر . ويقال إن الكاهن "حلقيا" عثر عليه في المعبد عام ٦٢٢ ق.م ، أي بعد زوال مملكة إسرائيل في الشمال على يد الآشوريين ،وأثناء حركة الإصلاح الديني في الجنوب أثناء حكم الملك يوشيا[2].وهناك عنصر رابع يتألف من فصول أضافها الكهنة فيما بعد ، ويسمى هذا بالمصدر "الكهنوتي (P)" وقد تم دمج هذه الأجزاء الأربعة وإخراجها في وحدة تبدو وكأنها واحدة.

ومن المتعارف عليه أن النص النموذجي للتوراة لم يتحدد بصورة نهائية إلا بعد إصلاحات عزرا ونحميا في القرن الخامس قبل الميلاد ، في مرحلة ما بعد السبي ، وهذا معناه أنه لم يكتمل إلا بعد ما يقرب من تسعمائة عام من ظهور موسى .

هنا تجدر الإشارة إلى تحفظ أورده موريس بوكاي فيما يختص بكتب "العهد القديم" ، عندما يقول إن كل ما ذكر بخصوصها من معلومات لابد وأن يخضع للكثير من التحفظات بسبب ما أدخل عليها من تعديلات ، ذلك لأن كتب "العهد القديم" - في رأيه - لم تتخذ هيأتها الأولى إلا قبل قرون من ميلاد المسيح ، ولم تكتسب شكلها النهائي -

---

[1] د. أحمد شلبي ، ص٢٥٦.

[2] أنظر (أخبار الأيام الثاني٣٤) .

كما يرى الكثيرون - إلا في القرن الأول بعد الميلاد[1]، أي بعد وفاة موسى بما يقرب من ألف وثلاثمائة عام .

وفي كتابه **اليهودية واليهود** ، يؤكد الدكتور علي عبد الواحد وافي هذه النقطة عندما يقول : إن أهم أسفار العهد القديم هي أسفار القسم الأول التي ينسبها اليهود إلى موسى ويعتقدون أنها بوحي من الله وأنها تتضمن التوراة . ولكن ظهر للمحدثين من الباحثين ، من ملاحظة اللغات والأساليب التي كتبت بها هذه الأسفار ، وما تشتمل عليه من موضوعات وأحكام وتشاريع ، والبيئات الاجتماعية والسياسية التي تنعكس فيها .. ظهر لهم من ملاحظة هذا كله أنها ألفت في عصور لاحقة لعصر موسى بأمد غير قصير (يقع عصر موسى على الأرجح حوالي القرن الرابع عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد) ، وأن معظم سفري "التكوين" و"الخروج" قد ألفا حوالي القرن التاسع قبل الميلاد (أي بعد موسى بنحو خمسة قرون) ، وأن سفر التثنية قد ألف في أواخر القرن السابع قبل الميلاد ، وأن سفري العدد واللاويين قد ألفا في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد بعد النفي البابلي (وهو إجلاء بني إسرائيل إلى بابل عام ٥٨٧ ق.م) ، وأنها جميعا مكتوبة بأقلام اليهود ، وتتمثل فيها عقائد وشرائع مختلفة تعكس الأفكار والنظم المتعددة التي كانت سائدة لديهم في مختلف أدوار تاريخهم الطويل[2] .

لقد استغرق تأليف التوراة وبقية أسفار "العهد القديم" ما يقرب من ألف عام . ولم يكن هناك أبدا ، ومنذ البداية ، نص واحد بل تعددت النصوص ، وتوالت الأقلام ، وأضاف المؤلفون في تمكن واقتدار ، في بعض الأحيان ، كل من واقعه المعاش واستقرائه لزمن كان وتخيله لأيام في طيات الزمن القادم ، وخبرة رؤاه . هذا إلى جانب سطوهم الحضاري على أصول فولكلورية وميثولوجية لحكايات أخذت من حضارات أخرى كالحضارة المصرية والحضارة البابلية . وقد نسبوا كل ما سطوا عليه لأنفسهم دون تورع أو خجل .

---

[1] موريس بوكاي ، ص٢٥.

[2] الدكتور على عبد الواحد وافي ، **اليهودية واليهود** ، مكتبة غريب ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص١٣

ولقد كان يوسف بن العازر بونفيليس – كما يذكر الأستاذ شفيق مقار – هو أول متخصص توراتي يهودي يجرؤ على القول علنا ، قبل ستة قرون ، عن بعض ما جاء في التوراة : "هذا لم يكتبه موسى"[1]

"هذا لم يكتبه موسى" : عبارة شديدة العمق ، شديدة الدلالة ، شديدة الخطورة ، شديدة الإيلام . لكنها الحق ، ذلك لأن التوراة لم تكتب إلا بعد موت موسى بعدة قرون . ولا يستطيع أحد أن يثبت بالدليل القاطع أن التوراة الموجودة حاليا هي توراة موسى ، ذلك لأن ما بها من أسفار قد تعرض لحذف وإضافة وتكرار وتصنيف وإعادة تصنيف خلال القرون المتتابعة . ويعترف العالم اليهودي أ.هـ. سيلفر A.H. Silver في كتابه "موسى وأصل التوراة: Moses &The Original Torah " ، أن التوراة الحالية لا تمثل توراة موسى الأصلية من أية ناحية ، وحتى الوصايا العشر التي يكاد يجمع العلماء على أنها الشيء الوحيد المتبقي من التوراة الأصلية ليست في شكلها ومضمونها الحاليين كتلك التي أتى بها موسى[2] .

وكيف يوصي موسى بالقتل والنهب والسلب وسفك الدماء دون مراعاة لشيخ أو امرأة أو طفل ، وهو الذي جاء بـ"لا تقتل" كوصية من وصايا الرب ؟ وكيف ينقلب النبي على قوم يثرون كاهن مديان – الذي آواه وهو طريد وزوجه ابنته واحتضنه لمدة أربعين عاما – فيجرد جيشا ويطلب من رجاله أن يقتلوا كل رجل في مديان وأن يسبوا النساء والأطفال وأن يحرقوا كل المدن ولا يتركوها إلا وقد أكلتها النار؟ : "فكلم موسى الشعب قائلا جردوا منكم رجالا للجند فيكونوا على مديان ليجعلوا نقمة الرب على مديان .. فتجندوا على مديان كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر وملوك مديان قتلوهم فوق قتلاهم .. وسبى بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار" (عدد ٣١ : ٣-١٠).

---

[1] شفيق مقار ، ص٧٩.

[2] أحمد سوسة ، ص٣٤٤.

هل من المنطقي أن يكتب موسى هذا الكلام الذي يدينه ؟ أو أن يصدر هذا الأمر بإراقة الدماء والنهب والحرق والسبي وهو أمر يشينه؟! هل من الممكن أن ينسى "النبي" أن مديان - كاهنا وشعبا - هي التي آوته وأمنته وقد هرب فزعا من وجه ملك مصر بعد أن سفك دم أحد أبناء مصر ؟

لو كتب موسى هذا الكلام حقا ، وهو أمر مستبعد ، ولو أمر موسى بهذا السلوك الهمجي البربرى ، وهو أيضا أمر مستبعد ، لتم اتهامه بما لا يجب أن يتهم به نبي : وهو عدم المروءة وسوء الطوية وبشاعة الخلق والسلوك ، حتى ولو كانت بنات مديان - كما يقول كتبة التوراة - قد قمن بغواية أبناء إسرائيل . ونقول للمرة الثالثة : هذا أيضا أمر مستبعد . "هذا كلام لم يكتبه موسى" : صدق يوسف بن إلعازر بونيفليس عندما نطق بهذه العبارة الرائعة.

ما كتب الأسفار الخمسة الأولى موسى النبي ، وكل من يقول غير ذلك دعي ، ففي آخر سفر "التثنية" - وهو السفر الأخير من أسفار التوراة التي كتبها موسى كما يدعي البعض - نص يقول : "فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم . وكان موسى أبن مئة وعشرين سنة حين مات ولم تكل عينه ولا ذهبت نضارته .فبكى بنو إسرائيل موسى في عربات موآب ثلاثين يوما . فكملت أيام بكاء مناحة موسى . . ولم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجها لوجه" (تثنية ٣٤:٥-١٠).

كيف يخط موسى بقلمه هذا الوصف لموته بعد أن مات ؟!!

ومن المثير للدهشة أن يقرر موسى - وهو الذي مات - أن قبره لم يعرفه إنسان إلى هذا اليوم .. "إلى هذا اليوم" !! .. هل هذا أمر يمكن أن يتصوره أشد المتدينين هوسا ؟ وكيف يكتب موسى - وقد أصبح مجرد جثة - عن وصف أيام المناحة والبكاء ؟ ثم كيف يدعي موسى - بعد أن مات أنه "لم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجها لوجه" ؟

لقد كان يوسف بن العازر ، اليهودي المستنير ، على حق عندما قال : هذا كلام لم يكتبه موسى .

ولو قد كتب موسى هذا الكلام قبل أن يموت لكان حقا معجزا فيما كتب !! ويعلق أندرسون على هذه الحكاية بقوله إنها إحدى تناقضات التوراة ، ويضيف أن الأحبار الأول عند كتابتهم للتلمود تساءلوا عما إذا كان موسى قد قام حقا بكتابة وصف موته ودفنه ، وافترضوا أن يكون يشوع - خليفة موسى - هو الذي قام بكتابة هذه الكلمات[1].

أما س.ر. درايفر S. R. Driver فينكر تماما أن يكون موسى هو الذي كتب سفر "التثنية" بالكامل وليس الجزء الأخير الذي يصف موته فقط . يقول درايفر : رغم أنه من الواضح أن الكتب الأربعة الأولى من التوراة قد كتبها موسى ، إلا أنه من الصعب أن نثبت أن سفر "التثنية" هو أيضا قد خطه موسى . وإذا ما نحينا جانبا الاختلاف الواضح في الأسلوب ، فإن ما جاء في سفر "التثنية" يتضارب مع ما جاء في سفر "الخروج" من تشريع ، مما يدفعنا إلى عدم الاعتقاد بأن المشرع واحد في كلا النصين . هناك اختلافات يصعب التوفيق بينها كي يصبح بالإمكان إثبات أن العملين قد كتبهما شخص واحد[2] .

ويدعي كتبة التوراة أن الوصايا العشر التي نزل بها موسى - بعد أن قضى في الجبل أربعين يوما وأربعين ليلة - قد كتبت بأصبع الله : "وكلم الرب موسى قائلا وأنت تكلم بني إسرائيل قائلا سبوتي تحفظونها لأنه علامة بيني وبينكم في أجيالكم لتعلموا أني أنا الرب الذي يقدسكم ثم أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء لوحي الشهادة لوحي حجر مكتوبين بأصبع الله" (خروج ٣١: ١٢-١٨).

والكتابة على الحجر بأصبع الله أمر يدعو إلى التساؤل ، لا إلى الاستغراب أو الاندهاش ، فليس فيما يتصل بإله إسرائيل من كثرة عجائبه ما يدعو إلى الاندهاش .. فقط إلى التساؤل : كيف كتب إله

---

[1] أندرسون ، ص٢٠.

[2] س. ر. درايفر ، ص٨٢.

إسرائيل بأصبعه على الحجر ؟ وهل كان لابد وأن يستخدم أصبعه ليكتب ؟ لماذا لم يقل : كن فتكون الكتابة على الحجر ، دون الحاجة إلى أن يستخدم أصبعا ، وهو الذي فلق البحر – كما يقول كتبة التوراة – وفجر الماء من الصخر وأنزل من السماء طعاما لجياع إسرائيل ، وفعل – من قبل – بفرعون وأهل مصر وبهائمها وزروعها كل ما يمكن تخيله من مصائب وكوارث ونكبات من أول الجراد والضفادع والظلمة والماء المتحول إلى دم إلى قتل كل الأبكار ؟!!

ما الذي دفع إله إسرائيل إلى أن يكتب بأصبعه ، وقد كان بإمكانه أن يستخدم كلمة واحدة من كلمات القدرة فتنقش الكلمات على وجهي اللوحين نقشا لا يمحى ؟ وإذا افترضنا جدلا أنه كتب بأصبعه لحكمة لا نعلمها لأنه لم يعلنها ولا نستطيع تخمينها ، فكيف كتب بأصبع واحد ؟ إن الإمساك بما يكتب به يحتاج على الأقل إلى أصبعين ، إن لم يكن ثلاث ، فكيف أمكن لإله إسرائيل أن يكتب بأصبع واحد ؟ قد يقول كهنة إسرائيل إنه الإعجاز اليهوي أو الإلوهيمي .. ونقول ألم تكن الصورة ستصبح أكثر أعجازا لولم يستخدم إله إسرائيل إصبعه على الإطلاق واكتفي بأن يقول للكلمات كوني على الحجر فتكون ؟

وقد يدعي البعض أن "يهوه" ، إله إسرائيل ، قد كتب على الحجر بأصبع واحد بالفعل ، ذلك لأن أصبعه – كأزميل النحات – أشد صلابة من الحجر ويستطيع بسهولة أن يغوص فيه وبذلك يتم نقش الكلمات . وهذا التفسير يبدو منطقيا ، رغم أن إله إسرائيل لم يكن في حاجة إلى بذل كل هذا الجهد ، خصوصا وأنه يصاب بالتعب ويحتاج إلى وقت كي يستريح ويتنفس : "لأنه في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض وفي اليوم السابع استراح وتنفس" (خروج ٣١:١٧) .

وربما يقال –وهذا أمر وارد جدا – إن موسى هو الذي كتب وبذلك أصبح – استعاريا – هو إصبع الله . وفي أساليب الكتابة هذا مكر فني مسموح به في عمليات الخلق الإبداعي ، رغم أنه كان من الأيسر على مؤلفي التوراة أن يقولوا إن الرب قد أمر موسى أن يكتب فكتب ، كما فعلوا ذلك من قبل : "فكتب موسى جميع أقوال الرب. وبكر في الصباح

وبنى مذبحا في أسفل الجبل واثنى عشر عمودا لأسباط إسرائيل الاثني عشر" (خروج ٢٤:٤) .

وإذا قبلنا تفسير أن موسى هو إصبع الله ، أي أن موسى هو الذي كتب ، يكون السؤال : بأي شئ كتب ؟ هل كان على علم مسبق قبل أن يصعد على قمة الجبل أنه سوف يكتب فأخذ معه أداة يكتب بها ؟ موسى وهو على قمة الجبل – وحده – بأي شئ كتب ؟ هل أعطاه "يهوه" قلما إلهيا .. أم طلب منه أن يلتقط قطعة من حجر الجبل كي ينقش على الحجر بالحجر ؟

هذا أيضا مكر إبداعي ساقه إلينا مؤلفو التوراة . وإذا ما سلمنا بمكرهم هذا على أنه جنوح مقبول في مجال الإبداع الأدبي ، يصبح السؤال هو : موسى ، إصبع الله هذا ، بأي لغة كتب ؟

هل كتب باللغة المصرية القديمة التي تعلمها في قصر فرعون ، حيث تربى وتعلم واكتسب الحكمة وظل طوال أربعين عاما لا يعرف غيرها ؟ أم كتبها بلغة مديان التي تزوج ابنة كاهنها ورعى له غنمه وعاش معه ما يقرب من أربعين عاما أخرى ؟ أم كتبها بلغة الشراذم التي طردت من أرض مصر وحاول في سيناء أن يخلق منها شعبا ؟ أم كتبها بلغة "يهوه" إله إسرائيل وهي لغة لم يستدل عليها أحد حتى الآن ؟ وقد يدعي البعض أن "يهوه" كان يتكلم العبرية لغة إسرائيل . وهذا أمر مثير للإضحاك !!

ويتحدث الدكتور أحمد سوسة عن لغة الشريعة التي كتبت على الحجر فيقول : أما عن لغة هذه الشريعة فالأرجح عندنا أنها كانت اللغة المصرية ، وهي لغة قوم موسى[١] . وقد كتبت بالهيروغليفية التي كان موسى قد أتقنها في البلاط الفرعوني . وهناك أدلة كثيرة على أن هذه التوراة الصحيحة التي أنزلها الله على موسى وهي مصرية الأصل تقوم

---

[١] يفترض الدكتور أحمد سوسة أن موسى مصري .

على مبادئ ديانة أخناتون ، أي أنها غير التوراة التي كتبها الأحبار بعد عصر موسى بثمانية قرون[1].

هذا كلام من الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، إثبات أنه صحيح ، إلا في حالة واحدة وهي : العثور على اللوحين اللذين كتبهما موسى وعرضهما على كبار المتخصصين في علوم اللغات . هل هذا ممكن ؟ الإجابة : هذا هو المستحيل . لماذا ؟ لأن اللوحين لا وجود لهما .

يقول مؤلفو "العهد القديم" إن موسى كتب التوراة ، أي الأسفار الخمسة الأولى ، ووضعها مع اللوحين في التابوت : "وفي التابوت تضع الشهادة التي أعطيك وأنا اجتمع بك هناك وأتكلم معك من على الغطاء من بين الكروبين الذين على تابوت الشهادة بكل ما أوصيك به إلى بني إسرائيل" (خروج ٢٥:٢١-٢٢).

أين لوحي الشهادة إذن ؟ بل وأين التابوت ؟

قد يدعي مؤلفو التوراة أنها جميعا قد ضاعت في الحروب التي خاضها شعب إسرائيل ، وفي الغزوات التي نالت منه ومزقته . لكن لا أحد يؤمن بما لا وجود له ولا دلالة عليه . وقد كان بإمكان إله إسرائيل، وهو كما تصفه "التوراة" إله رهيب مخيف ، أن يحفظ اللوحين .. كان بإمكان صاحب "النار الآكلة" أن يحرق كل من يقترب من لوحي الحجر خصوصا وأنه قد كتب عليهما بأصبعه "الإلهية المقدسة" لكن هذا لم يحدث ، ولا آثر للوحين اللذين كان مجرد وجودهما يكفي لأن يجعل العالم كله ينحني أمام إعجاز الإعجاز في بني إسرائيل .

لقد لعب خيال الكتاب دورا هائلا في تشكيل تاريخ لشعب إسرائيل ، وهو خيال حاول تشكيل الواقع وتطويعه وتلوينه ، لكنه رغم ذلك لا يخلو من التنافر وعدم التناغم الذي يرفضه المنطق . يقول موريس بوكاي في هذا الخصوص : إن المشكلة تبدو على درجة من التعقيد بحيث يختلط الأمر على الكل .. إن أسفار موسى ، أي التوراة ، تتكون

---

[1] أحمد سوسة ، ص٣٤٠.

من أقوال موروثة مختلفة جَمَعها ، بشكل يقل أو يزيد حذقاً ، محررون وضعوا تارة ما جمعوا جنباً لجنب ، وطوراً غيروا من شكل هذه الروايات بهدف إيجاد وحدة مركبة ، تاركين للعين أموراً غير معقولة وأخرى متنافرة كان من شأنها أن قادت المحدثين إلى البحث الموضوعي عن المصادر[1].

ويجمع علماء اللاهوت على أن الترجمة السبعينية هي أقدم ترجمة للعهد القديم ، وهي منقولة من العبرية إلى اليونانية . ويقرر ديلي أن معظم أسفار "العهد القديم" كتبت باللغة العبرية ، تلك اللغة التي حلت محل الكنعانية في "الأرض المقدسة" ، وقد انصرف عنها الشعب بعد السبي إلى اللغة الآرامية[2]. وقد تمت الترجمة اليونانية في الإسكندرية بمصر حوالي عام ٢٥٠ ق.م . وتزعم "الأسطورة" أن بطليموس فيلادلفوس Ptolemy Philadelphus (٣٠٩-٢٤٦ ق.م) استدعى سبعين مترجماً "فلسطينياً" إلى الإسكندرية كي يقوموا بترجمة التوراة من العبرية إلى اليونانية . وعند وصولهم وُضع كل منهم في غرفة منفصلة ولم يسمح لهم بأي اتصال من أي نوع . وقد انتهى العلماء السبعون من ترجمتهم للتوراة في سبعين يوماً ، لهذا أطلق عليها اسم "الترجمة السبعينية" ، ويقال إن ترجماتهم كانت متطابقة تطابقاً كاملاً مما يدل على أنهم كانوا خاضعين لحالة من الإلهام الإلهي .

ومن المحتمل أن ترجمة الكتب الخمسة الأولى Pentateuch قد تمت كي تفي باحتياجات المجتمع اليهودي الكبير الذي كان موجوداً بالإسكندرية آنذاك (القرن الثالث ق.م) ، وليس لأن الملك قد أمر بذلك ولا أحد يعرف على وجه التحديد من هم المترجمون وكم كان عددهم.

---

[1] موريس بوكاي ، ص٢٩.

[2] ديلي ؛ ص٢٢.

أما بقية كتب "العهد القديم" فقد تمت ترجمتها في القرون التالية بصورة تدريجية . وقد تم الانتهاء فعليا من ترجمة "العهد القديم" بالكامل قبل بداية الحقبة المسيحية[١] .

ولا ينكر أحد شهرة الترجمة "اللاتينية" الواسعة الانتشار والتي أطلق عليها في القرون الوسطى اسم الترجمة "الشعبية" The Vulgate . وقد تمت في عهد البابا القديس داماسيوس (٣٦٦-٣٨٤ ميلادية) ، على يد القديس جيروم Jerome في أواخر القرن الرابع الميلادي . وقد تم قبولها كنص رسمي في الكنيسة الكاثوليكية .

وقد ترجمت التوراة إلى اللغة الحبشية عام ٣٢٠ ميلادية ، والمقصود بالتوراة هنا هو الأسفار الخمسة الأولى من "العهد القديم" ، أي أسفار موسى الخمسة .

أما عن الترجمات العربية "للعهد القديم" فهي ترجمات عدة يرجع أقدمها - كما يقرر الدكتور أحمد سوسة - إلى عهد هارون الرشيد . فقد ذكر ابن النديم أن أحمد بن عبد الله بن سلام الإنجيلي هو الذي ترجم "التوراة" من اللغة العبرانية إلى اللغة العربية ، ويؤكد أنه التزم بالنص حرفيا ولم يزد عليه ولم ينقص منه مخافة التحريف[٢] .

وفي لبنان قام البروتستانت بنشر ترجمة للكتاب "المقدس" ، العهدين القديم والجديد ، عام ١٨٦٤ ، مستندين في ترجمتهم إلى اللغتين العبرية واليونانية . وفي عام ١٨٧٦ أصدر الكاثوليك ترجمتهم المعروفة باسم "الترجمة اليسوعية" ، استنادا - أيضا - إلى النصين العبري واليوناني .

وهناك اختلاف بين الترجمتين ، كما سبق ذكره في صفحات سابقة من هذا الفصل ، إذ يحتوي "العهد القديم" في الترجمة البروتستانتية على

---

[١] Collier's Encyclopedia , Macmillan Educational Corporation , Newyork 1980 , Vol. 20 , P. 597

[٢] أحمد سوسة ، ص٣٥٠.

تسعة وثلاثين سفراً ، بينما تضم الترجمة الكاثوليكية ستة وأربعين سفراً أي بزيادة سبعة أسفار .

وتوالت بعد ذلك ترجمات مختلفة ، في حقب مختلفة ، من أبرزها الترجمة التي قام بها الأستاذ فارس الشدياق ، في لبنان أيضاً ، وتم نشرها عام ١٨٥١ ، لكنها صودرت بعد ذلك ومنعت من التداول ذلك لأن المترجم بعد أن فرغ من ترجمته أعلن إسلامه وغيَّر أسمه وتكنى بأبي العباس[١] ، بعد أن أفزعه ما وجد في "العهد القديم" من مغالطات ومتناقضات وأساطير يصعب أن يصدقها إنسان مدرك لمعنى ما يقرأ من كلمات .

---

[١] احمد سوسة ، ص٣٥١.

الفصل الثانى

الآبـــاء

الفصل الثاني

الآباء

يكتب اليهود بحرية كاملة في كتابهم "المقدس" عن من يقولون بأنهم آباؤهم وأجدادهم "العظام" ، وكذا عن ملوكهم وأنبيائهم . وما يكتبونه عن أولئك وهؤلاء يدعو إلى الدهشة في بعض الأحيان . وإلى عدم التصديق في أحيان أخرى ، وإلى الاشمئزاز في أغلب الأحيان . ونكتفي بذكر بعض الأمثال .

داود الملك الذي أمسك بالأسد من "ذقنه" وضربه فقتلة عندما حاول أن يفترس من القطيع شاه ، والذي التقى يوم الحرب بالجبار "جليات" المدجج بالسلاح وهو لا يحمل سوى مقلاع و"خمسة حجرات مُلس" فيستحقره العملاق ، لكن داود يرميه بحجر رمية تسقط الجبار على وجهه إلى الأرض ، ويقتل داود جليات بسيف جليات .. داود الذي ثبت بيده "مملكة إسرائيل" وملك أربعين عاماً وكان عنده من النساء أكثر من عشر .. داود هذا اشتهى زوجة أحد قادة جيشه الذي كان غائباً يحارب من أجل داود .. اضطجع معها داود وزنى بها ثم أمر بقتل زوجها كي تكون خالصة له .. وهذه المرأة التي زنى داود بها هي أم سليمان الملك خليفة داود الملك .

والقصة كما يوردها "العهد القديم" تنتمي إلى أدب الجنس الإباحي المكشوف الذي يمنع نشره في بعض البلدان . ونورد هنا بعضاً مما جاء فيها دون إضافة أو تغيير :

"وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم . وكانت المرأة جميلة المنظر جداً . فأرسل داود وسأل عن المرأة . فقال واحد أليست هذه بَتْشَبَعَ بنت أليعام امرأة أوريا الحثي . فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها .. ثم رجعت إلى بيتها . وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت إني حبلى فأرسل داود إلى يوآب يقول أرسل إلى أوريا الحثي . فأرسل يوآب أوريا إلى داود".

ويطلب داود من أوريا أن يذهب إلى امرأته ويستمتع بعض الوقت بالحياة معها ، لكن أوريا – وهو كما يصفه "العهد القديم" من أبطال داود المعدودين سبعة وثلاثين – يرد قائلاً : "إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام وسيدي يوآب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء وأنا آتي إلى بيتي لآكل وأشرب واضطجع مع امرأتي . وحياتك وحيوة نفسك لا أفعل هذا الأمر ."

فكيف يرد داود على سلوك هذا الفارس النبيل ؟

"في الصباح كتب داود مكتوباً إلى يوآب وأرسله بيد أوريا . وكتب في المكتوب يقول اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت"

بالغدر والخيانة قابل الملك نبل القائد ودفع به إلى الموت . مات أوريا كما أراد الملك العاشق . وبعد أن انتهت أيام المناحة أرسل داود إلى امرأة أوريا" وضمها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابناً" (صموئيل الثاني ١١:٢-٢٧).

بعدها انتشرت الدعارة في بيت داود . أمنون بن داود يشتهي أخته غير الشقيقة ثامار ، فيدعي المرض كذباً ويطلب من أبيه أن يرسل له ثامار كي تطعمه بيدها ، فتذهب إليه دون أن يدور بخلدها أبداً أن هذا الأخ المريض قد يصيبها بسوء . لكن المريض يثب فجأة ولا يتركها إلا بعد أن يغتصبها . أمسكها وقال لها "تعالي اضطجعي معي يا أختي . فقالت له يا أخي لا تذلني لأنه لا يفعل هكذا في إسرائيل . لا تعمل هذه القباحة . أما أنا فأين أذهب بعاري وأما أنت فتكون كواحد من السفهاء في إسرائيل . والآن كلم الملك لأنه لا يمنعني منك . فلم يشأ أن يسمع لصوتها بل تمكن منها وقهرها واضطجع معها" (صموئيل الثاني ١٣:١١-١٤).

ويهب أبشالوم الأخ الشقيق لثامار ، مطالباً بالثأر كي يمحو عاره ، فيقتل أخاه أمنون ثم يندفع في ثورة عارمة ضد أبيه . ويهرب داود مع عبيده من وجه أبشالوم . بعدها يزني أبشالوم بنساء أبيه أمام جميع

إسرائيل : "فنصبوا لأبشالوم الخيمة على السطح ودخل أبشالوم إلى سراري أبيه أمام جميع إسرائيل" (صموئيل الثاني ١٦:٢٢).

أما عن سليمان الذي تولى الملك بعد أبيه داود ، والذي يقول "العهد القديم" أنه بنى بيتا للرب ، وأن حكمته قد فاقت حكمة "جميع بني المشرق وكل حكمة مصر ، وكان أحكم من جميع الناس" (الملوك الأول ٤:٣٠) ، فإنه هام حبا بالنساء لدرجة أنه لم يكتف مثل أبيه بعشر أو بعشرات ، بل وصل عدد من عشقهن واحتفظ بهن ألفا من النساء !! "وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات .. وكان له سبع مئة من النساء السيدات وثلاث مئة من السراري" (الملوك الأول ١١:١-٣).

وأمالت النساء قلب سليمان الملك الحكيم ففقد حكمته وأشرك بإله إسرائيل .. ليس هذا فقط ، بل سجد للأصنام وبنى لها المعابد وقدم لها الذبائح قرابين . لقد أمالت النساء "قلبه وراء آلهة أخرى .. فذهب سليمان وراء عشتورث إلاهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين وعمل سليمان الشر في عيني الرب .. حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين على الجبل الذي تجاه أورشليم ولمولك رجس بني عمون وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كنّ يوقدن ويذبحن لآلهتهن" (الملوك ١١:٤-٨).

هكذا ضاع سليمان بين أرداف ألف من النساء ونسى إله إسرائيل ، بل وجرى وراء آلهة أخرى .

وهذا اعتراف من مؤلفي "العهد القديم" بأن هناك آلهة أخرى وأن إله إسرائيل ليس هو الإله الوحيد .. بل هو مجرد إله بين آلهة .

خضع سليمان لسحر أثداء النساء ففقد الحكمة والإرادة وكفر برب "الجنود" . وكان عقاب إله إسرائيل لسليمان باترا : "إني أمزق المملكة عنك تمزيقا وأعطيها لعبدك . إلا أني لا أفعل ذلك في أيامك من أجل داود أبيك بل من يد ابنك أمزقها" (الملوك الأول ١١:١١-١٢).

فإذا ما تركنا داود وسليمان ورحلنا في عمق الزمن إلى بداياته الأولى حتى نصل إلى أيام "نوح" ، الذي يعتبره اليهود الأب الثاني للبشرية بعد آدم والجد الأول لهم إذ يعتبرون أنفسهم من سلالة ولده "سام" ، أي أنهم ساميون ، ولهذا يهملون في نصصهم أي ذكر لسلالة ولدي نوح الآخرين : "حام" و"يافث" ، ويركزون فقط على الابن "سام"

لكن مؤلفي "التوراة" لا يرعون حرمة الأب الثاني للبشرية ، ويعرضونه في أول أسفار "التوراة" في صورة فاضحة .. يشرب نوح خمراً حتى الثمالة فيسكر ويفقد وعيه . وفي غيبوبة سكره وفقدان وعيه يتعرى .. ويتفرج حام بن نوح ، أبو كنعان ، علي عورة أبيه، ثم يخرج كي يخبر أخويه .

وتهدف هذه الفضيحة التوراتية إلى أن يلعن نوح سلالة ولده حام ، وبذلك يتمجد سام الذي من صلبه "ينحدر" اليهود : "وابتدأ نوح يكون فلاحا وغرس كرما . وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه . فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجا .. فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل ابنه الصغير فقال ملعون كنعان عبد العبيد يكون لاخوته . وقال مبارك الرب إله سام" (تكوين ٩: ٢٠-٢٦).

ويرى أحبار اليهود أن اللعنة لا غبار عليها ذلك لأن الأبناء – وفقا للتعاليم التي أنزلت على موسى – يحملون وزر الآباء . لكن أندرسون يقدم تفسيرا مختلفا يقوم على أسلوب التفرقة بين الأجناس ، عندما يقول: إن نوحا قد صب لعنته على حام أبي الشعوب السوداء كي يمتهنها ويجعلها في وضع تشعر معه بالدونية والنقص[1] .

لكن كتبة التوراة ، الذين كشفوا عورة نوح ، يضعون حول رأسه – ربما عن طريق التعويض – هالة من هالات المجد الذي لا يمحى عندما يجعلونه بطلا "لأسطورة من أروع أساطير الخيال" ، وهي "أسطورة الطوفان" ، كما يسميها موريس بوكاي .

---

[1] أندرسون ، ص١٦٥.

ويرجع سبب الطوفان ، كما تصوره "التوراة" في سفر "التكوين" ، إلى فساد البشر مما أدى بالرب - إله إسرائيل التي لم يكن لها وجود في ذلك الحين - إلى أن يقرر إهلاك كل ما خلق من بشر وحيوان وزواحف وطيور ونبات ، أي كل ما على الأرض باستثناء "نوح" ونخبة مما خلق يحددها هو بنفسه كي تبدأ بها الحياة من جديد .

ويمدنا كتبة "التوراة" بسبب طريف من أسباب انتشار الفساد في الأرض ، مما دفع الرب إلى غضبه العارم وكان ما كان من أمر الهلاك المرعب والدمار الذي ما بعده دمار . هذا السبب الطريف ، والذي يحار العقل في فهمه لأنه يتجاوز كل أبعاد الإدراك الإنساني ، هو أن "أبناء الله" نظروا إلى بنات الناس فوجدوهن حسناوات جداً . وكان إغراء جمالهن أكبر من أن يقاوم .. وقع "أبناء الله" في غرام بنات الناس ، وكانت النتيجة أن تركوا مملكة أبيهم الذي في السماء وهبطوا إلى أرض الناس ونكحوا الجميلات جداً من بنات البشر ، وانجبوا منهن أولاداً عرفوا فيما بعد باسم "الجبابرة" .

ليس هذا بخيال سينمائي تستخدم فيه كل أنواع الحيل التصويرية ، كما أنه ليس بأقصوصة تحكيها عجوز لأحفادها بجوار المدفأة في ليلة باردة . هذا نص من نصوص "التوراة" التي يقال أن موسى قد كتبها . والنص يقول : "وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسناوات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختارو . كان في الأرض طغاة في تلك الأيام . وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً . هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم" (تكوين ٦ : ١-٤).

كثر شر أبناء الناس في الأرض ، وقام "أبناء الله" - كما يقول كتبة التوراة - بدور كبير في ازدياد خطورة ذلك الشر .

وإذا ما سألنا : لماذا لم يمنعهم أبوهم ، الذي هو الرب ، من فعل ذلك ؟ لماذا سمح لهم أساساً بالهبوط من ملكوته ؟ لماذا لم يفرض على "أبنائه" هيبته أو جبروته الإلهي فيقتل فيهم تلك الرغبة الجنسية العارمة

التي دفعتهم إلى أن ينكحوا بنات الناس ؟ لماذا سمح لهم بالخروج عن طاعته والتمرد على سلطان ألوهيته وكيف عاقبهم على الفعل الفاضح ؟

على مثل هذه الأسئلة لا نجد ما يروي الرغبة في المعرفة أو يشبع حب الاستطلاع . "الكتاب المقدس" يكتفي بتقرير "العملية" ؛ لكنه لا يوفر للقارئ ما يمكن أن يقتنع به من تفصيلات . كما أن "التوراة المقدسة" ، في سفر التكوين ، وهي تفصل عملية الخلق في أيامها الستة إلى أن استراح "الرب الإله" في اليوم السابع ، لم تذكر لنا أن الرب الإله قد أنجب أبناء ، أو بأسلوب أدق : قد خلق له أبناء .

ويدعي يوسيفوس أن أبناء الله أولئك هم الملائكة[1] . ويتفق معه في الرأي المؤلف المجهول لكتاب **سماء جديدة وأرض جديدة** ، عندما يقرر أنه كان هناك أبناء لله قبل أن يخلق الله الأرض وما عليها .... وأبناء الله هؤلاء عادة ما يعرفون باسم الملائكة[2] .

الإفساد في الأرض ، إذن ، بدأه الناس وأسهم فيه "أبناء الله" . وقرر الرب بناء على ذلك أن يمحو عن وجه الأرض ذلك الإنسان الذي خلقه باستثناء نوح وقلة قليلة معه . يحددها "الرب" ؛ ذلك لأن نوحاً كان رجلاً صالحاً "فوجد نعمة في عيني الرب" (تكوين ٦:٨) . ومن هنا تبدأ حكاية الطوفان الذي يغمر الأرض ويمحو كل ما عليها من معالم الحياة عام ٢٣٧٠ ق.م[٣] .

---

[1]The Works of Flavius Josephus , Translated by William Whiston , Edinburgh , W.P. Nimmo , Hay & Mitchell , n.d. , P. 28.

[2]New Heavens and A New Earth, Watchtower Bible , And Tract Society , Inc. , Brooklyn , New York , U.S.A. , 1953 , P. 26 .

[٣] نفس المرجع السابق ، ص٩٥.

ويرى ابن العبري المتوفى سنة ١٢٨٦ ، في كتابه تاريخ مختصر البلدان ، أن "أبناء الله" هم في الواقع أولاد شيث بن آدم وقد شوق أولاده إلى الحياة السعيدة التي كانت لأبويه في الجنة ؛ فانقطعوا إلى الجبل معتكفين على العبادة والنسك والعفة ، لا يطوون بجنبة النساء ؛ فسموا بذلك أبناء الوهيم ، أي الإله.... [لكنهم هبطوا بعد ذلك] من الجبل بعد أن يئسوا من العودة إلى الفردوس ، ورغبوا في النساء ... فاختطبهم قوم قايين باذلين لهم بناتهم ، فنكحوهن فولدن الجبابرة المبرزين في الحروب والغارات .

ويحدد الأستاذ عصام الدين حفني ناصف تاريخ الطوفان بعام ٢٣٤٨ ق.م ؛ ويصوره على أنه نتاج خيال جامح .. يقول : لم يثلج صدورهم أن يكون ذلك الطوفان فيضاناً نهرياً جائحاً أو هجمة بحرية جارفة وأصروا على أن يدعوا الماء يغمر هذا الكوكب كله في سنة ٢٣٤٨ ق.م . فيحيل الكرة الأرضية كرة مائية : "وتعاظمت المياه كثيرة جداً على الأرض فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء . خمس عشر ذراعاً في الارتفاع تعاظمت المياه فتغطت الجبال" (تكوين ١٩:٧-٢٠) . ويعلق الأستاذ عصام الدين على هذا الحدث بقوله : قمة إفرست بجبال هيمالايا تعلو سطح الأرض بـ٩ كيلو مترات ، فإذا طمت المياه أرجاء الأرض إلى هذا المستوى وجب أن تتضاعف مياه البحر عشرة أضعاف حجمها المعهود ، فمن أين يأتي هذا القدر من الماء وإلى أين يذهب بعد الجزر[1] ؟

ليس هذا هو اللامعقول الوحيد في قصة الطوفان ، بل هناك الكثير من الأحداث المتناقضة التي يصعب على العقل تقبلها وتصديقها .. فمن المتناقضات الواضحة ، التي لا يمكن أن تخطئها عين ، هذا التناقض في النص التوراتي بين ما جاء في الإصحاح السادس من سفر "التكوين" وما جاء في الإصحاح السابع من نفس السفر .

في الإصحاح السادس يطلب الرب من نوح أن يدخل الفلك هو وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه "ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين من كل تُدخل إلى الفلك لاستبقائها معك . تكون ذكراً وأنثى من الطيور كأجناسها ومن البهائم كأجناسها ومن كل دبابات الأرض كأجناسها . اثنين من كل تدخل إليك لاستبقائها" (تكوين ١٩:٦-٢٠) . هنا يأمر الرب نوحاً أن يأخذ من كل ذي جسد حي اثنين فقط .

أما في الإصحاح الذي يليه مباشرة فهو يطلب منه أن يأخذ سبعة ذكور وسبع إناث : "من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة

(انظر كتاب غطاس عبد الملك الخشبة ، رحلة بني إسرائيل إلى مصر الفرعونية .. والخروج ، دار الهلال ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٩٩، ص ٣٧-٣٨) .

[1] عصام الدين حنفي ناصف ، محنة التوراة على أيدي اليهود ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ، ١٩٦٥، ص٣٦.

ذكراً وأنثى . ومن البهائم التي ليست بطاهرة اثنين ذكراً وأنثى ومن طيور السماء أيضاً سبعة ذكراً وأنثى لاستبقاء نسل على وجه الأرض" (تكوين ٧:٢-٤) .

فأي النصين نصدق ؟ وماذا فعل نوح حيال هذا التناقض في إصدار الأمر ؟ هل أخذ ذكراً وأنثى من كل أم أخذ سبعة سبعة ذكراً وأنثى ؟ "الكتاب المقدس" أمدنا بالتناقض في إصدار الأمر "الرباني" ، لكنه لم يوضح لنا مسلك نوح تجاه هذا التناقض .

وهناك لمسة في الحكي التوراتي لابد من الإشارة إليها لطرافتها وهي أنه بعد أن أدخل نوح كل ما أمر به الرب ، ودخل هو وزوجته وبنوه ونساء بنيه ، وأخذ لنفسه من كل طعام يؤكل .. بعد هذا كله "أغلق الرب عليه" !! (تكوين ١٦:٧) .. أي قام الرب بنفسه بإغلاق باب السفينة . هل كان من الصعب على نوح أن يغلق الباب وقد قام بنفسه بصناعة "الفلك" ؟ إنها لمسة من لمسات الخيال الإبداعي التي لا تخلو منها أجزاء كثيرة من "الكتاب المقدس" .

وفي مناقشته للأخطاء والتناقضات الموجودة في "العهد القديم" ، فيما يختص بحكاية الطوفان ، يتساءل موريس بوكاي : كيف يمكن تصور أن كارثة عالمية قد دمرت الحياة على كل سطح الأرض - باستثناء ركاب السفينة - في القرن ٢١ أو ٢٢ ق.م ؟ ويعلق بقوله : في ذلك العصر كانت هناك على نقاط عدة من الأرض حضارات قد ازدهرت وانتقلت أطلالها إلى الأجيال التالية . وبالنسبة لمصر ، على سبيل المثال ، كان ذلك في الفترة الوسطى التي تلت نهاية الدولة القديمة وبداية الدولة الوسطى . وبالنظر إلى ما نعرف عن تاريخ هذا العصر فإنه يكون مضحكاً القول بأن الطوفان قد دمر في ذلك العصر كل الحضارات . وعلى ذلك ومن وجهة النظر التاريخية فيمكن تأكيد أن رواية الطوفان ، مثلما تقدمها التوراة ، تتناقض بشكل واضح مع المعارف الحديثة[1] .

---

[1] موريس بوكاي ، ص٢٤٥-٢٤٦.

ونتيجة لهذه المعارف الحديثة يقول الأستاذ حامد عبد القادر : إن مجموعة من العلماء قد أنكرت قصة الطوفان المذكورة في التوراة من أولها إلى آخرها ، وعدُّوها من الأساطير الموضوعة والأحاديث المختلقة التي وضعها قدماء القصاصين من الأمم السامية وخصوصاً بني إسرائيل .... وغالى هؤلاء في اعتقادهم فقالوا أنه لم يكن هناك طوفان أصلاً ، وقرروا أن الإنسان لم يخلق مستقلاً ولم يوجد في بقعة واحدة من الأرض .... غير أن فريقاً من العلماء الذين يحرصون على القديم هبوا يقولون إن كل أسطورة لابد وأن يكون لها أصل تاريخي تستند إليه .. وانتهى بهم الأمر إلى أن قرروا أن حادثة الطوفان المروية في سفر "التكوين" حصلت بالفعل ولكنها كانت حادثة محلية ويرجح أن منشأها هو فيضان دجلة والفرات – وما يتصل بهما من نهيرات– فيضاناً خارقاً للعادة . ولأن هذه الحادثة كانت هائلة مروعة لم يعهد لها التاريخ نظيراً من قبل ، فقد أثرت في نفوس من نجوا من شرها تأثيراً بالغاً فبقيت في ذاكرتهم ، واستمر ذكرها على ألسنتهم ونقلها عنهم خلفهم من بعدهم مع شئ من التحوير والمبالغة ، وبقيت تتداولها الأجيال والقرون المتعاقبة حتى أتى العصر الذي دُوِّنت فيه صحف التوراة حوالي منتصف القرن التاسع ق.م ، فدونت القصة كما كانت عليه ، كما كان الناس يذيعونها في تلك العصور الخالية بعد أن أضيف إليها ما أضيف وحذف منها ما حذف على مر السنين والأجيال والقرون[1] .

ويعرض الدكتور أحمد سوسة نفس الرأي عندما يقرر أن قصة طوفان نوح الواردة في التوراة قد جاءت مشابهة تماماً لمدونات السومريين والبابليين حيث تتفق الروايتان على أن طوفاناً هائلاً وقع في وادي الرافدين في أحد مواسم الفيضانات الخارقة للعادة ، وكان هذا الطوفان من الاتساع وشدة الاندفاع بحيث غمر منطقة دلتا الرافدين كلها

---

[1] حامد عبد القادر ، الأمم السامية : **مصادر تاريخها وحضارتها** ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص٤٦-٤٨ .

وقضى على جميع معالم المدنية والعمران في هذه المنطقة الواسعة ،ولم ينج من الطوفان إلا زعيم ديني وأفراد أسرته والحيوانات التي حملها معه [1].

وبذلك تتفق أغلب الآراء على أن قصة الطوفان المذكورة في التوراة والتي أغرقت العالم بكل ما فيه – باستثناء من ركبوا الفلك – إنما هي "أسطورة" يرجع أصلها إلى فيضان محدود في منطقة محدودة ولا صلة له مطلقاً بما جاء في التوراة عن تدمير العالم .

ويقرر أندرسون أن حكاية الطوفان في التوراة تتفق تماماً مع ما جاء في قصص الطوفان الواردة في الروايات السومرية والبابلية ، وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على القصاصين الإسرائيليين لم يتورعوا عن الأخذ من تراث الآخرين وتشكيل ما أخذوا طبقاً لأهوائهم اليهودية [2].

ويرى العالم الآثاري إدوارد كيير أن قصة الطوفان في التوراة ما هي إلا مجرد حكاية مأخوذة من الأدب البابلي والأدب الأشوري . وهذا يتفق تماماً مع رأي أندرسون ومع ما سبق عرضه من آراء . يقول كيير في كتابه **كتبوا على الطين** ، الذي يستشهد به د. أحمد سوسة : إن قصة الطوفان انبعثت من الأدب البابلي والأدب الأشوري ، وإن قصة الطوفان التي وردت في التوراة تشبهها تماماً ، ففي قصة الطوفان البابلية والأشورية نجد الفلك المطلي بالقير وهو نفسه الذي ورد ذكره في التوراة ، كذلك ورد ذكر رجل معين مع أسرته حذرته الإلهة بقرب

---

[1] أحمد سوسة ، ص٤٣٣.

[2] أندرسون ، ص١٦٠ .

حدوث فيضان وانهمار مطر غزير يغرق الأرض ويميت الناس ... إلى آخر القصة الموجودة في التوراة ٠٠٠٠ إن أوجه الشبه بين القصتيـــن واحد"[١].

---

[٢] أحمد سوسة ، ص٤٣٥ .

ويورد الأب جـ . ديلي J . Dheilly ، في كتابه **تاريخ شعب العهد القديم** ، نصوص مطولة ومفصلة من ملحمة جلجامش ويضعها في مقابلة أمام ما نهبه منها كتبة التوراة في جرأة متناهية ودون خجل أو تورع :

الطوفان في ملحمة جلجامش	الطوفان في سفر التكوين
٢٣ - يارجل شـروبك بن أوباراتوتو ٢٤ - اهدم بيتك واصنع منه سفينة ٢٧ - أدخل كل زرع حياة إلي داخل السفينة	وقال الله لنوح اصنع تابوتا من خشب قطراني ومن كل حي ، من كل جسد اثنين من كل تدخل التابوت (٦ : ١٩)

* * * *

٨١ - كل ماكان لدي أدخلته فيها . ٨٤ - كل ماكان لدي أدخلته زرع حياة ٨٥ - أدخلت في السفينة كل عائلتي وأقربائي ٨٦ - حيوانات ، مواشي الحقول ، العمال ، أدخلت الكل.	ودخل نوح التابوت وامرأته وبنوه ونسوة بيته معه من ماء الطوفان ومن البهائم الطاهرة ومن البهائم التي ليست بطاهرة ومن الطير وجميع مايدب علي الأرض دخل التابوت اثنان اثنان (٧ : ٧ - ٩ ، ١٣ : ١٥)

* * * *

٩٤ - دخلت السفينة وأغلقت الباب ١٣٤ - صار كل الجنس البشري طينا ١٣٥ - كالسطح صارت البرية	وأغلق الرب عليه (٧ : ٦) ومحا الله كل قائم علي وجه الأرض من الناس والبهائم والدبات وطير السماء فانمحت من الأرض (٧ . ٢٣)

* * * *

١٣٦ - فتحت الكوة فوقع انور علي وجهي
١٤٢ - أمسك جبل نيرير بالسفينة ولم يتركها تعوم

وفتح نوح كوة التابوت (٨ : ٦) واستقر التابوت في الشهر السابع في اليوم السابع عشر منه علي جبل أراراط (٨ : ٤)

* * * *

١٤٦ - ولما جاء اليوم السابع
١٤٧ - أخرجت الحمامة وأطلقتها
١٤٨ - فذهبت الحمامة ورجعت
١٤٩ - واذا لم تجد مكانا تحط عليه رجعت
١٥٣ - وأخرجت غرابا وأطلقته
١٥٤ - فذهب الغراب فرأي أن المياه تنشف
١٥٥ - فأكل وتمرغ ونعق ولم يرجع

وكان بعد أربعين يوما أن فتح نوح كوة التابوت التي صنعها وأطلق الغراب فخرج وجعل يردد إلي أن جفت المياه عن الأرض ثم أطلق الحمامة من عنده لينظر هل غاصت المياه عن وجه الأرض فلم تجد الحمامة مستقرا لرجلها فرجعت إليه إلي التابوت إذ كانت المياه علي وجه الأرض كلها ... ولبث أيضا سبعة أيام أخر ثم أطلقها فلم تعد ترجع إليه أيضا (٨ : ٦ - ١٢)

* * * *

١٥٦ - فأخرجت الكل إلي الرياح الأربع وقدمت ذبيحة
١٥٧ - وهيأت تقدمة علي قمة الجبل
١٥٨ - ورتبت سبع مباخر .
١٥٩ - وسكبت .. والأرز والمر في أكوابها
١٦٠ - فاستنشق الآلهة الرائحة
١٦١ - استنشق الآلهة الرائحة الزكية

فخرج نوح وامرأته ونسوة بنيه معه وجميع الوحوش والدبابات والطيور وكل مايدب علي الأرض بأصنافها خرجت من التابوت .

وبني نوح مذبحا للرب وأخذ من جميع البهائم الطاهرة فأصعد محرقات علي المذبح فتنسم الرب رائحة الرضي (٨ : ١٨ - ٢١) (١)

---

(١) چـ . بيلي ، تاريخ شعب العهد القديم ، عربه الأب جرجس ماردينى ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٦١ ، ص ٨١ - ٨٤ .

هنا يجب لفت النظر إلي سلوكية يهويه صغيرة ذكرها مؤلفو الكتاب المقدس في توراتهم ، وهي أن الرب قد سرّ برائحة المحرقات علي المذبح « فتنسم الرب رائحة الرضي » ، وكأن ذلك الرب صبي صغير أو رجل فقير يقف بالقرب من محل شواء يشم رائحة اللحم وهو ينضج علي نار الفحم ويستمتع بالرائحة دون طعام.

ونتيجة لهذا الاستمتاع الرباني برائحة الشواء ، يسمح الرب لنوح ومن معه ، وسلالته بالطبع ، بأكل اللحم ، لكنه حتي في هذه يحتفظ لنفسه بنصيب ، إذ « يحتفظ لنفسه بالدم الذي يحتوي علي روح الحياة ويعتبر مقدسا بالنسبة له » (١) . يقول كتبة التوراة : « وبارك الله نوحا وبنيه وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض . ولتكن خشيتكم ورهبتكم علي كل حيوانات الأرض وكل طيور السماء مع كل مايدب علي الأرض وكل أسماك البحر قد دفعت إلي أيديكم . كل دابة حية تكون لكم طعاما كالعشب الأخضر دفعت إليكم الجميع غير أن لحما بحياته دمه لاتأكلوه » (تكوين ٩ ١ - ٤) .

وهكذا تختتم الأحداث التي دمرت البشرية والكائنات كلها - ماعدا ركاب السفينة - باستمتاع الرب برائحة الشواء وبتصريحه للإنسان بأن يأكل الحيوان .

وتجمع كل الآراء التي تمت مناقشتها من قبل علي أن قصة الطوفان التي ذكرت في التوراة مأخوذة من إحدي الأساطير القديمة . لقد اكتفي مؤلفو العهد القديم بالنقل لكنهم لم يبدعوا ، وهذه نقطة تحسب عليهم إذا ما تمت مناقشة الكتاب كعمل أدبي .

وتجدر الإشارة إلي رأي موريس بوكاي الذي يؤكد استحالة وقوع مثل هذا الحدث ، عندما يقول : إن المعطيات التاريخية تثبت استحالة اتفاق هذه الرواية مع المعارف الحديثة . والواقع أن عصر ابراهيم يحدد بالسنوات ١٨٠٠ - ١٨٥٠ ق . م تقريبا . فإذا كان الطوفان قد حدث قبل ثلاثة قرون من إبراهيم ، كما يوحي بذلك سفر التكوين في الأنساب ، فإن الطوفان يقع في القرن ٢١ أو ٢٢ ق . م وذلك هو العصر الذي كانت قد ظهرت من قبله في نقاط مختلفة من الأرض حضارات انتقلت أطلالها للأجيال التي تلتها . إن المعارف التاريخية الحديثة تسمح بتأكيد هذا . علي سبيل المثال فهذه الفترة بالنسبة لمصر هي التي تسبق الدولة الوسطي (٢١٠٠ ق .م) ، وهذا بالتقريب هو تاريخ الفترة الوسطي الأولي قبل الأسرة الحادية عشرة ، وفي بابل أسرة أور الثالثة عشر .... ومن المعروف جيدا أنه لم يحدث انقطاع في هذه الحضارات ،

---

(١) أندرسون ، ص ٤٦٠ .

وبالتالي لم يحدث إعدام يخص البشرية برمتها كما تقول التوراة . إن روايات التوراة عن الطوفان لا تصف للانسان أمورا تتفق مع الحقيقة (١) .

إن تحويل أسطورة شعبية إلي حدث إلهي توراتي يعتبر ضربا من ضروب الإبحار في الوهم العقائدي .

* * * *

فإذا ما انتقلنا من نوح و سام إلي إبراهيم ، الذي جاء بعد نوح بما يقرب من ثلاثمائة عام حسب رواية التوراة ، نجد ما هو أشد ترويعا من أسطورة الطوفان .. نجد إبراهيم يأكل مع الله ، ويحاور الله ، ويضحك من الله ويوبخ الله .. ثم نجده بعد ذلك يكذب ويعرض زوجته للتحرش الجنسي مرتين ، كي يخرج بغنائم جمة . وهذا كله هزل ما كان يجب أن يقع فيه مؤلفو التوراة .

إبراهيم ، كما يدعي بيرسي بيلتون Percy Bilton ، هو اليهودي الأول والأب الأول للجنس اليهودي .. الأب الأول الذي لاريب في أبوته ، والذي تلقي من الله مباشرة صك ملكية الأرض التي ستخصص للجنس اليهودي من بعده (٢) . وهذا كلام هزيل .

إبراهيم ليس يهوديا ولاصلة له بهذه التسمية علي وجه الإطلاق ، فكلمة يهود ، في أساسها ، أطلقت علي سكان منطقة يهوذا نسبة إلي المملكة التي قامت بهذا الاسم « مملكة يهوذا » مابين عامي ٩٣١ و ٥٨٦ ق . م ، وبينها وبين إبراهيم فارق زمني كبير ، إذ عاش إبراهيم قبل هذا الزمن بما يزيد عن عشرة قرون . فكيف يقال إن إبراهيم كان يهوديا في زمن لم تكن فيه يهودية أو يهود ؟ !!

ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد إنه يجب ألا يقال عن إبراهيم إنه يهودي ، لأن اليهودي ينسب إلي يهوذا رابع أبناء يعقوب ، ولم يكن ينسب إليه إلا بعد أن أصبح اسمه علما علي الإقليم الذي قسم له عند تقسيم الأرض بين أبناء يعقوب (٣)

ويؤكد الدكتور أحمد سوسة هذه النقطة عندما يقرر أن مدوني التوراة تعمدوا إهمال التسلسل الزمني وذلك لإفساح المجال أمامهم لإرجاع تاريخ اليهود إلي أزمنة

---

(١) موريس بوكاس ، ص ٥٣ - ٥٤

(2) Percy Bilton, Russia Isral, Christ and You, Arthur James, London , 1959, P23 .

(٣) عباس محمودالعقاد، إبراهيم أبو الأنبياء ، نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٩٣،ص ١٧٧

سابقة لوجودهم ومنها عصر إبراهيم ، ففي كتاب سولوف · **كيف نما الشعب اليهودي**، مثلا ، نجد مايفيد أن الشعب اليهودي نزح إلي فلسطين من بلاد الرافدين في حدود الألف الرابعة قبل الميلاد بقيادة إبراهيم الخليل .

ويعلق الدكتور سوسة علي هذا الرأي بقوله إن هذا هراء في هراء ، وليس له أي نصيب من الصحة ولا أي سند من واقع التاريخ . ومن حقنا ومن حق أي باحث أن يسأل : كيف يمكن أن يكون إبراهيم يهوديا وقد عاش قبل أن يعرف التاريخ جماعة يسمون أنفسهم يهودا بحوالي ١٣٠٠ عام ، ثم أين كان الشعب اليهودي في سنة ٤٠٠٠ ق . م ، لاسيما وأن تسمية يهود لم تظهر إلي عالم الوجود إلا بعد ٢٣٠٠ من هذا التاريخ ، كما أن ابراهيم نفسه لم يظهر إلا بعد ألفي سنة من التاريخ نفسه ، ولنا أن نسأل أيضا : كيف جاء اليهود إلي العراق وكيف اتصلوا بإبراهيم الخليل في حين أنهم لم يكن لهم أي وجود بعد ؟ وكيف يتزعم إبراهيم اليهود في رحيله إلي فلسطين قبل أن يكون قد خلق يهوذا الذي جاءت تسمية يهود منه أو يكون قد خلق يعقوب (إسرائيل) (١) ؟

وبالتالي فإنه لايمكن بالطبع أن يقال إن إبراهيم كان إسرائيليا ، ففي زمنه لم يكن هناك من يسمي أو ما يسمي بإسرائيل . إن اسم إسرائيل أطلق علي يعقوب بعد أن صارع يعقوب تلك الشخصية المجهولة التي لانستطيع الجزم بحقيقة كونها ، إذ يدعي البعض أن يعقوب قد صارع الله ، ويدعي آخرون أنه قد صارع ملاك الرب ، ويري فريق ثالث أنه قد صارع جني النهر ، ولم يتركه إلا بعد أن باركه وأطلق عليه اسم إسرائيل ويعقوب الملقب بإسرائيل حفيد إبراهيم ، فكيف يقال إن إبراهيم كان إسرائيليا وحفيده لم يكن قد ولد بعد ؟

وعندما يقال إن إبراهيم كان عبريا أو عبرانيا ،فليس هذا معناه أنه كان يتكلم اللغة العبرية التي ينطق بها اليهود . فالعبرية لم تكن قد وجدت بعد في زمن إبراهيم (القرن التاسع عشر قبل الميلاد علي رجه التقريب) . وكان إبراهيم ومن معه عندما انحدروا من أرض العراق إلي أرض كنعان يستخدمون لهجة آرامية أقرب ما تكون إلي العربية . ويقول الدكتور أحمد شلبي إن اللغة العبرية لم تتبلور وتبدو كلغة مستقلة إلا حوالي عام ١٤٠٠ قبل الميلاد ، أي بعد إبراهيم بحوالي خمسائة عام . ويأخذ عن

---

(١) أحمد سوسة ، ص ٥٢٤ - ٥٢٥

الدكتور فؤاد حسنين قوله بأن أول النصوص المعروفة بهذه اللغة يرجع إلي سنة ١٢٠٠ ق . م . وقد ماتت هذه اللغة حوالي سنة ٢٠٠ ق. م ... ويلاحظ أن اللغة العبرية عندما انقرضت كلغة للتخاطب لدي بني إسرائيل ، بقيت حيث يستخدمها الكهنة في الكتابات الدينية ، أما لغة التخاطب بينهم فقد أصبحت اللغة الآرامية التي انتشرت في العراق وفي سوريا وفلسطين وغيرها . وبعد فترة حلت الآرامية محل العبرية في الكتابة أيضا (١) .

وقد يري البعض أن إبراهيم قد وصف بالعبري نسبة إلي عابر وهو الجد الخامس لإبراهيم ، كما جاء في التوراة عند ذكر مواليد سام بن نوح الذي انحدر من نسله إبراهيم : « لما كان سام ابن مئة سنة ولد أرفكشاد بعد الطوفان بسنتين .... وعاش أرفكشاد خمسا وثلثين سنة وولد شالح ..... وعاش شالح ثلثين سنة وولد عابر .... وعاش عابر أربعا وثلثين سنة وولد فالج ..... وعاش فالج ثلثين سنة وولد رعو .... وعاش رعو اثنين وثلاثين سنة وولد سروج .... وعاش سروج ثلثين سنة وولد ناحور ....وعاش ناحور تسعاوعشرين سنة وولد تارح .... وعاش تارح سبعين سنة وولد أبرام وناحور وهاران » (تكوين ١١ : ١٠ - ٢٦) . وهذه علي أية حال نسبة إلي جد وليست نسبة إلي قبيلة أو شعب أو أمة .

وتتفق الكثرة من الآراء علي أن كلمة عبري كانت تطلق عموما ، حوالي عام ٢٠٠٠ ق . م ، علي طوائف البدو غير المستقرة والمتجولة دوما في شمال الجزيرة العربية وفي بادية الشام وشبه جزيرة سيناء . وكان بعض أبناء هذه القبائل يقبلون العمل كجنود مرتزقة ، كما كانوا لا يتورعون عن السرقة والسلب والنهب .

ويري الأستاذ « بورجير » أن معني كلمة « الأبيرو » هو المغبر أو المغطي بالغبار ، ثم أخذ هذا الاصطلاح علي مر الزمن يستخدم بالمعني العام للدلالة علي الأجنبي أو المهاجر (٢) ، ابن البادية المتحرك دوما في الصحراء . والعبري والهبيري والخبيرو والعبيرو كلها مرادفات تؤدي نفس المعني ، وقد ظهرت هذه القبائل قبل موسي بما يقرب من عشر قرون . ولقد وصف المصريون « بني إسرائيل » بالعبريين بمعني أنهم ينتمون إلي هؤلاء البدو الرحل المرتزقة . وعلي ذلك فإنه لايمكن بأية حال من الأحوال أن يقال أن « العبري » هو « اليهودي » .

---

(١) د . أحمد شلبي ، ص ٤٥ - ٤٦ .
(٢) أحمد سوسة ، ص ٤٩٦ .

ويري الدكتور أحمد شلبي أن إبراهيم كان رئيس الأرومة السامية (نسبة إلي سام بن نوح) التي دخلت «فلسطين» قادمة من العراق وقد نشأ في أور الكدانيين .... ولم يستطع أن ينشر الحق فهاجر من أور الكلدانيين هربا من شر أهلها ، وهاجرت معه سارة ولوط ابن أخيه . ويبدو أن خط سيرهم كان أشبه بجزء من دائرة ، فقد اتجهوا إلي الشمال حتي اتصلوا بمناطق الآراميين ، ثم انحدروا إلي الجنوب حتي دخلوا أرض كنعان . وأطلق أهل كنعان علي إبراهيم ورفاقه « العبريين » لعبورهم نهر الفرات إذ لم يكونوا قد عبروا نهر الأردن بعد ، أو لأنهم بدو متجولون يعبرون من واد إلي واد (١)

أما المؤلف المجهول لكتاب **سماء جديدة وأرض جديدة** فيدعي أن سبب ترك إبراهيم لمدينة « أور » كان بأمر من الله ، إذ أراد أن يختبر قوة إيمان إبراهيم فطلب منه أن يترك مسقط رأسه ويرحل إلي أرض مجهولة سيقوده إليها بنفسه . وكان إبراهيم في الخامسة والسبعين عندما ترك « أور » ولم يكن قد أنجب بعد (٢) . ويقول الاستاذ حامد عبد القادر إن « أور » هي أقدم مدن العراق وكانت مركزا دينيا هاما ذلك لأنها كانت مدينة الإله « سين » إله القمر وأقيم له فيها هيكل شامخ البنيان . ولقد قامت المدينة حوالي عام ٦٦٠٠ قبل الميلاد ، وهو « أقدم تاريخ يحدد لقيام مدنية » (٣)

نزحت قبيلة « تارح » - كما تخبرنا التوراة - من « أور » الكلدانيين فوصلوا « حاران » وأقاموا هناك . وفي حاران سمع إبراهيم نداء « الرب » وهو يطلب منه أن يترك عشيرته وبيت أبيه إلي الأرض التي سوف يريه : « وكان أبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران . فأخذ أبرام ساراي امرأته ولوطا ابن أخيه وكل مقتنياتهما .... وخرجوا ليذهبوا إلي أرض كنعان .... وظهر الرب لأبرام وقال لنسلك أعطي هذه الأرض فبني هناك مذبحا للرب الذي ظهر لـه » (تكوين ١٢ : ٤ - ٧) .

وعلاقة إبراهيم بالرب - كما تصورها التوراة - علاقة فريدة في نوعها ، فالرب يظهر لإبراهيم ويعد بأن يعطيه ونسله أرضا لايمتلكها إبراهيم ولا «نسل» إبراهيم ، ويكرر الوعد مرة أخري بعد أن يفترق إبراهيم ولوط فيسكن إبراهيم في أرض كنعان وينقل لوط خيامه إلي « سدوم » . يقول الرب لإبراهيم « ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا لأن جميع الأرض التي أنت تري لك أعطيها ولنسلك إلي الأبد » (تكوين ١٣ : ١٤ - ١٥) .

---

(١) أحمد شلبي ، أنظر ص ٤١ - ٤٣ .
(٢) سماء جديدة وأرض جديد ، ص ١١٣ .
(٣) حامد عبد القادر ، ص ٧١ .

هنا يقع مؤلفو التوراة في خطأ كبير عندما يدعون أن الله قال لإبراهيم « لك أعطيها» . وهناك احتمالان : إما أن كتبة التوراة كانوا يفترون علي الله عندما جعلوه يعد ولاينفذ وعده ، أو أن إله إبراهيم كان يقول ويكذب ، ذلك لأن الأرض التي قال إله إبراهيم « لك أعطيها » لم يعطها أبدا لإبراهيم ، كانت مجرد وعد لنسله ، ولم يحصل إبراهيم منها علي شبر واحد ملكا خالصا له ، لدرجة أنه بعد موت زوجته سارة اضطر إلي شراء قطعة أرض كي تكون مقبرة لها وكي يدفن فيها هو أيضا بعد موته : « فأتي إبراهيم ليندب سارة ويبكي عليها وقام إبراهيم من أمام ميته وكلم بني حثٍّ قائلا . أنا غريب ونزيل عندكم . أعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي من أمامي » (تكوين ٢٣ : ٢ - ٤) . واشتري إبراهيم قطعة الأرض ، كي يدفن ميته ، بثمن كامل : أربعمائة شاقل فضة .

والسؤال هنا يكون : من الذي أخطأ عندما قال : « لك أعطي هذه الأرض » ، إله إبراهيم ، أم الذين كتبوا « التوراة » وادعوا أنها وحي من إله إبراهيم ؟!!

ولايكتفي الرب بالظهور لإبراهيم ووعده بما لم يتحقق ، بل أنه يعقد معه « عهدا مقدسا » ، متبعا في ذلك وسيلة لايمكن بأية حال من الأحوال أن تدل علي شموخ ألوهيته أو جلال ربوبيته : إن إله إبراهيم يطلب بقرة ونعجة وكبشا ويمامة وحمامة !!

« أيها السيد الرب بماذا أعلم أني أرثها . فقال له خذ لي عجلة ثلثية وعنزة ثلثية وكبشا ثلثيا ويمامة وحمامة . فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط وجعل شق كل واحد مقابل صاحبه . وأما الطير فلم يشقه ... في ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقا قائلا لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلي النهر الكبير نهر الفرات » (تكوين ١٥ : ٨ - ١٨) .

من نهر مصر إلي النهر الكبير نهر الفرات يعطي لنسل إبراهيم مقابل عجلة وعنزة وكبشا وحمامة ويمامة ... هل هذا الكلام معقول ؟ !!

ويعلق جيمز فريزر علي هذا النص بقوله إن الرب ارتضي أن يعقد بينه وبين ابراهيم عهدا مقدسا - كما قيل - متبعا في ذلك كل المظاهر المألوفة التي كانت تتبع بين الناس في مثل هذه الظروف . وتقدم لنا حكاية هذا العهد لمحة ممتعة عن الوسيلة التي كان يتبعها المتعاهدون في المجتمع البدائي بقصد إنجاز عقد ملزم بين الطرفين

المتعاقدين ... إن الرب يمر بين أجزاء الأضحية في هيئة أتون يتصاعد منه الدخان أو شعلة من النار - وبهذا يكون الرب قد استجاب للتقاليد الشرعية التي كان يتطلبها قانون العبريين القدماء للتصديق علي العهد . فنحن نعرف عن النبي «إرميا» أنه كان من عادة الطرفين المتعاهدين أن يذبحوا بقرة يشطرونها إلي شطرين ويمرون بينهما (١)

ويعلق أندرسون علي نفس الموقف بقوله : إن ماقام به إله ابراهيم هو مجرد طقس من الطقوس الوثنية القديمة (٢) .

ولا يكتفي إله ابراهيم ، كما يقول ديلي ، بتعقد عهده في حفلة رسمية (٣) ، بل إنه في صحبة اثنين من ملائكته يتكرم بزيارة ابراهيم عند باب خيمته ، ويتكلم معه إبراهيم ويحاوره ويجادله ، ثم يقدم له الطعام ، « عجلا رخصا » ، فيأكل الرب ويأكل معه ملاكاه .

هذه ليست أضحوكة . هذا كلام مكتوب في التوراة : « فأسرع إبراهيم إلي الخيمة إلي سارة وقال أسرعي بثلاث كيلات دقيقا سميذا . إعجني واصنعي خبز ملّة . ثم ركض إبراهيم إلي البقر وأخذ عجلا رخصا وجيدا وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله . ثم أخذ زبدا ولبنا والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم . وإذ كان هو واقفا لديهم تحت الشجرة أكلوا » (تكوين ١٨ : ٦ - ٨) .

فإذا كان الرب يأكل لحما وفطائر وزبدا ولبنا ، كما يأكل الناس ، فماذا يفعل بعد أن يتم هضم الطعام ؟ هل يفعل كما يفعل الناس ؟ إن كتبة التوراة يرسمون صورة غير لائقة لذلك الإله .

لكنهم للأسف لا يكتفون بذلك ، إن الرب الذي جاء خصيصا كي يهلك قريتي سدوم وعمورة ، يقول لنفسه ، أي أنه يتساءل في داخله : « هل أخفي عن إبراهيم ما أنا فاعله » (تكوين ١٨ - ١٧) .

وهذا يدل علي أن الرب - إذا ماتم تحليل شخصيته تحليلا نفسيا - يعاني من صراع داخلي : يقول أم لا يقول . وكأنه كان يعاني من نفس حيرة هاملت ، في أن يكون أو لا يكون ، رغم أن هاملت لم يكن قد ولد في تاريخ المسرح بعد .

---

(١) جيمس فريزر ، الفولكلور فى العهد القديم (التوراة) ، الجزء الثانى ، ترجمة د . نبيلة إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٣٤٢ .
(٢) أندرسون ، ص ٤٤ .
(٣) ديلى ، ص ١٠٢

وكما يقول الدكتور علي عبد الواحد وافي ، يشترك إبراهيم مع الله في نقاش وجدال ومساومة حول القريتين اللتين يريد إهلاكهما بغية أن يثنيه عن ذلك ، لأن بعض أهلها أتقياء ، ولايصح أن يؤخذ المحسن بذنب المسئ (١) .

والمثير للاستغراب هو أن إله إبراهيم يعترف صراحة بأنه عندما سمع صراخ سدوم وعمورة قال لنفسه : أنزل كي أري و أعلم . هل هذا كلام معقول عن إله خلق الأكوان بما فيها ومن فيها وهو بالطبع عليم بكل ماخلق؟ إن هذا الإله ، الذي تصوره التوراه ، يجرد نفسه من صفة من أهم صفات الألوهة .. ألا وهي مطلق المعرفة . إنه لابد وأن ينزل ويري كي يعلم . وهذا منطق مرفوض فيما يختص بالإله ، أيا كان هذا الإله ، حتي ولو كان من آلهة اليونان .

انصرف الملاكان كي يستطلعا الأمر في سدوم وعمورة ، أما الرب فقد مكث مع إبراهيم : « وأما إبراهيم فكان لم يزل قائما أمام الرب » (تكوين ١٨ : ٢٢) . هنا يأخذ إبراهيم زمام المبادرة فيبدأ حوارا وجدلا ومساومة مع ربه .. وقد ساومه من قبل عندما قال له : « أيها السيد الرب ماذا تعطيني » (تكوين ١٥ : ٢) . أما الآن فهو يجادله كي ينقذ ابن أخيه لوطا . وتكاد كلماته الموجهة إلي الرب أن تصل إلي حد التوجيه والتوبيخ : « فتقدم إبراهيم وقال أفتهلك البار مع الأثيم » (تكوين ١٨ : ٢٣) . وهذا استفسار يتضمن الكثير من الاستنكار والشك في عدالة ذلك الإله : « حاشا أن تفعل مثل هذا الامر أن تميت البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم .. أديان كل الأرض لا يصنع عدلا » (تكوين ١٨ : ٢٣ - ٢٥) .

ويعلق الأستاذ شفيق مقار علي هذا الموقف الدرامي بقوله : إن إبراهام ، السلف البطل للشعب المقدس قد اتخذ في الحكي صورة المعلم المرشد للإله ذاته ، والصالح البار الذي نبه الإله إلي واجبات ألوهته .... ونبهه إلي مسئوليات منصبه كديان الأرض ، وهي واجبات ومسئوليات لم يكن الإله ملما بها ، في الحكي ، إلي أن نبهه إليها الأب إبراهام بحكمته كما ينبه الأستاذ تلميذه (٢) .

ولا يكتفي إبراهيم بذلك ، إنه يضحك علنا في مواجهة الرب حتي يسقط علي وجهه من شدة الضحك ، ذلك لأنه لايصدق في قلبه كلمات ذلك الإله عندما يخبره أن امرأته سارة (٣) ستلد ويكون له منها ولد : « وقال الله لإبراهيم ساراي امرأتك

(١) دكتور علي عبد الواحد وافي ، ص ٣٢ - ٣٣ .
(٢) شفيق مقار ، ص ٤٩ .
(٣) غير الرب اسم إبرام إلى إبراهيم واسم زوجته ساراى إلى سارة .

لاتدعو اسمها ساراي بل اسمها سارة وأباركها وأعطيك أيضا منها ابنا ... فسقط إبراهيم علي وجهه وضحك . وقال في قلبه هل يولد لابن مئة سنة وهل تلد سارة وهي بنت تسعين » (تكوين ١٧ : ١٥ - ١٧) .

وليت الأمر وقف عند ضحك إبراهيم من كلمات الرب بل إن سارة التي كانت تتسمع من وراء باب الخيمة هي أيضا ضحكت من هذا الكلام الذي بدا لها عبثيا وهي في التسعين من عمرها ولم تعد لها عادة كالنساء . ولاتكتفي زوجة إبراهيم بالضحك بل إنها تكذب أيضا : « فضحكت سارة في باطنها قائلة أبعد فنائي يكون لي تنعم وسيدي قد شاخ . فقال الرب لإبراهيم لماذا ضحكت سارة ... فأنكرت سارة قائلة لم أضحك ... فقال لابل ضحكت » (تكوين ١٨ : ١٣ - ١٥) . الموقف شديد السخرية والإيلام ومهين لشخصية الإله ، وكأن هذا الإله الذي يواجهانه لايصلح أبدا أن يكون إلها .

ويري الاستاذ شفيق مقار أن الموقف السابق إنساني للغاية وممتع ، وحكي جيد ، لكنه من أي زاوية تأملته غير لائق إطلاقا ، ومفصح عن إنزاله للألوهة إلي مستوي أرضي للغاية ، يستخف فيه البشر - وهم مهما كانوا عظماء وأبطالا كإبراهام وسارة ومباركين سبع بركات مخلوقات فانية - بكلام الإله ويكذبونه ويجدونه عبثيا فيضحكون منه علنا في وجة الإله ، أو خفية داخل النفس ، بل ويكذبون علي الإله كما فعلت سارة (١) .

ولايكتفي كتبة التوراة بتشويه صورة إبراهيم وزوجته سارة ، بل إنهم يشوهون أيضا ، وبطريقة مستفزة ، صورة لوط وابنتيه . إن رجال سدوم يحاولون الاعتداء جنسيا علي الملاكين الذين أرسلهما الرب في صورة رجلين كي يستطلعا أمر المدينة ، ويعرض عليهم لوط ابنتيه إنقاذا لضيفيه ، لكن الرجال يرفضون ويتم تدمير سدوم وعمورة بكبريت ونار « من عند الرب من السماء » ، بعد أن طلب الملاكان من لوط أن يأخذ زوجته وابنتيه ويسرع بالفرار ، وقد حذراه أن ينظر أي منهم إلي الوراء . وينجو لوط وابنتاه ، لكن زوجته تتحول إلي عمود من ملح لأنها نظرت .

إلي هنا والحكي يسير مع منطق الأحداث . لكن اللامنطقي ، الذي لايتقبله فكر سويّ والذي يعتبر ضربا من ضروب الشذوذ المقزز والمثير للاشمئزاز ، هو ما يحدث بعد ذلك .

---

(١) شفيق مقار ، ص ٤٤ - ٤٥ .

سكن لوط في الجبل ، في مغارة ، ومعه ابنتاه . وفي عزلة الجبل ، وخلوا المغارة وهواجس الليل ، ودوافع الاشتياق وعنف الشبق ، تتآمر الفتاتان ، ثم تقرران الإقدام - في لحظة من لحظات الاهتياج الداخلي المدمر - علي فعل مايجب ألا يفعل .. مايجب ألا يفعل أبدا .. وهو ممارسة الجنس مع أبيهما . وفي نص التوراة ، تقول البكر للصغيرة : « هلم نسقي أبانا خمرا ونضطجع معه . فنحيي من أبينا نسلا فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة . ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها .... وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة إني اضطجعت البارحة مع أبي . نسقيه خمرا الليلة أيضا فادخلي اضطجعي معه .... فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة أيضا . وقامت الصغيرة واضطجعت معه .... فحبلت ابنتا لوط من أبيهما . فولدت البكر ابنا ودعت اسمه موآب وهو أبو الموآبيين إلي اليوم . والصغيرة أيضا ولدت ابنا ودعت اسمه بنْ عمّي وهو أبو بني عمون إلي اليوم » (تكوين ١٩ : ٢٢ - ٢٨) .

أبو الموآبيين جاء من الزنا ، وأبو العمونيين أيضا جاء من الزنا . وياليته كانَ زنا بين أى رجل وأي امرأة ، فلربما خفَّ وقع الكارثة .. إنه زنا المحارم ، بل وأشده فظاعة وإثما وتحريما .. الإبنة تزني مع أبيها وتنجب منه ، وكذا تفعل الثانية ، ويخرج من زناهما قوم وقوم لهم شأنهم « إلي اليوم » .

ماذا فعل إله إبراهيم بعد أن وقعت هذه الكارثة غير الأخلاقية ؟ هل بارك نسلهما ، وقال لهما - كما قال لإبراهيم من قبل - لنسلكما أعطي هذه الأرض ؟ إن مؤلفي التوراة لايذكرون شيئا علي وجه الإطلاق عن موقف الإله تجاه هذا السلوك الشائن الشائك . إنه - أي الإله - لايلوم أحدا ولايوبخ أحدا ولايعاقب أحدا ، رغم أنه دمر مدينتين وقضي علي أهلهما قضاء مبرما بكبريت ونار من السماء لجريمة تقارب هذه في الحقارة والقذارة والتحريم .

عندما تزوج أوديب أمه دون أن يعلم أنها أمه وأنجب منها ، ثم علم بالحقيقة بعد ذلك عندما حانت لحظة التنوير ، عاقب نفسه بأن فقأ عينيه ثم حكم عليه بالنفي إلي الأبد ، أما أمه فقد حكمت علي نفسها بالموت .

فماذا فعل لوط عندما اكتشف أن ابنتيه حبليان وأن الفاعل هو نفسه ؟ ماذا كان سلوكه عندما ولدتا ولدين من المنطقي أن يصبحا ابنين وأخوين لهاتين الابنتين ؟ ماذا فعل لوط ؟ .. لاشئ !! لاتقول لنا التوراة إنه فعل أي شئ ، وكأنه أدى مهمة وجد فقط من أجلها كي يختفي بعد ذلك ، تماما كذكر النحل ينكح الملكة ويموت .

إن الحدث كله ، علي أية حال يبدو بعيدا كل البعد عن الحقيقة . إنه أقرب مايكون إلي الخيال الفج للقصص الشعبي أو الحكي الفولكلوري . وكان من الأفضل لكتبة التوراة أن يتجنبوا رواية مثل هذه الحكايات ورسم هذه الصور . ولانعرف كيف لم يتورعوا ، وكيف وجدوا في أنفسهم الجراة وهم يكتبون بهذا الأسلوب المهين عن إبراهيم ، الذي وصفوه هم أنفسهم بأنه نبي ، وعن زوجته سارة التي يعتبرونها الأم الأولي لهم ، وعن لوط إبن أخي النبي .

وليتهم وقفوا عند هذا الحد إنهم يتمادون في تطاولهم فيضعون إبراهيم في مواقف يبدو فيها بكل وضوح أنه كذاب ... رجل يكذب من أجل مصلحته الذاتية ومكاسبه المادية ، لدرجة أنه يكاد أن يتاجر بزوجته ، إن لم يكن قد تاجر بها فعلا .

يحل القحط بأرض كنعان ، فيقرر إبراهيم الهجرة إلي أرض مصر(١) حيث الخصوبة والنماء ووفرة الغذاء : « وحدث جوع في الأرض فانحدر إبرام إلي مصر ليتغرب هناك لأن الجوع في الأرض كان شديدا . وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك . قولي إنك أختي ليكون لي خير بسببك » (تكوين ١٢ : ١٠ - ١٣) .

هذا قرار إبراهيم ، من البداية وقبل أن يدخل مصر ، أن ينكر أن سارة زوجته ، ويدعي أنها أخته . وبهذا يعلن صراحة ودون أدني مواربة أنها امرأة غير متزوجة . ومادامت غير متزوجة ، فمن حق أي شخص بالطبع أن يتقدم لها ويتخذها زوجة، مادام يملك مقدرة العطاء لأخيها إبراهيم : « ليكون لي خير بسببك » . ومن الناحية الأخلاقية يبدو بوضوح أن الموقف قذر !!

تصل أخبار جمال سارة وسحر جاذبيتها إلي فرعون فيطلبها من إبراهيم ويتخذها زوجة ، ولايعترض إبراهيم . إنه لايملك شجاعة القول بأنها زوجته ، كما أنه يطمع في الكثير من عطاء فرعون ، لذا فهو يستمر في كذبته التي يصفها البعض بأنها بيضاء ، رغم أنها تقذف بزوجته إلي حجرة نوم فرعون .

وحدث ما كان يتوقعه إبراهيم وينتظره : لقد أحسن إليه فرعون وأجزل له العطاء : « فصنع إلي أبرام خيرا بسببها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال (تكوين ١٢ : ١٦) .

(١) هاجر إبراهيم إلى مصر فى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا أثناء حكم الأسرة الثانية عشر فى عهد الفرعون سنوسرت الثانى (١٨٩٧ - ١٨٧٧ ق . م) وسنوسرت الثالث (١٨٧٢ - ١٨٤٣ ق . م) .

يقول أندرسون إن هذا الشيخ الجليل قد كذب كذبة بيضاء كان من نتيجتها أن تورطت زوجته تقريبا في مشاكل جنسية مع ملك أجنبي ، لكن يبدو أنه لم يتعلم شيئا من هذه التجربة الأولي (١)

وهذا صحيح إذ أن إبراهيم بعد ماحدث لزوجته مع فرعون مصر وخروجه بأموال وغنم وبقر وحمير وعبيد .. إلي آخر ماأخذ ، يعيد نفس الكرة ويكذب نفس الكذبة عندما يتغرب في أرض جرار . ويأخذ أبيمالك ملك جرار سارة ، بعد أن يقول إبراهيم صراحة : « إنها أختي » وتقول سارة أيضا « هو أخي » . إذن أبيمالك هنا لم يخطئ . لقد أخذ امرأة غير متزوجة باعترافها هي نفسها وكذا باعتراف الرجل الذي معها . وخرج إبراهيم من هذه العملية أيضا بغنم وبقر وإماء وعبيد (تكوين ٢٠ : ١٤) . هكذا تاجر إبراهيم !!

ويقرر الأستاذ العقاد أن من أتباع الكنيسة الإنجيلية من ينقد مسلك إبراهيم حين قال إن سارة أخته ، ولايبالي أن يصرح بالنقد في كتب التدريس كما فعل الأستاذ وليام نكلسون حيث قال في موسوعته الموجزة عن التوراة تحت مادة إبراهيم : « إن موقف إبرام هنا هو أحد المواقف التي نميل إلي إسدال الستار عليها في سيرة هذا الرجل الجليل ، لقد كان عملا لا يوائم مقام تلك الشخصية العظيمة ، ولا جرم ففي وجه الشمس سفعات » (٢).

ويعتبر هارفي بورتر ماحدث خطية تحسب علي إبراهيم ،وهو يقول ذلك بأسلوب شديد الوضوح : وحدث لإبراهيم هناك [في مصر] ماحدث من جهة امرأته وملك الأرض . ومن هذه الحادثة تتحقق صحة أخبار التوارة فإنها لاتصور لنا إبراهيم قديسا كاملا لاعيب فيه ، بل تذكر خطاياه مع فضائله (٣) .

أما أندرسون فيكتب بأسلوب أكثر تفصيلا : لقد ساقت المجاعة إبراهيم ودفعته دفعا إلي مصر . وكي ينقذ حياته ويفوز بالحظوة عند فرعون أقدم علي عمل من أعمال الخداع والغش كان من نتيجة توريط زوجته سارة . لقد كان الجوع قاسيا حقا ،ولقد بدا لإبراهيم أنه من الأفضل أن يكون زمام الأمور في يديه بدلا من الاعتماد علي الرب . لكن استمرار وجود سارة في حريم فرعون – وهي الجدة الأولي لإسرائيل – كان معناه

---

(١) أندرسون ، ص ٢٠ .
(٢) عباس محمود العقاد ، إبراهيم أبو الأنبياء ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص ٥١ .
(٣) هارفي بورتر ، موسوعة مختصر التاريخ القديم ، مكتبة مدبولي القاهرة ، ١٩٩١ ، ص ١١٢ .

أن إسرائيل المستقبل لن يكون لها أي وجود . لهذا يتدخل الرب - يهوه - في اللحظة المناسبة وينقذ الموقف (١) .

يضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة ، فيطلق سارة ويسلمها لإبراهيم . ثم يهدد الرب أبيمالك بالموت لو اقترب من سارة ، ويأمره بأن يرد المرأة إلي الرجل لأنه نبي ، « وأن كنت لست تردها فاعلم أنك تموت موتا أنت وكل من لك » (تكوين ٢٠ : ٧) .

ورد أبيمالك علي إله إبراهيم رداً شديد البلاغة وكان يجب أن يكون شديد الإقناع عندما يكون الحكم علي الأحداث هو المنطق : « ألم يقل لي إنها أختي وهي أيضا نفسها قالت هو أخي » (تكوين ٢٠ : ٥) .

سلوك أبيمالك كان مستقيما شريفا ، وكذا كان سلوك فرعون عندما اتخذ سارة زوجة له . فلماذا يهددهما إله إبراهيم بالويل والثبور وعظائم الأمور ؟ ألم يكن من الأفضل لهذا الإله أن يوبخ النبي ويقول له : لاتكذب ؟!!

وهنا يجب ذكر نقطة شديدة الأهمية ، شديدة الخطورة ، وهي أن الوصايا العشر التي نزل بها موسي من قمة الجبل ، والتي قيل إنها كتبت بأصبع الله علي لوحي الحجارة ، ليس من بينها : لاتكذب !!

* * * *

تلد سارة إسحق كما وعدها الرب ، ومن قبل تلد هاجر إسماعيل . لكن التركيز في التوراة يكون علي إسحق لأنه ابن سارة واليهود ينسبون الولد في جنسيته إلي أمه ، وسارة هي الأم الأولي لليهود كما يدعون ، أما هاجر فمصرية وعلي ذلك فولدها يجب أن يتواري ذكره ، وكذلك أولاد إبراهيم من زوجته قطورة التي يتزوجها بعد وفاة سارة وتلد له : زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحا .. كل هؤلاء يهملهم كتبة التوراة ، حتي إبراهيم نفسه لم يكن عادلا في تعامله معهم ، إذ يعطي إسحق كل شيء ويحرمهم جميعا من الميراث : « وأعطي إبراهيم إسحق كل ما كان له . وأما بنو السراري اللواتي كانت لإبراهيم فأعطاهم إبراهيم عطايا وصرفهم عن إسحق ابنه شرقا إلي أرض المشرق وهو بعد حي » (تكوين ٢٥ : ٥ - ٦) .

---

(١) أندرسون ، ص ١٧٣ .

لقد ولد إسماعيل قبل إسحق بثلاث عشرة سنة عندما كان إبراهيم في السادسة والثمانين من عمره ، لكنه كان - كما يقول يوسيفوس - ابن الجسد (١) ، وكما يقول أندرسون « حصاد لحظة ضعف في الإيمان بالإله يهوه » (٢) ، وكما تصفه التوراة : هو إنسان وحشي « يده علي كل واجد ويد كل واحد عليه » (تكوين ١٦ : ١٢) .

أما إسحق فهو ابن الوعد ، ابن إبراهيم الحبيب ، الذي تصفه التوراة بأنه الابن الوحيد والذي من سلالته تنشأ أمم عظيمة وملوك يستولون علي كل أرض كنعان عن طريق الحرب من أول أرض صيدون إلي أرض مصر .

إن إله إبراهيم يركز فقط علي إسحق ، وعندما يلفت إبراهيم نظر الرب إلي إسماعيل قائلا : « ليت إسماعيل يعيش أمامك » ، يرفض الرب الالتفات إلي إسماعيل .. إنه يؤكد في إصرار أنه لن يقيم عهده إلا مع إسحق : « وأقيم عهدي معه عهدا أبديا لنسله من بعده . وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه .... ولكن عهدي أقيمه مع إسحق الذي تلده سارة » (تكوين ١٧ : ١٨ - ٢١) .

ويطلب الرب من إبراهيم حفظا للعهد أن يختتن كل ذكر منهم في لحم غزلته ، وأن يكون هذا الختان هو علامة العهد بين الرب وبينهم : « فأخذ إبراهيم إسماعيل ابنه وختن وجميع ولدان بيته وجميع المبتاعين بفضته كل ذكر من بيت إبراهيم وختن لحم غزلتهم في ذلك اليوم عينه كما كلمه الله وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن في لحم غزلته . وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن في لحم غزلته» (تكوين ١٧ : ٢٣ - ٢٤) .

ويدعي يوسيفوس أن الأمر بالختان جعل إبراهيم وذريته جنسا متميزا عن بقية الأجناس وغير مختلط بها (٣) ويحلل فرويد في كتابه عن موسي عدم صدق مثل هذا الادعاء ، عندما يقول : لقد طلب يهوه إلي إبراهام من قبل أن يختتن هو وقومه كعلامة علي الميثاق المضروب بينه وبين نسل إبراهام . وهذه علي أية حال بدعة حمقاء بوجه خاص ، لأننا لو شئنا أن نستخدم علامة نميز بها أحد الناس عن سائر الشعب ، لاخترنا شيئا لا يمتلكه الاخرون .... والإسرائيلي الذي يجد نفسه في مصر ، سيجد أن عليه أن يقر بأن المصريين كلهم إخوته في الرب يهوه . وليس من الممكن أن يجهل

(١) يوسيفوس ، ص ٣٤
(٢) أندرسون ، ص ١٧٣
(٣) يوسيفوس ، ص ٣٤

الإسرائيليون الذين خلقوا نص التوارة أن المصريين كانوا يمارسون عادة الختان . وتقر ذلك الفقرة التي يوردها ميير من سفر « يشوع » ، ومع ذلك كان لابد من إخفاء الحقيقة بأي ثمن (١) .

ويقول الأستاذ العقاد في شرحه لهذه النقطة إنه من أقدم العصور كان الفاتح المنتصر يقتل الأسري قربانا علي محراب إلهة . ثم تدرجوا من قتلهم إلي قطع أعضائهم ، وتدرجوا من قطع أعضائهم إلي قطع غلفتهم . وجعلوا ذلك علامة علي تسليم الأعداء بالهزيمة . لهذا بدأ الختان بالرجال ولم تنشأ عادة الختان بالنساء إلا بعد ذلك بزمن طويل . وانتقل الختان من اعتبازه علامة تسليم لإله الأعداء ، إلي اعتباره علامة تسليم للإله الذي يعبده أبناء القبيلة ، وعندئذ وجب علي النساء كما وجب علي الرجال .... وليس بالصحيح أن الإسرائيليين اعتبروه علامة لقبيلتهم تميز الإسرائيلي عن غيره ، وانما الصحيح أنهم اعتبروه علامة تسليم لربهم (٢) .

لكن الواضح الذي لايقبل الشك هو أن الكتبة الكهنوتيين يقررون صراحة أن أي ذكر لايختتن في غزلته يجب أن يبعد تماما عن المجتمع الإسرائيلي : « وأما الذكر الأغلف الذي لايختتن في لحم غزلته فتقطع تلك النفس من شعبها » (تكوين ١٧ : ١٤) .

ويتم ختان إسحق وهو ابن ثمانية أيام ، وكما قلنا من قبل ، تركز عليه الأضواء ويوصف بأنه الابن الوحيد لإبراهيم ، ويتم التعتيم علي إخوته بما فيهم إسماعيل الذي يتم طرده مع أمه .. أمر تصدره سارة إلي إبراهيم : « أطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لايرث مع ابني اسحق » (تكوين ٢١ : ١٠) . ويسكن إسماعيل ، المغضوب عليه ، فى برية فاران (٣) ، وتأخذ له أمه زوجة من أرض مصر .

ولكي لاينسي إسحاق - ذلك لأن دوره في تاريخ الآباء يكاد يكون خاليا من البطولات الأسطورية - يتم خلق أسطورة تخلد ذكره ، رغم أن دوره - وهذا ما يجب تأكيده - دور صغير ، فمن قبله كان إبراهيم ومن بعده جاء يعقوب ، وكلاهما من الشخصيات الكبيرة - كما تصورها التوراه - والتي يتضاءل إلي جانبها حجم إسحق .

---

(١) فروید ، ١٠٤ - ١٠٥

(٢) العقاد ، إبراهيم ، ص ١٦٤ - ١٦٥

(٣) هى منطقة وادى (باران) وما يكتنفه من الجانبين ، ويقع إلى الغرب من وادى العربة الممتد من البحر الميت إلى خليج العقبة وجميعها ضمن صحراء أدوم .

والأسطورة – كما يصورها كتبة التوراة – هي ظهور الرب لإبراهيم وطلبه أن يقدم ابنه وحيده وحبيبه إسحق قربانا للرب . ينادي الرب إبراهيم قائلا يا إبراهيم « خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق واذهب إلي أرض المريا وأصعده هناك محرقة علي أحد الجبال الذي أقول لك » (تكوين ٢٢ : ٣) .

ويبدو الأمر شديد التناقض ، شديد الغرابة ، شديد الطرافة ، مما يدعو إلي الاندهاش ، فإسحق هو ابن الوعد الذي سيكون علي رأس أمة تأتي من نسله ، وإسحق في نفس الوقت هو المطلوب وضعه علي محرقة قربانا للرب !!

أيهما يصدق إبراهيم .. الوعد بأن يكون عن طريق إسحق أبا لجمهور من الأمم ، « وملوك منك يخرجون » (تكوين ١٧ : ٦) .. أم الأمر بأن يضع ابنه الوحيد – الذي بدونه لن يتحقق الوعد أبدا – مكان كبش للمحرقة ؟

الإجابة علي السؤال تتوقف – بالطبع علي قدر إيمان أبراهيم . إن كان يؤمن بأن إلهه هذا صادق فيما وعد فهذا معناه أن ولده لن يذبح ولن يحرق ، لان معني ذبحه وحرقه هو أن الإله كاذب فيما وعد ، وربما يكون هذا الأمر مستبعدا من فكر إبراهيم .

هناك إذن أحد احتمالين : أولهما أنه بعد ذبح إسحق وحرقه لابد وأن يبعثه الرب من بين الموتي كي يتحقق الوعد .. وثانيهما هو إلا يذبح إسحق ولايحرق مطلقا ويوقف الرب هذه العملية قبل الوصول إلي نهايتها المأساوية ، وهذا ماحدث فعلا .

كان إبراهيم يحس في أعماقه أنه لن يذبح ولده ، ولن تمسه أبدا نار المحرقه . هذا واضح من رده علي ولده عندما سأله : « فقال هو ذا النار والحطب ولكن أين الخروف للمحرقة » ، فأجاب إبراهيم « الله يري الخروف للمحرقة يا بني » (تكوين ٢٢ : ٧ – ٨) . كان يعتريه شعور بأن ولده سيعود معه سليما معافي دون أن تمس النار منه شعرة واحدة ، لهذا قال لغلاميه : « اجلسا أنتما ههنا مع الحمار وأما أنا والغلام فنذهب إلي هناك ونسجد ثم نرجع إليكما » (تكوين ٢٢ : ٢٥) .

ومما يؤكد أن هذا الشعور كان راسخا في أعماق إبراهيم هو أنه لم يجادل الرب مطلقا وهو يطلب منه أن يقدم ولده الوحيد قربانا ، وهو الذي جادل الرب جدالا طويلا لحوحا كي ينقذ ابن أخيه لوطا ، فكيف لايجادل مطلقا كي ينقذ ولده ؟ المعني واضح : كان إبراهيم لا يشعر بالقلق .. ولده هذا لن يذبح .

يقول كتبة التوارة إن إبراهيم « ربط إسحق ووضعه علي المذبح فوق الحطب ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه فناداه ملاك من السماء وقال ابراهيم إبراهيم فقال هأنذا فقال لا تمد يدك إلي الغلام ولا تفعل به شيئا لأني الآن علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عني . فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكا في الغابة بقرنيه . فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضا عن ابنه » (تكوين ٢٢ : ٩ - ١٣)

هنا يمكن أن يثار سؤال صغير : إسحق في تلك الآونة كان - كما يقول يوسيفوس - في الخامسة والعشرين من عمره (١) . وهذا معناه أن إبراهيم كان قد تخطي المائة بخمسة وعشرين عاما ، أي أصبح شيخا ضعيفا متقدما في الأيام ، فكيف استطاع ربط إسحق وحمله ثم وضعه علي المذبح فوق الحطب ؟ لابد أن إسحق ، طائعا مختارا ، هو الذي فعل ذلك بنفسه . لكن كتبة التوراة يدعون أن إبراهيم نفسه هو الذي فعل .

يقول أندرسون إن قصة امتحان إبراهيم كانت شائعة من قبل بصورة مستقلة كأسطورة تبرر استبدال القرابين البشرية ببديل لها من الماشية (٢) . ويضيف أندرسون أن القصة في جوهرها لاتزيد عن كونها مجرد أسطورة كنعانية أخذت من أصولها وتم تحوير معانيها (٣) .

خلاصة القول : يتم إنقاذ إسحق كي يتحقق الوعد . ويموت إبراهيم بعد أن عاش مائة وخمساً وسبعين سنة ، ومن قبله تموت سارة بعد أن بلغت مائة وسبعا وعشرين سنة .

هنا يجب الإشارة إلي تناقض من تناقضات التوراة ، وهي كثيرة جدا بحيث يصعب أحصاؤها . وهذا التناقض يكمن في تحديد الرب لعمر الإنسان - قبل الطوفان مباشرة - بمائة وعشرين سنة : « فقال الرب لاتدين روحي في الإنسان إلي الأبد . لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مئة وعشرين سنة » (تكوين ٦ : ٣) . وبالرغم من هذا الفرمان الإلهي يموت إبراهيم وهو ابن مائة وخمس وسبعين سنة ومن قبل عاش سام بن نوح ٦٠٠ سنة ، وعاش أرفكشاد بن سام ٤٩٨ سنة ، وعاش شالح بن أرفكشاد

---

(١) يوسيفوس ، ص ٣٤
(٢) أندرسون ، ص ١٧٤
(٣) نفس المرجع ، ص ١٥٥

٤٠٦ سنة ، وعاش عابر بن شالح ٤٦٤ سنة . فمن الذي أخطأ في حساب السنين : الرب أم كتبة التوراة ؟! أم أن سنينهم تلك لم تكن هي مانعرف من سنين ؟!

إسحق - ابن الوعد - لابد وأن يتزوج كي تتحقق كلمة الرب فيه ، ولابد أن يتزوج من قبيلة أبيه - ولايفعل كما فعل إسماعيل الذي صاهر جرهم سادة مكة - كي يستمر نقاء الجنس فيه ، كما يدعي كتبة التوراة . لذا يكلف إبراهيم ، وقد شاخ في عدد السنين ، كبير بيته المسئول أن « لاتأخذ زوجة لابنى من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم بل إلي أرضي وعشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لابني إسحق (تكوين ٢٤ : ٣ - ٤) .

يأخذ العبد عشرة جمال محملة بالخيرات ويتوجه إلي أرض حاران ، في شمال أرض مابين النهرين ، حيث يقيم قبيلة ناحور أخو إبراهيم . وعندما يصل مدخل أرض حاران يقف بالقرب من عين ماء حيث تسقي النساء . وكما هو متوقع في الحكي القصصي يطلب من أحدي الحسناوات أن تتكرم عليه بشربة ماء فتستجيب في الحال وتسقيه ، ثم تملأ المسقي كي تشرب الجمال ويتصادف - كما يتطلب ذلك أيضا الحكي القصصي - أن تكون تلك الفتاة « الحسنة المنظر جدا » والعذراء التي لم يعرفها رجل هي رفقة حفيدة ناحور . يعطيها الخادم خاتما وسوارين ويطلب منها أن يقضي الليل في بيت أبيها . وهناك يطلبها من أبيها بتوئيل ومن أخيها لابان زوجة لإسحق بن سيده إبراهيم ويوافق الرجلان ، وتوافق رفقة . ويأخذها العبد مع فتياتها ويرحل

وخرج إسحق « ليتأمل في الحقل عند أقبال المساء فرفع عينيه ونظر وإذا جمال مقبلة . ورفعت رفقة عينيها فرأت إسحق فنزلت عن الجمل وقالت للعبد من هذا الرجل الماشي في الحقل للقائنا . فقال العبد هو سيدي . فأخذت البرقع وتغطت ... فأدخلها إسحق إلي خباء سارة أمه وأخذ رفقة فصارت له زوجة وأحبها . (تكوين ٢٤ : ٦٣ - ٦٧) .

ومن الواضح ، كما يقول أندرسون ، أن : يهوه كان هو الذي يوجه خطوات الخادم ويقوده إلي حيث يريد ولم يترك شيئا للمصادفة (١) وعلي ذلك فإن مايبدو مجرد مصادفة غير متوقعة هو - في رأي أندرسون - تخطيط محكم ومدبر من إله إبراهيم الذي يطلق عليه أندرسون اسم يهوه رغم أنه لم يكن يعرف بهذا الاسم أيام إبراهيم .

---

(١) أندرسون ، ص ١٧٥ .

وكما كانت سارة أم إسحق عاقرا ، اكتشف إسحق أن رفقة هي أيضا عاقر ، هذا بالطبع كي يقوم إله إبراهيم وإسحق بدوره المعجز في عملية الميلاد : « وصلي إسحق إلي الرب لأجل امرأته لأنها كانت عاقرا فاستجاب له الرب » (تكوين ٢٥ :٢١).

ويتزاحم في بطن رفقة ولدان . ويخبرها الرب أن في بطنها أمتين ومن أحشائها يخرج شعبان ويكون الصغير هو الأقوي ، أما الكبير فيستعبد له : « فلما أكملت أيامها لتلد إذ في بطنها توأمان . فخرج الأول أحمر كله كفروة شعر فدعوا اسمه عيسو وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعي اسمه يعقوب . وكان إسحق ابن ستين سنه لما ولدتهما » (تكوين ٢٥ : ٢٤ - ٢٦).

هكذا حدد الرب لرفقة قبل عملية الميلاد ، أي الولدين سيكون الأفضل والأقوي . وطبقا لهذا الكشف الرباني ، الذي تحجبه عن زوجها إسحق ، تنحاز رفقة بلا أي تردد إلي سيد الأيام القادمة : الصغير يعقوب .

كبر الغلامان « وكان عيسو إنسانا يعرف الصيد إنسان البرية ويعقوب إنسانا كاملا يسكن الخيام فأحب إسحق عيسو لأن في فمه صيدا . وأما رفقة فكانت تحب يعقوب (تكوين ٢٥ : ٢٧ - ٢٨) .

ويري الأستاذ أحمد عثمان أن رفقة قد اتخذت موقفا عدائيا من ولدها الأول عيسو وذلك : بسبب أن عيسو أخذ زوجاته من بنات كنعان ، كما تزوج ابنة عمه إسماعيل ، لذا غضبت أمه عليه وفضلت عليه أخاه يعقوب (١) . وهذا الرأي يظهر أن تفضيلها ليعقوب لم يبدأ إلا بعد أن تزوج عيسو من بنات كنعان ، وهو كلام لايتطابق مع النص التوراتي الذي يحدد بوضوح أن الرب قد حدد لها أي الولدين يكون هو الأفضل . وما كانت رفقة بكل ذكائها ودهائها إلا أن تحسن الاختيار .

هنا تنحسر الأضواء عن عيسو ويبدأ التركيز علي يعقوب الذي يصبح في مستقبل الأيام هو إسرائيل .

* * * *

ويعقوب ، كما ترسم أبعاد شخصيته أحداث التوراة ، هو صورة منفرة للذكاء والدهاء والكذب والخديعة والتآمر والوضاعة في تعامله مع الآخرين حتي ولو كانوا أقرب الناس إليه . حتي في تعامله مع الرب الذي يعبده ، لايعبده إلا بشروط : إن

(١) أحمد عثمان ، جـ ١ ، ص ٢٦ .

فعلت لي كذا . أفعل أنا كذا وهكذا هده هي التركيبة النفسية والسلوكية للجد الكبير يعقوب

ويري فريزر أن شخصية هذا الجد الكبير ، كما هي مصورة في « سفر التكوين » ليس فيها مايمتع القارئ الحديث أو يجذبه اليها .... فإن يعقوب كان مثالا للتاجر السامي اللين الحذق ، والوافر الحيلة ، الذي يحرص علي المكسب ، وعلي أن يتم صفقاته ، لا بالقوة بل بالحذق ، دون أن يتردد كثيرا في اختيار الوسائل التي يبتز بها منافسيه ويتفوق عليهم وهذا الجمع غير المرغوب فيه بين الجشع والمكر ، يكشف عن نفسه في الحوادث المبكرة في حياة يعقوب التي دونها سفر التكوين ، أعني تلك الحيل التي سعي عن طريقها لأن يخدع أخاه الأكبر عيسو ويسلب منه حقه في الإرث كما يسلبه من بركة أبيه . فقد كان يعقوب وعيسو توأمين ، ولكن حيث إن عيسو كان أكبر الأخوين ، فقد كان من حقه . وفقا للنظام الشائع ، أن تخلع عليه بركة أبيه وأن يرثه (١)

يتعامل يعقوب مع أخيه بلؤم وخسة وجشع كريه . يعود عيسو من الحقل مرهقا جائعا فيجد أمام أخيه طبيخ عدس ، فيطلب منه أن يعطيه ما يشبع جوعه . إلا أن يعقوب -- الذي يعتبر منارا ونبراسا للتاجر اليهودي - يرفض إلا أن يبيع . إما أن يدفع عيسو ثمن وجبة الطعام ، أو يغرب عن وجهه .. فلا شئ بلا ثمن بالنسبة ليعقوب ويدفع الجوع - مع شئ من التهور والاندفاع - بعيسو إلي الرضوخ ، فيطلب منه يعقوب ، بوضاعة لايمكن أن يتصف بها أخ في التعامل مع أخيه ، أن يبيعه حق بكوريته أي حقه في الوراثه مقابل أن يطعمه ، ويوافق عيسو . بذلك يصبح من حق يعقوب أن يحصل علي كل أملاك أبيه ، التي كان سيحصل عليها عيسو ، مقابل « أكله من الثريد » : « وطبخ يعقوب طبيخا فأتي عيسو من الحقل وهو قد أعيا . فقال عيسو ليعقوب أطعمني من هذا الأحمر لأني قد أعييت . لذلك دعي اسمه أدوم . فقال يعقوب بعني اليوم بكوريتك . فباع بكوريته ىعقوب . فأعطي يعقوب عيسو خبزا وطعام عدس . فأكل وشرب وقام ومضي » (تكوين ٢٥ : ٢٩ - ٣٤) .

ويري بورتر أن عيسو نفسه لابد وأن يلام علي سلوكه هذا ، رغم الوضاعه التي اتصف بها سلوك يعقوب . إنه لايمدح يعقوب علي سلوكه في معاملة أخيه لأنه كان مخالفا للشريعة لكن عيسو لم يكن أحسن منه خلقا ، فكان مستحقا ما وقع عليه

---

(١) فريزر ، ص ٣٧٣ - ٣٧٤

لأنه احتقر بكوريته وباعها بلقمة طعام ، وكان ذلك إهانة لله لأن البكر كان بمثابة كاهن الله لعائلته ، ومن احتقر هذه المنزلة احتقر الله (١)

ولا يكتفي يعقوب بهذه السرقة الدنيئة ، بل يتآمر مع أمه كي يغتصب البركة التي كان عيسو يتوقع أن يخلعها عليه أبوه بحكم كونه الأول في الميلاد .

الأم تدفع يعقوب ، ولدها المفضل وحبيبها ، إلي أن يكذب ويمكر ويخدع أباه وتجد دعوة الأم استجابة سريعة في نفس الابن ، فقد كان بحكم تركيبته النفسية ضعيفاً وضيعا جشعا ، لا يتورع عن الإقدام علي اي فعل مهما كان مشينا ، مادام يعود عليه بكسب مادي .

شاخ إسحق وتقدم في السنين .. فقد بصره ولازم خيمته .. وكان عليه أن يسلم مقاليد الحكم لولده عيسو وذلك بأن يباركه . كان يحب عيسو ، لكن رفقة كانت تسعي ليعقوب . وبذكائها المعروف عنها ، إذ كانت « قبل زواجها تسمي لبيبة » (٢) ، بدأت تعمل مهارتها في خداع زوجها .

وكما يقول ديلي يجري تسليم الحكم في حفلة رسمية بهيجة . وقد أرادها إسحق حفلة تسبقها وليمة صيد شهية ، لذا فقد دعا ولده عيسو ذات صباح وأرسله إلي الصيد .. وبعد ذهاب عيسو هبت رفقة لتلعب دورها (٣) .

ويقوم الدور علي الخديعة واستغلال عمي إسحق كي يحصل يعقوب علي حق أخيه . وتأتي أمه بحيلة تروق شخصيته المنحرفة وطبعه المحتال : عليه أن يأتي بجديين من الماعز ويطبخهما ويقدمهما لأبيه علي أنه عيسو ، وقد أتي بصيد ثمين . لكن عيسو رجل أشعر ويعقوب رجل أملس ، فماذا يفعل لو تحسسه أبوه ؟ .. مشكلة صغيرة بالنسبة لامرأة داهية . إنها تلبس يعقوب ثياب عيسو ، وتضع علي يديه وملاسة عنقه جلود جديي الماعز ويتقدم الكاذب اللئيم صوب أبيه وهو يحمل الطعام .

ويجب أن نتذكر دوما أن الوصايا العشر ، التي كتبها الرب بأصبعه ، ليس من بينها : لا تكذب . وإله موسي هو نفسه إله الآباء ، كما يدعي كتبة التوراة .

يقول يعقوب : يا أبي « فقال هأنذا من أنت يابني : فقال يعقوب لأبيه أنا عيسو بكرك . قد فعلت كما كلمتني . قم اجلس وكل من صيدي لكي تباركني نفسك » (تكوين ٢٧ : ١٨ - ١٩) .

(١) بورتر ، ص ١١٤
(٢) فريزر ، ص ٣٧٤
(٣) ديلي ، ص ١١٤

يشك إسحق في الأمر فقد عاد الابن من الصيد بأسرع مما كان يتوقع الأب . وربما يضاف إلي هذا أيضا شكه في « نيات امرأته » ، لذا فهو يطلب من يعقوب أن يتقدم كي يجسه ، أي كي يتحسسه . ورغم أن الصوت كان صوت يعقوب إلا أن الأب لم يستطع كشف الحقيقة . فقد كانت اليدان مشعرتين كيدي عيسو ، كما أن الرائحة كانت هي أيضا رائحة عيسو .

تنجح المؤمراة ويحصل يعقوب علي بركة أخيه : « فليعطك الله من ندي السماء . ومن دسم الأرض . وكثرة حنطة وخمر . ليستعبد لك شعوب . وتسجد لك بنو أمك . ليكن لاعنوك ملعونين . ومباركوك مباركين » (تكوين ٢٧ : ٢٨ - ٢٩) . وبذلك يخرج عيسو - بسبب دهاء أمه ولؤم أخيه وعمي أبيه - خروجا كاملا من سلالة الآباء ويطويه النسيان كما طوي من قبل - في تاريخ اليهود - كل أولاد إبراهيم باستثناء من أسموه بالإبن الوحيد .

وفي تعليق بالغ الدلالة يقول فريزر : إذا كان يعقوب قد سلب أخاه الأكبر حقه، فإنه لم يفعل إلا مافعله أبوه إسحق من قبل . ذلك أن إسحق كذلك كان ابنا أصغر ، وكان قد عزل أخاه إسماعيل من حقه في وراثة أبيهما إبراهيم (١) .

وبعد عودة عيسو من الصيد ، يكتشف إسحق أنه خُدع ، إلا أنه لا يستطيع أن يفعل شيئا . إنه يواجه الموقف كله بعجز كامل : عجز الشيخوخه وعجز التقاليد ، فطبقا للتقاليد القديمة لا يمكن سحب البركة - أو اللعنة - إذا ماتم منحها ، فالكلمات بعد نطقها تكتسب قوة إتيان الحدث .

هنا يثار أكثر من سؤال : ما هو موقف إله إبراهيم من هذه اللصوصية شديدة القذارة . شديدة الانحطاط ؟ أي عقاب أعده للئيم يعقوب ، ولرفقة أمه الداهية ؟ هل يحولهما إلي عمودين من ملح كما فعل بزوجة لوط لمجرد أنها التفتت إلي الوراء ؟ هل يأمر الأرض أن تنشق فتبتلعها ، كما فعل فيما بعد بجماعة من قوم موسي ؟

المثير للدهشة والاستغراب أن رب إبراهيم وإسحق لايفعل شيئا من ذلك علي وجه الإطلاق . إنه ، علي العكس من كل التوقعات يبارك اللئيم يعقوب ، وكأنه يشجعه علي مزيد من اللؤم ومزيد من السرقات . وهذا بالفعل ماسنجده متزايدا ، في مستقبل الأيام في سلوك يعقوب . يقول ذلك الرب مباركا يعقوب : « الأرض التي أنت

---

(١) فريزر ، ص ٣٧٦

مضطجع عليها لك ولنسلك . ويكون نسلك كتراب الأرض . وتمتد غربا وشرقا وشمالا وجنوبا . ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الأرض . وها أنا معك وأحفظك حيثما تذهب وأردك إلي هذه الأرض . لأني لا أتركك حتي أفعل ما كلمتك به » (تكوين ٢٨ : ١٣ - ١٥) .

ويعلق ديلي علي سلوك الرب بقوله : ضمن يعقوب بواسطة كذبه وراثة أبيه ، فصار بذلك أيضا وريثا للعهد . لا يصادق الرب ولا شك علي حيلة يعقوب وكذبه ، إلا أنه لايري أن يغيّر علي الفور من عادات ذلك الزمان الوثني . لكن عندما صادق إسحق - بعدما عرف الحقيقة - علي البركة التي أخذت منه بالحيلة ، صادق الله أيضا علي إرادة إسحق (١) .

الرب يوافق لأن إسحق وافق ولأنه لايريد أن يغير من عادات ذلك الزمان !! إن تعليق ديلي في ضوء ما أسلفنا يبدو مضحكا .

يقرر يعقوب الهرب إلي حاران ، تدفعه أمه إلي ذلك دفعا ، بعد أن يتم إقناع أبيه، وذلك لسببين رئسيين : أولهما خشية الأم أن يقوم عيسو في ثورة غضبه بقتل يعقوب ، وقد قال عيسو فعلا « في قلبه قربت أيام مناحة أبي فأقتل يعقوب أخي » (تكوين ٢٧ : ٤١) . أما السبب الثاني فهو أنها وزوجها كانا يرغبان أن يتخذ يعقوب له زوجة من بنات أقاربهما في حاران وبذلك يبتعد عن بنات الكنعانيات .

وفي رحلة الذهاب والعودة إلي حاران ومن حاران ، تسنح الفرصة لكتاب التوراة كي يقدموا سلسلة من الأساطير المتداولة من قبل أن يولد يعقوب ،يتم إقحامها علي مسيرة حياته ، كي يبدو هذا الأب الكبير جليلا مهيبا وعلي صلة مباشرة بالرب إله إبراهيم .

في الليلة الأولي ، في طريقه إلي حاران ، وهو في قمة خوفه وضعفه ، يضع يعقوب تحت رأسه حجرا وينام . وفي نومه يري الحلم الواعد بالعطاء والأمل : « وإذا سلم منصوبة علي الأرض ورأسها يمس السماء وهو ذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها، وهو ذا الرب واقف عليها فقال أنا الرب إله إبراهيم إبيك وإله إسحق . الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك » (تكوين ٢٨ : ١٢ - ١٣) . هكذا يجدد الرب العهد الذي قطعه من قبل لإبراهيم وإسحق ، ويعد بأن يمنح الأرض لهذا المحتال الهارب ولذريته من بعده .

---

(١) ديلي ، ص ١١٦ .

ويري فريزر أن حكاية السلم الذي يصل مابين السماء والأرض ما هي ببساطة إلا أسطورة متداولة منذ أقدم العصور : والاعتقاد في وجود مثل هذا السلم الذي تستخدمه الكائنات الإلهيه ، أو أرواح الموتي يصادفنا في بقاع كثيرة من أنحاء العالم . فقد أخبرتنا كنجلي في أثناء حديثها عن آلهة غرب أفريقيا فقالت « إننا نجد في كل مجموعة من مجموعات الحكايات الشعبية الأهلية علي وجه التقريب ،حكايات تروي عن زمن كانت فيه الآلهة أو الأرواح التي تسكن السماء علي اتصال مباشر بالناس .. فشعب فزنا دوبو يحكي علي سبيل المثال أنه في زمن من الأزمنة لم تكن هناك متاعب أو اضطرابات علي وجه الأرض ،حيث كان هناك سلم شبيه بالسلم الذي يستخدمه الناس في الحصول علي ثمار جوز الهند من أعالي الأشجار ، إلا أنه كان طويلا للغاية وعن طريق هذا السلم كانت الآلهة تصعد وتهبط لتشارك في شئون الناس الدنيوية .... ويعتقد .. سكان مدغشقر أن أرواح الموتي تصعد إلي السماء عن طريق سلم من الفضة ، وهذا السلم تستخدمه الأرواح السماوية في تبليغ رسالات السماء إلي الأرض (١)

وفي متون الأهرام ، وقد كتبت قبل ميلاد يعقوب بما يزيد عن أربعمائة عام ، نجد السلم السماوي منصوص عليه في الفقرة ٩٧٤ . والفكرة في أساسها ، كما يقول إرمان ، ماهي إلا ترويق للوجود السماوي فيما يختص بالموتي الممتازين .. كيف ينتصر الميت المتميز علي كل ما يعترض سبيله .. فإذا ما انتصر علي كل العقبات « فإن رع وحورس ينصبان سلما يقف أحدهما علي هذا الجانب ويقف الآخر علي ذلك الجانب » [متون الأهرام ، فقرة ٩٧٤] ، ومن ثم « ترقي عليه إلي السماء » [متون الأهرام فقرة ٩٧٤] (٢) . وفي « متون الأهرام » أيضا نلتقي بأبناء حورس الأربعة آخذين في صنع سلم « مصنوع كلية من مادة سماوية وشمسية » (٣)

وبناء عليه فقد سطا مؤلفو التوراة علي الأسطورة القديمة واستخدموها لتمجيد أبيهم الهارب يعقوب ، وكأنها حدث رباني معجزة لم يسبق له مثيل .

ينشرح صدر يعقوب بعد أن رأي الملائكة صاعدة ونازلة واستمع إلي وعد الرب ويقرر يعقوب أن يعبد هذا الرب ، لكن صفة المنفعة الجشعة في أعماقه تضع شروطا لهذه العبادة : « إن كان الله معي وحفظني في هذا الطريق الذي أنا سائر فيه وأعطاني

---

(١) فريزر ، أنظر ص ٤٦٧ - ٤٧٠ .

(2) Adolf Erman , Life In Ancient Egypt , Translated by H.M. Tirard , Dover Publications , Inc , New York , 1961 , P302 .

(٣) شفيق مقار ، ص ٤٨٢

خبزا لآكل وثيابا لألبس ورجعت بسلام إلي بيت أبي يكون الرب لي إلها » (تكوين ٢٨ : ٢٠ - ٢١) .

إنها إذن المصلحة والنفع وليس الإيمان والعقيدة .. شروط يفرضها الإنسان علي الرب ، مجرد صفقة ، وعلي هذا الرب أن يقبل الصفقة أو يفرض ما يشاء من شروط . إنها معاملة الند للند ، ولاصلة لهذا السلوك بالدين ، أي دين . إن يعقوب يريد أن يحقق ربحا حتي في تعامله مع الله .

يصل يعقوب إلي أرض المشرق حيث يعيش أقرباؤه . وهنا تبدأ حكاية البئر والرعاة وجميلة الجميلات وعقد صفقة الزواج .. وهي حكاية أثيرة عند مؤلفي التوراة ، استخدموها في قصة زواج إسحق ، وسوف تستخدم في قصة زواج موسي ، وها هي ذي الآن تستخدم في قصة زواج يعقوب .. ولعل للبئر دلالة رمزية تربط ما بينها وبين فرج المرأة كنبع للحياة .

وتبدأ لحظة رومانسية نادرة في حياة يعقوب . عندما يري ابنة خاله لابان وهي تتقدم مع غنم أبيها . ويصور لنا فريزر هذا الحدث الفريد في حياة يعقوب بأسلوب شديد الصراحة لدرجة أن قد تغضب صراحته الكثيرين . يقول فريزر :

أن الكاتب لم يحدد بدقة المكان الذي جرت فيه تلك الأحداث التي تعد حاسمة في تاريخ أبنائه من بعده . فقد تعمد المؤرخ ، أو بالأحري الفنان الأديب أن يترك الطبيعة الجغرافية لهذا المكان باهته ، بينما صوّر معايشة يعقوب لحبه الأول في منفاه في ألوان حية للغاية ... ذلك أن الحبيبين لم يتقابلا في زحمة الأسواق وضوضائها ، بل تقابلا في هدوء المراعي الخضراء ووداعتها ، تلك التي كانت تقع في تخوم الصحراء.... أما كاتب القصة فقد حدد الساعة التي تقابل فيها الحبيبان ، ذلك لأنه ذكر أن الشمس الحارقة لم تكن قد توسطت السماء بعد .

لقد تحولت طبيعة يعقوب الجشعة بسحر هذا الوقت وذاك المكان إلي شئ أشبه بالرقة فنسي في الحال حسابات المكسب المكبوح ورضخ لانفعالات الحب ، بل انفعال الفارس العاشق . لقد هرول إلي البئر عند رؤية الفتاة الجميلة قادمة مع قطيعها ، وأزاح الصخرة التي كانت تسد البئر وسقي لها خرافها ، ثم قبل وجه ابنة خاله الجميلة وبكي ....

ويضيف فريزر : إن المحتال الأناني قد تحول فيما يبدو لوقت قصير إلي محب عاشق . وقد كان هذا الوقت الشاعري الرومانسي الوحيد في حياة يعقوب المادية ، بل الخسيسة (١)

لكن سرعان ما يعود يعقوب إلي الطبع الخسيس المتأصل فيه وهو المكر والخداع والتكالب علي الربح حتي ولو كان ذلك عن طريق الابتزاز والتآمر . ويبدو ذلك واضحا في تعامله مع خاله لابان ، الذي لم يكن هو أيضا بأفضل حالا من ابن أخته ، إذا ما تمت المقارنة بينهما بمقاييس الأخلاق .

يقيم يعقوب عند لابان شهرا يخدمه ، ويسأله لابان : « أخبرني ما أجرتك » ؟ وتبدأ أول صفقة بين يعقوب وخاله . يجيب يعقوب : « أخدمك سبع سنين براحيل ابنتك الصغري » (تكوين ٢٩ : ١٨) . ويوافق الخال دون كثير تفكير ، رغم وجود ليئة أخت راحيل ، وهي الأكبر والأقل جمالا ، وكانت ضعيفة العينين .

وتمر السنوات السبع وكأنها أيام ، فقد كان يعقوب في حالة حب متلهف ، يتشوق لحظة الحصول علي الجميلة راحيل . وتحين اللحظة .. وفي ظلمة الليل تزف إليه العروس ووجهها قد أخفاه اللثام .. ويستقبلها العاشق هي وجاريتها زلفة .. يدخل بها ويصب فى أعماقها كل شوقه الملتاع . لكنه في الصباح يصاب بصدمة فاجعة عندما ينظر إلي وجه زوجته ، فإذا العروس ليست هي العروس . لقد خدعه لابان فأعطاه ليئة المسترخية العينين ، والتي كان من العسير أن يجد لها زوجا ، بدلا من راحيل . لقد وقع اللئيم في يد من هو أكثر منه لؤما .

لكنه بعد ذلك يرد لخاله الصاع صاعين : الكذب بالكذب ، والخداع بالخداع ، والدهاء بالدهاء .. هكذا كان التعامل بين يعقوب وخاله .

يسأل يعقوب خاله : لماذا خدعتني ؟ فيجيب لابان : « لا يفعل هذا في مكاننا أن نعطي الصغيرة قبل البكر. أكمل أسبوع هذه فنعطيك تلك أيضا بالخدمة التي تخدمني أيضا سبع سنين أخر . ففعل يعقوب هكذا . فأكمل أسبوع هذه . فأعطاه راحيل ابنته زوجة له . أعطي لابان راحيل ابنته بلهة جاريته جارية لها . فدخل علي راحيل أيضا . وأحب راحيل أكثر من ليئة » (تكوين ٢٩ : ٢٦ - ٣٠) .

---

(١) فريزر ، ص ٣٨٣ - ٣٨٤ .

هكذا تخلص لابان عن طريق الخديعة من ابنته الدميمة ، كما استغل يعقوب في خدمته سبع سنوات أخر . ويقرر يعقوب أن يكيل لخاله بنفس الكيل ويزيد .

إنه يرعي قطعان خاله منذ سنين . لكن اللحظة قد حانت كي يرعي مصالحه الشخصية ويكوّن ثروة تكون له سندا في أيامه القادمة ، قبل أن يقرر الرحيل . لقد انتهت مدة الخدمة ، ويسأل لابان يعقوب : ماذا أعطيك ؟ وكان اللؤم الجشع ورغبة الانتقام تعتملان في نفس يعقوب ، لكنه بنعومة المحتال يجيب : لاشئ !! إنه فقط يطلب من خاله أن يعزل كل شاة رقطاء وبلقاء وكل سوداء بين الخرفان ورقطاء وبلقاء بين المعزي . فعزلها لابان بالفعل ودفعها إلي أيدي بنيه وترك ماتبقي ليعقوب يرعاه علي أن يحصل مما تلد علي كل ماهو أرقط وأبلق ويكون الباقي من نصيب خاله لابان . ويوافق لابان علي هذا العرض الذي يبدو أن يعقوب لن ينال منه الكثير .

هنا تبدأ حيلة يعقوب . ويحكي كتبة التوارة عما فعله يعقوب ، يقولون : « فأخذ يعقوب لنفسه قضبانا خضرا من لُبْنَي ولوز ودُلْب وقشر فيها خطوطا بيضا كاشطا عن البياض الذي علي القضبان . وأوقف القضبان التي قشرها في الأجران في مساقي الماء حيث كانت الغنم تجئ لتشرب . تجاه الغنم . لتتوحم عند مجيئها لتشرب فتوحمت الغنم عند القضبان وولدت الغنم مخططات ورُقْطا وبُلقا .... وحدث كلما توحمت الغنم القوية أن يعقوب وضع القضبان أمام عيون الغنم في الأجران . لتتوحم بين القضبان . وحين استضعفت الغنم لم يضعها . فصارت الضعيفة للابان والقوية ليعقوب . فاتسع الرجل كثيرا جدا . وكان له غنم كثير وجوار وعبيد وجمال وحمير » (تكوين ٣٠ : ٣٧ -٤٣) .

هكذا بمكر ودهاء شديدين اعتصر يعقوب خاله ، سرقة دون أن يدري ، بالخديعة ، وأصبح علي قدر كبير من الثراء . وبدا له أن ما حصل عليه يكفي ويزيد ، لذا قرر الرحيل بعد أن قضي في أرض حاران عشرين عاما .

لكنه للأسف لايخرج في النهار كما يفعل الشرفاء ، بل يفضل الهرب ، كما اللصوص ، تحت جنح الظلام .

إنه يحرض زوجتيه ضد أبيهما ، فيصوره لهما - كما يقول ديلي - كرجل جشع محتال لايرعي عهدا ولا ذمة . أما هو فقد باركه الله .. وأما عن حيله وخدعه

فهي إرادة الله .. أي بوحي من عند الله (١) . هكذا يصور يعقوب سرقته بأنها أرادة الله !!

وتوافق الزوجتان علي الرحيل مع يعقوب إلي أرض كنعان « حيث يدعوه الله » . وتتخذان من أبيهما موقفا غير مستحب ، بل وتتمادي إحداهما ، وهي راحيل ، فتسرق أصنام أبيها قبل الرحيل . ومن المثير للسخرية ، هنا ، أن يعقوب الذي أبعده أبواه كي لا يتزوج من بنات الكنعانيات ، يتزوج أختين لأب من عبدة الأصنام . وهكذا تسربت الوثنية إلي عائلة يعقوب ، فلم يعد الله هو المعبود .

رحل لابان ليجز غنمه ، وهذا معناه أن يتغيب عدة أيام وكانت فرصة يعقوب .. هرب في جوف الليل هو وكل ما ملك . وعندما عاد لابان في اليوم الثالث وعلم بهرب يعقوب ، أخذ إخوته معه وخرج مقتفياأثره ... أدركه بعد مسيرة سبعة أيام في جبل جلعاد . وانتهي الموقف المتأزم بأن قطع يعقوب مع لابان عهدا بألا يقوم أي من الطرفين بإيذاء الآخر ، ثم رحل كل منهما بسلام ، ذلك لأن كلا الطرفين لم يكن علي استعداد للقتال .

تصبح المشكلة التي تواجه يعقوب ، بعد أن تخلص من خاله ، هي كيف يدخل أرض كنعان كي يخلف أباه ، وهناك أخ غاضب مغتصبة حقوقه ومخدوع . هنا يلجأ يعقوب كعادته إلي الحيلة والدهاء في تعامله مع أخيه ، وأيضا في حديثه إلي الرب الذي يفترض فيه أن يكون حديث ضراعة ودعاء ، لا مجرد تذكير للرب بألا ينكث بوعده إذا ماتركه فريسة سهلة يفتك به أخوه . يقول يعقوب مذكرا الرب بوعده : « أنت الذي قال لي ارجع إلي أرضك وإلي عشيرتك فأحسن إليك .. وأنت قد قلت إني أحسن إليك وأجعل نسلك كرمل البحر الذي لايعد للكثرة » (تكوين ٣٢ : ٩ - ١٣ . وبناء عليه فعلي هذا الرب أن يصدق فيما قال .

أما عن عيسو فإن يعقوب يقرر ، قبل أن يصل إليه ، أن يغرية بالكثير من الغنم والبقر والحمير والجمال ، ثم بعد ذلك بالكثير من معسول الكلام .

وفي إحدي الليالي ، قبل الوصول إلي كنعان وقبل لقاء عيسو ، وعند مخاضة يبوق أحد روافد نهر الأردن ، يحدث ليعقوب مالا يمكن إن يحدث في الواقع لبشر ، لكن يمكن أن يحدث فقط فيما ترويه الأساطير : إن ذلك البطل القومي يعقوب ،

---

(١) ديلي ، ص ١٢٠ .

رغم جبنه وضعفه الجسدي ، يخوض مباراة في المصارعة لامثيل لها مطلقا في كل تواريخ الأديان – إنه يصارع الرب نفسه ويوشك أن يقهره وتستمر المصارعة حتي طلوع الفجر .

ويدعي كتبة التوراة أنه – أي الرب – عندما رأي أنه لايقدر علي يعقوب ضرب حق فخذه وقال له : « أطلقني لأنه قد طلع الفجر . فقال لا أطلقك إن لم تباركني . فقال له ما أسمك . فقال يعقوب . فقال لايدعي اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل . لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت . وسأل يعقوب وقال أخبرني باسمك . فقال لماذا تسأل عن أسمي . وباركه هناك . فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل . قائلا لأني نظرت الله وجها لوجه ونجيت نفس » (تكوين ٣٢ : ٢٦ – ٣٠) .

ويري ديلي أن يعقوب في تلك الليلة اعتقد أن الله ذاته جاء يتفقد ثباته ، ودهش أن يظل بعد ذلك علي قيد الحياة ..وسمى يعقوب علي أثر تلك المصارعة إسرائيل ، أي مصارع الله ، الاسم الذي ستحمله ذريته من بعده (١) .

ويقول أندرسون أن يهوه جاء إلي يعقوب ، في زمن ثرائه ، في صورة زائر ليلي ، ومع هذا الزائر (الذي يبدو في القصة التراثية الأولي كشيطان ليلي) تصارع يعقوب حتي طلوع الفجر ، ولم يترك الزائر حتي حصل علي بركته ، لكنه خرج من المصارعة بفخذ مخلوع (٢) .

لكن يوسيفوس يقول إن الذي صارع يعقوب هو مَلَكُ الرب ، وهو الذي بدأ المصارعة ، لكن يعقوب تغلب عليه . ويضيف يوسيفوس أن الملك استخدم صوتا وتحدث إلي يعقوب بالكلمات طالبا منه أن يقنع بما فعل ، ذلك لأن انتصاره هذا ليس بالشئ الهين : لقد تغلب علي ملك مقدس ، ثم طلب من يعقوب أن يغير اسمه إلي إسرائيل ، ومعناها باللغة العبرية الذي جاهد مع ملك الرب (٣) .

ويكتب برستد ، في كتابه **فجر الضمير** ، أن الذي صارع يعقوب هو إله محلي : وهذه الآلهة المحلية قد تكون مثل الشيطان الرجيم الذي كان في ظنهم يسكن فوق قمة الجبل أو عند غدير جابوك حتي أجبره علي الفرار فزعا قبل انبثاق الفجر . ومثل هذا الجني المحلي كان يطلق عليه في الصحراء الواقعة جنوبي يهوده اسم إيل . وهذا

---

(١) ديلي ، ص ١٢١ .
(٢) أندرسون ، ص ١٧٦
(٣) يوسيفوس ، ص ٤٣

اللفظ ليس إسم علم وإنما هو الكلمة السامية القديمة التي كانت تطلق علي أي إله محلي (١) .

ويقول ابن حزم إن الذي صارع يعقوب كان هو إلوهيم أي الرب وليس ملكا كما يدعي البعض . إنه لا يخفي اندهاشه الشديد لما ورد في التوراة من أن يعقوب : صارع ربه ليلة بتمامها ، وهو لا يعرف من هو ، فلما انسلخ الصباح عرف أنه الله ، فلما عرفه أمسكه ، فقال له ربه أطلقني . فقال له يعقوب لا أطلقك حتي تبارك علي . فقال له ربه : كيف لا أباركك وأنت كنت قويا علي الله ، فكيف علي الناس ؟ ثم مسَّ مأبضه فعرج يعقوب من وقته ، فكذلك لا يأكل بنو اسرائيل من عروق الفخذ لأن الرب مسه .

ويعقب ابن حزم علي هذه القصة بقوله : ولايجرؤ من اليهود أحد فيقول إن المصارع ليعقوب كان ملكا ، فإن لفظ اسم المصارع له في توراتهم « إلوهيم » وهذا اسم الله تعالي وحده ، بالعبرانية (٢)

أما فريزر فيري أن أسطورة صراع يعقوب مع الشيخ الذي ظهر له في الليل لها ما يناظرها في خرافات المكسيكيين القدماء . فقد كان هؤلاء يعتقدون أن الإله الكبير « تركاتليبوكا » تعود أن يتجول في أثناء الليل في هيئة مارد يلتف في ملاءة ذات لون رمادي ويمسك رأسه بيديه ، وعندما أبصر الناس الجبناء هذا الشبح المخيف سقطوا مغشيا عليهم ، وماتوا إثر ذلك . علي أن رجلا شجاعا من بينهم أمسك بالشبح وأخبره بأنه لن يتركه يرحل حتي تشرق الشمس . فتوسل الشبح إليه أن يتركه ، وهدده بأنه إن لم يفعل ذلك فسوف تحل عليه اللعنة . وكان علي الرجل إن شاء أن ينتصر علي الشبح المخيف أن يظل ممسكا به بشدة إلي أن توشك الشمس علي البزوغ . فإذا نجح في هذا غيَّر الشبح من نغمته ، ووافق علي أن يمنح الرجل أي هبة يطلبها .. بشرط أن يرفع الرجل يده عن الشبح ويدعه يرحل قبل الغسق (٣) .

بعد هذا الصراع الأسطوري الذي رأي فيه يعقوب الله وجها لوجه ، يلتقي يعقوب بأخيه عيسو ، غير وجل ولا هياب ، إلا أنه رغم ذلك يتعامل معه بقدر هائل من النفاق ، فهو يسجد إلي الأرض سبع مرات ، ومتظاهرا بالخضوع الكامل يقول لأخيه :

---

(٢) چيمس هنرى برستد ، **فجر الضمير** ، ترجمة د . سليم حسن ، مكتبة مصر ، القاهرة ١٩٩٥ ، ص ٢٩٨ .
(٢) د . صلاح بسيوني رسلان ، **الأخلاق والسياسة عند ابن حزم** ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص ١٣٠
(٣) فريزر ، ص ٥١٩ .

« إن وجدت نعمة في عينيك تأخذ هديتي من يدي لأني رأيت وجهك كما يري وجه الله فرضيت علي » (تكوين ٣٣ : ١٠) . ويتنازل يعقوب لأخيه عن الكثير مما يملك.

أخيرا يتفق الأخوان . يأخذ عيسو نساءه وبنيه وبناته وكل مايملك في أرض كنعان ويرحل إلي جبال سعير حيث تعيش ذريته من بعده تحت اسم الأدوميون نسبة إلي اللقب الذي أطلق علي عيسو وهو أدوم ، وموطنهم جنوبي البحر الميت .

يستقر يعقوب الملقب بإسرائيل في أرض كنعان ، ويخلف أباه دون مقاومة ، ومعه بنوه الإثني عشر وهم : بنوليئة (رأوبين وشمعون ولاوي ويهوذا ويساكر وزبولون) ، وابنا راحيل (يوسف وبنيامين) ، وابنا بلْهة جارية راحيل (دان ونفتالي) ، وابنا زلفة جارية ليئة (جاد وأشير) . وقد ولدوا جميعا في حاران أثناء وجود يعقوب مع خاله لابان ، باستثناء بنيامين ، وهو الثاني عشر والأخير ، فقد ولدته راحيل أثناء رحلة العودة ، ولأن ولادتها كانت عسرة ، ماتت وهي تلده ودفنت في طريق « أفراته التي هي بيت لحم » .

ويموت إسحق حيث تغرب في حبرون ،ويدفنه ولداه عيسو ويعقوب ، بعد أن عاش مائة وثمانين سنة ، مخالفا بذلك - هو أيضا - الأمر الرباني اليهوي الذي حدد عمر الإنسان بمائة وعشرين عاما . ويشيخ يعقوب .

وتطوي صفحة من صفحات الآباء ، ويبدأ التركيز علي نجم كان لابد وأن يسطع .. نجم من أولاد يعقوب .. كي يستمر غزل خيوط الأسطورة .. أسطورة بني إسرائيل .

* * * *

يبرز نجم يوسف.إنه - كما يقول الأستاذ أحمد عثمان - هو الحلقة الرئيسية التي تربط الأسطورة بالتاريخ في قصة بني إسرائيل ، فهو الذي أتي بقبيلة بني يعقوب - من عالم النسيان وسط الرعاة الذين يتجولون عند أطراف ممالك المدن في أرض كنعان - إلي البلاط الملكي المصري الذي كان ، في تلك الحقبة من الزمان ، مركز السياسة والفكر والحضارة في العالم القديم .. ولايستطيع من يقرأ سفر التكوين .. إلا أن يلاحظ أن كل الأحداث السابقة علي قصة يوسف ، تبدو وكأنها تمهيد للحظة التي يظهر فيها يوسف علي المسرح (١) .

---

(١) أحمد عثمان جـ ١ ، ص ٣٣ .

يفضل يعقوب يوسف علي أبنائه جميعا ويري بعض الدارسين لقصة يوسف أن يعقوب أحب يوسف أكثر من كل إخوته ذلك لأنه كان ابن شيخوخته وكان أصغر أبنائه .

وفي الحقيقة لم يكن يوسف هو الأصغر ، بل كان ذلك بنيامين ، آخر الأبناء واخو يوسف من أمه راحيل التي ماتت بعد ولادته مباشرة . ولو كانت مسألة الحب المتدفق والمركز علي الابن الأصغر صحيحة ومعمول بها أيام يعقوب ، فإن بنيامين - لايوسف - في هذه الحالة يصبح صاحب هذا الحق . ولم يكن ذلك كذلك إلا إذا كانت هناك نسخة من التوراة تنص علي أن يوسف هو الابن الأصغر ، وهذا أمر محتمل وذلك لتعدد النصوص واختلاف الكتبة والمؤلفين . ويفترض فريزر أن يوسف ربما كان حقيقة هو الابن الأصغر في الرواية الأصلية (١) . أما النص الذى بين أيدينا فيبين بوضوح أن الأصغر هو بنيامين .

السؤال إذن : لماذا استأثر يوسف من أبيه بكل الحب والرعاية والتدليل ، إلي حد التميز حتي في الرداء الخاص يه ، وهو الرداء طويل الأكمام متعدد الألوان ، الذي يبدو فيه يوسف متخايلا متبخترا كما الطاووس ؟

الإجابة قد لا تخطر علي بال الكثرة ، رغم أن النص واضح وصريح : كان يوسف يتجسس علي إخوته وينقل أخبارهم إلي أبيه . كان يرعي الغنم مع إخوته وهو غلام ابن سبع عشرة سنة « عند بني بلهة وبني زلفة امرأتي أبيه . وأتي يوسف بنميمتهم الرديئة إلي أبيهم » (تكوين ٣٧ : ٢) . لهذا أحبه اللئيم يعقوب ، المتآمر من قبل علي أخيه .

ولهذا أيضا كرهه إخوته وحقدوا عليه ورغبوا في التخلص منه . إنه لا يتطاوس عليهم بحب أبيه وردائه المزركش فقط ، بل إنه يحلم أحلاما تمجد شخصه وتحط من قدر إخوته . قال لهم يوسف : « اسمعوا هذا الحلم الذي حلمت فها نحن حازمون حزما في الحقل . وإذا حزمتي قامت وانتصبت فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتي » (تكوين ٣٧ : ٧) . ثم يقص عليهم حلما آخر يؤكد نفس المعني ، فيه امتهان لهم وتمجيد له ، قال « إني قد حلمت حلما أيضا وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا ساجدة لي » (تكوين ٣٧ : ٩) .

---

(١) فريزر ، ص ٣٧٦ .

رد الفعل في هذه الحالة هو البغض والغيظ والغضب قال له إخوته « ألعلك تملك علينا ملكا أم تتسلط علينا تسلطا وازدادوا أيضا بغضا له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه » (تكوين ٣٧ : ٨) .

وتحين لإخوة يوسف لحظة نادرة كي يتخلصوا منه . يرسله أبوه إليهم في البرية كي يستطلع أحوالهم ويتجسس أخبارهم ، كما تعود يوسف أن يأتي إلي أبيه « بنميمتهم الرديئة » . وأبصروه يقترب ، وتبدت لهم في الأفق لحظة الخلاص : « هو ذا صاحب الأحلام قادم » . إنهم يريدون قتله وطرحه في إحدي الآبار . ويكفي أن يقولوا « وحش رديء أكله » . ولا ينقذه من أيديهم إلا رأوبين ، الأخ الأكبر ، الذي طلب منهم ألا يسفكوا دمه .. اقترح عليهم أن يطرحوه في البئر وكفي : « فكان لما جاء يوسف إلي إخوته أنهم خلعوا عن يوسف قميصه الملون الذي عليه . وأخذوه وطرحوه في البئر . وأما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء » (تكوين ٣٧ ٣٣ - ٣٤) .

ويعتقد ديلي أن رأوبين عندما عجز عن إطلاق سراح يوسف ، انتهز فرصة مرور قافلة من التجار الإسماعيليين بطريقهم إلي مصر ، وأخرج يوسف من البئر التي رموه فيها . وباعوه لهم - رغم توسله وانتحابه - بعشرين من الفضة . ثم أخذوا رداءه وبعد أن لطخوه بدم كبش أرسلوه إلي أبيه الذي ظن أنه ذهب ضحية حادث (١) .

وتختلف رواية ديلي ، فيما يختص ببيع يوسف مع رواية التوراة . بل إن رواية التوراة ذاتها تتناقض مع نفسها . يدعي ديلي أن إخوة يوسف هم الذين باعوه للتجار الإسماعيليين ، ويذهب إلي حد تحديد السعر عشرون من الفضة . ويتمادي في رسم الصورة فيظهر لنا يوسف وهو يتوسل وينتحب ولاشيء من هذا كله في التوراة التي بين أيدينا .

في الحكاية التوراتية ، إخوة يوسف لم يبيعوه . لقد فكروا فعلا في بيعه لقافلة من الإسماعيليين كما اقترح عليهم يهوذا ، عندما قال لهم : « ما الفائدة أن نقتل أخانا ونخفي دمه . تعالوا فنبيعه للإسماعيليين » (تكوين ٣٧ : ٢٧) . لكن عندما ذهب رأوبين ليعود بيوسف كي يتم بيعه لم يجد يوسف في البئر : « فمزق ثيابه ثم رجع إلي إخوته وقال الولد ليس موجودا . وأنا إلى أين أذهب » (تكوين ٣٧ : ٢٩) .

---

(١) ديلي ، ص ١٢٢

إخوة يوسف ، إذن ، لم يبيعوه ، كما يدعي ديلي ، ذلك لأنهم لم يجدوه حيث وضعوه . وهم لم يجدوه لسبب واضح جدا في الرواية التوراتية : ذلك لأن جماعة من التجار المديانيين هم الذين سحبوا « يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة . فأتوا بيوسف إلي مصر » (تكوين ٣٧ : ٣٨) .

الذين باعوا يوسف - كما ينص مؤلفو التوراة - هم المديانيون والذين اشتروه وأتوا به إلي مصر هم الإسماعيليون . هنا تتناقض التوراة مع نفسها في نفس السفر ، بل وفي نفس الأصحاح عندما يقول كتبة التوارة : « وأما المديانيون فباعوه في مصر لفوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط » (تكوين ٣٧ : ٣٦) . ولا نعرف كيف باعوه للإسماعيليين وقبضوا الثمن عشرين من الفضة ، ثم باعوه ثانية لفوطيفارخصي فرعون رئيس الشرط .

ويزداد التضارب في النص التوراتي ، عندما يذكر كتبة التوراة ، في الأصحاح التاسع والثلاثين من نفس السفر ، أن الذين باعوا يوسف خصي فرعون هم الإسماعيليون : « وأما يوسف فأنزل إلي مصرّ واشتراه فوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط رجل مصري من يد الإسماعيليين الذين أنزلوه إلي هناك » (تكوين ٣٩ : ١) .

مرة تقول التوراة إن الذين باعوه لفوطيفار هم المديانيون ومرة تقول إن الذين باعوه لنفس الشخص هم الإسماعيليون . فأي النصين نصدق ؟ !!

التناقض واضح . وهو يدل بما لايدعو للشك علي أن النص الموجود حاليا قد تم جمعه من أكثر من مصدر وأن له أكثر من كاتب ،لأنه من غير المعقول أن يخط نفس القلم هذا الكلام المتناقض والذي لايسهل تصديقه أو الاقتناع به .

وفي مصر تنمو حكاية يوسف وتتسع أبعادها حتي تتخطي حدود الواقع وتدخل في جرأة متناهية إلي نطاق الأسطورة .

يوكل فوطيفار يوسف علي بيته ، وذلك لنجاحه وتفانيه في خدمته ، ويدفع إلي يد يوسف كل ماله . وهذا معناه أن يوسف قد أصبح مطلق اليد في كل ما يملك سيده إلا الزوجة بالطبع .. زوجة سيده الذي اشتراه والذي تصفه التوراة بأنه « خصى فرعون رئيس الشرط » .

ومع زوجة « خصى فرعون رئيس الشرط » تبدأ حكاية العهر والبراءة .. العهر بالطبع من نصيب المرأة المصرية ، وأما البراءة فيختص بها العبد العبراني النبيل . وما

كان لكتبة اليهود أن يقولوا بغير ذلك وهم يرسمون شخصية واحد من الآباء ويؤرخون له بخيال منحرف من وحي أسطورة مسروقة من التراث المصري القديم .

كان الغلام - كما تصفه التوراة - حسن المنظر جميل الصورة . وكان كثيرا ما يتواجد في البيت في غياب سيده ، فهو الموكل بالخدمة . هنا تبدأ حكاية الإغراء . ليس إغراء الرجل للمرأة ، فالرجل عبراني يجب تمجيده - رغم عبوديته - ورفعه إلي مصاف القديسين . ويتناسي كتبة التوراة أن أكبر إخوة يوسف المسمي بـ رأوبين قد زني بزوجة أبيه بلهة (١) وهي أم أخويه دان ونفتالي ، وتناسوا أيضا أن أخا يوسف المسمي بـ يهوذا ، وهو رابع أبناء يعقوب من زوجته ليئة ، قد زني بزوجة ابنه (٢) أما في مصر فيجب أن يمجد العبراني حتي ولو كان عبدا ، وتوصم المرأة المصرية حتي ولو كانت زوجة سيد هذا العبد .

يصور مؤلفوا التوراة السيدة اللعوب وهي ترفع عينيها إلي العبد في شبق وتقول له : إضطجع معي . لكن العبد النبيل يرفض ، ويصر علي الرفض . عندها تحس السيدة في أعماقها أن الكلمات ما عادت تجدي مع عناد هذا العبد المتغطرس ، لهذا فهي تنتهز فرصة خلو البيت من كل أهله كي تحقق مآربها .

أما كيف خلا البيت من كل أهله « ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت » (تكوين ٣٩ : ١١) ، فهذا ما لا نعرفه . المهم أن مؤلفي التوراة أرادوا أن يخلو البيت من كل أهله - وهي ضرورة من ضرورات هذا الحدث الدرامي - فخلا البيت من كل أهله . عندها هجمت السيدة الملتاعة حبا والمنسحقة قهرا علي العبد العبراني تحاول اغتصابه . هنا يبلغ الحدث الدرامي ذروته ، ويتلهف القارئ أو المشاهد - في حالة مسرحة الأسطورة - لمعرفة نتيجة هذا الصراع المأساوي بين المرأة العاشقة والعبد الشريف المتفاني في خدمة سيده الخصي .

وفي مسرحة مثيرة للأحداث والإحساس ، يقول المؤلفون « فأمسكت بثوبه قائلة اضطجع معي : فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج إلي الخارج . وكان لما رأت أنه ترك ثوبه في يدها وهرب إلي الخارج أنها نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة أنظروا . قد جاء الينا برجل عبراني ليداعبنا . دخل إلي ليضطجع معي فصرخت بصوت عظيم . وكان

(١) (تكوين ٣٥ : ٢٢)
(٢) (تكوين ٣٨ - ١٢ : ١٩)

لما سمع أني رفعت صوتي وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبي وهرب وخرج إلي خارج » (تكوين ٣٩ : ١٢ - ١٥) .

ولا يفطن المؤلف إلي التناقض الذي أورده في رسم الموقف ، إذ يؤكد في البداية أن البيت قد خلا من كل أهله : « لم يكن إنسان من أهل البيت هناك » ، ثم يعود فيقول - بعد رفض يوسف وهروبه مباشرة - إن المرأة صرخت بصوت عظيم ونادت أهل بيتها . نادتهم من أين ؟ هل كانوا بالانتظار عند الباب الخارجي ؟ هل كانوا فوق سطح البيت يتلصصون وينتظرون ؟ النص التوراتي واضح وصريح ولا لبس فيه : لم يكن إنسان من أهل البيت هناك . فمن أين جاءوا عندما صرخت ونادت أهل بيتها ؟!! النص في حاجة إلي مراجعة كي يستقيم ما اعوج فيه .

في كتابه **فجر الضمير** ، يعلق برستد علي هذه الحكاية التوراتية برأي يتسم بالصراحة والموضوعية ، يقول : ومن الحقائق المدهشة أن هذه الحادثة التي توجت القصة كلها بتاج الفخر ، مستقاة من قصة مصرية قديمة شعبية كانت - لابد - قد انتشرت في فلسطين الكنعانية حيث سمع بها ذلك الكاتب الموهوب الذي ألف قصة يوسف . وهذه القصة المصرية تعرف الآن عادة باسم قصة « الأخوين » (١) .

ويقول الدكتور أحمد فخري وهو يكتب عن الأدب المصري في كتاب : **تاريخ الحضارة المصرية** ، إن قصة « الأخوين » لها أهمية خاصةٌ لأنها في الواقع مزيج من قصص مختلفة . وفي الوقت ذاته يرجح كثير من علماء الدراسات الأثرية الرأي القائل بأنها تحتوي علي أصول بعض الأساطير الدينية .... وهي في مجموعها تعالج موضوعا هاما في الحياة الإنسانية وهو موضوع المرأة الخائنة ، التي تحاول إيقاع شاب طاهر عفيف، فإذا أبي ورفض اتهمته وحاولت القضاء عليه انتقاما منه .

وينقل الدكتور فخري جزءا من نص القصة نقلا حرفيا : عاد الزوج إلي منزله في المساء كعادته . جاء إلي منزله فوجد زوجته وقد افترشت الثري ، مدعية أنها مريضة فلم تصب ماءً علي يديه كعادتها ، ولم تشعل المصباح عند عودته فوجد بيته في ظلام، وكانت مستلقية تتقيأ وقال لها زوجها ما الذي أساءك ؟ .. فقالت لم يسئ إلي أحد غير أخيك الصغير ، فإنه عندما أتي ليأخذ البذور ووجدني جالسة وحدي ، قال لي تعالي لنقضي ساعة غرام ... هذا ماقاله لي ، ولكني لم أوافق ، وقلت له : إسمع ! ألست أمك وأليس أخوك الأكبر بمثابة الأب لك ؟ فخاف وضربني حتي لا أذكر ذلك

---

(١) برستد : ص ٣٠٤

لك . فإذا جعلته يعيش فإني سأموت بسبب ذلك . أنظر ! عندما يعود إلي البيت في المساء يجب أن تقتله لأني أمقت ذلك الشئ الذي أراد أن يأتيه البارحة (١)

التشابه واضح بين الأسطورة المصرية الفرعونية القديمة ، وحكاية العبد العبراني مع امرأة سيده . وهذا يؤيد رأى برستد الذى سبق وأوردناه ، وهو يجزم بأن الكاتب الموهوب قد سطا دون حياء أو خجل علي أسطورة من أساطير الأدب المصري القديم ، واستخدمها في صفاقة منقطعة النظير كي يمجد ذلك الغلام .

وبدلا من قتل الغلام ، يكتفي سيده بوضعه في السجن . هذا ما ارتآه المؤلف ، لأن قتل يوسف يضع نهاية للحكاية ، والمؤلف اليهودي يريد أن يصل ببطله إلي مافوق السحاب - بالطبع - من خلال الصعاب .. كما يقول اللاتين « Per ardua ad astra » .

وفي السجن يستغل بطل الحكاية موهبة فيه ، كان المؤلف قد أشار إليها ، عن قصد ، في بداية الرواية ، ألا وهي الأحلام التي كان يحلمها الصبي في مطلع حياته ويقصها علي أبيه واخوته .

لكن المؤلف يطور شخصية بطلة كي لا تصبح شخصية مسطحة مثيرة للملل فبدلا من أن يحلم في السجن أحلاما ، أصبح هو مفسر الأحلام . وبما أنه قد تطور في الشخصية فأصبح مفسرا لاحالما ، إذن لابد وأن يحلم أحد . هنا يخترع المؤلف شخصيتين تخدمان الحبكة القصصية وتقودان إلي الحدث الذي يسعي المؤلف إلي وضع بطلة فيه .. أمام كرسى فرعون .

لقد تم وضع الغلام « في بيت السجن المكان الذي كان أسري الملك محبوسين فيه » (تكوين ٣٩ : ٢٠) . وفي هذا السجن المخصص لأسري الملك يدفع المؤلف بساقي ملك مصر ، وبا[illegible] . لقد سخط فرعون « علي خصييه رئيس السقاة ورئيس الخبازين . فوضعهما في حبس بيت رئيس الشرط في بيت السجن المكان الذي كان يوسف محبوسا فيه » (تكوين ٤٠ : ٣) .

هنا تتلاقي خيوط الحكا[illegible] وتتشابك مع بعضها ، كي تصل بالبطل في النهاية إلي حيث أراد المؤلف . [illegible] السقاة حلما وكذا يحلم رئيس الخبازين . أما لماذا

---

(١) محمد شفيق غربال ونخبة من العلماء ، تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعوني ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٤٠٩ - ٤١٢ .

لم يحلم أي من السجناء الآخرين ، وقد كان كل « أسري الملك محبوسين فيه » ، فهذا مكر في فن التأليف ، وهو مكر مسموح به ومطلوب في مجال الفن : المؤلف لن يركز إلا علي الشخص الذي يخدم غرضه ويحقق أهدافه كي يصل بالبطل إلي حيث يريد .

يفسر يوسف الحلمين . ولم يكن من قبل مفسرا ، بل كان - كما أسلفنا - حالما . لكن تطور الشخصية والحبكة الروائية تتطلبان ذلك . أما كيف أصبح هكذا فجأة مفسرا ، فهذا مالا شأن لنا به . فقط .. هذا ما يريده المؤلف .

رئيس الخبازين - يقول الغلام العبراني في تفسيره - سوف يُقتل في ثلاثة أيام ، ويرفع فرعون رأسه ويعلقه علي خشبة وتأكل الطيور لحمه . أما رئيس السقاة فسوف يرده فرعون إلي مقامه وفي ثلاثة أيام أيضا .

ويصل المؤلف إلي هدفه من خلق هاتين الشخصيتين ، عندما يحرك لسان بطل قصته بهذه الكلمات ، وهي موجهة بالطبع للذي سيحيا ويسترد مقامه أمام عرش فرعون : « وانما إذا ذكرتني عندك حينما يصير لك خير تصنع إلي إحسانا وتذكرني لفرعون وتخرجني من هذا البيت » (تكوين ٤٠ : ١٤) .

لماذا يريد يوسف من كبير السقاة أن يذكره لفرعون ؟ هل يدري فرعون عن وجوده شيئا ؟ هل فرعون هو الذي وضعه في السجن ؟ بالطبع : لا . كان من الأولي أن يطلب الغلام من كبير السقاة عند خروجه من السجن أن يشفع له عند سيده فوطيفار ، فهو الذي حمي غضبه وأخذ يوسف « ووضعه في السجن » .

لكن فوطيفار كان دوره قد انتهي بالنسبة للمؤلف . إن هدف المؤلف الآن - بعد أن جعل من تفسير الغلام للحلمين حقيقة واقعة - هو أن يصل ببطل حكايته إلي أكبر رأس في الدولة .. إلي فرعون الملك .

ولكي يصل المؤلف إلي هدفه فإنه بكل بساطة يجعل فرعون هو أيضا يحلم .. لأنه إن لم يحلم فرعون فإن مقدرة يوسف التفسيرية لن يتم استثمارها ، ويضيع جهد المؤلف عبثا . إذن لابد وأن يحلم فرعون ، ولابد أيضا ألا يجد في أطراف مملكته من يستطيع أن يفسر له الحلم ، رغم شهرة المصريين الواسعة - في تلك الآونة - في أعمال الكهانة والسحر والحكمة . لكن لابد وأن يعجزوا جميعا ، لأن هذا هو مايريده المؤلف . هنا تدعو حتمية الموقف إلي ذكر العبد العبراني السجين ، وهنا أيضا يظهر الغلام وحده ، وسط الساحة بطلا .

ولم يكن من الصعب علي أي مؤلف ، حتي ولوكان علي قدر ضئيل من الموهبة، أن يجعل فرعون يحلم . وإذا هو ، أي فرعون « واقف عند النهر . وهو ذا سبع بقرات طالعة من النهر حسنة المنظر وسمينة اللحم . فارتعتْ في روضة . ثم هو ذا سبع بقرات أخري طالعة وراءها من النهر قبيحة المنظر ورقيقة اللحم . فوقفت بجانب البقرات الأولي علي شاطئ النهر . فأكلت البقرات القبيحة المنظر والرقيقة اللحم البقرات السبع الحسنة المنظر والسمينة . واستيقظ فرعون » (تكوين ٤١ : ١ - ٤) .

ثم يحلم فرعون حلما آخر عن سبع سنابل سمينة تبتلعها سبع سنابل فارغة . وبالطبع انزعج فرعون « فأرسل ودعا جميع سحرة مصر وجميع حكمائها . وقص عليهم فرعون حلمه » (تكوين ٤١ : ٢٨) .

ولابد من ملاحظة استخدام مؤلف الحكاية لكلمة « جميع » فهي تعبر عن مبالغة مقصودة ، وتغطي بحروفها الكثير من اللؤم والأكثر من الحقد المعتمل في صدر الكاتب اليهودي . إنه يريد أن يظهر جميع كهنة مصر ، وجميع حكمائها ، في حالة عجز كامل .. سقط الجميع أمام فرعون .. لم يستطع أي منهم تفسير الحلم !!

هنا يدخل المؤلف اليهودي بفتاه العبراني ، في استعلاء ، ويمنحه المقدرة القادرة، وبذلك يبدو كل حكماء مصر وكل كهنتها وكأنهم مجرد أقزام جهلة ، لايفقهون شيئا ، أمام حكمة ذلك الغلام عبد رئيس الشرط .

العقلية اليهودية - ويجب ألا ننسى أبدا أن المؤلف يهودي - المسحوقة بذل الاستعباد والنفي والتشرد والإحساس بالنقص ، تخلق هنا موقفا تعويضيا استعلائيا ، تظهر فيه أحد غلمانها وقد تفوق ، علي كل حكمة المصريين وعلمهم ، تفوقا ساحقا ماحقا ، رغم أن حكمة المصريين في تاريخها القديم كانت منارة ضوء يهتدي بها العالم أجمع .

رئيس السقاة يتذكر العبد العبراني ، ويحكي لفرعون كيف فسّر له ولصاحبه حلميهما ، « وكما عبّر لنا هكذا حدث » (تكوين ٤١ : ١٣) .

هكذا تلتقي الخيوط في الحبكة الروائية كما أرادها المؤلف « فأرسل فرعون ودعا يوسف » .

وكما هو متوقع ، يفسر الغلام الحلمين لفرعون في تمكن واقتدار ، فهو بطل الحكاية الأسطوري القادر علي مالا يقدر عليه أحد : الحلم واحد رغم تكراره مرتين

« هو ذا سبع سنين قادمة شبعا عظيما في كل أرض مصر . ثم تقوم بعدها سبع سنين جوعا فينسى كل الشبع في أرض مصر ويتلف الجوع الأرض » (تكوين ٤١ : ٢٩ - ٣٠)

ولا يكتفي العبد العبراني بتفسير الحكم كما أُمر ، لكنه يتمادي في تطاول غير متوقع ، فيقدم النصيحة لفرعون ، دون أن يطلب منه ذلك ، في وجود صفوة الحكماء وكبار الكهنة ، الذين ثبت جهلهم وبطل علمهم ، كما أراد المؤلف .

ينصح الغلام فرعون طالبا منه أن يوكل نظارا علي الأرض ويأخذ خمس غلة الأرض في سبع سني الشبع ويحتفظ بها ذخيرة لسبع سني الجوع .

وكأن هذه النصيحة الفذة لم تخطر علي بال أحد ، وكأنها هي خلاصة الخلاصة حتي التنزيل ، وكأن صفوة الحكماء والعلماء والكهنة ، كبارا كانوا أم صغارا، قد غيبت عقولهم وتبلدت أذهانهم في وجود الغلام الأعجوبة ، العبقري البدوي !!

ويتقدم مؤلف الرواية خطوة أخري إلي الأمام ، في الحدث الروائي . عندما ينطق بطله الصغير بنصيحة أخري يوجهها إلي فرعون مصر : « فالآن لينظر فرعون رجلا بصيرا وحكيما ويجعله علي أرض مصر» (تكوين ٤١ : ٣٣) . وبالطبع ، لن يجد فرعون في أرض مصر كلها رجلا بصيرا وحكيما إلا هذا « الغلام » ، وكأن أرض مصر بكل طولها وعرضها قد التهمت حكماءها وغدت عقيما ، ومالها من مخلّص إلا هذا الصبي .

هذا ما أراده المؤلف ، وما يريده المؤلف يكون في الحكي الأسطوري . فالأسطورة ، بجامح الخيال ، تبيح مالايباح في أرض الواقع ، وتخلق مالا يمكن أن يخلق بحكم المنطق ، ورغم ذلك فللأسطورة منطقها الخاص بها حتي ولوكان لا منطقيا .

يري فرعون في الحال ، وكأن قد أزيلت من علي عينيه غشاوة فأبصر فجأة ، أن « ليس بصير وحكيم مثلك » ، أي مثل ذلك « الغلام » ، وكلمة غلام هذه ليست من عندنا إنما استخدمها المؤلف نفسه في وصف البطل (١) .

ودون أدني تفكير يصدر فرعون فرمانا ملكيا ، غير قابل للنقاش أو الجدل : « أنت تكون على بيتي وعلي فمك يُقبّل جميع شعبي .. قد جعلتك علي كل أرض

---

(١) تكوين ٤١ : ١٢ .

مصر . وخلع فرعون خاتمه من يده وجعله في يد يوسف . وألبسه ثياب بوص (١) ووضع طوق ذهب في عنقه . وأركبه في مركبته الثانية ونادوا أمامه إركعوا » (تكوين ٤١ : ٤٠ - ٤٣) .

هنا تصل الأسطورة إلي ذروتها ، ويحلق المؤلف اليهودي ما فوق القمم ، في كبرياء تخيلي لا صلة له بالواقع ، وهو يجعل الشعب المصري يركع للعبد العبراني . إركعوا !! هكذا قالها بكل صلف ومركب النقص فيه - وهو الإحساس بالدونية - ينهش لب قلبه . إركعوا !! وكأننا نسمع فحيح السم في صوت اليهودي الأخنف وهو يحاول تحويل جموع الشعب المصري الشامخ إلي عبيد لذلك الصبي .

وفي أعماقه يشعر المؤلف اليهودي بالرضي ، رغم تأكده من أن الموقف كله قد تم تخيلا . لكنه في أعماقه يتمني أن قد يأتي جيل يهودي - في عمق الزمن القادم - يصدق ما خطته أقلام « الآباء » من أكاذيب .

يسيطر يوسف - حسب الحكي التوراتي - علي شئون مصر ويتحكم في مصير أبنائها ، بعد أن قال له فرعون « فبدونك لايرفع إنسان يده ولا رجله في كل أرض مصر » (تكوين ٤١ : ٤٤) . وتنتهي سنين الشبع ، وتحل سنوات الجوع ، ويكون الغلام قد خزن قمحا « كرمل البحر كثيرا جدا » . ويشتد الجوع في أرض مصر . ويتجه الجميع إلي العبراني لشراء القمح . وتزداد شدة الجوع ، ويزداد التزاحم علي الشراء ، حتي يجمع الغلام العبراني كل الفضة الموجودة في أرض مصر .

ويصرخ المصريون عند أقدام الغلام : إعطنا خبزا لنأكل . فلماذا نموت قدامك (تكوين ٤٧ : ١٥) .

هكذا يصل إذلال الشعب المصري - تخيلا - إلي منتهاه !! إعطنا خبزا لنأكل .. لماذا نموت قدامك .. هكذا صرخت جموع الجياع في استجداء ذليل وهي تسجد أمام الغلام .

لكن الغلام لا يكترث بجوع الشعب ، ويصم أذنيه عن أصوات البكاء والنحيب وصرخات الموت . يقول لهم في قسوة لا آدمية : « هاتوا مواشيكم إن لم يكن فضة أيضا فجاءوا بمواشيهم .. فأعطاهم .. خبزا بالخيل وبمواشي الغنم والبقر وبالحمير » (تكوين ٤٧ : ١٦ - ١٧) .

---

(١) ضرب من اللباس الملون المشغول المزركش وهو من الكتان النقي .. غير أن الاسم ربما كان منسوبا لأعواد ورقية تؤخذ من الغاب والبردى ثم تلون ويزخرف بها بعض الثياب (غطاس عبد الملك ، ص ١٥٥) .

وما يكاد العام أن ينصرم حتي يعود الجوع فيعض بأنيابه بطون الناس التي ما عادت تملك شيئا : لا ذهب ولا فضة ولا غنم ولا بقر ولا خيل ولا بغال ولا حمير كلها أصبحت في حوزة العبراني .. ولم يعد أمام الشعب تجنبا للهلاك إلا أن يبيع نفسه وأرضه : « لم يبق .. إلا أجسادنا وأرضنا . لماذا نموت نحن وأرضنا جميعا . اشترنا نحن وأرضنا بالخبز فنصير نحن وأرضنا عبيدا لفرعون » (تكوين ٤٧ : ١٨ - ١٩) .

وحسب الحكاية التوراتية ، ومؤلفها اليهودي ، يتم تحويل شعب مصر كله إلي جموع من العبيد . يقول الغلام لجموع الشعب : « إني قد اشتريتكم اليوم وأرضكم لفرعون .. فقالوا أحييتنا .ليتنا نجد نعمة في عيني سيدي فنكون عبيدا لفرعون » (تكوين ٤٧ : ٢٣ - ٢٥) .

هكذا نجد الغلام العبراني ، الذي جاء إلي مصر عبدا في بيت رئيس الشرط ، وقد حول الشعب المصري كله إلي شعب من العبيد .. يتحكم في مصائرهم ويجردهم من كل شئ .. الذهب والفضة والبهائم والأرض .. حتي أجسادهم تم شراؤها برغيف خبز .

خيال مريض ، لمؤلف مريض ينهكه الحقد ويدمره الإحساس بحقارة الشأن ، فيحاول في استماتة أن يخلق لنفسه ولآبائه تاريخا بطوليا ، حتي ولو كان هذا التاريخ قائما علي الوهم والادعاء ومتسربلا بعباءة الخيال الأسطوري .

ولو رجعنا إلي تاريخ مصر في تلك الفترة التي حدّد فيها مؤلفو التوراة وصول الغلام إلي مصر ، نجد أنها فترة حكم ملوك الأسرة السادسة عشرة في القرن السابع عشر قبل الميلاد . وكان السلطان في تلك الآونة في أيدي الهكسوس الرعاة ، وكانوا مجرد غرباء دخلاء استولوا علي الحكم في شمال البلاد ، ومن غير المتوقع أن يدين هؤلاء لمصر بأي ولاء .

وهذا معناه أن ذلك الغلام يوسف - طبقا للحكي التوراتي - قد تعاون مع أعداء مصر وأصبح في يدهم مجرد أداة لتجويع وإذلال واستعباد شعب مصر .

ويقول الدكتور أحمد شلبي إن الهكسوسي الذي اصطفي يوسف هو : فوتي فارع أو فوطيفار كما تذكره التوراة (١) . لكن بورتر يري أن الملك الذي سلم يوسف

---

(١) أحمد شلبي ، **اليهودية** ، ص ٥٢ .

مقاليد الأمور في مصر لم يُسمّ في الكتاب سوي فرعون ، فلم يعرف اسمة الشخصي ، لأن فرعون كان لقبا لكل ملوك مصر . وكثيرا ما بحثوا عنه رجاء أن يقفوا علي أثره في أخبار هذه المملكة فلم يعرفوه . ولم يجدوا إلي الآن بين الآثار أدني ذكر لبني إسرائيل وهم في مصر ، ولعل علة ذلك أن تغرب الإسرائيليين في مصر كان في عصر دولة الرعاة ، وهذه الدولة لم تترك آثارا يعتد بها .... إن عصر الرعاة كان قبل عصر الدولة الثامنة عشرة التي قامت في نحو سنة ١٧٠٠ ق . م . ويظن أن مدة ملك الرعاة نحو ٥٠٠ سنة ، أما زمان نزول يوسف إليها فكان بين الألفين والألف والسبع مائة قبل الميلاد ، فيوافق مدة الرعاة . ومنه أن فرعون هذا لم يكن من المصريين بدليل أنه رأس يوسف علي مملكته ورحب بإخوته ، والمصريون القدماء كانوا يبغضون الأجانب ويعتزلونهم ولاسيما الرعاة ، إذ هم رجس عندهم (١) .

وبخصوص الرعاة ، يورد الدكتور أحمد سوسة الرأي الغالب وهو أن الساميين كانوا قد نزحوا من جزيرة العرب إلي شبه جزيرة سيناء واستقروا هناك منذ أقدم أزمنة التاريخ . وكان المصريون يسمونهم منيوساتي أي « رعاة آسيا » . وصارت هذه القبائل تعرف لدي اليونانيين في وقت لاحق باسم الهيكسوس أي ملوك الرعاة . فغزت هذه القبائل من هناك سورية وفلسطين وأسست فيها دولة شملت ثقافتها القرنين الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد . وقد اغتنم هؤلاء الهيكسوس فرصة الضعف والانحلال اللذين كانا يسودان مصر حينذاك بسبب النزاع الداخلي بين مصر العليا ومصر السفلي ، فغزوا مصر واستولوا علي مصر السفلي ولاسيما الدلتا وثبتوا سلطانهم فيها حيث ابتنوا لهم عاصمة هناك . واستمر الهيكسوس يحكمون مصر السفلي زهاء القرنين بين سنة ١٧٨٥ وسنة ١٥٨٠ ق . م وكان المصريون يسمون الهيكسوس شاسو أي البدو وعرفت دولتهم بدولة البدو . وكان العرب يسمونهم العمالقة أو العرب البائدة (٢) .

ويكتب يوسيفوس المؤرخ اليهودي ، نقلا عن مانيتو المؤرخ المصري ، أن هذه الأمة كانت تسمي «هيكسوس » أي ملوك الرعاة لأنها مؤلفة من هيك ومعناها ملك وسوس ومعناها راعي .. وقد حكمت مصر ٥١١ سنة (٣) .

وينقل الأستاذ أحمد عثمان تفسيرا آخر لكلمة « هيكسوس » : إن أصلها كلمتان مصريتان حك بمعني حاكم و خاسوت بمعني البلاد الأجنبية . وعلي ذلك فمعني الإسم الذي أطلقه عليهم المصريون كان « حكام الأراضي الأجنبية » (٤) .

---

(١) بوتر ، ص ١١٥
(٢) أحمد سوسة ، ص ١٨٩ – ١٩٠ .
(٣) يوسيفوس ، ص ٦١٠ .
(٤) أحمد عثمان جـ ١ ، ص ٣٠ .

أما عن موقف من أسمتهم التوراة بالآباء وعلاقتهم بالهكسوس ، فيوضحها الأستاذ شفيق مقار بقوله : إنهم - أي العبرانيين - كانوا بدوا ساميين ظاوا يتسللون عبر الحدود المصرية هربا من الجوع فيطردهم المصريون ريثما يقيمون الأسوار والخنادق المائية في وجوههم ليمنعوهم من التسلل ثانية ، ثم - لمّا رسخ الهكسوس أقدامهم في الوجه البحري - توافدوا في حمايتهم وعملوا تحت إمرتهم كمرتزقة وعملاء ضد أصحاب البلاد الأصليين ، فيما تفصح عنه النسخة المعلاّة لتلك العمالة في حكاية يوسف وأخذه كل أراضي المصريين وأموالهم ومواشيهم ، بل وحريتهم لـ « فرعون » ، أي المتسلل الهكسوسي الذي تفرعن (٢) .

هنا يثار سؤال : ما هو الثمن الذي قبضه العميل العبراني من الدخيل الهكسوسي ؟؟

الإجابة - في النص التوراتي - واضحة جدا لدرجة تثير القرف من سلوك «الآباء» .

بعد أن يتأكد المتفرعن الهكسوسي من ولاء العميل العبراني ، يعيِّن يوسف وزيرا له ، ثم يقدم له زوجة مصرية هي أسنات بنت فوطي فارع كاهن أون ، وكان يوسف قد بلغ الثلاثين من العمر . وتكون ثمرة هذا الزواج ولدين ، هما أفرايم و منسي وحسب التقاليد الإسرائيلية الولد يكتسب جنسية أمه لكن يعقوب عندما يأتي إلي مصر يحرم ولدي يوسف من شرف هذا الانتماء : « والآن إبناك المولودان لك في أرض مصر قبلما أتيت إليك إلي مصر هما لي . أفرايم ومنسي كرأوبين وشمعون يكونان لي أما أولادك الذين تلد بعدهما فيكونون لك . علي اسم أخويهم يسمّون في نصيبهم » (تكوين ٤٨ : ٥) .

ولا يكتفي يوسف بسلب شعب مصر واستعباده لسيده الهكسوسي ، بل يغترف من خيرات مصر - رغم الجوع الضارب في كل الأرجاء - ويرسل إلي أبيه وقبيلته في أرض كنعان ما يكفيهم ويزيد ، مرة ومرة ، دون مقابل ، ودون أن يدرك - أو يكترث - أنه بفعله هذا ينتزع لقمة الخبز من فم من يستحق ويرسل بها دون مقابل إلي من لا يستحق .

(٢) شفيق مقار ، ص ٢١٥ .

تضرب المجاعة أرض كنعان فيرسل يعقوب أولاده ، باستثناء بنيامين ، إلي مصر لشراء قمح . ويتعرف يوسف علي إخوته لكنه لا يفصح ، وقد سجدوا له بوجوههم إلي الأرض ، فأمر أن « تملأ أوعيتهم قمحا وترد فضة كل واحد إلي عدله وأن يعطو زادا للطريق . ففعل لهم هكذا » (تكوين ٤٢ : ٢٥) . وكأن الغلام يعطي هكذا مجانا من ميراث أبيه .

وبعد أن يحتجز واحدا منهم ، يطلب أن لايعودوا إلا ومعهم أخاهم الأصغر بنيامين . وحدث أنهم لما فرغوا من أكل القمح ، الذي أتوا به مجانا من أرض مصر ، أن أباهم «إسرائيل » طلب منهم أن يذهبوا إلي مصر ثانية ويأتوه بمدد جديد . وهذه المرة يذهبون ومعهم بنيامين فتذبح لهم الذبائح رغم المجاعة ، ويقدم العليق لحميرهم ، أي أن الغلام لا يحتفي بـقدمهم فقط ، بل يحتفي أيضا بمقدم الحمير .

يأمر أعوانه أن يملأوا عدال الرجال ، أي عدال إخوته ، طعاما بأقصي ما يستطيعون حمله ، وهذا أيضا بالمجان ، فقد تم وضع فضة كل واحد منهم في فم عدله .

هكذا كانت عدالة « الغلام » العبراني : المصريون يقدمون كل ما يملكون من ذهب وفضة وغنم وبقر وخيل وحمير وبغال ويبيعون الأرض ، ثم يبيعون أنفسهم عبيدا لفرعون مقابل رغيف الخبز : « إعطنا خبزا لنأكل » . أما أهل يوسف فيغترفون من خيرات مصر بلا مقابل .

هكذا كانت عدالة « الغلام » ، وهي عدالة شوهاء عرجاء ، تتسم بالحقد والطمع والشراهة والسرقة .

وبعد حادثة طاس الفضة الذي يتم وضعه في فم عدل بنيامين واتهام الغلام لإخوته - كذبا - بالسرقة ، يكشف عن شخصيته ويعرّف إخوته بنفسه وعندما يلحظ ارتياعهم والهلع البادي علي وجوههم ، يطمئنهم ، بل ويشكرهم فهم السبب في تغيير مجري حياته إلي الأفضل ، فلولا بيعه عبدا في أرض مصر ، لظل مجرد عبراني مجهول ، مجرد راع للغنم ، بدوي يسكن خيمة ، أو ربما مجرد قاطع طريق . أما الآن فقد أصبح ، كما يقول « أبا لفرعون وسيدا لكل أهل بيته ومتسلطا علي كل أرض مصر » (تكوين ٤٥ : ٨) .

يطلب يوسف من إخوته الإسراع بالرحيل والعودة ، ليس بأبيه فقط ، بل وبأفراد الأسرة كلها .. الأب والأبناء وأبناء الأبناء . ولا يتردد فرعون الهكسوسي في الاغداق

علي عميله العبراني فيقول له « قل لإخوتك افعلوا هذا . حملوا دوابكم وانطلقوا إلي أرض كنعان . وخذوا أباكم وبيوتكم وتعالوا إلي . فأعطيكم خيرات أرض مصر وتأكلوا دسم الأرض . فأنت قد أمرت . إفعلوا هذا » (تكوين ٤٥ : ١٧ - ١٩) . هكذا !!

وكانت فرصة الحياة لجياع بني إسرائيل .. ففعلوا .

ويصل يعقوب المسمي بإسرائيل إلي مصر في صحبة بنيه ونسائهم وأولادهم « وكل نسله جاء بهم إلي مصر » . ويغدق الملك الدخيل عليهم : « في أفضل الأرض أسكن أباك وإخوتك . ليسكنوا في أرض جاسان » . وبذلك يستولي البدو الرعاة علي أفضل أرض مصر: « فأسكن أباه وإخوته وأعطاهم ملكا في أرض مصر في أفضل الأرض في أرض رعمسيس كما أمر فرعون » (تكوين ٤٧ : ١١) .

كان تعداد آل يعقوب حين أتوا إلي مصر سبعين نسمة ، عاشوا في عزلة كاملة . وعاش يعقوب في أرض جاسان (١) سبع عشرة سنة ثم مات ، وقد بلغ من العمر مائة وسبعا وأربعين سنة . وكان قد أوصي أن يدفن مع آبائه في المغارة التي في حقل عفرون والتي كان قد اشتراها جده إبراهيم .

بعدها يموت يوسف ، بعد أن عاش مائة وعشر سنين ، لكنه هو أيضا يوصي بألا يدفن في أرض مصر ، ربما لأنه أحس أن الأرض التي نهبها واستعبد أهلها لن تقبله في أحشائها ، فاستحلف بني إسرائيل قائلا : « الله سيفتقدكم . فتصعدون عظامي من هنا . ثم مات فحنطوه ووضع في تابوت في مصر » (تكوين ٥٠ : ٢٥ - ٢٦) .

وباختفاء هذا النجم الساطع في قصص الآباء ، كان لابد وأن تسلط الأضواء علي شخصية أخري متفردة ، كي يستمر الحكي التوراتي الذي يسجل علي أنه تأريخ .

هنا يبزغ لألاء نجم جديد ، إسمه موسي ، يحاط بها لات القداسة ، ويقدم في التوراة علي أنه هو النبي .

(١) هي منطقة صان الحجر وكانت إذ ذاك أحسن أراضي لرعي في إقليم شرقي الدلتا .

الفصل الثالث

الميلاد والنشأة

الفصل الثالث

الميلاد والنشأة

كما أسلفنا في نهاية الفصل السابق ، وصل أبناء يعقوب حسب رواية التوراة - إلي مصر لم يصلوا وحدهم بالطبع ، بل اصطحب كل منهم أفراد أسرته ، وكان العدد الإجمالي سبعين نفسا . هذا بالإضافة إلي يوسف الذي كان قد وصل من قبل وأصبح له فيها شأن كبير ، كما يقول المؤلفون وهذا العدد - سبعون - في رأي كاسوتو يشير إلي الكمال في أسرة بورك نسلها ، حسب التراث الإسرائيلي وما قبل الإسرائيلي (١) .

بهؤلاء العبرانيين القادمين كغبار الصحراء من أرض القحط رحب الملك الذي كان هو نفسه أجنبيا دخيلا ، يجلس علي عرش لاحق له فيه ويمكن زلزلته من تحته في أية لحظة يثور فيها أصحاب الأرض . لقد وجد الهكسوسي في العبرانيين الغرباء خير حلفاء ومنحهم أرض جاسان وهي من أفضل أراضي مصر وأكثرها خصوبة ويقول ميير Meyer إنهم عاشوا هناك وتكاثروا وتزايد عددهم حتي وصل إلي مايقرب من مليوني نفس (٢) وهذه بالطبع مبالغة غير مقبولة ، فمن غير المعقول أن يتكاثر سبعون رجلا وامرأة ويصبح عددهم مليونين خلال الفترة التي مكثوها في مصر وهي أربعمائة عام ، حسب الحكي التوراتي

ورغم استوزار الغلام العبراني - كما تقول الحكاية - وانتشار نفوذه في كل أرض مصر ، إلا أن قبيلته البدوية تفضل أن تعيش منفصلة ومغلقة علي نفسها في أرض جاسان

ويري بوبر Buber أن هذه العصبة من العبرانيين تدخل الأرض المصرية ذات التراث كوحدة واحدة ، وتستقبل التأثير المصري وتشكله كوحدة واحدة ، وتقاسي نير العبودية كوحدة واحدة ، وكوحدة واحدة تتحرر من عبوديتها وتحصل علي حريتها (٣)

---

(1) U Cassuto , A Commentary On The Book Of Exodus , Translated from Hebrew by Israel Abrahams . Jerusalem, The Magness Press , The Hebrew University 1974 P 7

(2) Rev F B Meyer , Moses The Servant of God Fleming H Revell Company , New York , n d , p 12

(3) Martin Buber , Moses The Revelation and The Covenant , Harper Torchboooks . The Cloister Library New York . 1958 ,P32

لكن تاسيتوس Tacitus له في تفسير هذا السلوك رأي آخر ، يورده يوسيفوس في كتابه عن الآثار اليهودية . يقول تاسيتوس إنه أثناء الفترة التي كان الشرق خاضعا فيها للسيطرة الأشورية والميدية والفارسية ، كان « اليهود » هم أشد أنواع العبيد إثارة للاحتقار والاشمئزاز . وفيما بينهم كانوا يخلصون ويتعاطفون مع بعضهم البعض ، لكنهم كانوا يشعرون بالعداوة والبغضاء تجاه الآخرين .. يعتزلونهم في المأكل والملبس وحتي في أماكن النوم (١) .

سبب انعزال العبرانيين – في رأي تاسيتوس – إذن هو الإحساس بالإهانة والذل والاستعباد . أما هارفي بورتر فيعزو سبب انعزالهم إلي المصريين ، عندما يدعي أن : غاية الله من تغريب الإسرائيليين في مصر كانت حفظهم من الهلاك زمن الجوع الطويل الذي كان يتوقع أن يصيب البلاد ، وتأديبهم وتعليمهم في مصر وفي البرية ، وحفظهم أمة لا تختلط بغيرها إلي أن يسكنوا أرض الميعاد .. لذلك بقوا أمة منفردة في مصر لأن المصريين كانوا يحسبونهم نجسين فلم يخالطوهم (٢)

لكن د . عبد المحسن الخشاب يورد رأيا في سبب عزلة العبرانيين ، يختلف تماما عما سبق من آراء إذ يري أن المصريين قد أدخلوا هؤلاء العبرانيين و « اليهود » (٣) في التقاليد المصرية في ذرية ست وجعلوه أبا لهم في خرافاتهم الدينية وهو الإله الذي يرمز إلي الجدب والقحط والصحراء والرمال الحارقة والبحر الذي يفسد ماء النيل ويفسد الأرض .... وهذا معناه أن هؤلاء العبرانيين ينحدرون من أصل شرير فهم كذابون ، ليسوا علي حق ، أنانيون منطوون بطبعهم ، عنصريون في حياتهم المنعزلة لايحبون خيرا لغيرهم كأبيهم الشرير (٤) .

ويختلف الدكتور أحمد سوسة في الرأي مع كل ماسبق من آراء ، فهو – علي حد قوله – لا يستطيع أن يتصور في ضوء التحليل العلمي أن تكون أسرة واحدة (لاعشيرة) .. تتكون من سبعين شخصا – علي قول التوراة – قد هاجرت إلي بلد غريب وبقيت زهاء خمسمائة عام في هذا البلد من غير أن تنصهر وتذوب في محيطها الجديد ثقافيا واجتماعيا وحتي عرقيا . ويضيف الدكتور سوسة أن قبائل الهكسوس

---

(١) يوسيفوس : ص ٥٤
(٢) هارفي بورتر ، ١١٥
(٣) لا نعرف لماذا استخدم د . عبد المحسن الخشاب كلمة « اليهود » في هذا السياق ، رغم أنها لم تبرز إلي الوجود ولم تستخدم أصلا إلا بعد وجود مملكة يهوذا عام ٩٢٢ ق.م علي وجه التقريب . ولم يطلق اسم اليهود علي الشعب يهوذا إلا في عام ٥٣٨ ق.م .
(٤) د . عبد المحسن الخشاب : ص ٣٧ – ٣٨

الحاكمةالتي عاش يوسف وإخوته في كنفها . هذه القبائل ذاتها أخذت باللغة المصرية وبثقافتها كما هو معلوم ، وصار أتباعها في آخر عهدهم مندمجين بالمحيط المصري حتي أخذوا يتسمون بأسماء مصرية ، كما أخذ ملوكهم يقلدون الفراعنة في سيرة حياتهم مع أنهم لم يبقوا في مصر أكثر من قرنين من الزمن (١)

العزلة الكاملة - إذن - كانت مستحيلة ، رغم أن تفاعل العبرانيين مع المصريين لم يصل إلي حد الذوبان أو الاندماج الكامل . فهذه القبيلة البدائية ، ذات المدنية الأولية - في رأي ديلي - قد احتكت في مصر بمدنية عريقة زاهرة . فأفادت كثيرا .. انقلب العبرانيون من بدو إلي حضر ، فاتخذوا عادات أهل المدن ، دون أن تزول مع ذلك غرائزهم القديمة ، وإنما أخذوا يعيشون هلي الأقل علي نمط آخر . وسوف يجني زعيم الغد « موسي » من ذلك الاحتكاك معلومات زراعية وعلمية واقتصادية ، ويتعلم كيف تنشأ دولة منظمة ، وكيف يقوم دستور سياسي . ورغم أن هجرة عشيرة من البدو ليس فيه ما هو جدير بالذكر ، الا أنها مع ذلك قد أتاحت لذرية إبراهيم أن تعيش وتزدهر وتصير شعبا يطلق عليه التاريخ اسم شعب العهد (٢)

يموت يوسف - كما أسلفنا - بعد أن بلغ المائة وعشر سنين . ويموت إخوته بعد أن تمرغوا في نعيم مصر وعاشوا حياة ما حلموا بها . وتنقل ذرية العبرانيين جثث موتاهم إلي حبرون (٣) حيث يتم دفنهم . أما عظام يوسف فلا يتم نقلها إلا بعد سنين طويلة عندما تحين لحظة الخروج . أما لماذا لم تنقل مع جثث إخوته وتدفن في صحبتهم . فهذا مالا يذكره مؤلفو التوراة . ويبدو أنهم ارتأوا أنه من الأفضل أن يتركوا هذا الشرف للزعيم القادم ، كي يخرج النجم الجديد وهو يحمل بقايا النجم القديم ، رمزا للولاء والانتماء .

لقد عاش هؤلاء جميعا في كنف الهكسوس الذين كونوا الأسر الخامسة عشره والسادسة عشرة والسابعة عشرة . ويحدد د . أحمد شلبي فترة حكمهم ما بين عامي ٢٠٩٨ - ١٥٨٧ ق م (٤) .. دخلوا مصر من الشمال الشرقي ، وهذا معناه أنهم من جرة العرب ، وقد دفعهم القحط والجوع إلي أرض مصر ، فاستولوا علي الشمال الشرقي منها وجعلوا عاصمتهم تانيس (صوعن) في شرق الدلتا جنوبي بحيرة المنزلة وكما يقرر بورتر ، نقلا عن مانيتو . كان الرعاة غلاظا قساة القلوب . عاملوا

---

(١) د . أحمد سوسة ، ص ٤٨٥
(٢) ديلي ، ص ١٢٦
(٣) تعرف الآن باسم مدينة الخليل
(٤) د . أحمد شلبي ، ص ٣٩

المصريين بالقساوة والظلم وحرقوا المدن وخربوا الهياكل وحملوا الناس علي عبادة آلهتهم الغريبة وذبحوا الرجال واستعبدوا النساء والأولاد (١)

لكن الرعاة الهكسوس لم يستطيعوا الاستيلاء علي جنوب مصر الذي ظل مستقلا يسيطر عليه المصريون من أمراء طيبة ولم ينس هؤلاء الأمراء أبدا أن في مصر غزاة ، دخلاء أجانب ، يجب طردهم وتطهير البلاد من عار وجودهم .

بدأت معارك استمرت ما يقرب من خمسين عاما ، انتهت بدحر الهكسوس وهزيمتهم علي يد القائد المصري الأشهر أحمس مؤسس الأسرة الثامنة عشرة .

ومن بعد أحمس جاء تحتمس الثاني كي يكمل مطاردة الهكسوس ويغزوهم في مقرهم ويقضي علي كيانهم في بلاد الشام ، في معركة كبري وقعت - كما يذكر الدكتور أحمد سوسة - في مجدو عام ١٤٧٩ ق . م . فثبت بذلك النفوذ المصري هناك ، وأسست الإمبراطورية المصرية التي شملت سورية وفلسطين (٢) .

ولقد كان لطرد الهكسوس أثره المحزن علي وجود سلالة العبرانيين من بني إسرائيل . لقد فقدوا الرعاية والحماية التي كان يوفرها لهم الملوك الدخلاء . وكما يحكي كتبة التوراة ، تولي حكم مصر ملك لايعرف يوسف : « ثم قام ملك جديد علي مصر لم يكن يعرف يوسف فقال لشعبه هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا . هلم نحتال لهم لئلا ينمو فيكون إذا حدث حرب أنهم ينضمون إلي أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض » (خروج ١ : ٨ - ١٠) .

ويجب ملاحظة استخدام كاتب التوراة اليهودي لكلمتي « أكثر » و« أعظم » في وصفه لسلالة بني إسرائيل ، إذ لا يمكن أن يصدق إنسان عاقل أن الشراذم العبرانية التي جاءت إلي مصر زحفا علي بطونها ، مدفوعة بالقحط والجوع ، قد أصبحت أكثر وأعظم من شعب أقام حضارة إمبراطورية راسخة كان لها تأثيرها وثقلها في عالم ذلك الحين . لكنها المبالغة المقيتة المتفجرة من ينابيع الحقد اليهودي الضاربة جذوره في عمق الإحساس بالنقص .

وهذا مادفع كتبة التوراة إلي رسم صورة حاولوا أن يجعلوها محزنة ، بل ومفجعة ، للاضطهاد الذي لاقاه بنو إسرائيل في مصر وكالعادة ، جعلوا الألوان

---

(١) بورتر ، ص ١٧
(٢) د أحمد سوسة ، ص ١٩٥

مظلمة والظلال قاحلة والمبالغات كاذبة ، ومن الصعب - إن لم يكن من المستحيل - أن تكون قابلة للتصديق .

بنو إسرائيل ، في أرض جاسان علي حدود مصر الشرقية ، لم يعودوا محل ترحيب فرعون « الذي لايعرف يوسف » ، بل قد أصبحوا مكمن خطر في تطلعهم الدائم إلي ذلك الشرق من حيث قد يأتي غزاة جدد ، كنعانيون كانوا أو سوريون . وبالطبع سينضم البدو إلي بني جلدتهم وينقلبوا علي البلد الذي آواهم ، في محاولة يائسة لا سترداد المجد القديم .

هذا إلي جانب أن هؤلاء العبرانيين قد نالوا من خيرات مصر أفضلها ، بل إن بعضهم قد أصبح علي قد كبير من الثراء مما أثار حسد المصريين (١) . لقد احتكر البعض صياغة الذهب والفضة والاتجار فيهما ، أما الغالبية فقد أثرت من المراعي الخصبة التي تركت فيها مواشيهاترعي وتتكاثر وتجلب الوفير من المال دون جهد يذكر من هؤلاء الرعاة . ويري الدكتور أحمد شلبي أن العبرانيين كانت لهم قوة ومنعة ما جعلهم يكونون دولة داخل الدولة . وكان هذا مصدر خطورة ، بل إن تآمرهم علي شعب مصر وحكامها لم يكن أمرا مستبعدا (٢) .

من هنا تبدأ حكاية الاضطهاد ، ومن هنا أيضا تبدأ حكاية الاستعباد : كما يدعي كتبة التوراة .

لابد من وقف تكاثر بنى « إسرائيل » وذلك عن طريق تكليفهم بالأعمال الشاقة ، وإرغامهم علي مواصلة العمل بصورة أقرب ما تكون إلي الهلاك ، فربما قضي ذلك علي أكثريتهم ، وحال دون تكاثرهم . هذا ما صورته أقلام مؤلفو التوراة : جعل المصريون علي العبرانيين « رؤساء تسخير لكي يذلوهم بأثقالهم . فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورعمسيس » . ويدعي المؤلفون أنه كلما ازداد إذلال بني إسرائيل ازدادوا نموا وامتدادا . كيف ؟ هذا مالا يقدمون له تفسيرا . ويبدو أن سلالة يعقوب الملقب بإسرائيل قد تآلفت مع الإذلال والامتهان حتي العشق ، فتناكحت في ظلها وتوالدت وازدادت عددا ، إلي درجة أن المصريين « اختشوا من بني إسرائيل فاستعبد المصريون بني إسرائيل بعنف ومرروا حياتهم بعبودية قاسية في الطين واللّبن وفي كل عمل في الحقل . كل عملهم الذي عملوه بواسطتهم عنفا » (خروج ١ : ١١ -- ١٤)

---

(١) يوسيفوس ، ص ٥٥ .
(٢) د. أحمد شلبى ، ص ٥٣ .

ويدعي يوسيفوس أن المصريين قد سخروا العبرانيين في بناء أهرام (١)، ولايحدد أية أهرام.

وهذه كذبة كبري، إذ تم بناء الأهرام الثلاثة الكبري قبل وصول بني إسرائيل إلي مصر بمئات السنين، وذلك في عهد ملوك الأسرة الرابعة: ٢٦٧٩ - ٢٥٤٨ ق. م، أي قبل تسخير بني إسرائيل - كما يقول كتبة التوراة - في القرن الثالث عشر تقريبا بحوالي ألف وثلاثمائة عام، وقبل وصول إبراهيم نفسه - الذي لم يكن إسرائيليا أو يهوديا - بحوالي سبعمائة عام.

فكيف قام، أو اشترك، بنو إسرائيل في بناء الأهرام قبل أن يكون لهم وجود في مصر أو حتي خارج مصر؟

في عصر بناء الأهرام لم يكن هناك بنو إسرائيل. إنهم يكذبون.. يزيفون التاريخ!!

لم يكتف فرعون مصر بهذا الامتهان والإذلال والتحقير لسلالة إسرائيل، بل إنه تمادي - في خيال الكاتب اليهودي - إلي حد مقابلة قابلتي العبرانيات. ولكي يحبك المؤلف روايته فإنه يذكر اسمي القابلتين: إحداهما تدعي شفره والأخري تدعي فوعه.

هل هناك تأريخ أشد دقة من هذا التأريخ؟ إن المؤلف يغوص إلي أعمق الأعماق ويورد كل التفاصيل مهما كانت تفاهتها، فيذكر بدقة متناهية إسمي القابلتين اللتين كانتا تولدان نساءالعبرانيات.

لكن المضحك حقا، بل والمثير للسخرية أيضا، هو أن ذلك المدقق المتعمق العالم ببواطن الأمور إلي درجة تذكر اسمي القابلتين، لم يتذكر - أو لعله نسي أو تناسي - اسم فرعون مصر العظيم، فلم يدونه فيما تركه لنا من توراة.

وقد نجد عذرا لذلك الكاتب اليهودي المجهول، إذ ربما اعتقد أن اسمي القابلتين أكثر أهمية من اسم فرعون الملك الذي أذل سلالة إسرائيل ومرغهم في وحل الطين، أو ربما اعتقد أنه بذكر اسم فرعون الملك قد يخلده في حكيه التوراتي، وهذا ما لايجب أن يفعله كاتب يهودي. لكن الأرجح هو أن الكاتب كان ينظر في أعماقه

(١) يوسيفوس، ص ٥٥.

المظلمة ويكتب ولا صلة بين أعماقه والتاريخ . وبناءً عليه فقد ترك فرعون بدون اسم ، وليتخيل القارئ فرعون .. أي فرعون .

يقول فرعون ، مجهول الاسم ، للقابلتين : « حينما تولدان العبرانيات وتنظرانهن على الكراسي . إن كان ابنا فاقتلاه وإن كان بنتا فتحيا . لكن القابلتين خافتا الله ولم تفعلا كما كلمهما ملك مصر . بل استحيتا الأولاد » (خروج ١ : ١٦ ـ ١٧) .

ومن المستغرب غير القابل للتصديق ، أن بني اسرائيل ، وقد ازداد عددهم زيادة هائلة حتى بلغ ما يقرب من المليونين - كما يقول مير - لم يكن لديهم سوى قابلتين لتوليد آلاف النساء !! كان على الكاتب اليهودي أن يزيد عدد القابلات ، كي يحظى حكيه بقدر من المعقولية ، إلا إذا كان يعتقد أنه بحصر العدد في اثنتين فقط يلتزم بحقائق التاريخ !!

يبرز الكاتب القابلتين ، بعد لقائهما بفرعون ، في صورة بطولية : إنهما ترفضان أوامر الملك !! « ولكن القابلتين خافتا الله ولم تفعلا كما كلمهما ملك مصر . بل استحيتا الأولاد . فدعا ملك مصر القابلتين وقال لهما لماذا فعلتما هذا الأمر واستحييتما الأولاد فقالت القابلتان لفرعون إن نساء العبرانيات لسن كالمصريات فإنهن قويات يلدن قبل أن تأتيهن القابلة . فأحسن الله إلى القابلتين ونما الشعب وكثر جدا (خروج ١ : ١٧ - ٢٠)

ويجب ملاحظة تلك اللمسة اللئيمة من الكاتب اليهودي عندما يقارن بين النساء العبرانيات والمصريات ، فيصف العبرانيات بأنهن قويات يلدن قبل وصول القابلة، ولسن كالمصريات . وبالطبع يفهم من مضمون القول أن المصريات ضعيفات هزيلات لا يستطعن الولادة إلا في وجود القابلة .

هذه القصة الساذجة - كما يقول الأستاذ عصام الدين حفني ناصف - تلبس عاهل مصر العظيم ثوب العجز عن التخلص من عبيده الحاكية بإجراء حاسم مع اقتناعه بشدة خطرهم ، فيسف إلى الائتمار هو وقابلتان في ذلك المطلب السخيف هذه القصة - في رأي الأستاذ ناصف - هي الصورة اليهودية لأسطورة طالما صاحبت مولد المخلصين لتضفي عليهم الجلال والبهاء (١) . والمخلص الذي يشير إليه الأستاذ ناصف هنا هو موسى بن عمرام .

(١) عصام الدين حفني ناصف ، محنة التوراة على أيدى اليهود ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ، ١٩٦٥ ص ٤٣

يورد كاسوتو Cassuto أمر الملك للقابلتين بقتل أطفال العبرانيين ويعلق عليه : كان علي القابلتين قتل الأطفال سرا حتي لايفطن إلي ذلك أهل الطفل ولا تكتشف الجريمة ، ويعتقد الجميع أنه مات بصورة طبيعية إما قبل الولادة أو في أثنائها . والقصة بأكمالها تم عرضها بصورة شاعرية تقترب من الأدب الشعبي وتبتعد عن الواقع . فليس من المعقول أن يتم حوار بين الملك المعبود وقابلتين عبرانيتين بهذه الصورة التي وردت في النص (١) .

ومن الغريب أن فرعون لايعاقب القابلتين عندما تعصيان أمره . لا يفعل ولا يغضب ولا يأمر بحرقهما أو تكبيلهما بالحديد وإلقائهما في قاع البحر ، بل يتركهما وشأنهما . وهذا كرم كبير في السلوك لم يفطن إليه المؤلف . ولو قد فطن إليه لأدرك أن هناك تناقضا في رسم الشخصية . إنه يكتفي بأن يقول : « ثم أمر فرعون جميع شعبه قائلا كل ابن يولد تطرحونه في النهر . لكن كل بنت تستحيونها » (خروج ١ : ٢٢)

هذا معناه – في تصور الكاتب اليهودي – أن فرعون بأمره قتل الأبناء سيوقف نمو بني إسرائيل ، ويقلل من أعدادهم ، بل وقد يؤدي هذا إلي انقراضهم . أما البنات ففرعون مصر يريدهن . ربما يتخيل الكاتب اليهودي – المريض وهما – أن فرعون يبتغي من وراء ذلك أن ينكح أبناء المصريات بنات العبرانيات ، وبذلك يذوب الجمع العبراني الصغير في الجمع المصري الكبير ، وتنتهي مشكلة وجود بني إسرائيل

وفي تعليق شديد اللمح ، شديد اللفح ، يقول مارتن بوبر Buber : إن قصة قتل أطفال العبرانيين تتناقض تماما مع قصة استعبادهم .. التعارض في المنطق شديد الوضوح ، إذ أن اقتصاد العبيد يهدف إلي زيادة أعدادهم لا إلي القضاء عليهم . ومن الواضح أن القصة قد تم اختراعها كي يتم إنقاذ الطفل موسي . وهكذا تبدأ أسطورة ميلاده ، وأسطورة انقاذه لبني إسرائيل (٢) .

ورغم كل التناقضات الورادة في الحكي التوراتي ، إلا أن الصورة التي يحاول الكاتب ابرازها هي صورة العبودية والقتل والإذلال . ويعلق الأستاذ ناصف علي موضوع العبودية هذا بكلمات نافذة ساخرة ، يقول : وعلي فرض أن ثمة عبودية ، فمن الذي ضربها علي العبريين والمصريين جميعا ؟ إنه دخيل من بني إسرائيل لم يزل يحتال علي فرعون حتي ظفر بثقته . لقد قبض يوسف علي أزمة الأمور في مصر وأصبح

---

(١) كاسوتو ، ص ١٢
(٢) بوبر ، ص ٣٤

صاحب الأمر والنهي فيها . ودأب يخزن القمح في أهراء فرعون حتي إذا ما انصرمت سنون الرخاء وأجدب القوم اهتبل جوعتهم فاستصفي ما كانوا يملكون من عقار وما كانوا يدخرون من نقود ، ثم خيرهم - ولا خيار - بين العيش عبيدا أو الموت جياعا (١) . وهذا يتفق مع ماذكرناه من قبل من أن « الغلام » العبراني هو الذي أرسي قواعد العبودية في مصر .. حسب الحكي التوراتي .

لكي ديلي يري أنه رغم كل ما ذكر عن إذلال بني إسرائيل وتسخيرهم ، فأن الأغلبية الساحقة منهم كانت تعيش في رخاء ، فلم يكن لينقصهم السمك أو القثاء ، أو البطيخ والكرات والبصل . ولسوف يتذكرون ماحيوا طعم الخبز الطيب الذي أكلوه وكذا اللحوم الفاخرة الإعداد والتي يسيل لها اللعاب (٢) .

ويتبني الأستاذ شفيق مقار نفس الرأي عندما يقرر أن العلاقات بين المصريين و«الشعب » لم تكن منطقا .. علاقات اضطهاد ومطاردة من جانب المصريين لـ «الشعب » المبارك ، وإلا لما أمكن أن تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها المصرية أمتعة ذهب وأمتعة فضة وثيابا ، فتعطيها الجارة المصرية الذهب والفضة والثياب هكذا عن طيب خاطر .... إن حياة الشعب في مصر لم تكن حياة قوم مستعبدين محرومين جائعين ، بل كانت حياة رضية مشبعة (٣) .

بنو إسرائيل ، إذن ، لم يتحولوا في مصر إلي عبيد ، ولم يسخرهم المصريون في بناء المدن وصناعة اللبن . إن الجماعة التي سخرها رعمسيس الثاني ١٣٠٠ - ١٢٣٣ ق . م - في رأي الدكتور أحمد سوسة - هي من بقايا الهكسوس ، ذلك لأن المدينة التي سخروا لبنائها والمسماة باسم رعمسيس بنيت في موضع مدينة أفاريس عاصمة الهكسوس . وبطبيعة الحال فإن من بقي من الهكسوس في مصر لابد وأن يكون قد تجمع في هذه المنطقة ذاتها فسخروا في بناء المدينة الجديدة في نفس المكان ، مع العلم أن المصريين كانوا يعتبرونهم ، بعد القضاء علي حكم الهكسوس في مصر ، مصدر خطر علي الدولة . ومما يؤكد ذلك أن المؤرخ المصري القديم مانيتون Ma-netho يشير إلي أن بقايا الهكسوس الذين تخلفوا في مصر بعد زوال حكم الهكسوس من البلاد قد تحصنوا في العاصمة أفاريس ولم يستطع المصريون التغلب

---

(١) ناصف ، ص ١٥
(٢) ديلي ، ص ١٣٤ .
(٣) شفيق مقار ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

عليهم ، فلجأوا إلي المصالحة علي أن يخرج الجميع مع مُمتلكاتهم من غير أن يمسوا بسوء (١) .

ولأن المصريين كانوا يطلقون كلمة أبيرو أو عبيرو أو هبيرو علي الرعاة الهكسوس ، لذا فقد التقط كتبة التوراة الموقف كله ونسبوه إلي العبرانيين ، أي إلي سلالة يعقوب ، كي يخلقوا الجو الدرامي شديد التأزم والذي يستدعي ظهور البطل المخلّص .

يتم الإعداد لظهور البطل بنسج أسطوري فريد ، يحدثنا عنه المؤرخ اليهودي يوسيفوس ، عندما يدعي بأن أحد الكهنة المقدسين أخبر الملك ، في تلك الآونة ، أنه سيولد للعبرانيين غلام ، وأن هذا الغلام سوف يحط من قدر مصر وأهلها ويرفع شأن بني إسرائيل . وعندما سمع الملك هذه النبوءة تملكه فزع عظيم . وعملا بمشورة الكاهن ، أمر الملك أن يلقي كل مولود ذكر لبني إسرائيل في النهر حتي يموت (٢) .

هكذا تخلق الأسطورة ، منذ البداية ، في جو من العذابات والمعاناة ، وتلازم البطل منذ لحظة الميلاد وأثناء تنشئته وحتي منتهاه .

كان لابد وأن تبرز صورة ذلك الرجل الذي أنجب البطل .. العبراني الذي بذر تلك البذرة التي أنبتت المخلّص . يقول ميير Meyer إنه من المحتمل جدا أن الأب كان ضمن الكادحين المرغمين علي الخضوع لنير العبودية ، والضربات العاتية التي حولت حياة العبرانيين إلي مرارة مرة . كان عليه أن يعمل تحت تهديد الكرباج عريانا من الصباح إلي المساء تحت أشعة الشمس الحارقة ، كي يعود إلي بيته في أغلب الأحيان والدماء تسيل من جروح الجلد .. وتدور بخاطره أسئلة عن وجود الله نفسه وعن رحمته التي أحيانا ما يتحدث عنها الناس (٣)

في السطور السابقة ، وهي شديدة الاختصار ، شديدة البلاغة ، شديدة التأثير ، يتم تصوير الأب وهو يعمل عريانا في عبودية ذليلة ، تسيل من جروحه الدماء . أما لماذا كان أبو موسي يعمل عريانا فهذا ما لم يفسره لنا المؤلف . أكان لا يملك ما يستر به عورته فخرج من بيته عريانا وعمل عريانا ولا حيلة له في ذلك ؟ أم أن المصريين - في تصور الكاتب - كانوا يفضلون أن يعمل عبيدهم عرايا كي يستمتعوا

---

(١) د . أحمد سوسة ، ص ٥٥٣

(٢) يوسيفوس ، ص ٥٥

(٣) ميير ، ص ١٢

بالنظر إلي أجسادهم التي ترعرعت فيها كل أنواع الأمراض الجلدية من شدة قذارة أصحابها ؟!

علي أية حال ، تبرز صورة الأب ، وتصفة التوراة « علي أنه رجل من بيت لاوي ذهب وأخذ بنت لاوي ، أي امرأة من نفس البيت » فحبلت المرأة وولدت ابنا ولما رأته أنه حسن خبأته ثلثة أشهر (خروج ٢ : ١ - ٢) . ويصف يوسيفوس الطفل بأنه كان علي قدر هائل من الحسن لدرجة مدهشة ولافتة للأنظار (١) .

طبقا لرواية التوراة - إذن - ينتسب موسي إلي بيت لاوي : رجل من بيت لاوي تزوج امرأة من بيت لاوي ، وكان الحصاد هو ميلاد موستي . كان ذلك في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، علي وجه التقريب . ولا توجد إشارة من أي نوع - في النص التوراتي السابق - إلي أي أبناء آخرين .

لكن في سفر العدد يرد الحدث مع شئ من التفصيل فيذكر اسم الأب واسم الأم واسمي ابن وابنة تمت ولادتهما قبل ميلاد موسي : « وأما قهات فولد عمرام . واسم امرأة عمرام يوكابد بنت لاوي التي ولد للاوي في مصر فولدت لعمرام هرون وموسي ومريم أختهما . ولهرون ولد ناداب وأبيهو وألعازار » (عدد ٢٦ : ٥٨ - ٦) . ويقول مير إن مريم هي الأخت الكبري ، وكانت تكبر موسي بخمسة عشر عاما وتتمتع بموهبة أخاذة في جمال الصوت عند الغناء . أما هارون فقد كان في الثالثة من عمره ، وكطفل كان علي قدر كبير من الذكاء والمرح (٢)

الملفت للنظر هنا هو أن عمرام تزوج من يوكابد وهي عمته ، أي أنه زواج محارم . لكن د. ثروت الأسيوطي ، في كتابه عن « نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين في الجماعات البدائية » ، يقرر أنه لم يكن هناك محارم من جهة الأب ، فكان يجوز الزواج بالعمة وابنة الأخ بل والأخت لأب (٣) .

ولقد تم تأثيم زواج المحارم فيما بعد في سفر اللاويين « عورة أختك بنت أبيك أو بنت أمك المولودة في البيت أو المولودة خارجا لا تكشف عورتها .... عورة أخت أبيك لا تكشف . إنها قريبة أبيك . عورة أخت أمك لاتكشف . إنها قريبة أمك . عورة أخي أبيك لاتكشف . إلي امرأته لا تقترب إنها عمتك » (لاويين ١٨ : ٩ - ١٤) .

---

(١) يوسيفوس ، ص ٥٧

(٢) مير ، ص ١٣ .

(٣) د . ثروت أنيس الأسيوطى ، نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين : الجماعات البدائية . بنو إسرائيل ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة . بدون تاريخ ، ص ١٥٥ .

تزوج اللاوي - إذن - من عمته اللاوية قبل التحريم . واللاويون هم سلالة لاوي بن يعقوب . وذلك المولود لعمرام - كما يقول يوسيفوس - ينتمي إلي الجيل السابع من سلالة إبراهيم فهو بن عمرام ، بن قحات ، بن لاوي ، بن يعقوب ، بن إسحق ، بن إبراهيم (١) .

ويبدو أن نسبة الوليد الجديد إلي سبط لاوي كانت مقصودة من مؤلفي التوراة ، فسبط لاوي - في رأي الأستاذ شفيق مقار - هو سبط الأفعي ، الحية المتحوية ، التنين لوياثان Levi - athan ، والتنين حية قاذفة لهب . وقد كانت أول قدرة عزيت إلي [موسي] ، بعد قدرة الدخول في النار والخروج منها وقدرة التحكم فيها ، هي قدرة تحويل العصي إلي حيات (٢) .

ومع ميلاد الطفل - أي منذ البداية - يبدأ حكي الأساطير الذي يلازمه حتي النهاية ، أي حتي الموت . يروي ميير أن الأب عمرام رأي في المنام أن هذا الطفل المولود هو الذي سيخلص قومه من نير الذل ، لذا لم يتملك الخوف قلب الأب أو الأم عند ميلاده . ويستمر ميير في حكيه وكأنه شاهد عيان حضر لحظة الميلاد ، يقول : عندما تأمل الأب والأم وجه الطفل في ذلك الكوخ القروي الفقير - إذ كانوا أسرة متواضعة وقبيلة لاوي لم تكن لها أية أهمية في ذلك الحين - تملكهما الإحساس بأن ولدهما سيكون له شأن كبير . إن الحلم الذي حلمه عمرام لا يمكن أن يكون عبثا . لقد مر ما يقرب من اربعمائة عام علي وجود بني إسرائيل في مصر ، وهذا معناه أن الوعد علي وشك أن يتحقق (٣) .

ترعي الأم وليدها سرا في كوخها الفقير ، لمدة ثلاثة شهور ، لكن في نهاية هذه المدة - كما يقول كاسوتو Cassuto - يشتد صوت الطفل بحيث يصبح مسموعا خارج جدران البيت ، ولا تستطيع أن تخفيه أكثر من ذلك .. لذا تقرر أن تسلمه إلي عناية الله (٤) .

هنا تبدأ أسطورة الطفل في سفط القش ، الذي يوضع بين الحلفاء علي حافة النهر ، كي تنقذه إحدي الأميرات ، ويتربي في قاعات القصر ، تحتضنه قوائم العرش ، فينشأ كما الأمراء ، ويتعلم ويتثقف ويصبح من أصحاب الشأن . ويري بوبر Buber

---

(١) يوسيفوس ، ص ٥٧ .
(٢) شفيق مقار ، ص ٥٩ .
(٣) ميير ، ص ١٥ .
(٤) كاسوتو ، ص ١٧ .

أن إنقاذ موسي ، في القصة التوراتية ، له دلالة شديدة الوضوح : إن الشخص الذي تم اختياره ليحرر أمة ، لكي يصبح قائدا قادرا كان لابد وأن يدخل إلي قلعة الأعداء ، أي إلي البلاط الملكي الذي استعبد إسرائيل ، كي يتربي هناك ويكبر . إن هذا النوع من التحرير لايقدر عليه شخص نشأ وتربي كعبد بين العبيد .. الذي يقدر عليه فقط هو الذي تربي بين مضطهديهم ودرس حكمتهم وتمرس بقوتهم ، ثم بعد ذلك يخرج إلي إخوانه كي يرقب أحوالهم ويخفف أحمالهم (١) .

وطبقا لحكاية التوراة ، فإن الأم عندما وجدت نفسها عاجزة عن إخفاء طفلها « أخذت له سفطا من البردي وطلته بالحُمَر والزفت ووضعت الولد فيه ووضعته بين الحلفاء علي حافة النهر . ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يفعل به . فنزلت ابنة فرعون إلي النهر لتغتسل وكانت جواريها ماشيات علي جانب النهر . فرأت السفط بين الحلفاء فأرسلت أمتها وأخذته . ولما فتحته وإذا هو صبي يبكي . فرقت له وقالت هذا من أولاد العبرانيين . فقالت أخته لابنة فرعون هل أذهب وأدعو لك امرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد فقالت لها ابنة فرعون اذهبي . فذهب الفتاة ودعت أم الولد ... ولما كبر الولد . جاءت به إلي ابنة فرعون فصارلها ابنا . ودعت اسمه موسي . وقالت إني انتشلته من الماء » (خروج ٢ : ٣ - ١٠) .

والحكاية كما تبدو تخلو من المصداقية وتعتمد علي المبالغة في الكلمة والصورة ويدعي ميير أن أم موسي ، بعد أن أرقدته في السلة وودعته بقبلاتها ، وضعته علي حافة النهر بين الحلفاء ، فقد كانت تعرف أن ابنة فرعون تأتي كي تستحم في هذا المكان ، وربما يسترعي انتباهها هذا الطفل فتحنو عليه (٢) .

هنا تثار عدة أسئلة : كيف عرفت أم موسي بميعاد خروج ابنة فرعون للاستحمام ؟ هل كانت أكواخ العبرانيين المستعبدين تحيط بقصر فرعون الذي كان يعتبر نفسه سليل الآلهة ؟ هل كانت ابنة فرعون تخرج هكذا علنا كي تستحم أمام أعين الناس ، بدليل أن مريم أخت موسي كانت تراقبها دون خشية ؟! هل كان من السهل علي ابنة أحد العبيد العبرانيين أن تتحدث هكذا بمنتهي السهولة إلي ابنة فرعون الملك وتقترح عليها أن تحضر لها مرضعة من نساء العبرانيين ؟ أم أن إحدي

---

(١) بوبر ، ص ٣٥ .
(٢) ميير ، ص ١٦ .

معجزات الإله يهوه - الذي لم يكن قد ظهر بعد - هي التي جعلت مريم تلتقي بابنة الملك المعبود وتتحدث إليها كما لو كانت تتحدث إلي ابنة عبد في كوخ قريب ؟

يقول فريزر إن الحكاية - رغم خلوها من العناصر الخارقة للعادة - تحتوي علي ملامح يمكننا أن ننسبها ، بعد شيء من التدبر ، إلي مجال الفولكلور أكثر من أن ننسبها إلي التاريخ ؛ إذ يبدو أن القاص ، لكي يزخرف معجزات البطل ، رغب في أن يحكي كيف تعرض الرجل العظيم للخطر ساعة ميلاده ، وكيف أن الطفل لم ينقذ من الموت المحقق إلا من خلال حادثة تبدو للعين العادية أنها حدثت صدفة ، وإن تكن قد أثبتت حقا أن يد القدر قد تدخلت لتنقذ الطفل المعجز من أجل المصير الكبير الذي ينتظره (١) .

وفي تحليله النفسي لمسألة السلة والنهر ، يقول عالم النفس سيجمند فرويد إن السلة والنهر ما هما إلا رمزان فقط ، فالسلة هي الرحم والنهر هو ماء الولادة (٢) . أي أنه لم تكن هناك في الواقع سلة ولم يكن هناك نهر ، والحكاية كلها منذ بدايتها رمزيه فلكلورية ، مما يدفع فرويد إلي التساؤل : هل شخصية موسي هذه شخصية تاريخية أم أنها شخصية أسطورية ؟ وإذا كان موسي قد عاش فعلا ، فإن الزمن الذي ربما يكون قد احتواه هو القرن الثالث عشر أو القرن الرابع عشر علي وجه التقريب . وليس لدينا ما يمكن الرجوع إليه عن موسي إلا ما ورد في التوراة وتراث اليهود المكتوب (٣) .

هذا الرأي يتفق مع ما قال به أندرسون في كتابه الضخم عن العالم المُعاش في «العهد القديم » حيث يقرر أن كل ما نعرفه عن موسي لايزيد بأية حال من الأحوال عما تحتويه القصص التوراتية . وحتي هذه المعرفة محدودة ومحددة بحقيقة أن مؤلفي هذه القصص لم يركزوا اهتمامهم علي سيرة موسي الذاتية وعلي حياته كإنسان . ورغم أن الحكاية ترسم له صورة مهيبة ورفيعة المنزلة ، إلا أنها لا تلقي الكثير من الضوء علي شخصيته .. إن جل تركيزها ينصب علي ذلك الإله الذي يدعو موسي ويُعُده للقيام بالرسالة المقدسة (٤) .

إن التوراة لا يمكن أن تستخدم كمصدر تاريخي ، ذلك لأن المقارنة بين البيانات أو التقارير المختلفة - كما يقول بوبر Buber - تعتبر مستحيلة في هذا المجال . ويعتقد

---

(١) جيمس فريزر ، ص ٥٣٣ - ٥٣٤ .
(٢) فرويد ، ص ٣٨
(٣) نفس المرجع ، ص ٢٥ - ٢٦
(٤) أندرسون ، ٥٥ .

بوبر أن القصة التوراتية ذاتها تختلف اختلافا جذريا عما يمكن أن نصنفه كمصدر تاريخي يمكن استخدامه ، فالأحداث المسجلة بهذه التوراة لا يمكن حدوثها تاريخيا ، في العالم الذي نعرفه ، بنفس الأسلوب الذي وصفت به .. **إن هذه القصة – أي قصة موسي – يمكن تصنيفها علي أنها حكاية من حكايات القرون الوسطي ، ولا تستطيع أمثال هذه الحكايات أن تولد في أي منا إحساسا بمنطق واقعي أو تسلسل تاريخي . إن الأجزاء المختلفة للحكاية تمت صياغتها حسب وجهة النظر السائدة زمن تأليفها (١) ، وهو زمن يفصل بينه وبين موسي مئات السنين .**

وبما أن الحكاية التوراتية ، التي تعتمد أساسا علي الأسطورة ، لاصلة لها بالتاريخ ، فإن المؤلف الموهوب لا يذكر اسم ابنة فرعون التي أنقذت الطفل وأطلقت عليه اسم موسي ثم اتخذته لها ولدا . ويقرر كاسوتو أن اسم الأميرة التي أنقذت موسي وكذا اسم أبيها غير مذكورين في النص . ويعلق علي ذلك بقوله : لكن الاسم غير مهم بالنسبة لصلب الموضوع (٢) . وهذا كلام مرفوض .

لقد تم ذكر اسمي القابلتين اللتين كانتا تولدان النساء العبرانيات .. ألم يكن من الأجدي والأهم ذكر اسم ابنة فرعون التي انقذت النبي العبراني وأطلقت عليه اسما وسمحت له بالعيش في قصر الملك ، يأكل ويشرب ويتعلم وينعم ، ما يقرب من أربعين عاما ؟

لو كان الأمر حقيقة وتاريخا كما يحاول أن يوهمنا كتبة التوراة لتم ذكر الأسماء ، إنصافا للحقيقة وتأكيدا للتاريخ . لكن كتبة التوراة تجنبوا هذه النقطة بالذات إما لأنهم يجهلون التاريخ وإما لأنهم يعلمون أن ما يخطونه هو حكي لا صلة له بالتاريخ .

وفي هذا المجال يذكر بوبر أن باحثا جريئا ، وهو ألماني يدعي جريم Grimme (٣) ، حاول أن يثبت أن الملكة المصرية حتشبسوت Hatshepsut هي الأميرة المصرية التي أنقذت موسي وتبنته ، طبقا للحكاية التوراتية .

لكن ميير Meyer يقرر أن ابنة فرعون التي انقذت الطفل واسمته موسي ، ثم أسلمته إلي أمه كي ترضعه إسمها ثرميوتيس Thermutis . ويضيف ميير :

---

(١) بوبر ، ص ١٣ .
(٢) كاسوتو ، ص ١٩
(3) Grimme ; **Althebraeische Handschriften Von Sinai** , 1923 , P . 95 .

نحن لا ندري علي وجه التحديد عدد السنين التي قضاها الطفل موسي في ذلك البيت الفقير .. ربما مكث حتي الرابعة أو الخامسة .. لكنه مكث بما فيه الكفاية كي يدرك مدي ما يعانيه شعبه من عذاب ، ثم طالبت ثرميوتيس بالطفل الذي أنقذته . وكما يقول يوسيفوس كان الغلام علي قدر هائل من الجمال لدرجة أن المارة كانوا يتوقفون لاختلاس النظر إليه .. لقد أخذته أمه وسلمته لابنة فرعون وأصبح لها ولدا ، ونشأ في قصر فرعون علي أنه حفيد الملك . وكان عندما ينطلق بموكبه في الطرقات ، كانت ترتفع الصيحات : « لتنحني الجباه » !! وكان عدد المصريين آنذاك حوالي سبعة ملايين (١) .

وفي كتابه ، **موسي وفرعون : بين الأسطورية والتاريخية** ، يقول الأستاذ عصام الدين حنفي ناصف إن القصص الشعبية ذكرت أن ابنة فرعون التي أنقذت الطفل العبراني اسمها مريس (٢) .

ومهما كان اسم الأميرة – وهي في كل الاحوال مجهولة الاسم في الحكاية التوراتية – فإنها تطلق علي الطفل اسم موسي ، لأنها حسب النص الذي بين أيدينا : « قالت إني انتشلته من الماء » .

هذا الشرح للتسمية – كما يقول كاسوتو – لا يناسب الاسم بصورة دقيقة ، ذلك لأن الاسم جاء في صورة اسم الفاعل لا اسم المفعول . هناك فرق بين Mose : ذلك الذي ينتشل و Masuy : ذلك الذي أُنتشل . ومن الصعب أن نفترض أن الأميرة المصرية كانت علي علم باللغة العبرية وأنها اختارت إسما عبريا . ويري كاسوتو أن الاسم يجب أن يفسر بطريقة أخري : إن النص التوراتي يقرر أنه أصبح ولدها وأنها اسمته Mose ، وهذه الكلمة في اللغة المصرية القديمة معناها ابن . ويضيف كاسوتو أنه من المحتمل أن كتبة التوراة أنفسهم هم الذين اختاروا له هذا الاسم وهو في صيغة اسم الفاعل ، أي المُنْتَشِل ، علي أساس أنه هو الذي انتشل شعبه من بحر العبودية (٣) .

---

(١) ميير ، ص ١٨ – ١٩ .
(٢) عصام الدين حفني ناصف ، موسى وفرعون : بين الأسطورية والتاريخية ، دار العالم الجديد ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص ٣٦
(٣) كاسوتو ، ص ٢٠ – ٢١ .

ويري أندرسون أن الاسم موسي يعتبر دلالة قوية علي نشأة موسي المصرية . إن كاتب الحكاية الإسرائيلي - في رأي أندرسون - يحاول بتلاعبه بالألفاظ أن يشتق الاسم Moses ، بالعبرية Moshoh ، من فعل عبري معناه ينتشل Mashah ، ويذهب إلي حد القول بأن الأميرة المصرية كانت تعرف من العبرية ما يكفي لأن تشرح سبب تسميتها له بهذا الأسلوب : « إني انتشلته من الماء » . وفي الواقع - وهذا تفسير أندرسون - فإن كلمة Mosheh هي الصورة العبرية لفعل في اللغة المصرية هو Mose ومعناه وُلِدَ is born ، وغالبا ما يظهر في أسماء تشير إلي الإله المعبود مثل تحتمس ، ومعناه : وُلد الإله توت Toth ... ويضيف أندرسون أن أفرادا آخرين من قبيلة موسي ، أي من اللاويين ، قد تمت تسميتهم بأسماء مصرية ، مثل ميراري Merari وفنحاس Phinehas ، ومن المحتمل أن اسم هارون هو أيضا اسم مصري (١) .

ويؤكد برستد ، في كتابه فجر الضمير ، أن موسي إسم مصري ، بل هو نفس الكلمة المصرية القديمة « مس » ومعناها طفل (٢)

ويتفق رأي فرويد مع ما قال به برستد ، فهو يري : أن اسم موسي هو في الواقع اسم مصري ، وهو ليس إلا الكلمة المصرية موسي Mose والتي تعني طفل وهي اختصار للاسم المكون من شقين مثل آمون موسي أي طفل آمون ، أو بتاح موسي أي طفل بتاح ، وهذه الأشكال بدورها اختصارات للشكل الكامل الذي يعني أن آمون قد أنجب طفلا ... أو أن بتاح قد أنجب طفلا .. وليس اسم موسي بمعني طفل اسما غير شائع في الآثار المصرية (٣) .

وفي تعليقه علي رأي فرويد يقول الدكتور محمد خليفة إن الكلمة موسي كما حدد معناها فرويد ، اعتمادا علي علماء المصريات ، ليست لها دلالة قوية علي أصالة هذه التسمية . فالكلمة تحمل معني عاما وهو طفل . وهذا يعني

---

(١) أندرسون ، ص ٥٦ .
(٢) برستد ، ص ٢٩٨ .
(٣) فرويد ، ص ٣٠ - ٣١ .

أنها لا تشير إلي تسمية مصرية أصلية ، ولا حتي إلي تسمية عبرية أصلية (١) . ويورد الدكتور خليفة رأيا طريفا ورد في تفسير الرازي الذي يري من بين ما يري ، أن تسمية موسي تسمية عربية . وهذه بالطبع إضافة إلي مصرية الاسم وعبريته : أما القول بالأصل العربي فيشتق لنا الاسم من وزن فعلي ، ويعتبر الميم أصلية في الاسم ، وأن الاسم يشتق من ماس يميس بمعني تبختر في مشيته ، وسمي موسي بذلك لأنه كان يتبختر في مشيته (٢) .

أما المؤرخ اليهودي يوسيفوس فإنه يقدم تفسيرا مختلفا عما سبق ، فالاسم في رأيه مشتق من واقع الحدث : المصريون يسمون الماء « مو Mo » ، أما ما يتم إنقاذه من الماء فيطلق عليه « سي Uses » ، وبضم الكلمتين فرضت التسمية نفسها علي الطفل الذي أُنقذ من الماء فأصبح موسي (٣) . ورغم ذلك فإن يوسيفوس يدعي في موضع آخر من كتابه أن موسي كان له اسم آخر وهو أوزارسيف Osarsiph ٤ وهذا يرجح الرأى القائل بأن العبرانيين هم الذين أطلقوا اسم لموسي علي ربيب ابنة فرعون بمعني المنتشل ، أي المنقذ الذي انتشلهم من نير العبودية أو الذي انتشلهم من البحر وأنجاهم أثناء عملية الخروج . ٥

ويأخذ بوبر Buber نفس هذا الاتجاه في تفسير الاسم عندما يقول إن كل من يفسر اسم موسي علي أنه «طفل شخص ما » أو شئ مثل « بذرة البحيرة أو الماء » ، وكل من يريد أن يجعل منه مصريا علي هذا الأساس ، يجرد الحكاية من جوهرها . إن صيغة الفعل العبري لا يمكن إلا أن تعني ذلك الذي ينتشل (أي صورة اسم الفاعل لا اسم المفعول) ، والهدف بالطبع هو تصوير موسي علي أنه ذلك الشخص الذي انتشل إسرائيل ، أي الشخص الذي انتشل شعبه (٥) .

ومن الجدير بالذكر ، في هذا المجال ، أن الكاهن الأعظم لمدينة منف عاصمة مصر في عهد تحتمس الثالث (١٤٧٩ - ١٤٤٧ ق . م) كان يسمي بتاح موسي وقد أورد أدولف إرمان صورة له وهو يركع متعبدا لإله الشمس (٦) .

---

(١) د . محمد خليفة حسن : « نظرة نقدية في قضية الاصل المصرى القديم لموسى وديانته » ، مجلة الدراسات الشرقية العدد الثالث ديسمبر ، ١٩٨٥ ، القاهرة ، ص ٢٠٦ .
(٢) نفس المرجع : ص ٢١٦ .
(٣) يوسيفوس ، ص ٥٧
(٤) نفس المرجع السابق ٦٢
(٥) بوبر ص ٣٥
(٦) أدولف إرمان ، ديانة مصر القديمة : نشأتها وتطورها ونهايتها في أربعة آلاف سنة ، ترجمة د . عبد المنعم ابو بكر ود . محمد أنور شكرى ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ١٩٩٥ ، ص ٣٧٧ .

وأيا كان أصل الاسم مصريا أو عبرانيا أو عربيا ، فإن حكاية الطفل في سفط القش بين الأعشاب عند شاطئ النهر وانقاذه كي يغدو بطلا ، هي أسطورة بابلية قديمة أقدم بكثير من الحكاية العبرانية . ويترتب علي هذا ، في رأي فريزر ، أن كاتب سفر الخروج ربما كان علي دراية بأسطورة سرجون البابلية ، وأنه ألف الحكاية العبرانية علي نمطها (١) .

لقد حكم سرجون الأكبر بابل حوالي عام ٢٦٠٠ ق . م ، وكان ملكا محاربا وقائدا بناءً ، سجل له التاريخ الكثير من الانتصارات وخلف وراءه الكثير من الآثار ، لكنه كان مجهول الأب . ويورد فريزر تاريخ الحياة المبكرة للملك العظيم علي النحو التالي :

أنا سرجون ، الملك القوي ، ملك أكاد .. كانت أمي متواضعة ، أما أبي فلاعلم لي به .

وقد حملتني أمي المتواضعة وولدتني سرا

ثم وضعتني في سلة من الأسل وأحكمت إغلاقها بالقار وطرحتني في النهر الذي لم تغرقني مياهه

ثم حملني التيار إلي السقاء أكي فحملني معه .... أكي السقاء عينني بستانيا

وبينما كنت أعمل بستانيا ، أحبتني الإلهة عشتروت ولمدة أربع سنوات حكمت المملكة

وحكمت الشعوب ذات الرؤوس السوداء وأخضعتها (٢) .

وهذه الأسطورة البابلية مكتوبة بالخط المسماري وقد عثر عليها في المنطقة الأكدية في جنوب العراق (٣) .

ومن الواضح أن شذي أسطورة الطفل سرجون يعطرسلة الطفل موسي ، وتعكس الأسطورة القديمة ظلالها علي الأسطورة الجديدة ، وعناصر الحكاية واحدة : سرية الميلاد والفقر ، السلة والنهر ، الإنقاذ علي يد الإلهة عشتروت أو ابنة فرعون

---

(١) فريزر ، ص ٥٣٦ .
(٢) فريزر ، ص ٣٣٥ .
(٣) د . أحمد سوسة ، ص ٤٣٦

الإله المعبود ، ثم العظمة المتناهية .. الملك الفخيم في حالة سرجون ، وقيادة العبرانيين تحت راية الإله يهوه في حالة موسي . والقصة كلها - كما يقول أندرسون - مزخرفة بألوان الحكي الشعبي (١) ، أي لا صلة لها بالتاريخ .

وتبدأ حكاية الطفل موسي في قصر فرعون بأسطورة جديدة .. هكذا تتوالي الأساطير !!

إبنة فرعون تتخذه ولدا وتريده - كما يقول يوسيفوس - أن يكون وريثا للعرش ، إن لم تهبها الآلهة ابنا شرعيا يرث عرش أبيها (٢) . هذا كلام شديد الغرابة ويرفضه المنطق . كيف تريد الأميرة أن يصبح موسي ملك مصر وفرعونها وهي تعرف أنه أحد أبناء العبرانيين ؟ غير معقول مطلقا أن تحاول ابنة فرعون أن تجعل من أحد أبناء العبيد ملكا لمصر . الفكرة في حد ذاتها مستهجنه ومرفوضه ، بل ومستحيلة التحقيق . والتفسير المنطقي في حالة سعي الأميرة لتولي موسي الملك - رغم استبعادنا الكامل لحدوث مثل هذه المحاولة - هو أن الطفل كان ابنا غير شرعي للأميرة ، لذا فقد كان [illegible] أن يصبح ملكا في حالة عجزها عن ولادة طفل شرعي . وهذا ما دفع بعض الدراسين إلي القول بأن موسي مصري وابن أميرة مصرية . ولقد سبق وأشرنا إلي الدارس الألماني الذي ادعي أن موسي هو ابن الأميرة حتشبسوت .

فرعون مصر يعامل موسي وكأنه حفيد له .. يلاعبه ويداعبه ويتبسط معه - هكذا تتوارد الأحاديث . ويورد الدكتور أحمد سوسة قصة طريفة ، نقلها عن يوسيفوس ، تقول إن فرعون مصر كان في أحد الأيام يداعب موسي وهو لم يزل ابن ثلاث سنوات ، فأخذه بين ذراعيه وصار يرمي به في الهواء ، ولما أصبح موسي بقرب رأس فرعون خطف التاج من علي رأس فرعون ووضعه علي رأسه فذهل فرعون لهذه الحركة واعتبرها حركة شؤم عليه فاستشار حكماءه في ذلك وما قد يترتب عليه في المستقبل (٣) .

ويبدو أن الدكتور أحمد سوسة لم يأخذ عن يوسيفوس مباشرة ، بل اكتفي بالنقل من فرويد الذي يقول ضمن حديثه عن الأساطير الإسرائيلية : وتصف إحدي هذه الأساطير بطريقة جذابة كيف أبان طموح الإنسان موسي عن نفسه في طفولته ،

---

(١) أندرسون ، ص ٥٥ ..
(٢) يوسيفوس ، ص ٥٧
(٣) أحمد سوسة ص ٥٤١

فعندما أخذه فرعون بين ذراعيه ورفعه مداعبا إلي أعلي ، خطف الطفل ابن الثلاث سنوات التاج من فوق رأس فرعون ووضعه علي رأسه هو ، وانزعج الملك لذلك النذير ، وحرص علي استشارة أهل الحكمة عنده (١) .

وهذا النقل عن يوسيفوس في كلتا الحالتين غير دقيق ، فالطفل في الأسطورة - كما يحكيها يوسيفوس - لم يخطف التاج ، لكن فرعون نفسه هو الذي وضع التاج علي رأس الطفل ، وكان رد فعل الطفل مفاجئا ومحيرا . يقول يوسيفوس : إنه بينما كان الطفل بين ذراعي فرعون ، خلع فرهون التاج ووضعه علي رأس الطفل ، لكن الطفل رمي بالتاج إلي الأرض ثم داسه بقدميه !! ولقد دفع هذا السلوك الكاهن المقدس الذي تنبأ بمولد الطفل إلي أن يهم بقتله (٢) . ولأنه يجب ألا يموت ، لأنه البطل الموعود ، فإنه لابد وأن يتم إنقاذه ، وبالطبع تقوم الأميرة ، ابنة فرعون ، بعملية الإنقاذ .

لا أحد بالطبع يستطيع أن يفسر منطقيا كيف رمي الطفل ابن الثلاث سنوات بالتاج إلي الأرض ثم داسه بقدميه وهو بين ذراعي فرعون . لكن الأسطورة ، كما هو مألوف ، لامنطق لها .

داخل القصر الملكي تربي موسي .. تعلم وتثقف كواحد من أبناء الأمراء .. أتقن الفروسية وفنون الحرب ، وكذا الإدارة والسياسة وأمور الدين . وطوال أربعين عاما - علي وجه التقريب - عاشها كما الأمراء ، كان لابد وأن يصبح كلامه مصريا وفكره مصريا ، ودينه أيضا مصريا ، بعد أن اكتسب الكثير من علم المصرين وحكمتهم .

ويري ميير Meyer أ نه من المحتمل أنه عندما بلغ موسي السن المناسب ، أُرسل كي يتلقي تعليمه في الكلية التي أنشئت حول معبد الشمس ، ويطلق عليها اسم « أكسفورد مصر القديمة» . وهناك تعلم أسرار قراءة وكتابة اللغة الهيروغليفية ، كما درس الرياضيات والكيميا ء والفلك ، وقد نبغ المصريون فيها جميعا . وهناك أيضا نما حسه الموسيقي بدليل أنه في مستقبل الأيام استطاع أن يتغني بأناشيد النصر .. لقد تثقف موسي بكل حكمة المصريين ، كما ألمّ بشئون السياسة وتعلم فن قيادة الجند (٣) .

---

(١) فرويد ، ص ٨٢ .
(٢) يوسيفوس ، ص ٥٧ .
(٣) ميير ، ص ١٩ .

بذلك تأصلت في موسي كل الصفات المطلوبة لإعداد الزعيم والقائد والداعية ، وهو الدور الذي سيلعبه في المستقبل . لقد أصبح أهلا لقيادة الجموع وإقناع الأتباع ومجادلة الخصوم ، ومحاربة من يقفون عقبة في طريق تحقيق طموحه ، كما أصبح أهلا لأن يرسي قواعد ذلك التشريع الذي خص به الأقوام التي خرجت معه إلي البرية ، كما أنه لابد وأن يكون قد تعلم السحر الذي برع فيه المصريون آنذاك .

ولايمكن القول بأنه قد عرف ديانة آبائه ، أو حافظ علي ما فقهه منها وهو في الثانية من عمره - إن كان في ذلك السن قد فقه شيئا - بعد أن أسلمته أمه إلي ابنة فرعون وهو في الثالثة .

يدعي يوسيفوس أن موسي أصبح قائدا مصريا يشار إليه بالبنان وتنحني له جباه المصريين ، إذ أنه هو الذي أنقذ مصر من الغزو الإثيوبي ودحر أعداءها وعاد إليها محملا بالغنائم والأسلاب. وهذه بالطبع أسطورة ابتدعها خيال الكاتب اليهودي ، كما ابتدع من قبل أسطورة التاج الذي داسه موسي بقدميه وهو ابن ثلاث سنين ، كي يمجد الزعيم القادم لبني إسرائيل .

والحكاية كما يوردها يوسيفوس تقول إن الإثيوبيين هاجموا مصر وهزموا المصريين هزيمة ساحقة ، واستمروا في زحفهم حتي وصلوا إلي العاصمة منف . وفي حالة العجز الكامل للأمة المصرية وفرعونها ، لجأ المصريون إلي كهنتهم كي يستشيروا الآلهة عما يجب فعله . وتنصح الآلهة المصريين إن كانوا يريدون النجاة ، أن يلجأوا إلي موسي العبري طالبين عونه ومساعدته . هنا يطلب فرعون من ابنته أن تحضر موسي كي يتولي قيادة الجيش المصري .

وتحت إلحاح ثرميوتيس ابنة فرعون ، وإلحاح فرعون نفسه ، يقبل موسى بنفس راضية أن يتولي القيادة .

يقول يوسيفوس إن كهنة الأمتين المصرية والعبرانية قد سعدوا بهذا الاختيار .. المصريون لاعتقادهم أن موسي قد ينتصر علي أعدائهم أو قد يسقط قتيلا ، وهذا مكسب لهم في كلتا الحالتين... وأما العبرانيون فذلك لإيمانهم بأن موسي في حالة انتصاره سيكون قادرا علي تخليصهم من ذل العبودية في مصر .

يهاجم موسي الأعداء - كما تحكي الأسطورة - ويظهر عبقريته الحربية عندما يفاجئهم عن طريق البر ، لا عن طريق النهر كما كانوا يتوقعون . وتكون النتيجة هزيمة

الجيش الإثيوبي . ويواصل موسي تقدمه مدمرا مدنهم ، مدينة بعد مدينة ، ثم تحدث مذبحة مروعة يفني فيها موسي الجيش الإثيوبي عن آخره ، ويصبح الشعب الإثيوبي نفسه مهددا بأن يصبح شعبا من العبيد . وفي المرحلة الأخيرة من القتال يحاصر موسي العاصمة الملكية لإثيوبيا ، لكن يصعب عليه اقتحامها وذلك لقوة تحصيناتها ولأنها كانت محاطة بالأنهار . ويقف الجيش المصري وقائده في حالة عجز أمام الأسوار والأنهار

كان لابد للمؤلف اليهودي - يوسيفوس - أن يجد مخرجا للمأذق الذي وضع فيه البطل العبراني . وكان الحل الذي ابتدعه رومانسيا شديدا في رومانسيته ، ويختلف في طبيعته اختلافا كليا عن السلوك الدموي للقائد العبراني وهو يفني الجيش الإثيوبي في معركة مرعبة .

إن ثاربيس Tharbis إبنة ملك الحبشة تقع في غرام موسي . لقد شاهدته وهو يقود الجيش ويحارب ببسالة نادرة قرب الأسوار .. هامت به حبا ، ودفعها هذا الحب الجارف إلي أن ترسل بأحد أتباعها المخلصين يعرض عليه الزواج منها .. يوافق موسي علي الزواج منها بشرط تسليم المدينة .. وطبقا لهذه الاتفاقية يتم التسليم والزواج .. ويعود القائد العبراني الفذ متوجا بأكاليل النصر والزفاف إلي أرض مصر (١) .

هذا الكلام الذي ذكره يوسيفوس لا أصل له ولا ذكر في أي نص من نصوص التوراة ، رغم ما بها من كثرة في الحكي الأسطوري ولو قد قرأ مؤلفو التوراة حكاية يوسيفوس هذه لأضافوها إلي أساطيرهم ، لكن يوسيفوس - للأسف - كتبها في القرن الأول الميلادي ، أي بعد أن تم تأليف التوراة .

هذه البطولات الخارقة لموسي ، وإهلاكه للأحباش وزواجه من ابنة ملكهم ، لا صلة لها بالتاريخ ، ولم تذكر ولو في عبارة أو إشارة في أي كتاب من كتب التاريخ المصري القديم أو الحديث . كما أنه من المستبعد ، إن لم يكن من المستحيل ، أن يسمح فرعون لعبراني ينتمي في أصله إلي طبقة من المستعبدين - كما يقول كتبة التوراة - أن يكون مجرد جندي في جيش مصر ، فما بالكم به قائدا لكل جند مصر ومدافعا عن فرعون ومُلكه .

الحكاية كلها مجرد خرافة أسطورية اخترعها الخيال المنحرف ليهودي حاقد علي أصالة مصر وعظمة تاريخها .

---

(١) يوسيفوس ، ص ٥٨

لهذا نجد فرويد عندما يشير إلي بطولات موسي يبدأ حديثه بعبارة «ثم يقال» .. ، أي أنه غير متأكد من مصادره ولا من صدق ماتمت حكايته . يقول فرويد : ثم يقال لنا مرة أخري عن بطولات منتصرة خاضها موسي بوصفه ضابطا مصريا في الحبشة ، وأن شهرة موسي كقائد حربي هي التي دفعته إلي الهرب من مصر ، إذ خشي من حسد نفر من رجال البلاط ، بل ومن حسد فرعون نفسه وغيرته (١) . وهذا الكلام أيضا يختلف مع الحكاية التي أوردها مؤلفو التوراة عن سبب هروب موسي من أرض مصر .

ومما يؤيد رأينا في أسطورية حكايات يوسيفوس عن موسي ، ما كتبه الدكتور عبد المحسن الخشاب عن تزوير يوسيفوس للتاريخ . يقول د . الخشاب : إذا ما رجعنا إلي الكتاب اليوناتيين الذين يتحدثون عن موسي واليهودية فعلينا أن نأخذ بحذر شديد وترو كبير أقوال المؤرخ جوزيفوس ، فالتعصب والتحيز الذي أبداهما ليسا إلا خلفية لكل ما يقول هذا المؤرخ اليهودي في كلامه عن موسي وقومه في مصر . فأخطاؤه المتعمدة .. وشدة تحيزه لخلق ولزعم دور لليهود وخاصة لموسي في حرب افتعل وقوعها بين مصر والأحباش (النوبة) آنذاك .... فبعيدا عن الخلافات الدينية بين فرعون مصر وموسي وقومه من العبرانيين ، لم تقم في تلك الفترة أية حرب بين مصر وبين غيرها أيا كانت .. فـ العهدين المحتمل فيهما الخروج ، عهد أمنيوفيس الثاني وعهد رمسيس الثاني - إن صح ما ذهب إليه القائلون بذلك - كانت مصر في أوج قوتها سياسيا وعسكريا ، ثم إن عدم ذكر هذه الحروب واتجاه رمسيس الثاني للشرق ، كل ذلك يدحض قول جوزيفوس . وفي هذه الحرب التي لم تقم إلا في خيال جوزيفوس تولي موسي أمرها وصال وجال ورد العدو الغازي ، بعد أن وصل إلي تخوم منفيس ، ودمره في عقر داره (٢) .

ويستمر نسج الأساطير حول شخصية النبي القادم ، الذي سيناديه الإله يهوه من بين ألسنة اللهب . فموسي هذا لم يكن فقط قائدا فذا أنقذ أرض مصر من الاجتياح والإذلال ، ولكنه أيضا كان ملكا !!

في حالة « الغلام » العبراني يوسف ، جعل منه كتبة التوراة وزيرا أو رئيسا لوزراء مصر ، إذا ما رآه الناس سجدوا !! لكن منصب الوزارة في حالة موسي النبي المنقذ

---

(١) فرويد ، ص ٨٢

(٢) د . عبد المحسن الخشاب ، تاريخ اليهود القديم بمصر ، مكتبة مدبولي : القاهرة ، ١٩٨٩ ، ص ٢٩ - ٣٠ .

لايكفي ، إنه لابد وأن يكون ملكا علي أرض مصر . وهذه هي الأسطورة التي ينقلها الأستاذ أحمد عثمان عن قصة في التلمود . وتحكي الأسطورة التلمودية أن موسي بعد أن أصبح قائدا للجيوش المصرية وقاد المعارك منتصرا ضد أعداء مصر .. أصبح بعد ذلك ملكا في منطقة جنوب مصر ووضع التاج علي رأسه بعد أن تزوج الملكة أدونيت. وحكم موسي بالعدل والقسطاس ، لكن أهل البلد تآمروا عليه بعد ذلك ، فاضطر إلي التنازل عن العرش لابن الملكة وهرب هو إلي أرض مديان التي هي في سيناء (١) .

هكذا يحاول الكتاب اليهود تعليل هروب موسي من مصر ، قالوا - فيما سبق ذكره - إن أمراء البلاط الملكي وكهنته ، وكذا فرعون نفسه ، حقدوا عليه وغاروا منه كقائد منتصر ، فما كان منه كي ينجو بنفسه إلا أن يفر من مصر هاربا . أما الآن فهم يقولون إنه كملك عادل ، رفض المصريون عدله وتآمروا عليه ، فلم يكن أمامه إلا الفرار إلي أرض مديان .

ويتجاهل هؤلاء الكتاب ، في مكر لئيم ، ما خطه كتبة التوراة أنفسهم من أن ذلك النبي قد قتل إنسانا مصريا ، وعندما تم اكتشاف أمره أسرع بالفرار مخافة القصاص . فأين القائد المنتصر وأين الملك من هذا القاتل الهارب في فزع ؟ !!

ويدعي البعض أن موسي كان كاهنا مصريا ، تأثر بالعقيدة التوحيدية التي نادي بها إخناتون ، وكرس حياته لنشر هذه العقيدة ، وكان هذا بالطبع من تأثير ابنة فرعون التي اختارت له أفضل الكهنة لتفقيهه في أمور الدين . وينقل يوسيفوس عن أبيون Apion قوله إن موسي كان أحد كهنة هليوبوليس ، وأنه كان يقدم صلواته ويتلو تراتيله في الهواء الطلق (٢) . ويري يوسيفوس أن المصريين كانوا يحبون موسي ويبجلونه وما دار بخلدهم أبدا أنه ينتمي إلي جنس أجنبي .

يعتنق الدكتور عبد المحسن الخشاب نفس الرأي عندما يقول : وهل كان موسي إلا مصريا تربي في مصر وعلي أرضها وتثقف وتعلم بحكمتها وعلومها وعمل كاهنا في إقليم مصري ، وقارن ووازن في تأملاته وخلواته أخلاق المصريين فأخذ منها ما فتح الله عليه بهديه ، ونبذ ما وجده مخالفا لفكره وتصوره (٣) .

---

(١) أحمد عثمان ، جـ ١ ، ص ٥٣ .
(٢) يوسيفوس ، ص ٦٢٢
(٣) د . عبد المحسن الخشاب ، ص ٤٥ .

وإذا كان موسي يحمل إسما مصريا ، وكان - كما يدعي البعض - كاهنا في أرض مصر أو قائدا لجيش مصر أو ملكا لجنوب مصر ، فلماذا لايكون - إذا ما سايرنا منطق الأسطورة - هو نفسه مصريا ؟

لقد حاول بعض الدارسين إثبات ذلك بالفعل . ولقد سبق وأشرنا إلي رأي الباحث الألماني الذي ادعي أن موسي ابن غير شرعي للأميرة حتشيسوت . ويذكر الدكتور أحمد سوسة ما نقله ول ديورانت عن جارستانج عضو بعثة مارستن Morston التابعة لجامعة ليفربول أنه اكتشف في مقابر أريحا الملكية أدلة تثبت أن موسي قد أنجبته في عام ١٥٣٧ ق . م . بالتحقيق الأميرة حتشبسوت (الملكة حتشيسوت فيما بعد ١٥٠١ - ١٤٧٩ ق . م .) ، وأنه تربي في بلاطها بين حاشيتها ، وأنه فر من مصر حين جلس علي العرش عدوها تحوطمس الثالث (١٤٧٩ - ١٤٤٧ ق . م .) (١) .

والتاريخ السابق يختلف تماما عن التاريخ الذي حدده أغلب الدارسين للفترة التي عاش فيها موسي في مصر ، وهي القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، أثناء حكم رمسيس الثاني (١٣٠٤ - ١٢٣٧ ق . م .) ، الذي يشير إليه البعض علي أنه فرعون الاضطهاد كما أن ديلي يحدد تاريخ ميلاد موسي بحوالي عام ١٣٠٠ ق . م ، وتاريخ الخروج بحوالي عام ١٢٢٥ ، وهو تاريخ يتواكب مع عصر رمسيس الثاني (٢) .

يميل فرويد إلي الرأي السابق والذي يدعي أصحابه أن موسي ما هو إلا ابن لأميرة مصرية ، لكنه - في اعتقاد فرويد - إبن شرعي منكود الطالع ، ذلك لأن فرعون يحلم حلما يتلقي فيه التحذير بأن ابن إبنته سيكون خطرا عليه . وكان من نتيجة ذلك أن ألقي الطفل في مياه النيل بعد ميلاده مباشرة . لكن الشعب اليهودي ينقذه ويربيه كإبن من أبنائه (٣) .

هكذا تنعكس الأسطورة ، والأساطير بلا حدود في تصوير حياة ذلك النبي .

وربما تفسر حكاية الإبن غير الشرعي للأميرة المصرية وجود الطفل في السفط بين الحلفاء علي حافة النهر بالقرب من قصر فرعون ، فالأميرة طبقا لهذا الافتراض هي التي ديرت الأمر كله كي لا يفتضح أمرها ، وكي تسترد ولدها وتربيه داخل القصر أميرا بين أمراء ، بل وتعده كي يكون وارثا للملك إن لم ترزق فيما بعد بابن شرعي . وربما تكون هذه الرؤية هي التي دفعت الأستاذ أحمد عثمان إلي القول : نحن لانفهم كيف

(١) د . أحمد سوسة ص ، ٥٣٥
(٢) ديلي ، ص ١٣١
(٣) فرويد ، ص ٤١

تحاول المرأة [العبرانية] انقاذ ابنها من خطر آل فرعون بأن تذهب وتضعه في الماء المقابل للقصر ، حيث ينتشر جنود فرعون وحراسه !! ومن المفهوم في هذه الحالة أن تفعل العكس وتحاول إبعاده عن القصر وعن الجنود (١) .

ويميل الأستاذ شفيق مقار إلي اعتناق نظرية مصرية موسي ، بل ويحاول أن يؤكدها بقوله : ولا نظننا بحاجة إلي الإشارة إلي أنه لو لم يكن موسي مصريا لما استطاع التهذب بكل حكمة المصريين حتي وإن كان قد تربي في بلاط فرعون ، كما تقول حكاية مولده التي استنسخت من حكاية سرجون الأول ، لأن قواعد الكهنوت المصري المتحكم في المعابد التي كانت مستودعا لكنوز تلك الحكمة كانت تحرم تحريما قاطعا إفشاء الأسرار الدينية أو السماح باطلاع الأغراب والجهلاء ، وبالذات قاطني مستنقعات البردي (أي البدو الساميين) ، علي أي سر من تلك الأسرار والمعارف أو تمكنهم من رؤية أي نص ديني أو استنساخه . وبذا فإنه لو كان موسي من البدو الآراميين سكان المستنقعات ، حتي ولو كانت ابنة فرعون تبنته وربته في بلاط فرعون ، لما كان قد وجد من يجازف بعنقه ليعلمه تلك الأسرار التي كان الموت بأيدي الكهنة عقاب من يفشيها (٢) .

وفكرة أن موسي مصري ، فكرة يرفضها كثرة من الدارسين ورجال الدين خصوصا اليهود والمسيحيين ، ذلك لأن إثبات صحتها يقود بالضرورة إلي تكذيب ما جاء في « التوراة » و « العهد القديم » و «العهد الجديد » أيضا . وهذا أمر دونه القتل والحرق والتعذيب ، وكل ما يخطر وما لا يخطر علي بال بشر من وسائل للإهلاك والتدمير . لذا نري أنه من الأفضل أن نعود إلي حكايات التوراة .

وصل موسي في قصر فرعون إلي سن الأربعين علي وجه التقريب . لكنه رغم هالات العظمة التي تحيط به والمجد الذي ينتظره ، لم يكن لينسي أبدا أنه - في أصله - ينتمي إلي جماعة من المستعبدين ، وأن أباه وأمه بين هؤلاء الذين يعملون ليل نهار .. يهانون ويضربون .. وربما يجلدون بالسياط . وكان هذا الإحساس يصيبه بنوبات من الصمت والحزن والاكتئاب . ويري ميير أن موسي لم يستطيع السيطرة علي كل تلك الأحاسيس المضطربة في أعماقه ، مما دفعه إلي أن يصارح تلك الأميرة التي أحسنت إليه بأنه من المستحيل عليه أن يتبوأ المنصب الذي تعده له أو أن يعتبرها أمه ، وأن عليه أن يعود إلي القوم الذين ينتمي إليهم والذين ولد بينهم (٣) .

---

(١) أحمد عثمان ، جـ ١ ، ص ٥٠
(٢) شفيق مقار ، ص ١٢٧ - ١٢٨
(٣) ميير ، ص ٢٠

كان يعلم جيدا مقدار قسوة وصعوبة ما هو مقدم عليه .. إنه يترك السادة إلي العبيد كي يصبح واحدا منهم ، ويترك فخامة قصر الملك وثرائه إلي أكواخ المستعبدين وفقرهم .. يترك النعيم الدائم إلي معاناة لايعرف إلي متي تستمر أو كيف تنتهي . لكنه كان قد اتخذ القرار ، وكأن شيئا في داخله يدفعه في إصرار لايقاوم تجاه المجهول .

أبدا ما نسى موسي إخوانه وهم يرزحون في قيود الذل .. هذا ما يقرره كاسوتو عندما يقول بأن موسي قد كبر ونضج وأصبح شابا ، لكن الشاب رغم أنه نشأ وتربي علي أنه ابن ابنة فرعون ، لم ينس إخوانه في العبودية .. وعلي ذلك فقد خرج من القصر الملكي كي يقترب منهم وينظر ما يعانونه من قهر (١) .

إن قصة خروج موسي والتقائه بإخوانه تشكل محورا جوهريا في مجريات حياته إنها البداية الأولي التي تظهره كمدافع عن قومه في اندفاع وحماس وحمية وصلت إلي حد الجريمة . ويعتقد ميير أن الشفقة في قلب موسي قد تحولت إلي عنف ضد مضطهديهم . وقبل أن يخطو خطوات عدة ، رأي المنظر المروع : الضربات القاسية المتلاحقة ، والجسد المرتعد في فزع بلا مقاومة . عندها لم يتمالك موسي نفسه وصرع المصري قتيلا ، ثم حمل جسده ودفنه في الرمال (٢) .

يصف كتبة التوراة حادثة القتل باختصار شديد ، لكنه يوحي بالكثير : « وحدث في تلك الأيام لما كبر موسي أنه خرج إلي إخوته لينظر في أثقالهم . فرأي رجلا مصريا يضرب رجلا عبرانيا من إخوته فالتفت إلي هنا وهناك ورأي أن ليس أحد فقتل المصري وطمره في الرمل » (خروج ٢ : ١١ - ١٢)

ويظهرلنا النص أنه رغم غيرة موسي وغضبه واندفاعه ، إلا أنه قبل أن يقتل يلتفت إلي «هنا وهناك» كي يتأكد من أن أحدا لا يرقبه وأن أمره لن يفتضح ، وبعد ذلك يدفن الجثة في الرمال كي يخفي معالم جريمته ، معتقدا بذلك أنه قد دفن الجثة والجريمة معا ، وأنه بذلك سينجو من إثم الجرم .

ويلاحظ فرويد أن كثيرا من سمات اليهود التي ادمجت في تصورهم المبكر للإله ، عندما جعلوه غيورا ومتجهما ولا يسهل إرضاؤه ، قد استمدوها أصلا من ذكراهم لموسي ، لأنه لم يكن الإله غير المرئي هو الذي قادهم إلي خارج مصر ، بل كان الانسان موسي (٣) .

---

(١) كاسوتو ، ص ٢١ - ٢٢
(٢) ميير ، ص ٢٥
(٣) فرويد ، ص ٨٢

ويبدو أن ذلك الذي سوف يصبح نبيا قد تصور أنه بإراقة دم إنسان مصري ، قد صرع أمة من الطغاة ، أصبح هذا المصري المقتول رمزا لها . وربما تصور أيضا أن قومه سوف يهتفون باسمه وينصبونه زعيما بعثته العناية الإلهية لإنقاذهم .

أبدا ما دار بخلد موسي أن الذي سيفضح أمره وينشر خبر جريمته هو واحد من قومه ، أي من العبرانيين الذين تحمس للدفاع عنهم إلي حد القتل . لقد خرج في اليوم الثاني « وإذا رجلان عبرانيان يتخاصمان . فقال للمذنب لماذا تضرب صاحبك . فقال من جعلك رئيسا وقاضيا علينا أمفتكر أنت بقتلي كما قتلت المصري . فخاف موسي وقال حقا قد عرف الأمر » (خروج ٢ : ١٣ - ١٤) .

لقد جاءته اللطمة من حيث لا يتوقع ، وأصابته المفاجأة الصادمة بوقاحة صاحبها العبراني ، الذي لم يجد حرجا في أن يوبخ موسي في جلافة وصفاقة ، دون أن يكترث بافتضاح أمر الجريمة وما يترتب عليه من آثار . من جعلك رئيسا وقاضيا علينا .. قالها العبراني في تحد وسخرية من ذلك القاتل الذي اعتقد أنه مبعوث العناية الإلهية لإنقاذ الشراذم العبرانية .

وبدلا من أن ينتظر محاكمة عادلة لإراقته للدماء أو أن يواجه خصومه وأعداء قومه كما الفرسان ، يفر « النبي القادم » في فزع من أرض مصر كما الجبان .

وبذلك تنتهي الفترة الأولي من حياة موسي وهي تقارب الأربعين عاما ، لتبدأ الفترة الثانية ، التي يطوح فيها موسي بنفسه* - كما يقول الأستاذ عصام الدين حنفي ناصف - في مهمه موحش يفقد فيه من عمره أربعين عاما ، طريدا ، بعيدا ، يطوي الليل في خباء من الشعر ثم يصبح ليرعي أغنام حميه (١)

يُطَوِّح بنفسه في مهمهٍ مُوحش :

أي يغامر بنفسه هارباً إلى قفـــر لا يدري عنه شيئاً (الناشر)

---

(١) عصام الدين حفني ناصف ، ص ٤١ .

الفصل الرابع

بداية الدعوة

الفصل الرابع

بداية الدعوة

قتل موسي رجلا مصريا ولاذ بالفرار مخافة القصاص ، بعد أن شاع أمر جريمته وفضحه واحد من قومه العبرانيين : « فخاف موسي وقال حقا قد عرف الأمر . فسمع فرعون الأمر فطلب أن يقتل موسي . فهرب موسي من وجه فرعون وسكن في أرض مديان . وجلس عند البئر » (خروج ٢ : ١٥)

ولانعرف كيف جرؤ يهودي مثل يوسيفوس علي أن يخالف النص التوراتي الصريح - والمفروض أن التوراة مقدسة عند اليهود - إذ يدعي ذلك اليهودي ، المزيف للتاريخ والمعترض علي ماجاء في كتابه المقدس ، أنه بعد انتصار موسي علي الجيش الإثيوبي وإنقاذه لمصر ، فرعونا وشعبا ، بدأ المصريون يكرهونه ، وبدأ فرعون نفسه من باب الحسد والخشية - خشية أن يسطع نجم موسي فيخبو نجمه - يفكر في قتل موسي ، بل إنه أصبح علي استعداد بالفعل لقتله (١) .

الكراهية والحقد - إذن - هما في رأي يوسيفوس الدافع الرئيسي وراء رغبة فرعون في قتل موسي . إن يوسيفوس ، هنا ، لايزيف تاريخ مصر فما يذكره لاصلة له بالتاريخ ، لكنه يزيف توراته «المقدسة» ويضيف لأحداثها ما لم يحدث ، أو بأسلوب أكثر دقة ، يذكر مالم يذكر ، لأن الذين ألفوا التوراة لم تدر بخلدهم أو تحلق في سماوات خيالاتهم فكرة أن موسي كان كل ذلك المنقذ لمصر وفرعونها . لقد تفوق يوسيفوس عليهم جميعا ، إذ أبدع خيالات أكثر شعوذة وأعمق تدجيلا من خيالاتهم . وكنا نتوقع أن يحاسبه اليهود علي جرأته واجترائه علي «الكتاب المقدس» .. لكن أحدا لم يفعل .. ذلك لأنه لايوجد بين الوصايا العشر وصية تقول : لاتكذب !!

يهرب موسي ودم المصري علي يديه وجريمته معلقة في عنقه .. يشق طريقة وسط الرمال حتي يصل إلي أرض مديان في الجزء الجنوبي الشرقي من شبه جزيرة سيناء . وقد نسبت هذه المنطقة إلي مديان أحد أبناء إبراهيم من زوجته قطورة ، وهي تمتد من خليج العقبة إلي موآب وطور سيناء.

---

(١) يوسيفوس ، ص ٥٨

يصل موسي - كما يقول يوسيفوس - إلي «مدينة» مديان الواقعة علي البحر الأحمر .. هناك يجلس بالقرب من أحد الآبار . ومادام هناك غريب وهناك بئر ، فأنه باستطاعة القارئ أن يخمن بسهولة متناهية ما سوف يحدث للرجل الجالس بجوار البئر . إن كتبة التوراة لا يملون تكرار الحكاية .. فما دام هناك غريب جالس بجوار بئر لابد وأن تظهر فتاة حسناء يتزوجها ذلك الغريب أو علي الأقل يخطبها زوجة لابن سيده كما حدث في حالة زواج إسحق . ولقد سبق تكرار قصة الغريب والبئر والحسناء في حالة يعقوب من قبل

ودون مراعاة لعنصر التغيير كي لا يمل القارئ من كثرة التكرار ، يحكي كتبة التوراة نفس القصة ، كل مايذل من جهد في التأليف هو تغيير الأسماء . تقول الحكاية التوراتية : وكان لكاهن مديان سبع بنات . فأتين واستقين وملأن الأجران ليسقين غنم أبيهن . فأتي الرعاة وطردوهن . فنهض موسي وأنجدهن وسقي غنمهن . فلما أتين إلي رعوئيل أبيهن قال مابا لكن أسرعتن في المجئ اليوم .فقلن رجل مصري أنقذنا من أيدي الرعاة وإنه استقي لنا أيضا وسقي الغنم . فقال لبناته وأين هو . لماذا تركتن الرجل . ادعونه ليأكل طعاما . فارتضي موسي أن يسكن مع الرجل . فأعطي موسي صفورة ابنته » (خروج ٢ : ١٦ - ٢١) .

لقد استغل موسي قوته البدنية هذه المرة في حماية البنات السبع .. منع عنهن مشاكسات الرعاة وسقي لهن . ويعتقد بوبر Buber أن موسي بهذا السلوك كان يمارس بصورة تلقائية ما شرع فيما بعد وهو حماية القوي للضعيف سواء كان ذلك في أرض مصر أو في أرض مديان (١) . وكأن بوبر يحاول تبرير جريمة القتل التي ارتكبها موسي في مصر ، مدعيا أنها دفاع عن الضعيف . ودفاع القوي عن الضعيف لايمكن أن يكون دافعا للقتل . وحتي لو سلمنا بصحة نص التوراة ، وهو أن موسي رأي « رجلا مصريا يضرب رجلا عبرانيا » ، فإن الضرب عقابه الضرب ، لكن موسي كان يريد أن يقتل ، فقتل ومع سبق الإصرار ، بدليل أنه « التفت إلي هنا وهناك ورأي أن ليس أحدا فقتل المصري وطمره في الرمل » (خروج ٢ : ١٢)

لكن الأمر يختلف في مديان . لقد جاء لاجئا ولايمكن أن يقدم علي حماقة أخري .. إنه يكتفي بـ[illegible] وسقي غنمهن ، دون أن يطلبن منه ذلك . أما لماذا يهب لنجدة بنات كاهن مديان بالذات وسقي غنمهن دون أن يطلبن منه ذلك ، فهذا ماتستدعيه ضرورة تسلسل الأحداث في الحكي القصصي .

---

(١) بوبر ص ٣٧ .

موسي لابد وأن تتوثق علاقته بكاهن مديان ، كي تتيسرّ له سبل الحياة ، وكي يُؤَمّن وجوده في هذا البلد الغريب ، ثم - وهذا هو الأهم - كي يتعود حياة الصحراء والقبيلة راضيـة ، والعيش سنين طويلة ما بين الرعاة .. نفس الحياة التي كان يعيشها الآباء . وبتلك السنين الطويلة من المعاناة وحياة الجفاف وشظف العيش ، يعد كتبة التوراة موسي لما سيحدث له في مستقبل الأيام .

رجل مصري أنقذنا .. هذه العبارة ترد في حديث البنات لأبيهن رعوئيل وهن يذكرن موسي . وهذه العبارة - في رأي بوبر - لها مفهومها ودلالتها ، إذ بها يؤكد كاتب الحكاية أن موسي لم يصبح عبرانيا خالصا بعد أن ذهب إلي إخوانه قبل الهرب . لقد ظل يحتفظ بملابسه وطباعه المصرية حتي وصل إلي أرض مديان وعاش في مجتمعها وتقبل عاداتها . لقد عاد موسي إلي إجداده إذ أن العادات ونظام القبيلة التي صاهرها كانت تشبه تماما عادات وتقاليد « آباء » بني إسرائيل (١) .

وَجَد كاهن مديان في موسي بغيته .. رجل قوي غيور يقوم علي بيته ويرعي غنمه ، لذا لم يتردد في دعوته كي يسكن معه ، ثم يعرض عليه بعد ذلك إحدي بناته ، فيتزوج موسي صفورة ، التي أعجب بها منذ اللقاء الأول ، و صفورة - كما يقول دكتور عليان - تعني العصفورة (٢) .

تنجب صفورة ولدا يطلق عليه موسي اسم « جرشوم » ، أي الغريب ، ذلك لأنه كان نزيلا في أرض غريبة ، ثم تنجب به فيما بعد ابنا آخر أسماه « أليعازر » ، لأنه قال « إله أبي كان عونا لي وأنقذني من سيف فرعون » (خروج ١٨ : ٤) .

هكذا يبدأ موسي حياته الجديدة راعيا بين الرعاة .. يرعي غنم يثرون حميه (خروج ٣ : ١) . ولا ندري السبب الذي من أجله غير كتبة التوراة اسم كاهن مديان من رعوئيل إلي يثرون . ويذكر س . ر . درايفر S.R. Driver أن حما موسي كان له إسم آخر ، في النسخة « اليهوية » وهو حباب Hobab ، لكنه يذكر فيما بعد باسم رعوئيل ، وفي مكان آخر باسم يثرون ، وهذا يدل علي انه قد تم دمج أكثر من نص وأكثر من تراث عند كتابة التوراة (٣)

يرفض كاسوتو التفسير السابق ، بل إنه لا يشير مطلقا إلي الإسم الذي أورده

---

(١) بوبر ، ص ٣٧ - ٣٨
(٢) د. سيد سليمان عليان ، نساء العهد القديم ، دراسات في الانساب والمعاني ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، ص ٩
(3) S . R . Driver , **An Introduction to the Literature of the Old Testament** , The Meridian Library, New York., 1956 , P 22 ..

درايفر ، وهو حباب . إن إطلاق إسم يثرون علي كاهن مديان يمثل - في رأي كاسوتو - صعوبة واضحة ، ذلك لأن التوراة أشارت إليه من قبل باسم رعوئيل ، ولا يميل كاسوتو إلي شرح هذا الاختلاف بالأسلوب المتداول الذي اتبعه درايفر وعدد آخر من الدارسين . ويفترض كاسوتو أنه قد وجد بين الإسرائيليين أكثر من تقليد متوارث فيما يختص باسم الرجل ، وكان هذا مألوفا لدي الناس : إن التوراة تستخدم عن عمد اسم رعوئيل عندماتشير إليه ككاهن مديان ، لكنها تفضل أن تستخدم اسم يثرون عندما تشير إليه كأب لزوجة موسي ، وهذا الاسم مشتق من جذر بمعني الوفرة والتميز (١) .

وعن طريق معايشته لكاهن مديان ، وكذا البدو الذين خالطهم وتعامل معهم ، بدأ موسي رويدا رويدا يرتد إلي عقيدة الصحراء . لقد كان هؤلاء البدو الذين أوي إليهم - كما يقول الأستاذ عصام الدين حفني ناصف - هم أيضا أبناء لأبرام (٢) .. فطفقوا يقصون عليه أساطير الأيام الغابرة ويحدثونه حديث مشايخهم الكبار .. ويدلون إليه بأنباء الإله الذي كان يعبده أبوه ، فارتد الرجل إلي عقيدة الصحراء .

وللأستاذ ناصف رأي شديد الغرابة ، شديد الخطورة ،في النبوة وظهور الأديان ، أن نورد نصه حرفيا دون تغيير : وبدأ [موسي] يري في اليقظة أضغاث الأحلام وتتراءي له شجيرات يكتنفها الدخان وينبعث منها اللهب وهي لاتحترق .. وتتناهي إليه أصوات لا تصحبها أشكال . وخيل إليه مرة أنه سمع هاتفا يطلب إليه أن يخلع نعليه ، فتداخله الخوف ولج به الذهول وشرود الفكر وطالت به الغيبوبة .. لقد أصبح يري صورا وهمية ويتخيل أخيلة كواذب .. وجملة القول أنه أصبح نبيا . وخيل إليه أن الإله الذي عثر عليه حديثا - إله أبرام وإسحق ويعقوب - قد اصطفاه لتحرير قومه من طغيان سادتهم وإخراجهم من مصر كي يستولوا علي أرض تفيض لبنا وعسلا .. وبذلك تنتهي مرحلة هامة من حياة موسي .. مرحلة التخيلات والتوهمات ، لتبدأ مرحلة تالية هي مرحلة الديماجوجيه والسحر والشعوذة ، وهي الأشياء التي تصاحب ظهور كل دين (٣)

---

(١) كاسوتو ، ص ٣٠ .
(٢) أنظر (تكوين ٢٥ : ١ - ٢)
(٣) ناصف ، موسى وفرعون بين الأسطورية والتاريخية ، ص ٤٢

وما يدعيه الأستاذ ناصف عن بوادر النبوة وظهور الأديان بصفة عامة أمر مرفوض تماما ، ولا يقبل به إنسان علي قدر - مهما كانت ضآلته - من التعقل والإنصاف ، فالتخيل والوهم والكذب جميعا ليست من صفات النبوة الحقة ، كما أن الديماجوجية والسحر والشعوذة لا يمكن أن تكون هي السمات المميزة لظهور أي دين . إن الأستاذ ناصف يخلط بوضوح بين الشعوذة والدين وبين الدجل والنبوة ، ربما لاضطراب في فكره أو اهتزاز في يقينه أو ضعف في إيمانه . ومن الإنصاف لناصف ، كي يكون منصفا ، أن يعيد التفكير .

إن حياة موسي في مديان واعتناقه لدين الآباء ، ثم دعوة بني إسرائيل لاتباعه كي يحررهم ، تقود فرويد إلي اتجاه في التفكير أشد غرابة من اتجاه الأستاذ ناصف . إن فرويد يفترض وجود موسيين : موسي المصري وموسي المدياني ..

ويدعي فرويد أن موسي المصري لم يذهب أبدا إلي مديان وأن موسي المدياني لاصلة له بحكمة المصريين وديانتهم ، وأن الذي دعي إلي ديانة يهوه ووضع تشريعاتها في قادش وانزلت عليه الوصايا العشر في الجبل المقدس ليس هو موسي المصري ، بل موسي المدياني .

ويضيف فرويد : ونحن مع ذلك لانعرف شيئا شخصيا عن هذا الموسي الآخر - فموسي الأول ، أي موسي المصري ،يحجبه تماما ، إلا احتمالا فيما يبدو من دلالات تظهرها التناقضات الموجودة في التوراة في وصف موسي ، فهو يوصف كثيرا بأنه متسيد حامي الطبع وعنيف ، ومع ذلك يقال عنه أيضا أنه كان أكثر الناس حلما ووداعة .. وأظن أن لي مايرر فصل الشخصين عن بعضهما البعض ، وتصور أن موسي المصري لم يحدث أن كان في قادش أبدا ، وأنه لم يسمع أبدا باسم «يهوه» . بينما لم يضع موسي المدياني قدما في مصر ولم يعرف شيئا عن « آتون » . ولكي توحد بين الشعبين في شعب واحد ، كان لزاما علي الرواية أو الأسطورة أن تحضر موسي المصري إلي مديان (١) .

وجود موسي المصري في أرض مديان هو إذن - من وجهة نظر فرويد - مجرد أسطورة ، واعتناقه دين الآباء ودعوة بني إسرائيل إليه هو أيضا مجرد أسطورة .

ومن الأفضل أن نتابع أحداث الأسطورة في كتاب اليهود «المقدس»

---

(١) فرويد ، ص ٩٨ .

يخرج موسي إلي البرية وهو يسوق أمامه غنم حميه كاهن مديان ، حتي إذا ماوصل إلي « جبل الله ، حوريب» ظهر له « ملاك الرب بلهيب من نار وسط علّيقه . فنظر وإذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق . فقال موسي أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم . لماذا لا تحترق العليقة . فلما رأي الرب أنه مال لينظر ناداه الله من وسط العليقة وقال موسي موسي . فقال هأنذا » (خروج ٣ : ٣ - ٤) .

بهذا النداء : موسي .. موسي .. تبدأ الدعوة .

ويقال إن «جبل حوريب » قد أطلق عليه اسم « جبل الله » ذلك لأن الرب تجلي منه للبشر . ولم يكن موسي يدرك تماما حقيقة أو خطورة ما يحدث له . لقد استلفتت النار نظره ، وأثارت فضوله واندهاشه تلك العليقة التي لاتحترق ، حتي تجلي له الرب من بين ألسنة اللهب وناداه ، ثم حذره من أن يقترب ، كما طلب منه أن يخلع نعليه لأنه في أرض مقدسة .

وتكون المفاجأة أكبر من كل توقعات موسي .. تصيبه بالذهول .. تفقده الإحساس بالواقع المعاش حوله .. تنقله إلي عالم من الرؤي في أرض مادار بخلده أبدا أنها مقدسة حتي سمع صوت الرب يقول « أنا إله أبيك إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب » (خروج ٣ : ٦) .

هكذا وجد موسي نفسه في مواجهة الرب .. إنه يغطي وجهة لأنه « خاف أن ينظر إلي الله » ، لكنه يسمع صوت النداء وصوت الدعوة .. من وسط النار يتكلم الرب : « إني قد رأيت مذلة شعبي الذي في مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم . إني علمت أوجاعهم ، فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين وأصعدهم من تلك الأرض إلي أرض جيدة وواسعة إلي أرض تفيض لبنا وعسلا .... والآن هو ذا صراخ بني إسرائيل قد أتي إليّ ورأيت أيضا الضيقة التي يضايقهم بها المصريون . فالآن هلم أرسلك إلي فرعون وتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر » (خروج ٣ : ٧ - ١٠) .

لقد صدر الأمر ، وتم التكليف ، وأصبحت الدعوة بكل أحمالها وأثقالها ومخاطرها وهمومها علي كتفي موسي .. إنه هو المخلّص ، النبي المنتظر ، المكلف بإنقاذ بني إسرائيل من أغلال الذل وقيادتهم إلي أرض اللبن والعسل .

ويري «بوبر» أن هذا النداء المحدد من مكان محدد ، لايحدث في قصة موسي التوراتية إلا ثلاث مرات فقط : مرة ، كما في النص السابق ، من العليقة المشتعلة ، ومرة من الجبل : « وأما موسي فصعد إلي الله . فناداه الرب من الجبل قائلا هكذا تقول لبيت يعقوب وتخبر بني إسرائيل ، أنتم رأيتم ما صنعت بالمصريين . وأنا حملتكم علي أجنحة النسور وجئت بكم إلي » (خروج ١٩ : ٣ - ٤) ؛ أما المرة الثالثة فكانت من خيمة الإجتماع : « ودعا الرب موسي وكلمه من خيمة الاجتماع قائلا . كلم بني إسرائيل وقل لهم .... » (لاويين ١ : ١ - ٢) .

لكن النداء الأول ، عندما يتحدث الرب من وسط اللهب ، يختلف عن النداءين التاليين ، ذلك لأن موسي يسمع اسمه بوضوح في نداء لم يكن يعرف من هو صاحبه حتي يتيقن فيما بعد أنه من قبل الرب .. أما في النداءين التاليين فقد كان يعلم يقينا من الذي يدعوه ، ويضع نفسه في الحال في خدمة الرب قائلا (١) : «هأنذا» .

من العليقة المشتعلة يأتي صوت الرب ، ضاما الماضي والحاضر والمستقبل في جملة واحدة ، يصفها ميير بأنها أخاذة شديدة الوقع : الماضي عندما يقول الرب لموسي : « أنا إله آبائك . إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب » ، والحاضر : « لقد رأيت ما يعانيه شعبي في مصر وسمعت صراخهم » ، والمستقبل : « الآن هلم أرسلك إلي فرعون وتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر » .

ويعلق ميير علي هذا النداء بقوله : لقد كان موسي متحمسا أشد الحماس كي يخلص شعبه من العبودية المصرية مستخدما كل ما يملك من قوة وعنفوان . أما الآن وقد تمت دعوته إلهيا كي يقود الخروج ، نراه يتراجع في فزع ، مشدوها ، وكأنما قد تحول إلي تمثال من حجر ، بعد أن سمع هذا العرض يأتيه مباشرة بصوت الرب .. إنه ما كان ليتصور أبدا أن تلقي هذه المسئولية علي كتفيه بتكليف إلهي (٢) .

يبدأ بين موسي وإله موسى حوار يعبر فيه موسي عن ضآلته وعدم ثقته بنفسه وبما هو مكلف بالقيام به : « من أنا حتي أذهب إلي فرعون وحتي أخرج بني إسرائيل من مصر » (خروج ٣ : ١١) .

---

(١) بوبر ، ص ٣٩
(٢) ميير ، ص ٣٢

إن ضآلة قدر موسي تتضح في تساؤله . إنه يعرف جيدا أنه ينتمي إلي طائفة الغبرانيين المستعبدين - كما يقول حكي كتبة التوراة - الذين زحف جدودهم علي بطونهم إلي أرض مصر بحثا عن فتات طعام . إنه يعرف جيدا أين تضرب جذوره ، كما يعرف أيضا كيف نما الجذع والفرع ، وفي أية تربة ومن أين جاء الغذاء . وهو في نفس الوقت يعرف معرفة جازمة ، لا يعتورها شك ، من يكون فرعون الملك .. فقد رأي عن قرب وشهد ، ليس هذا فقط ، بل لقد قضي السنين الطوال بالقرب من قوائم العرش ، وكان فضل فرعون عليه عظيما ، فهو الذي أطعم وهو الذي أعطي وهو الذي ربي وهوالذي جعل من موسي شيئا يذكر . وقابل موسي كل هذا بالغدر وجريمة قتل

من أنا حتي أذهب إلي فرعون ؟ سؤال يعرف موسي إجابته جيدا . إنه جاحد وغادر وهارب من عقاب ، فكيف يجرؤ علي العودة وفي انتظاره قصاص ؟

يقدم كاسوتو تفسيرا لتساؤل موسي يختلف عما قدمناه ، عندما يدعي بأن تساؤل موسي ليس معناه ، كما يشرح أغلب الدارسين ، أن موسي يعبر عن رفضه القيام بما هو مكلف به أو عن شكه في مقدرته الشخصية علي تحمل المسئولية ، إنه فقط يعبر في تواضع عن ضآلته النسبية إذا ما قورنت بروعة وخطورة الأمر الذي كُلف بإقدام عليه (١) .

هنا يطمئن الرب موسي ، مؤكدا له أنه لن يكون وحده ، بل إن الرب نفسه سيكون معه : « فقال إني أكون معك » .

لكن نفس موسي لاتطمئن لهذا الإله الذي ظهر له فجأة من وسط النار ، مدعيا أنه إله الآباء . إن موسي لايعرف حتي مجرد اسمه ، فكيف يؤمن به وينفذ تعاليمه . إنه لايعرفه ، وإذا كان هو نفسه لايعرفه فكيف يعرّف قومه به ويدعوهم إليه ؟ ولا يخفي موسي مايدور في أعماقه ، بل يقول في وضوح لذلك الرب الذي يخاطبه « ها أنا آتي إلي بني إسرائيل وأقول لهم إله آبائكم أرسلني إليكم . فإذا قالوا لي ما اسمه فماذا أقول لهم » (خروج ٣ : ١٣) .

يعلق ديلي علي الحوار السابق بقوله : إن موسي لا يبتغي من سؤاله هذا الرد علي العبرانيين فقط ، بل إنه يريد أيضا الدخول في حديث تعارف مع ذلك الذي أمامه . يريد موسي أن يعرف أولا ما شأن هذا الرب بالعبرانيين ، وما مبلغ سلطته عليهم .. ومن « هو » يكون (٢) .

(١) كاسوتو ، ص ٣٦ .
(٢) ديلي ، ص ١٤٠ .

.. هنا ، يكشف « الرب » عن ذاته ويبوح باسمه . يقول الرب لموسي : أنا « أهيه الذي أهيه . وقال هكذا تقول لبني إسرائيل أهيه أرسلني إليكم » (خروج ٣ : ١٤) . هكذا باح الرب - كما يقول يوسيفوس - باسمه المقدس الذي ما باح به أبدا لمخلوق من قبل (١) .

إن موسي يريد أن يعرف سر تلك الذات المقدسة لشخصية الإله . إنه إله الآباء كما أخبر موسي ، لكنه لم يكن معروفا لديهم بهذا الإسم . كان إبراهيم يعرفه باسم : «إلوهيم » ثم باسم «الشداي EL Shaddai » ، لكنه لم يعرفه أبدا باسم «أهيه الذي أهيه » ، أي : أنا هو الكائن . مامعني أنا هو الكائن ؟ يقول ديلي : إن الصفة الخاصة بإله موسي هي ، إذن ، الوجود .. فهو موجود وبه يوجد كل موجود ، وبدونه لاوجود لشئ (٢) .

ويري المؤلف المجهول لكتاب : **سماء جديدة وأرض جديدة** ، أن العبرانيين والإسرائيليين واليهود ليسوا مسئولين عن اختيار هذا الاسم الغريب لإلههم . لقد اختار الإله اسما أطلقه هو علي نفسه (٣) ، أي أن الإله وحده هو المسئول عن اختيار اسمه ، إذ يضيف في حديثه مع موسي : « هكذا تقول لبني إسرائيل يهوه إله آبائكم إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب أرسلني إليكم . هذا إسمي إلي الأبد » (خروج ٣ : ١٥) . هكذا حدد الإله اسمه بصورة قاطعة وإلي الأبد . إنه إله الآباء ، لكنه لن يعرف باسم « إيل » أو « إيلوهيم » أو « الشداي » ، أو أي اسم آخر . من الآن - أي من لحظة حديثه الصادر من بين ألسنة اللهب - وإلي الأبد سيكون اسمه « يَهْوَه » .

من وجهة نظر الدكتور السيد يعقوب بكر ، الاسم « يهوه » لايعرف له معني علي وجه اليقين . ويكتفي الدكتور بكر بذكر بعض الملاحظات منها أن « يهوه » مضارع الغائب من الفعل هوي «كان » في وزن المجرد ، فيكون معني يهوه « يكون » ، كما أن معني أهيه « أكون » . ويكون «يهوه » اسم الله حين يتحدث عنه غيره ، كما أن « أهيه » اسم الله حين يتحدث هو عن نفسه . ويضيف الدكتور بكر أن بعض العلماء يرون أن «يهوه » من هوي «كان» أيضا ، ولكن في وزن أفعل (هفعيل) ، فيكون المعني يوجد (بكسر الجيم) ، أي يخلق ، أى أن يهوه هو الخالق . ويقول «

---

(١) يوسيفوس ، ص ٦٠ .
(٢) ديلي ، ص ١٤٠ .
(٣) سماء جديدة وأرض جديد ، ص ١٢

شتادة » إن الجذر الذي اشتق منه الاسم يهوه يبدو أنه هوي بمعني سقط ، فيكون معني يهوه المسقط ، أي الذي يسقط ببروقه الأعداء والآثمين . ويري فلها وزن أن يهوه من هوي العربية التي منها الهواء ، فمعناه « يسري في الأهوية ، يهب » ، أى أنه إله العاصفة (١) .

ويتفق ما ذكره الدكتور بكر مع رأي عباس محمود العقاد الذي يقول إن الإسم يهوه لايعرف اشتقاقه علي وجه التحقيق ، فيصح أنه من مادة الحياة ، ويصح أنه نداء لضمير الغائب لأن بني إسرائيل كانوا يتقون ذكره توقيرا له ويكتفون بالإشارة إليه ، أو يصح غير ذلك من الفروض (٢)

« يهوه أنا الذي هو أنا » ، هذا رد - كما يقول ميير في تفسيره للاسم - محرك للروح ، مثير للمشاعر ومن المثير للدهشة والاستغراب أن هذا الاسم لم يكن غريبا تماما علي موسي فقد كان داخلا في تركيب اسم أمه يوْكابد .ومعناه « Jehovah my glory » أي يهوه هو مجدي أو المجد ليهوه . لكن الآن ولأول مرة يستخدم هذا اللفظ الفريد كاسم للإله الذي لابد وأن تعرفه إسرائيل (٣) ، ولايكون للإله عندهم اسم غيره إلي الأبد .

ويعتقد الأستاذ ناصف أن « يهوه » أي « أنا الذي هو أنا » ليس اختراعا موسويا او إسرائيليا أصيلا ، إنه مسبوق ومسروق ، إذ أنه في كتاب الفرس المقدس يقول أهورا مزدا لزرادشت : « أنا الذي هو أنا » (٤) . وبذلك يفقد التجديد الموسوي أصالته .

إن «أهيه » الذي هو «يهوه »، هو منذ الأيام الأولى إله الآباء . ولأنه من الصعب أن يقتنع بنو إسرائيل بأنه هو هو نفسه الإله ، فإن يهوه يقرر بوضوح أن الآباء لم يعبدوه تحت نفس الاسم . فقد كان يعرف باسم «إيل »أي الله ، أو « إيل إليون » أي الإله المتعالي ، أو « إيل شداى» أي الإله الجبار ، أو « إيل أولام » أي الإله الأزلي بمعني الخالد دوما ، وغالبا ما كان يطلق عليه إسم «إلوهيم » أى الآلهة (٥) .

---

(١) سبتينو موسكاتى ، الحضارات السامية القديمة ، ترجمة وتعليق د . السيد يعقوب بكر ، دار الرقى ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص ٢٨٥ -٢٨٦ .

(٢) عباس محمود العقاد ، الله ، نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٩٤ . ص ٧٤ .

(٣) ميير ، ص ٣٥ .

(٤) ناصف ، ص ٤٤ .

(5) Lewis M . Hopfe , R eligions of the World ,Collier ,Macmillann Publishers , London , 1983 , P.324 .

وكلمة إلوهيم « EL .O. him » هي جمع كلمة « EL Oah » أي إله . ولقد كان لكل عشيرة من عشائر العبرانيين إله خاص بها دون غيرها من العشائر ، كما ظلت كلمة إيلوهيم أي الآلهة تستخدم ولمدة طويلة للدلالة علي الإله المعبود (١) . ويذكر في سفر التكوين أن راحيل سرقت أصنام أبيها (تكوين ٣١ - ٢٠) عندما هربت مع زوجها يعقوب . وهذا معناه أن لابان لم يكن يعبد إله إبراهيم ، كانوا يعبدون ويعترفون بآلهة أخري ، وهذا واضح في عهد الصلح الذي تم بين يعقوب وخاله لابان إن لابان يشهد إله إبراهيم وآلهة ناحور أبيهما (تكوين ٣١ - ٥٣) .

لكن بوبر يحاول أن ينفي هذه التعددية في طبيعة الألوهة عند العبرانيين ، بقولة إن إبراهيم كما صورته التوراة لم يكن يؤمن بتعدد الآلهة عندما استخدم كلمة إلوهيم بمعناها الجمعي . فرغم صورة الجمع التي تظهر بها الكلمة ، إلا أنها - كما تعبر عنها مفاهيمنا - تعني كلمة القوي الإلهية التي ينظر إليها ككيان واحد أو كقوة واحدة (٢) . أي أن إله إبراهيم - في رأي بوبر - هو إله واحد ، لاعدة آلهة .

ويقرر أندرسون أن إطلاق إسم إلوهيم علي إله إسرائيل ، ثم إطلاق اسم يهوه علي نفس الإله في نفس النص التوراتي قاد كثرة من الدارسين إلي استنتاج أن الحكاية كلها قد جمعت من مصادر مختلفة يصعب الفصل بينها (٣) .

أما س . ر . درايفر فهو يحل المشكلة في صورة يحاول أن يجعلها بسيطة في الفهم ، ميسرة في الاستيعاب ، عندما يقرر أن إلوهيم ويهوه يمثلان في الواقع الطبيعة المقدسة من زاويتين مختلفتين : إلوهيم هو إله الطبيعة ، و يهوه هو إله الوحي (٤) .

ويري الدكتور أحمد سوسة إله إبراهيم يختلف اختلافا كليا عن إله اليهود الذي تصفه التوراة ، ذلك لأن دعوة إبراهيم الخليل لعبادة الإله الواحد كانت دعوة عامة موجهة إلي جميع السكان الوثنيين في عصره بلا استثناء .. دون تمييز .. وقد ورد ذكر هذا الإله الذي دعا إبراهيم إلي عبادته باسم إيل .. وهو مفرد لكلمة إيلوهيم

---

(١) يقول د . محمد خليفة « يجب أن نشير إلي أنه مع استخدام إلوهيم للدلالة على الجمع إلا أن الكلمة أصبحت تستخدم عامة كاسم جمع للدلالة على المفرد »، علاقة الإسلام باليهودية ، دار الثقافة ، للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، ص ٨٦).
(٢) بوبر ، ص ٢٧ .
(٣) أندرسون ، ص ٦٤ .
(٤) س . ر . درايفر ، (هامش) ص ١٣ .

الكيمانية المراد بها الجمع والتعدد أي الآلهة .... ولما ظهر اليهود عبدوا إلههم الخاص بهم والذي سمي باسم يهوه ، الإله الذي لايهمه من العالم والخلق سوي اليهود أو شعبه المختار ، وذلك علي غرار مبدإ التفريد Honotheism ، وهو المبدأ الذي اعتقته الأقوام القديمة عندما كانت كل مدينة تختص بإله واحد من بين مجموعة الآلهة ، بدون نبذها عبادة الآلهة الأخري والقضاء عليها .. وجعلوا هذا الإله علي صورة البشر .. مسكنه في السماء وينزل أحيانا إلي الأرض ، فيتفحص الأشكال البشرية ، ويكلم البشر بصوت ولفظ ويأكل ويشرب . وهكذا كان الإله الذي تصوره اليهود إلها قبليا خاصا بهم وينافس آلهة الأقوام الأخري ويحارب معهم (١) .

ويرجح أغلب الباحثين ، وعلي رأسهم فرويد ، أن يهوه هذا إله قبلي ، لم يعرفه موسي إلا في أرض مديان ، بعد أن استقر بها وتزوج ابنة كاهنها الذي كان ولاشك له تأثير كبير عليه . وهذا معناه - بصورة لاتدعو إلي الكثير من الجدل - إن يهوه كان إلها للمديانيين الذين كانوا يعتنقون عقيدة التوحيد . والوحدانية هنا ليست وحدانية الإيمان بإله واحد ، لكنها وحدانية تغليب هذا الإله علي سائر الآلهة الأخري .

ويشرح فرويد هذه النقطة بقوله : إن القبائل اليهودية التي أصبحت فيما بعد شعب إسرائيل قد قبلت في وقت معين دينا جديدا ، ولكن هذه الحادثة لم تقع في مصر ، وليس كذلك عند سفح جبل في شبه جزيرة سيناء ، ولكن عند مكان يدعي مربة قادش Meribat Qades ، وهو واحة تتميز بوفرة ينابيعها وآبارها في البلاد الواقعة جنوبي فلسطين ، بين الطرف الشرقي لشبه جزيرة سيناء والطرف الغربي لشبه الجزيرة العربية ، وهناك اعتنقت هذه القبائل عبادة الإله يهوه ، وربما كان ذلك عن القبيلة العربية المديانيين الذين كانوا يعيشون في الجوار . ونحسب أن القبائل الأخري المجاورة كانت هي الأخري من أتباع ذلك الإله (٢) .

ويؤكد برستد ، في كتابه فجر الضمير ، قبلية يهوه ، عندما يقرر أن موسي اتخذ ، عن أهل ميديان ، يهوه إلها له . ولما كان أهل مديان قوم بدو سذج ليس لهم من المهارة في الفنون ما يمكنهم من صنع تماثيل لإلههم . فإنه ترك يهوه دون أن يصنع له صورة أو تمثالا ، كما كان الحال عند أهل مديان من قبل (٣) .

---

(١) أحمد سوسة ، ص ٤٩٠ - ٤٩١
(٢) فرويد ، ص ٥٨
(٣) برستد ، ص ٣٠١

ولا يمكن بأية حال من الأحوال أن نتصور أن إلها قبليا يمكن أن يتسم بالعظمة المطلقة أو السمو المتسامي أو العدل اللامتناهي أو العطاء أو حب الخير لكل البشر ، دون تمييز ، في كل الأرجاء . ما كان يهوه إلها لكل الخلق ، علي العكس كان إلها محليا، بركانيا ، دمويا ، لاتهدأ له ثورة إلا بالإهلاك والتدمير وإراقة الدماء . إنه ليس إلها لكل العالم ، بل هو إله لعصبة من العبرانيين اختارها بنفسه ، وقال إنها – دون كل ماسواها – هي شعبه المختار . وربما تكون هذه حادثة فريدة في تاريخ الأديان : أن يختار الإله شعبا ، لا أن يختار الشعب إلها

ويري فرويد : أنه من غير المحتمل أن يكون يهوه مختلفا اختلافا شديدا في الشخصية عن آلهة الشعوب والقبائل المجاورة . لقد تصارع مع الآلهة الأخري ، هذه حقيقة : مثلما تحاربت القبائل فيما بينها ، مع ذلك فلنا أن نتصور أن الإنسان الذي كان يعبد يهوه في ذلك الوقت ما كان ليشك إطلاقا في وجود آلهة كنعان وموآب وعماليق. أو في وجود الشعوب التي تؤمن بها . لقد حجبت مرة أخري الفكرة التوحيدية التي توهجت في عصر إخناتون وكان عليها أن تبقي في الظلام لمدة طويلة بعد ذلك (١)

معني هذا أن عبادة يهوه لم تكن عبادة توحيدية خالصه تؤمن بوجود إله واحد لا إله غيره ، بل إن هذه العبادة لم تنكر وجود آلهة أخري لجموع البشر الأخري . وكان يكفي أتباع يهوه أن يؤمنوا بأن إلههم هو أقوي الآلهة جميعا ، وأنهم – لكونه اختارهم واصطفاهم – أفضل البشر جميها : أي شعب الله المختار !!

وهناك رأي فريد ، يرد فيما كتبه الأستاذ شفيق مقار عن يهوه وطقوسه وعبادته نري أن نذكره في هذا المجال رغم عدم مألوفيته وشدة غرابته . **إن يهوه – في رأي الأستاذ مقار – لا يزيد عن كونه معبودا بدائيا من آلهة الإخصاب عبده المديانيون ورمزوا له بقضيب الرجل** . يقول الأستاذ مقار بالحرف الواحد : اكتشف موسي ذلك الإله الجديد أثناء إقامته مع المديانيين خلال السنوات التي لاذ فيها بمضاربهم . وتعلم عبادته من حميه يثرون الذي كان كبير كهنة ذلك الإله . وهو معبود صحراوي من معبودات الخصب سجد له المديانيون ممثلا في حجارة نحتت علي شكل عضو الإخصاب عند الرجل (٢) .

---

(١) فرويد ، ص ١٣٣
(٢) شفيق مقار ، ص ٢١٨

لم يكن بوسع موسي أن يفصح عن حقيقة هذا الإله الجديد ، الذي اتبعه في أرض مديان ، لأتباعه من العبرانيين أو بقايا الهكسوس أو المغضوب عليهم من المصريين الذين آثروا الخروج معه . لقد أضاف لعبادته الكثير مما تعلمه في صباه من الديانة المصرية . وهكذا حاول أن يضفي عليه صفات القوة والكمال والجلال ، كي يبدو إلها يجدر الإيمان به واتباع تعاليمه .

ورغم أن موسي تسامي بالمعبود القضيبي وجعل منه إلها ، كما يقول الأستاذ مقار ، **إلا أن اليهود في مستقبل الأيام ، ما بعد موسي ، وضعوا القضيب مصبوبا من فضة ومن ذهب داخل الهيكل ، وعبد الشعب يهوه في صورته ، أي في صورة القضيب** (١) . ولقد دفع هذا السلوك «يهوه» إلي الثورة وشديد الغضب ، لذا نراه يتحدث إلي أورشليم علي لسان الكاهن حزقيال ، مبينا بوضوح كامل ما وقعت فيه من رجاسات . لقد انتشر الزنا في أرجائها وعلي مرتفعاتها ، وأخذ الكهنة ذهب الهيكل وفضته وصنعوا منها صور ذكور ، أي - في شرح الأستاذ مقار - تماثيل قضيبية . وهكذا زنت أورشليم وارتفعت كلمات يهوه مزمجرة هادرة علي لسان حزقيال : لقد « اتكلت علي جمالك وزنيت علي اسمك وسكبت زناك علي كل عابر فكان له . أخذت من ثيابك وصنعت لنفسك مرتفعات موشاة وزنيت عليها . أمر لم يأت ولم يكن . وأخذت أمتعة زينتك من ذهبي ومن فضتي التي أعطيتك وصنعت لنفسك صور ذكور وزنيت بها . وأخذت ثيابك المطرزه وغطيتها بها ووضعت أمامها زيتي وبخوري وخبزي الذي أعطيتك السميذ والزيت والعسل الذي أطعمتك وضعتها أمامها رائحة سرور » (حزقيال ١٦ : ١٥ - ١٩)

هكذا حلت تماثيل الذهب « القضيبية » محل « يهوه » ، وغطيت بالثياب المطرزة ووضع أمامها الزيت والبخور رائحة سرور . وهذا يذكرنا بما فعله بنو إسرائيل من قبل - أيام موسي - عندما جمعوا حليهم وأعطوها لهارون كي يصنع لهم عجلا مسبوكا وعندما تم صنعه ، هتفوا : هذه هي آلهتك يا إسرائيل !! (خروج ٣٢ : ٤) ويعتقد الأستاذ مقار أن شعب إسرائيل ظل دوما يحاول العودة إلي المنابع الحقيقية لعبادته ، أي إلي أيام وثنيته

لكن أغلب الدارسين يجمعون علي أن « يهوه » إله بركاني .. إنه - ومنذ اللحظة الأولي - يتحدث إلي موسي من بين ألسنة اللهب ، ثم يظهر بعد ذلك في

شفيق مقار : ص ٢٢٤

صورة عمود من نار ليلا ، وفي النهار في صورة عمود دخان ، وفي صحبته يكون البرق والرعد والعواصف ، وكل ما يلقى ويعمق الرهبة في النفوس من جبروت هذا الإله المخيف . ويعتقد فرويد أنه لم يحدث أن كانت جبال شبه جزيرة سيناء جبالا بركانية . ولكن البراكين من ناحية أخري ، التي ربما كانت ماتزال حية حتي مرحلة متأخرة ، توجد علي طول الطرف الغربي لشبه الجزيرة العربية . ولابد أن أحد هذه الجبال هو جبل حوريب الذي كان يعتقد أنه مقر يهوه .

وقد يقال إن العناصر النارية في التركيبة اليهوية مأخوذة من الديانة المصرية ، وهذا مفهوم خاطئ . صحيح أن المصريين عبدوا الإله رع ، أي قرص الشمس المشتعل ، لكنهم عبدوا ما فيه من خير وعطاء : الضوء والدفء والنماء والحياة . أما القوي التدميرية فلم تنسب أبدا إلي الإله رع ، بل تركت لشياطين الشر والخراب .

ويهوه ، كما تصفه « التوراة » ، إله دموي يعشق التخريب والتدمير ويستمتع بعذابات البشر ويبدو هذا واضحا فيما يدعي كتبة التوراة أنه فعله بأرض مصر وأهل مصر من حرق وإبادة . ولا يمكن نسيان صحيته الشيطانية المرعبة : كل بكر يموت .. كل بكر يموت !! حكم بالإعدام الجماعي علي كل أبكار مصر .

وقد دفع هذا السلوك غير الإلهي بعض الدارسين إلي الاعتقاد بأن يهوه هذا ما هو إلا شيـــطـــان ، مجرد تماما من صفات الألوهة . يقول الأستاذ محمد خليفة التونسي في مقدمته لكتاب من ترجمته - بعنوان : **الخطر اليهودي : بروتوكولات حكماء صهيون** - إن إله اليهود يهوه . كما تصوره كتبهم المقدسة ليست له إلا صفات شيطان ، وهو أحد أصنام اليهود القديمة أيام كانوا وثنيين بدوا . وقد حورت صفاته الوثنية بعض التحوير ، ومنها أنه صار مجردا بعد أن كان مجسدا .... وهو شيطان متوحش شرير شغوف بالخراب والفساد وإراقة الدماء ، وإن قارئ التوراة إذا أراد أن يتبين صفات يهوه رب الجنود وسيرته مع شعبه المختار وجب عليه أن يتصور مخلوقا شيطانيا مسرفا في الحب والتدليل لشعبه المختار ، وهو أعجز المخلوقات حيلة في سياستهم ... فبينما هو راض عنهم كل الرضا إذا هو ساخط عليهم كل السخط .. وهو مفرط في الحقد والكراهية لأعدائهم ، فهو .. ينزل ضرباته علي هؤلاء الأعداء في إسراف وجنون وقسوة لا حد لها ، وينتقم لأتفه الأسباب أبشع انتقام .

ويستشهد الأستاذ التونسي برأي المعلم الفارسي « ماني » ، الذي عاش في القرن الثالث الميلادي ، والذي استخلص خبث التعاليم اليهودية وأنكرها واعتبر ذلك المعبود

يهوه » شيطانا ، وارتأي أن تعاليمه لا يمكن إن تكون سوي مجرد وساوس شيطانية (١).

وسواء كان يهوه هذا إلها بركانيا ، أو معبودا شيطانيا أو تشكيلا قضيبيا ، أو إله الآباء كما يدعي كتبة التوراة ، فإنه يقرر أن يختار بني إسرائيل كي يكونوا شعبه ، وينصب نفسه إلها عليهم : « أنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين وأنقذكم من عبوديتهم وأخلصكم بذراع ممدودة وبأحكام عظيمة . وأتخذكم لي شعبا وأكون لكم إلها » (خروج ٦ : ٦ - ٧) .

ولا يخفي فرويد – وهو يهودي – دهشته من ذلك الإله الذي يختار شعبه ، بدلا من أن يختار الشعب إلهه . وهو لا يتردد مطلقا في التصريح بأن الحكاية كلها ما هي إلا مجرد أسطورة : لا يمكننا أن نتوقع من الأساطير الدينية أن تولي انتباها متشككا إلي الارتباطات المنطقية ، وإلا أصابت الكراهية إحساس الشعب عن حق إزاء تصرف إله يعقد ميثاقا مع آبائه يتضمن تكليفات متبادلة ، ثم يتجاهل شركاءه البشريين لقرون إلي أن يطرأ له فجأة أن يكشف عن نفسه مرة أخري لنسلهم . وأكثر من ذلك إثارة للدهشة المفهوم عن إله يختار فجأة شعبا من الشعوب ويجعله شعبه ويقيم من نفسه إلها لهم . وأعتقد أن هذه هي الحالة الوحيدة في تاريخ الديانات البشرية . وفي الحالات الأخري ينتمي الشعب وإلهه إلي بعضهما بلا انفصال ، فهما واحد منذ البداية . وانه لحقيقة أن نسمع عن شعب يأخذ في عبادة إله جديد ، ولكننا لم نسمع عن إله يختار شعبا جديدا (٢) .

وهذه إدانة صريحة لليهودية من أحد اليهود .

إن اختيار مجموعة ضئيلة جد من البشر كي يكونوا شعبا مختارا ومميزا عن بقية الخلق ، يعتبر مظهرا من مظاهر الانحراف في تلك الديانة اليهوية التي أصبحت تعرف فيما بعد باسم اليهودية . ويؤكد د . علي عبد الواحد وافي هذا المعني بقوله : إنها تقوم علي التفرقة العنصرية ، ذلك لأنها تجعل اليهود شعب الله المختار ، الذي اصطفاه الله وفضله علي العالمين . وتنظر إلي ماعداه من الشعوب نظرتها إلي شعوب وضيعة في سلم الإنسانية . وتضع قوانيها ونظمها علي هذا الأساس ، فتفرق بين هؤلاء وأولئك أمام القانون وفي كثير من شئون الاجتماع (٣) .

---

(١) الخطر اليهودى : بروتوكولات حكماء صهيون ، ترجمة وتقديم محمد خليفة التونسى ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٦٢ - ٦٣

(٢) فرويد ، ص ١٠٥

(٣) د . على عبد الواحد وافى ، ص ٥٠

ولا نجد حرجا في استعارة كلمة « ملفقه» من الدكتور أحمد سوسة ، بمعني أن اليهود من كتبة التوراة قد لفقوا أكذب تاريخ للعالم (١) ، كي يظهروا أنفسه في صورة فريدة شديدة التفرد وهي صورة شعب الله المختار ، المميز والمتعالي فوق كل الشعوب .

ويرد نفس المعني فيما كتبه أندرسون عن العلاقة بين إسرائيل والهها « يهوه » الذي لم يعرف بهذا الاسم أبدا قبل موسي ، رغم تصريحه بأنه إله الآباء . يري أندرسون أن اختيار يهوه لإسرائيل وتفضيله لها ، يجعل من إسرائيل شعبا مقدسا : « لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك . إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعبا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض » (تثنية ٧ : ٦) . والعلاقة بين الشعب المقدس والإله المقدس علاقة فريدة في نوعها ، لكنها تعني أن إسرائيل قد أصبحت وحيدة ومتفردة وقائمة بذاتها ، أي لاصلة لها ببقية الأمم ، وعلي ذلك فليس من حق الشعب أن يتزاوج أو يتعامل مع بقية الأمم ، حتي لا تغريه آلهة تلك الأمم فيسير وراءها ويفقد ولاءه إن إسرائيل لم تختر إلهها ، بل إن ذلك الإله هو الذي اختارها .. لقد أسبغ نعمته الألهية المعجزة عليهم ، ليس لأنهم ذوي قوة أو كثرة ، ولكن لمجرد أنه « وقع في غرام تلك المجموعة الضئيلة المستهانة من العبيد في أرض مصر » (٢) .

إن ما يحدث بين موسي وإله الآباء في أسفار موسي الخمسة ، هو مجرد حكاية ولا صلة له بالتاريخ . ويعتبره أندرسون إحدي الروائع الأدبية التي يجب أن تقرأ بخيال ومشاركة وجدانية ، كما لو كان الإنسان يقرأ منظومة من الشعر (٣) .

وفي هذا الحوار غير التاريخي ، يبدأ الإله يهوه بإصدار الأمر ، ويقابله الرجل موسي بمقاومة تنفيذ الأمر ، لكن الإله يستدرج الرجل خطوه خطوة . فعندما يصرح موسي لذلك الإله - الذي ظهر له فجأة - أنه لايعرفه ، يعرفه يهوه بنفسه ويقنعه بأنه هو إله الآباء ، كما شرحنا فيما سبق . وبذلك يتم اجتياز العقبة الأولي في عملية الإقناع .

لكن موسي يبدي اعتراضا ثانيا عندما يطلب منه الرب أن يجمع شيوخ إسرائيل وأن يخبرهم أن إله آبائهم قد ظهر وأنه قد افتقدهم كما غضب لما يصنع بهم في أرض

---

(١) د . أحمد سوسة ، ص ٥٥٠ .
(٢) أندرسون ، ص [illegible]
(٣) أندرسون ، ص ٣٨١ .

مصر ، لذا فقد قرر أن يصعدهم من تلك الأرض وينقذهم من عبوديتهم ويقودهم إلي أرض تفيض لبنا وعسلا . ويجيب موسي علي هذا الطلب بقوله : « لكن هاهم لايصدقونني ولايسمعون لقولي . بل يقولون لم يظهر لك الرب » (خروج ٤ : ١) كيف يقنعهم بصدق رسالته ، وكيف يثبت لهم أنه مرسل من قبل إله الآباء ؟؟

هنا يبدأ أول درس من دروس المعجزات ، أو كما يقول بعض الدارسين أول درس من دروس السحر والشعوذة . قال له الرب : « ما هذه في يدك . فقال عصا . فقال اطرحها إلي الأرض . فطرحها إلي الأرض فصارت حية . فهرب موسي منها . ثم قال الرب لموسي مد يدك وأمسك بذنبها فمد يده وأمسك به فصارت عصا في يده ، لكي يصدقوا أنه قد ظهر لك الرب إله آبائهم » (خروج ٤ : ٢ - ٥) .

العصا التي تتحول إلي حية ، ثم تعود إلي طبيعتها الأولي .. هذه هي أول علامة سوف يستخدمها موسي كي يقنع شيوخ إسرائيل بصدق قوله .. أي أن الإقناع هنا سيكون عن طريق المعجزة ، أو - كما يري البعض - عن طريق السحر والشعوذة .

لم يكن هذا بغريب علي موسي فقد تعلم السحر ضمن ماتعلم في أرض مصر . إنما الغريب أن يقال إنه عندما تحولت العصا إلي أفعي خاف منها وهرب . لقد ألف هذا النوع من السحر - الذي كان سحرة مصر يمارسونه بكل سهولة ويسر - طوال أعوام طويلة داخل قصر فرعون وخارجه ، وربما مارسه هو نفسه ، وقد تربي علي أيدي كهنتهم وحكمائهم . هذا الخوف الفجائي من العصا الحيَّة وهربه منها لامبرر له ، إلا إذا كان في صحراء مديان قد نسي . وهذا أمر غير محتمل .

ويفسر مير خوف موسي من الأفعي وهربه منها عن طريق الرمز ، عندما يقرر أن الأفعي كان لها دور بارز وجلي في الديانة المصرية . ولذا فأنها عندما تحركت فوق الرمال متجهة إلي موسي محاولة إيذاءه ففر من أمامها ، كانت في الواقع ترمز إلي قوة البطش المصري الذي حاول الإيقاع بموسي وقتله ففر منه هاربا . لكن يهوه يأمر موسي أن يمسك بالأفعي من ذيلها دون فزع ، فيفعل ، وقد زال من داخله الخوف من السم الكامن في أنيابها . وفي هذا أيضا رمز إلي أن موسي سوف يتغلب علي فرعون وكهنته ، ويخضع الإمبراطورية المصرية كلها كما أخضع الأفعي (١) .

---

(١) مير ، ص ٣٦ .

ويدعي كاسوتو أن المصريين لم يكونوا يحولون العصي إلي حيات ، بل علي العكس كانوا بقوة سحرهم يحولون الحيات إلي عصي بسلبها المقدرة علي الحركة ، ثم يعيدونها بعد ذلك - أيضا بقوة سحرهم - إلي حالتها الأولي (١) . أما موسي فهو يفعل العكس : يحول العصا إلي حية ، وهذا أكثر إثارة للدهشة وأشد تأثيرا . بهذا يتفوق موسي . كما أن موسي بفعله هذا يظهر أنه لايقل مقدرة - في الإتيان بما هو معجز - عن أعظم سحرة المصريين ، وقد استطاع واحد من أشهرهم أن يصنع وحشا بحريا من الشمع ثم يقذف به إلي البحر ، فإذا بالحياة تتدفق في أوصاله ويتحول إلي قوة مرعبة ، حتي يمسكه الساحر بيده فإذا به يتحول مرة أخري إلي مجرد تمثال من شمع . أما ما أقدم عليه موسي -- في رأي كاسوتو - ولايقدر عليه ساحر مصري أو غير مصري ، فهو أنه أمسك بالأفعي من ذيلها رغم علمه بخطورة ما هو فاعله ، ذلك لأن الأفعي دائما تمسك من رأسها حتي يتقي الممسك بها سم أنيابها ؛ أما الإمساك بها من ذيلها فهذا معناه ببساطة أن الرأس سوف تتحرك في حرية كي تقتل . وهذا مالم يحدث في حالة موسي . ويعتبر كاسوتو أن في هذا ضربا من ضروب الإعجاز (٢)

وتأثير العبادات والطقوس المصرية علي موسي واضح وبصورة لايمكن إنكارها ، فالعصا التي بيده والتي تحولت إلي أفعي ما هي في الحقيقة إلا جزء من التراث المصري . هذا ما يؤكده برستد ، في كتابه **فجر الضمير** ، عندما يقول : علي أننا نجد أن موسي كان يتمسك ببعض الذكريات عن التماثيل المصرية . فقد كان هو نفسه يحمل عصا سحرية عظيمة ، لاشك أنها كانت في صورة ثعبان .. كما كان ينصب ثعبانا من النحاس البراق ليشفي الناس . وكان هذا الثعبان بطبيعة الحال أحد تلك الثعابين المقدسة العديدة في مصر ، وقد بقيت صورة ذلك الإله المصري القديم عند العبرانيين إلي مابعد استيطانهم فلسطين بزمن طويل ، واستمروا في إطلاق البخور له مدة خمسة قرون بعد عهد موسي . ولم يبعد من « البيت المقدس » إلا في حكم حزقيائيل في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد (٣) .

هذا معناه أن بني إسرائيل ، بعد موسي ، عبدوا الحية ، حتي جاء حزقيا بن آحاز ملك يهوذا ، وعمل المستقيم في عيني الرب . وكان - أهم ما عمله هو أن « أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السواري وسحق حية النحاس التي عملها موسي لأن

(١) أخطأ كاسوتو ، هذا القول غير صحيح انظر (خروج ٧ : ١٣)
(٢) كاسوتو ، ص ٤٦ - ٤٧ .
(٣) برستد ، **فجر الضمير** ، ص ٣٠١ .

بني إسرائيل كانوا إلي تلك الأيام يوقدون لها ودعوها نحُشْتان » (الملوك الثاني ١٨ : ٤) .

لم يستطع موسي - إذن - أن يتخلص من تأثير الفكر المصري ، وكذا الطقوس الدينية ورموز السلطة الملكية ، وكانت الحية تفرض نفوذها في كل هذه الميادين . ففي مصر السفلي ، حيث التاج الأحمر ، كانت الإلهة «واجيت» إلهة «بوتو» ، وهي علي صورة ثعبان الكوبرا ، حامية لها (١) . كما كان الصولجان في أيدي الملوك علي هيئة رأس الأفعي ، وعلي التيجان أيضا كانت الأفعي رمزا للقوة والغموض والحكمة والدهاء وربما أيضا للحياة والموت .

يروي أدولف إرمان ، في كتابه **ديانة مصر القديمة** ، أن الخوف والرعب أيضا هما العاملان اللذان دفعا المصريين إلي تقديس كائنات مرعبة مؤذية .. مثل العقرب والحشرة السامة الكبيرة ذات الألف قدم ، ثم أخطر الثعابين السامة المعروفة باسم الناشر .... وقد عبد الثعبان السام في شكلين مختلفين : أولهما في الإلهة « بوتو » حامية ملك مصر ، والثاني هو « الصل » حامي إله الشمس .. وانتشرت الثعابين المقدسة في مصر إلي درجة أنه في العصور القديمة أصبح اسم كل إله يخصص برسم ثعبان .. ثم بعد ذلك أصبحت العادة تحتم أن يحوي كل معبد نموذجا حيا من هذه الثعابين (٢) .

كان هذا منذ أكثر من ألفين وخمسمائة عام قبل الميلاد . وبما أن معابد مصر كانت مألوفة لموسي ، وكذا ديانتها التى تعلمها وتربي عليها ، لذا فإنه ليس بمستغرب أن تكون العصا الأفعي في يده هي الوسيلة لتحقيق معجزات يثبت بها صدق رسالته .

ويتساءل الأستاذ شفيق مقار : لماذا وجد يهوه أو من ألف الحكاية أنه كان من الضروري - لكي يصدق بنو إسرائيل أن إله الآباء قد ظهر لموسي - أن يعلمه يهوه حيلة سحرية وأن تكون تلك الحيلة متعلقة بالحية ؟ لمَ لمْ يحول العصا إلي حيوان آخر أو نبات أو أي شئ خلاف الحية ؟ ولماذا كان من المتعين أن يستهل يهوه المباراة السحرية بين موسي وهارون وكهنة المصريين بعملية تحويل العصي إلي حيات ؟

ويجيب الأستاذ مقار علي كل هذه التساؤلات بقوله : السبب كامن في أن الحية لم تكن .. مجرد أفعي تسعي علي الأرض كالدودة ، بل كانت حية عبدت قبل أن

---

(١) رالف لينتون ، شجرة الحضارة (الجزء الثالث) ، ترجمة د . أحمد فخرى ، مكتبة الإنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٢٧

(٢) أدولف إرمان ، ص ٨٠ - ٨١ .

يظهر يهوه علي مسرح أحداث الشرق الأدني القديم بعدة آلاف من السنين . وبوصفها ذاك كانت الحية شخصية هامة في الحكايات الفولكلورية والأساطير التي صاغت فيها أجيال وراء أجيال من البشر هناك معتقداتها وصنوف رعبها وتشوفها وتصوراتها عن الكائنات القوية والقوي الخفية الكامنة وراء العالم المرئي .. ولقد بدأت عبادة الحية في العالم القديم في أزمنة مبكرة للغاية ، والأغلب أنها بدأت في كنف عبادة الأسلاف ، فالأسلاف يموتون ويوضعون في الأرض .. والحية تخرج حية منسابة ساحرة ومخيفة في آن معا ، ومصحوبة بالموت دائما .. فلابد أن هذه هي روح السلف الميت الذي وضع في الأرض ، ولابد أنها عندما تلمس الحي لمستها الخاطفة والمحرقة وتعطيه من لعابها تكون غاضبة عليه . والمسافة بين ذلك التصور وبين محاولة استرضاء ذلك السلف الذي عاد من الأرض علي شكل حية ، بتقديم القرابين وإقامة الشعائر ، أي العبادة ، مسافة قصيرة للغاية .. ولقد وجدت في اليهودية طائفة احتفظت بتلك العبادة الضاربة في القدم وعرفت باسم عبدة الحية ، واستخدمت في شعائرها الحيات وأقامت طقوسها في الكهوف أو في الأماكن الخربة (١) .

ويقدم كاسوتو تفسيرا لأسطورة العصا التي كانت بيد موسي ، يختلف عن كل ماسبق من تحليل وتفسير ، فهو يدعي أن أسطورة العصا هذه تعتبر جزءا من التراث الحاخامي الذي تناقلته الأجيال جيلا بعد جيل .. إذ يقال إنها كانت في الأصل في يد آدم ، ثم وصلت عبر الأجيال المتلاحقة حتي أصبحت في يد موسى وملكا له.. وتحكي الأساطير أنها صولجان الرب المقدس وقد أعطاه لموسي .. ولهذا يطلق عليها اسم « عصا الله » (٢) .

ورغم أن تلك العصا المسماة بعصا الله هي أهم آيات يهوه لأنها هي الأداة التي ستحقق الأعاجيب في مستقبل موسي ، إلا أن يهوه يمد موسي بآيتين أخريين ، كي يؤكد بهما الآية الأولي ويكون التكذيب أو الإنكار بعد ذلك مستحيلا .

يقول الرب لموسي : « أدخل يدك في عُبّك . فأدخل يده في عبه . ثم أخرجها وإذا يده برصاء مثل الثلج . ثم قال له رُدّ يدك إلي عبك . فرد يده إلي عبه ثم أخرجها من عبه وإذا هي قد عادت مثل جسده . فيكون إذا لم يصدقوك ولم يسمعوا لصوت

---

(١) شفيق مقار، ص ١٦٠ - ١٦١ .
(٢) كاسوتو ، ص ٥١ - ٥٢ .

الآية الأولي أنهم يصدقون صوت الآية الأخيرة . ويكون إذا لم يصدقوا هاتين الآيتين ولم يسمعوا لقولك أنك تأخذ من ماء النهر وتسكب علي اليابسة فيصير الماء الذي تأخذه من النهر دما علي اليابسة » (خروج ٤ : ٦ - ٩) .

وتحويل يد موسي إلي يد برصاء ثم إعادتها إلي حالتها الأولي ، ربما تفسر علي أنه إظهار لمقدرة يهوه علي التطهير . وما دام هذا الإله الذي التقي به موسي قادر في لحظة واحدة علي التطهير الجسدي ، فإنه من باب أولي قادر علي التطهير الأخلاقي والعقائدي في نفوس من اختارهم كي يكونوا له شعبا وكي يكون لهم إلها ، رغم أن الأحداث تثبت - في مستقبل الأيام - أن هذا الشعب المختار قد تمرد علي إلهه وثار في وجهه أكثر من مرة وفي أكثر من موقف .

لكن كاسوتو يقدم تفسيرا آخر لهذه «العلامة» ، عندما يقول إن البرص كان منتشرا في أرض مصر أيام موسي بصورة وبائية - ويفوته بالطبع أن يقول إنه كان منتشرا بين العبرانيين بالذات لشدة قذارتهم . وبما أن هذا المرض كان يعتبر مرضا مستعصيا علي العلاج ، فإن إزالته من يد موسي في لحظة واحدة يعتبر ضربا من ضروب الإعجاز المؤثر والفاعل في عقول من يشاهدون المعجزة - كما أن إرادة موسي في أن يخضع نفسه كي يحل به هذا المرض المخيف ، تظهر قدر شجاعته واستعداده كي يتحمل كل ما يمكن تحمله ، إلي حد الوباء في سبيل تحقيق وسالته (١) .

أما تحويل ماء النهر إلي دم - ويهوه يقصد بالطبع ماء نهر النيل - فمعناه أن باستطاعة يهوه إصدار حكم بالإعدام علي المصريين ، ذلك لأن حياتهم تعتمد كلية علي مياه هذا النهر الذي كان معبودا لهم ، في فترة من فترات تاريخهم (٢) ، وتحويل مياهه إلي دم معناه الموت . وبذلك يثبت «يهوه» لموسي أنه قادر علي تدمير أعدائه وإهلاكهم ، وأنه لا سبيل إلي مقاومة قوته وجبروته .

ويبدي موسي اعتراضه الأخير : إنه ثقيل اللسان . يقول موسي ليهوه في صراحة متناهية : « استمع أيها السيد لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أول من أمس ولا حين كلمت عبدك . بل أنا ثقيل الفم واللسان » (خروج ٤ : ١٠) . ويتأكد هذا المعني أكثر من مرة في سفر الخروج : « ثم كلم الرب موسي قائلا . ادخل قل لفرعون ملك مصر أن يطلق بني إسرائيل من أرضه فتكلم موسي أمام الرب قائلا هو ذا بنو

---

(١) كاسوتو ، ص ٤٧ .
(٢) « رب الماء الذى يجلب الخضرة ، يتفانى الناس فى خدمته ويحترمه الإلهه ، هو إله صغير خلقه « رع » من أحسن عناصره » (أدولف إرمان ، **ديانة مصر القديمة** ، ص ٣٣ .)

إسرائيل لم يسمعوا لي فكيف يسمعني فرعون وأنا أغلف الشفتين » (خروج ٦ : ١٠ - ١٢) . ويتكرر نفس المعني لتأكيد أن موسي كان مصابا بما يمنعه من أن يكون بليغا متدفقا في استخدام الكلمات ، عندما يقول الرب « كلم فرعون ملك مصر بكل ما أنا مكلمك به . فقال موسي أمام الرب ها أنا أغلف الشفتين . فكيف يسمع لي فرعون » (خروج ٦ : ٢٩ - ٣٠) .

هذا التأكيد علي ثقل لسان موسي وعدم فصاحته مقصود من المؤلف ، ووراءه هدف جوهري وشديد التأثير في مجري الأحداث . فلو أن موسي ملك « عصا الله » إلي جانب قوة بلاغية تؤثر في سامعيه ، فإن هارون في هذه الحالة لن يكون له دور أو حتي مجرد وجود على مسرح الأحداث ، وربما اختفي ذكره تماما من حكايات التوراة. وهذا مالا يريده المؤلف . إنه يشرك هارون ، منذ البداية ، ويمنحه دورامؤثرا ، كي يصنع منه فيما بعد كاهنا للرب وأبا لسلالة من الكهنة .

ويعتقد بوبر أن موسي لم يكن فصيحا ولم يكن يملك مقدرة بلاغية .. كان ثقيل اللسان عند النطق بالكلمات . لقد خلق هكذا .. ولهذا أصبح هو المختار . لقد أقيم حاجز بينه وبين البشر .. هو الذي كان عليه أن يقيم عهدا بين الرب وبني إسرائيل . معلم ، ونبي ، ومشرع هو ، لكنه في مجال الكلمة يظل وحيدا بصورة لايمكن تخطيها أو التغلب عليها . وفي وحدته المطلقة لم يكن له من ملجأ إلا كلمة السماء ... لقد كان قدر « المتلعثم » هذا أن يكون هو وسيلة تبليغ كلمة السماء إلي الأرض (١)

يقول موسي للرب وهو مايزال رافضا التكليف : « استمع أيها السيد . أرسل بيد من ترسل . فحمي غضب الرب علي موسي وقال أليس هرون اللاوي أخاك . أنا أعلم أنه هو يتكلم .. وهو يكلم الشعب عنك . وهو يكون لك فما وأنت تكون له إلها » (خروج ٤ : ١٣-١٧)

لقد رفض موسي في إصرار أن يكون الرب مع فمه يعلمه ما يتكلم به ، لذا حمي غضب الرب عليه ، وعاقبه - كما يقول كاسوتو - بإشراك هارون معه في تحقيق هذا المجد الذي كان من الممكن أن يكون له وحده (٢) .

---

(١) بوبر ، ص ٥٩ .
(٢) كاسوتو ، ص ٥٠ .

ويري الأستاذ شفيق مقار أن موسي لم يكن أغلف الشفتين أو ثقيل اللسان ، بل كان لا يتكلم لغة الشراذم الآرامية التي أخرجها ، إذ كانت لغته مصرية لأنه كان مصريا. وكان ذلك هو العذر الذي يبدو أنه أتخذ لجعل هارون اللاوي ، الذي اختلق نسب لاوي مبارك لموسي عن طريق القول بإخوته له ، لسانا آراميا لموسي ثقيل اللسان (١) .

وطبقا لهذه النظرية ، يتم تكليف هارون كي يكلم الشعب نيابة عن موسي : « هو يكلم الشعب عنك » ، ذلك لأن هارون يعرف بالطبع لغة قومه ، أما موسي فكيف له أن يعرف وقد عاش حتي الأربعين في بلاط فرعون لا يعرف إلا لغة أهل مصر.

لكن مير يفترض أن موسي ربما كان بالفعل ثقيل اللسان .. مثله مثل كرمويل لاتسعفه الكلمات . ورغم أن الرب طمأنه وأعلن استعداده للوقوف إلي جانبه وذلك بأن يصبح فمه الذي يتكلم به ، إلا أن موسي لم يصدق هذا الكلام . لذا ثار الغضب الرباني ضده ، وأنهى الرب الكلام بقوله إنه سوف يرسل هارون معه ليكون له رفيقا ومتحدثا باسمه . ويضيف مير : لقد كان من الأفضل له ألف مرة أن يثق في قدرة الإله علي انطاقه بالكلمات من أن يفقد مكانته القيادية . لقد قام هارون بصياغة العجل الذهبي ، وقاد إسرائيل إلي سخفها ، وأصبح شوكه في جنب رجل الله وقديسه . وربما كان هرون في عيون معاصريه هو الأعظم (٢) .

صدر التكليف اليهوي لموسي بأن يرحل .. أن يترك مديان ويعود إلي مصر ، كي يخرج جموع العبرانيين – حسب حكاية التوراة – الذين اختارهم يهوه كي يكونوا شعبه المختار و «ابنه البكر»، ويقودهم إلي أرض اللبن والعسل .

كان علي موسي أن يسلك نفس الطريق الذي سلكه منذ أربعين عاما .. طلب من زوجته أن تعد نفسها للرحيل ، وبالطبع وفر له يثرون حموه كل ما يحتاجه من مؤن وحمير . لم تكن هناك عقبات . « أنا أذهب وأرجع إلي إخوتي الذين في مصر لأري هل هم بعد أحياء » ، يقول موسي لحميه . وتأتي الإجابة موجزة حاسمة : « إذهب بسلام » (خروج ٤ : ١٨) .

---

(١) شفيق مقار ، ص ١٢٥
(٢) مير ، ص ١٣٦

لكن موسي ، كما يقول مير ، لم يكن في عجلة من أمره . لقد أثرت حياة الصحراء في روحه فجعلته أكثر هدوءا وأبطأ حركة وأكثر تأملا . هل كان يخشي ضجيج الجموع بعد أن عاش أربعين عاما في هذا الفضاء اللانهائي ما بين السماء والرمال ؟ هل كان يشعر بثقل السنين الثمانين وقد أصبح شيخا يعشق قمم الجبال وكثبان الرمال ؟ هل كان يخشي علي نفسه وقد أثار غضب فرعون ونقمته ؟ (١) .

لكن « يهوه » يطمئن موسي فيما يختص بخوفه علي حياته . لقد مات كل من كان يطلب نفسه ، أي أن فرعون الذي كان يريد قتل موسي قد مات وجلس علي العرش فرعون آخر . وهذا معناه أن فرعون الاضطهاد قد مات ، وأن الخروج سيحدث في عهد فرعون آخر . وبناءً عليه أخذ موسي زوجته وابنيه وأركبهم علي الحمير ، وأخذ « عصا الله » في يده .

في نفس الوقت يظهر الرب لهارون ، ولابد أن يكون هذا قد حدث في إحدي الرؤي ، إذ أن يهوه ، كما يقرر كتبة التوراة ، لم يتحدث إلي أحد وجها لوجه – وبأسلوب مباشر – إلا موسي . يأمر الرب هارون بالخروج إلي البرية للقاء موسي : « قال الرب لهرون إذهب إلي البرية لاستقبال موسي » (خروج ٤ : ٢٧) . ولا يحدثنا كتبة التوراة عن كيفية إصدار الأمر لهارون . هل صدر الأمر باسم الإله إيل أو باسم الإله الشداي ، أو باسم الإله – أو الآلهه – إلوهيم ، أو باسم الإله أهيه ، أو باسم الإله يهوه .

هل تعرّف هارون بسهولة علي ذلك الإله الذي أصدر إليه الأمر ، فقام بالتنفيذ دون مناقشة ؟ ألم تمر برأسه نفس التساؤلات التي اعتورت فكر موسي من قبل ؟ لقد غاب عنهم إله الآباء هذا ما يقرب من أربعمائة عام ، ثم ظهر فجأة كي يصدر لهارون أمرا .. هل كان هارون معدًا فكريا ونفسيا وعقائديا كي يتلقي الأمر وينفذه ؟ ألم تساوره شكوك كتلك التي تصحب عادة فجائية أمر غير متوقع ؟ لماذا لم يخبر الرب هارون أنه إله الآباء ، كما أخبر موسي من قبل ، أم أن هارون كان أكثر شفافية من موسي فعرف من تلقاء نفسه ولم يجادل في الأمر ؟ .

علي أية حال يلتقي موسي وهارون في منتصف الطريق بين مصر ومديان ، عند جبل الله . لكن قبل هذا اللقاء يحدث لموسي مايمكن أن نطلق عليه عبارة : حدث عجاب .

---

(١) مير ، ص ٣٨ – ٣٩

لقد قرر الرب فجأة ودون سابق إنذار أن يذبح موسي : « وحدث في الطريق في المنزل أن الرب التقاه وطلب أن يقتله » (خروج ٤ : ٢٤) . لماذا ؟ هذا مالا يفسره الرب ، ولا يوضحه لنا كتبة التوراة .

ويري كاسوتو أن هذا النص غريب وغامض إلي حد كبير ، ففي حين يرحل موسي كي يحقق ما أمره الرب أن يحققه ، نجد أن هذا الرب نفسه علي وشك أن يذبح موسي . وما يدعو إلي الكثير من الاندهاش هو أنه لاتوجد أية دلالة واضحة في النص لتبيان سبب هذا الحادث (١) .

هكذا ، ومنذ البداية ، تظهر دموية هذا الإله الذي عاد به موسي من أرض مديان : إنه سريع التقلب ، شديد الغضب فتاك إلي حد القتل . وقتل من ؟ .. نفس الشخص الذي اختاره كي يكون له نبيا ومخلصا لشعبه المختار .

ولا ينقذ موسي – حسب الحكي التوراتي – من براثن ذلك الإله الدموي المفترس ، إلا صفورة زوجة موسي وابنة كاهن مديان ، وهي العليمة بكيفية التعامل مع هذا الإله ، حسب قول النقاد الذين يدعون بأن موسي قد اعتنق ديانة مديان . إنها تسرع بقطع غرلة ابنها – أي تقوم بختانه وتمس بها رجلي موسي ، أي تمسهما بالدم ، وكأنها تقول : فليحل هذا محل ذاك في الألم والمعاناة (٢) . لقد قدمت الدم قربانا ، وبذلك نجحت في استرضاء ذلك الإله ووضع حد لغضبه (٣) . وفي الحال يمنح « يهوه » موسي فرصة جديدة للحياة .

يحاول مير أن يشرح غموض ماحدث لموسي ، فيقدم لنا تفسيرا لاوجود له في التوراة ، وربما لم يخطر علي بال كتبتها . يقول مير : فجأة سقط موسي مريضا وقد أصيب بمرض خطير ، لدرجة أنه كان علي وشك الموت . كانت هذه هي إرادة الرب .. ربما خطأ لم يرتكبه موسي ، لكنه كان مسئولا عنه .. إذ يبدو أنه لسبب ما أهمل موسي ختان أحد ابنيه ، وبما الحديث الولادة .. وربما كان ذلك يرجع إلي عدم رغبة صفورة في ختانه . ولقد وافقها موسي علي ذلك لكنه كرب للأسرة كان مسئولا عن إعمال هذه الفريضة الربانية .... وبينما كان يتأرجح مابين الحياة والموت ، تذكر ما كان قد نسي ، وصمم علي أن يتم تلك الفريضة التي لامهرب منها .... لقد أوقف ولم يسمح

---

(١) كاسوتو ، ص ٥٨
(٢) كاسوتو ، ص ٦٠ .
(٣) بوبر ، ص ٥٦

له بالتقليد كي يحقق ما أمر به ، ذلك لأن طفلا له لم تقطع غزلته ، وفي هذا خروج علي طقس كان الرب قد فرضه أيام ابراهيم (١) .

وبما أن صفورة كانت هي المسئولة - في رأي ميير - عما حدث لموسي ، لذا فقد قرر موسي أن يرسلها ومن معها كي تعيش في هدوء مع عشيرتها .

وبدأ «رجل الله» يواجه قدره وحده .. برئ من مرضه ، استرد صحته ، واصل السير وحيدا بلا زوجة ولا ولد . لكنه بدأ يحس في أعماقه بطمأنينة ما أحسها أبدا من قبل .. قلقه قد زال ، خوفه قد ارتحل ، تردده لم يعد له مكان .. وكأن قوة الرب قد كمنت في داخله ، تدفعه وتسيره . كان يعلم أن هارون هو أيضا علي الطريق كي يلقاه : « أيضا هو خارج لاستقبالك » (خروج ٤ : ١٤) .

يلتقي الأخوان ، وقد انقضي من عمر الزمن مايقرب من أربعين عاما . وكان لقاء !! قص موسي علي هارون كل ماتقلب فيه من غرائب الأحوال ، حتي جاءه صوت الرب مناديا من وسط النار ، ومبشرا بقرب « الخلاص » .

عاد الأخوان إلي مصر . وقد أصبح هارون فما لموسي وأصبح موسي إلها لهارون : « هو يكون لك فما وأنت تكون له إله » (تكوين ٤ : ١٦) .

اجتمع الأخوان بشيوخ إسرائيل ، « فتكلم هرون بجميع الكلام الذي كلم الرب موسي به وصنع الآيات أمام عيون الشعب . فآمن الشعب » (خروج ٤ : ٣٠) .

ومن هذه اللحظة يبدأ الصراع - كما في حكي التوراة - إنتقاميا دمويا مدمرا .. متسربلا بالكوارث والنكبات ، ذلك لأنه لم يكن صراعا بين قوتين من طبيعة واحدة ، بل كان صراعا بين فرعون واله .

---

(١) ميير ، ص ٤١ .

الفصل الخامس

إلـــه ضد فرعون

الفصل الخامس

إله ضد فرعون

يطلب « الإله » من « النبي » أن يذهب هو وشيوخ بني إسرائيل إلي فرعون مصر ، يقولون له « الرب إله العبرانيين التقانا . فالآن نمضي سفر ثلثة أيام في البرية ونذبح للرب إلهنا . ولكني أعلم أن ملك مصر لايدعكم تمضون ولابيد قوية . فأمد يدي وأضرب مصر بكل عجائبي التي أصنع فيها » (خروج ٣ : ١٨ - ١٩) .

منذ البداية الأولي يظهر إله موسي رغبته في ضرب مصر وملكها ، وإظهار قوة بطشه وجبروت طغيانه . وحتي لو رغب ملك مصر في التخلص من تلك المجموعة من العبيد وتركهم يرحلون ، كي يخلص البلد منهم ومن الأوبئة المنتشرة بينهم ، فإن يهوه ، الإله الدموي ، لن يمنحه الفرصة كي يفعل ذلك عن طيب خاطر .. إنه يصرح بإصرار عنيد كئيب : « ولكني أقسي قلب فرعون وأكثر آياتي وعجائبي في أرض مصر . ولا يسمع لكما فرعون حتي أجعل يدي علي مصر فأخرج أجنادي شعبي بني إسرائيل بأحكام عظيمة » (خروج ٧ : ٣ - ٤) .

ويبدو واضحا أن «يهوه » - ذلك الإله الذي ظهر فجأة وادعي أنه إله الآباء - يُكنّ كراهية مقيتة لفرعون ، تبدو في إصراره المخيف علي تدميره . إنه يريد أن يتمجد لكنه للأسف لايخوض المعركة ضد آلهة مصر ، كي يثبت أنه هو الأقوي والأعظم في قدر الألوهية وسمو الربوبية .. بل يركز علي فرعون ، ربما بصفته رمزا لهذه الآلهة وتجسيدا لقدسيتها علي الأرض .

وكلمة فرعون لقب لملك مصر في التاريخ القديم ، وأصلها بالمصرية - كما يقول الأستاذ عصام الدين حفني ناصف - « پرعو » بغير نون ، ومعناها الرجل الذي يعيش في البيت العظيم (١) . وقد كان فرعون مصر يعتبر صورة للإله الخالق علي الأرض ، وممثلا لسلطانه القدسي ، المتجسد في النظام والعدالة والحقيقة (ماعت Maat) . ومن هذا المنطلق كان فرعون يتمتع بسلطة مطلقة لاتطاولها سلطة بشر .

---

(١) عصام الدين حفني ناصف ، **موسى وفرعون : بين الأسطورية والتاريخية** ، دار العالم الجديد ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٧ .

ومن هذا المنطلق أيضا كان تركيز يهوه علي فرعون . لو تم ضرب فرعون وسحقه ، فإن إله إسرائيل يكون قد حقق انتصارا أسطوريا علي مصر : الآلهة والبشر !!

كان علي موسي وهارون أن يذهبا إلي فرعون ،ليطلبا منه أن يطلق « بني إسرائيل » ، ويمنحهم فترة راحة من عبوديته . كي يعيدوا للرب في البرية . ولقد حدد إله إسرائيل لموسي وهارون الدور الذي كان علي كل منهما أن يؤدية : مكانة موسي هي الأعلي والأسمي .. إنه سيكون إلها لهارون ، وهارون لن يكون سوي مجرد فم يتفوه بما ينطقه به موسي : « هو يكون لك فما وأنت تكون له إلها » ، بمعني أنه سيخبر هارون بما يجب عليه قوله ، تماما كما يفعل الرب مع رسله .

لكن موسي لن يكون إلها لهارون فقط ، بل سيكون أيضا إلها لفرعون : « أنا جعلتك إلها لفرعون وهرون أخوك يكون نبيك » (خروج ٧ : ٢) ، ذلك لأنه لن يتحدث مباشرة إلي فرعون ، لكنه سيبدو كأحد الآلهة المقدسة ويتحدث بواسطة رسول وسيكون هارون هو ذلك الرسول ويتحدث إلي فرعون باسم موسي .

ويحكي كتبة التوراة ببساطة تقارب حد السذاجة والغباء أنه « بعد ذلك دخل موسي وهرون وقالا لفرعون هكذا يقول الرب إله إسرائيل أطلق شعبي ليعيدوا لي في البرية » (خروج ٥ : ١) .

هنا تثار عدة أسئلة : كيف دخل موسي وهارون وهما ينتميان إلي طبقة الغرباء « المستعبدين الموبوئين » إلي قصر فرعون الملك حاكم الإمبراطورية وممثل السلطة القدسية ؟ هل دخلا خلسة متسللين وقد أخفاهما « يهوه » تحت عباءته السحرية ، ثم ظهرا فجأة أمام عرش فرعون كما يظهر الحواة في الألاعيب الأراجوزية ؟ هل دفعا رشوة للحرس الإمبراطوري المدجج بالسلاح ، ودخلا بواسطة الذهب الرنان ، من بين أسنة السيوف والرماح ؟ أم أنهما أعدا جيشا من الرعاة العبيد ، مسلحاً بالهراوات وبالطوب اللبن الذي كانوا يصنعونه ، وتم اقتحام القصر وإرغام فرعون مصر علي الجلوس أمامهما كي يستمع إلي أوامر رب العبرانيين ؟

يقول أحد المفسرين - ونحن نأخذ رأيه هذا علي سبيل الفكاهة - إن موسي وهارون ترددا علي باب قصر فرعون لمدة عامين لايظفران بالمثول بين يديه ، حتي دخل عليه مضحكه - أي مضحك الملك - وأخبره أن بالباب رجلا مجنونا يدعي أن له إلها غير فرعون . فكان ذلك حافزا لفرعون علي لقاء موسي وهارون . مضحك الملك يزكي « مجنون بني إسرائيل » .. ربما كان في هذا فرصة لإضحاك الملك .

ويعلق الأستاذ أحمد عثمان علي هذه الأضحوكةالتي أوردها بقوله : وليس هناك حاجة إلي اللجوء لمثل هذه التفسيرات .. إذ أنه حتي في ذلك الوقت كان داخل القصر الملكي نفسه من لايزال يعرف موسي .. لابد أنه - علي رغم مرور حوالي ربع قرن من الزمان علي خروج موسي إلي سيناء - كان هناك من لا يزال يتذكره من المصريين . وفي هذه الحالة لايكون من الصعب علي موسي دخول القصر الذي قضي فيه سنين طويلة من عمره (١) .

ويخطئ الأستاذ أحمد عثمان في حساب السنين التي ابتعد فيها موسي عن مصر ، إذ يقدرها بحوالي ربع قرن ، وهي في الواقع تزيد عن ذلك بكثير . إنها تقارب الأربعين عاما . لقد ترك مصر وهو في حوالي الأربعين وعاد إليها وهو في حوالي الثمانين (٢) .

يفترض ميير أن فرعون قد استقبل موسي وهارون في إحدي قاعات قصره الفخم حيث يستقبل رسل الملوك والأمراء ومبعوثي الدول (٣) . ولا نعرف بالطبع علي أي أساس بني ميير احتماله هذا ، فموسي لم يكن رسول ملك ولا يمثل أمير ولا هو مبعوث دولة . كان لايزيد في نظر أقل رجال الحاشية الملكية عن كونه واحدا من العبرانيين المسخرين في صناعة اللبن ، أو علي أكثر تقدير ممثلا لهم .. ربما أتي راجيا تخفيف عبء العمل عنهم ومنحهم قسطا أوفر من الراحة أو مزيدا من الخبز واللحم . أما أن يتم استقبال موسي في إحدي قاعات القصر الفخمة ، فهذا أمر بعيد الاحتمال .

علي أية حال ، دخل موسي وهارون القصر الفرعوني - حسب حكاية التوراة التي يفترض كتابها أن القارئ سوف يتقبلها دون مناقشة حتي ولو خلت من المنطق وبعدت عن المعقولية . ويصف ميير هذه اللحظة الحاسمة في حياة موسي بقوله : وكم كانت مشاعر موسي جياشةفي فورانها ، متضاربة في خفقاتها ، وهو يستجمع ماضيه كله في لحظة حاضرة .. هنا كان طفلا .. وهنا تربي أميرا .. وهنا تعلم وتثقف .. وهنا أصبح قائدا وراهبا .. وهنا يقف في لحظة حاضرة كي يقدم مطالب الرب إلي فرعون المعبود إلها .. يطالبه علي لسان هارون الذي ينطلق صوته مدويا كالرعد : « هكذا يقول الرب إله إسرائيل أطلق شعبي ليعيدوا لي في البرية » (٤) .

---

(١) أحمد عثمان ، جـ ١ ، ص ٦٥ .
(٢) كاسوتو ، ص ٩٠ .
(٣) ميير ، ص ٤٥ .
(٤) ميير ، ص ٤٥ .

وتكون إجابة فرعون طبيعية ومنطقية : من هو هذا الرب حتي أستمع لقوله ؟! تساؤل وإنكار ..لقد ظهر هذا «الأليه» فجأة ودون سابق إنذار ..ولقد ظل هؤلاء البدو الرعاة في أرض مصر - حسب رواية التوراة - ما يقرب من أربعمائة عام دون أن يظهر لهم إله . ولم يكترثوا هم بأن يتوحدوا وجدانيا أو عقائديا في إله .. أي إله . ثم فجأة يظهر لهم هذا الإله الذي لم يسمعوا هم أنفسهم عنه من قبل ، وكانوا في حاجة الي آيات أو علامات كي يصدقوا موسي ولاينكروا قوله .

فكيف يستمع فرعون مصر العظيم إلي صوت ذلك « الأُليه » المجهول الذي يحاول أن يفرض وجوده في أرض تمتعت طوال تاريخها بقوة العقيدة ورعاية الآلهة ؟! «لا أعرف الرب» ، قالها فرعون في عدم اكتراث ويمكن أن نتخيله وهو ينطق الكلمات .. ربما في اشمئزاز .. ربما في احتقار .. وهو ينظر في استعلاء إلي ممثل « العبيد » وذلك الذي معه . واشمئزازه واحتقاره بالطبع ليسامنصبين علي «العبدين» الماثلين أمامه فهما لا يستحقان هذا الشرف ، أي شرف أن يشعر فرعون بوجودهما ويقيم لهما وزنا ولو بمجرد اشمئزازه منهما وإظهار احتقاره لهما . لقد كان الاحتقار منصبا علي «الإله» النكرة الذي يتحدث باسمه هذان العبرانيان من عمال الطين والتبن وصناع اللبن .

من هو الرب ؟ .. لا أعرف الرب !! .. هل هناك امتهان لذلك «الأُليه» أكثر من هذا الامتهان ؟ .. هل هناك احتقار أشد إيلاما من هذا الاحتقار ؟ وفي عبارة شديدة الاختصار ، شديدة الحزم ، يقول فرعون: « وإسرائيل لا أطلقه » (خروج ٥ : ٢)

كان من المستحيل علي فرعون أن يصدق ، أو حتي أن يستمع لقول ذلك «الإله» القادم فجأة من المجهول .. أما أن يصدر إليه أمر بإطلاق العبرانيين . فقد كان هذا خارج نطاق كل التصورات . يقول مير في تقييمة لموقف فرعون : لقد كان هو نفسه إلها . فمن يكون ذلك الإله الآخر ، الأشد منه قوة لدرجة أن يملك جرأة إصدار الأمر ؟ ما أحس فرعون حتي تلك اللحظة بوجود ذلك الإله الذي جاء به موسي .. إله شراذم العبيد !! كيف يجرؤ موسي وصاحبه علي الحديث عن ذلك المعبود الآخر ، المثير للازدراء ، في حضرته وأمام الكهنة ورجال البلاط وكبار رجال الدولة ؟!! (١)

---

(١) مير ، ص ٤٦ .

يعلق بوبر علي موقف فرعون بقوله : إنه كان موقف الاحتقار من ذلك «الأُليه» الأجنبي الذي يتصور أن بإمكانه التدخل في شئون مصر (١) .

انتهت المقابلة . إن موسي وهارون يهزلان ويخرفان .. إن مايقولان به لايزيد عن كونه ضرب من ضروب اللهو الرخيص ، ربما كان هدفه تبطيل الشعب عن أعماله . إذهبا ، ينطق فرعون الكلمة في قرف شديد مما جاء به «العبدان» .. من هراء دميم لإله دميم .

لكنهما لن يذهبا إلي الحرية أو إلي ذلك الإله أو كي يتعبدا .. إذهبا إلي أثقالكما .. هذا هو الأمر الملكي لممثلي العبيد .. أي إذهبا إلي العمل في الطين والتبن وصناعة اللبن . إذهبا !! ويشيح بوجهه عنهما .. فرعون مصر العظيم .. وكأنه يطرد ذبابة أو بعوضة أو ما هو أقل من ذلك بكثير .

ويخرج العبرانيان .. يتعثران .. وقد صكت أسماعهما ضحكات رجال البلاط وسخرية الحاشية ، وربما امتدت إليهما أيدي الخدم وهم يستفسرون من « المتعلثم » عن صوت السماء .

إن استماع العبرانيين لما يقول به هذان الأخوان ، معناه أن بذرة من بذور التمرد سوف تنبت وتنمو بين الجموع .. ويتعطل العمل ، وتعيش الجماعة العبرانية علي مص دماء المصريين دون مقابل . لذا يصدر فرعون أمرا بتشديد الرقابة والحزم فيما يختص بتسيير دفة العمل . ويدعي كتبة التوراة أن فرعون مصر أصدر تعليمات بزيادة اضطهاد «بني إسرائيل» وإذلالهم : إنهم قوم متكاسلون ، لذا فهم « يصرخون قائلين نذهب ونذبح لإلهنا . ليثقل العمل علي القوم حتي يشتغلوا به ولا يلتفتوا إلي كلام الكذب » (خروج ٥ : ٥ - ٦) . وعقابا لهم ، لن يتم إعطاؤهم مقدار التبن الذي كان دوما يعطي لهم لصنع اللبن . عليهم أن يفعلوا ذلك بأنفسهم .. أن يذهبوا ويجمعوا تبنا لأنفسهم .. تعسيرا عليهم وزيادة في الإرهاق والمشقة وعليهم أن يقدموا نفس الكمية من اللبن التي كانوا يقدمونها كل يوم .. لاتنقص شيئا .

---

(١) بوبر ، ص ٦٤

وتتعالي صرخات « العبيد » - كما يصفهم كتبة التوراة متضرعين إلي فرعون : « لماذا تفعل هذا بعبيدك . التبن ليس يعطي لعبيدك واللبن يقولون لنا اصنعوه . وهو ذا عبيدك مضروبون . وقد أخطأ شعبك » (خروج ٥ : ١٥ - ١٦) .

يصل رنين الصرخات إلي أعتاب قصر فرعون ، لكنه لا يكترث ، لأنه يعرف حقيقة هؤلاء البدو الرعاة الذين تعودوا - منذ أيام « الغلام العبراني » الذي استوزره الحاكم الهكسوسي - علي نهب خيرات مصر دون تقديم أي مقابل . ويكون تعليقه الدامغ الكاشف «متكاسلون . أنتم متكاسلون » .

وكم كانت صدمة موسي هائلة ، عندما توجه بنو إسرائيل بتوسلاتهم إلي فرعون ، غير مبالين بموسي أو بهارون أو بذلك الإله الذي أتي به موسي من صحراء مديان وادعي أنه إله الآباء . ماعاد بنو إسرائيل يكترثون بكل هذا الهراء ، فقد كان حصاده وبالا عليهم . امتلأت نفوسهم بالمرارة ، وتشبعت أرواحهم بالتمرد ، ليس علي فرعون ، لكن علي موسي وصاحبه فقد كانا - في رأي الجموع - هما سبب ماحل بالشعب من بلاء . ويدعي كتبة التوراة أن مدبري بني إسرائيل قابلوا فرعون « وصادفوا موسي وهرون واقفين للقائهم حين خرجوا من لدن فرعون . فقالوا ينظر الرب إليكما ويقضي . لأنكما أنتنتما رائحتنا في عيني فرعون وفي عيون عبيده حتي تعطيا سيفا في أيديهم ليقتلونا » (خروج ٥ : ٢٠ -٢١) .

يتجه موسي إلي « يهوه » ، أي إلي ربه ، ولايجد حرجا في أن يوبخه ، قائلا في غضب « ياسيد لماذا أسأت إلي هذه الشعب لماذا أرسلتني .. أنت لم تخلص شعبك » (خروج ٥ : ٢٢ - ٢٣) .

الشعب يوبخ موسي . وموسي يوبخ الرب .

ويحاول الرب أن يجد تعللات وأعذارا .. إن علي بني إسرائيل أن يثقوا به ويتبعوه فهو إله الآباء ، رغم أن الآباء لم يعرفوه باسمه الجديد : « وأما باسمي يهوه فلم أعرف عندهم » (خروج ٦ : ٣) . أما لماذا أخفي الرب اسمه عن الآباء وأظهره لسلالتهم من الأبناء والأحفاد ، فهذا مالا يعلله الرب وما لايفسره كتبة التوراة .

بما أن بني إسرائيل لم يقتنعوا بهذا الرب الذي يدعي أن الآباء لم يعرفوه باسمه الجديد ، فإن الرب يلجأ إلي الإغراء : لقد سمع أنين بني إسرائيل في مصر « وتذكرت عهدي » أي تذكر عهده للآباء بأن يعطيهم أرض كنعان . وهذا معناه أن هذا الإله لو لم يسمع الأنين ما تذكر ، أي أنه في حاجة إلي من يذكره ، أو إلي مايذكره ، فهو لا يتذكر من تلقاء نفسه .

علي أية حال ، بما أنه تذكر فإنه يغري بني إسرائيل بما سيفعله من أجلهم : سيخلصهم من العبودية ، ويتخذهم له شعبا ، ويكون لهم إلها . ليس هذا فقط ، بل سيعطيهم الأرض التي تفيض لبنا وعسلا ، والتي كان قد وعد بها الآباء ولم يصدق وعده بدليل أنه حاليا يعد بها الأحفاد : « وأدخلكم إلي الأرض التي رفعت يدي أن أعطيها لإبراهيم واسحق ويعقوب وأعطيكم إياها ميراثا » (خروج ٦ : ٨)

لكن بني إسرائيل لم يكترثوا بهذا الكلام المعسول ، بل إنهم لم يستمعوا . إذا كان هذا الرب قد وعد الآباء ولم يصدق ، فكيف يصدق إذا ما وعد الأبناء ؟!! من لايصدق في البداية لايصدق في النهاية . لذا لم يكترثوا . ولم يستمعوا . ويحاول كتبة التوراة إيجاد مخرج لهذا المأزق « اليهوي » بقولهم « ولكن لم يسمعوا لموسي من صغر النفس ومن العبودية القاسية » (خروج ٦ : ٩) .

لقد فشل اللقاء الأول مع فرعون . خرج موسي مكسور النفس مطأطئ الرأس . وكانت النتيجة أن بني إسرائيل لاموه هو وصاحبه وتمردوا عليهما ، وطلبوا منهما أن يكفا عما يفعلان كي لاتزيد الأثقال .

لكن الرب يطلب من موسي أن يذهب هو وهارون إلي فرعون مرة أخري ، وإذا لم يقتنع عن طريق الكلمات فعليهما أن يظهرا له عجائب الآيات التي لا يمكنه إلا أن يصدقها .

ويري بوبر أن المحاورات بين فرعون وموسي كان من المستحيل أن تحدث بالصورة التي أوردتها التوراة ، حتي ولو أخذنا في الاعتبار علاقة موسي السابقة بالبلاط الملكي . ويضيف بوبر : علينا كدارسين أن نتبني المنهج النقدي في بحثنا عن الحقيقة .. إن الأحداث التوراتية قد اعترتها تغييرات وتحويرات وإضافات ، من فم لأذن ، ومن ذاكرة لذاكرة ، ومن حلم لحلم .. حتي أصبحت ذلك الذي نقرأه الآن .. لقد امتزج

الواقع بالخيال ، والتاريخ بالأسطورة . ويمكن القول بأن ما لدينا الآن لايزيد عن كونه مجرد أسطورة تاريخية (١)

والهدف الرئيسي لمؤلف هذه الأسطورة - كما يقول أندرسون هو تمجيد إله إسرائيل ، وتصوير سمو قدسيته وقدرته كمقاتل ومخلص لبني إسرائيل (٢) .

وطبقا للحكي التوراتي - الذي يصفه بوبر وأندرسون بأنه أسطوري - دخل موسي وهارون إلي فرعون . هكذا ببساطة وكأنهما يدخلان إلي كوخ من أكواخ العبيد !! ولن نتساءل مرة أخري عن كيفية دخولهما . المهم أنهما دخلا . هكذا أراد المؤلف . وما أراده المؤلف تخيلا ، خطه علي الورق .

يعطى إله إسرائيل تعليماته لموسى وهارون ، قائلا « إذا كلمكما فرعون قائلا هاتيا عجيبة تقول لهرون خذ عصاك واطرحها أمام فرعون فتصير ثعبانا » (خروج ٧ : ٩)

هنا تبدأ مباراة السحر والشعوذة بين ممثلي « يهوه » - الذي فرض نفسه علي « بني إسرائيل » كي يكونوا له شعبا - وبين كهنة فرعون ممثل الآلهة والبشر . هكذا التحدي بين « إله » وفرعون ، متمثلا في كهنة كل منهما .

« طرح هرون عصاه أمام فرعون وعبيده فصارت ثعبانا » (خروج ٧ : ١٠) . وقد يتساءل البعض عن تلك العصا التي طرحها هارون .. هل هي عصا موسى أعطاها لهارون ، كي يفعل بها الأعاجيب ؟ يقول الأستاذ أحمد عثمان : وبعد أن عرفنا أن موسى يملك عصا ، وأن هذه العصا هى التى ستمكنه من إثبات صدق روايته ، إذا بسفر الخروج ينقل هذه العصا إلى يد هارون (٣)

العصا التى طرحها هارون ليست عصا موسى ، بل هى عصاه أى عصا هارون « طرح هرون عصاه » . ويقرر كاسوتو أن عصا هارون ليست هى عصا موسى ، ولا يطلق عليها اسم « عصا الله » (٤) .

لم يكن ما فعله هارون بمستغرب على فرعون وكهنته . لقد قابل رجال فرعون السحر بالسحر والكهانة بالكهانة . وببساطة متناهية ألقوا بعصيهم فإذا بها تتحول إلى

(١) بوبر ، ص ٦٠
(٢) أندرسون ، ص ٥٥
(٣) أحمد عثمان ، جـ ١ ، ص ٦٦
(٤) كاسوتو ، ص ٩٤

ثعابين فى نفس لحظة إلقائها ويعتقد الدكتور سليم حسن أن السحر علم تجريبي ولقد كان السحرة يعدون علماء على أية حال . فقد كان يمارس صناعة السحر الكاهن المرتل وكذلك الطبيب ، أى علماء مدربون على كتب قديمة .. وكان الساحر مميزا عن غيره من الناس لابطبيعته فقط بل بعلمه أيضا ، وكان الساحرقبل كل شئ عالما يعرف التعاويذ ، وكان قادرا بعلمه على أن يوجد تيارا بين قوى الطبيعة الخفية الخارقة فى الصيغة السحرية وقوة الاستيعاب الطبيعية فى الإنسان (١) .

المباراة السحرية كانت علنا ، أمام أعين الكثرة : حكماء فرعون وكهنته وعبيده أيضا . إن « يهوه » يريد أن يتمجد وأن يكون مجده مشهودا .. كهنة ضد « كاهنين » ، وعصى ضد عصا ، وعلى الأرض تتحرك الثعابين . وتصل الحكاية إلى ذروتها بانتصار لإله إسرائيل كان لابد وأن يكون مذهلا : عصا هارون ابتلعت كل عصى السحرة .. ثعبان هارون ابتلع كل الثعابين .

انتصر إله موسى على فرعون مصر . أثبت الإله القادم من «مديان » أنه هو الأقوى والأقدر فى مجال السحر والعصى والثعابين ، وتصور بذلك أنه قد أرهب فرعون والذين معه .

ويرى الأستاذ شفيق مقار أن المباراة بين موسى وصاحبه من جانب وكهنة المصريين من جانب آخر ليس فيها جديد ، بل هى تقليد لمباراة أخرى فى السحر بين ساحر مصرى وساحر حبشى . ولقد تعود « اليهود » سرقة تراث الآخرين مع شئ من الإضافة والتحوير والتغيير . يقول الأستاذ مقار : فى بردية سالير SALLIER ، نجد أن المباراة السحرية التى أوعز يهوه ، في سلسلة حكايات موسى ، بالدخول فيها مع السحرة المصريين ، لم تكن جديدة فالبردية تروى تفاصيل مباراة كهذه سابقة على تأليف حكاية مباراة موسى بقرون ، بين ساحر مصرى يدعى حور ، وساحر حبشى ، أشعل الساحرالحبشى خلالها النار فى قصر فرعون بقواه السحرية ، فرد الساحر المصرى بتعاويذ جعلت المطر يتساقط بغزارة فيطفئ النار مما أثار غيظ الساحر الحبشى فجعله يردد تعاويذ جعلت ظلاما يكاد « يلمس باليد من فرط كثافته » ينزل على الأرض حتى « لم يعد الجار يبصر جاره » (٢) . غير أن حور تغلب على سحر منافسه الحبشى فجعل الظلام ينقشع ويعود النور كما كان (٣) .

---

(١) د. سليم حسن وأخرون ، تاريخ الحضارة المصرية ، المجلد الأول ، ص. ٢٦ - ٢٦٢ .
(٢) سوف يستخدم مؤلفو التوراة حيلة الإظلام هذه فى سفر « الخروج » « لم يبصره أحد أخاه ولا قام من مقامه » وسيتم تفصيلها فى نفس هذا الفصل
(٣) شفيق مقار ، ص ١٣٠ .

بعد النصر الحازم لموسى وصاحبه ، أمام أعين الناس ، كان من المفترض أن يتخلص فرعون من الجماعة العبرانية ، بأن يسمح لهم بالخروج إلى البرية ليعبدوا لإلههم ، أو أن يسمح لهم بالخروج وبلا عودة كي يتخلص من مشكلاتهم وأمراضهم . لكن الإله « يهوه » كان هو الذى لايريد ذلك .. لا يريد أن يوافق فرعون أو يعفو أو يتركهم يذهبون . إنه يريد معركة يظهر فيها جبروته كي يتمجد ، لذا فهو « يغلّظ » قلب فرعون عن قصد وبإصرار لئيم .

لقد كان باستطاعة « يهوه » - كما يحكى كتبة التوراة - أن يبيد فرعون ويضرب شعبه ويمحو الجميع من على وجه الأرض . لكنه لو فعل ذلك سيفقد متعة كبرى ، هى متعة إظهار قوته وفرض جبروته . وهذا يظهر بوضوح فى كلمات يوجهها إلى فرعون عن طريق موسى : « لأجل هذا أقمتك لكي أريك قوتى ولكى يخبر باسمى فى كل الأرض » (خروج ٩ : ١٦) .

وتتخذ الحكاية اتجاها بدا « يهوه » فى سياقه - كما يصفه الأستاذ مقار - أشبه برجل شرس مفتول العضلات باحث عن الشجار يستعرض فيه عضلاته متربص برجل آخر - هو فى الحكى فرعون - أخذ فى استفزازه ونخسه ودفعه كى « يتمجد » فيه لضربه ضربا مبرحا وإصابته بعاهة مستديمة ربما . وفى حكيهم عن ذلك العراك ، ظل من ألفوا الحكاية يتغنون بما تمجد به نصيرهم مفتول العضلات يهوه ، من أفعال فعلها بالمصريين نتيجة لما ظل يدسه فى قلب فرعون من حرونة مألوفة فى شخصيات الحكايات الفولكلورية التى تجلب المصائب على رؤوسها بقلة عقولها . ولم يلتفت المؤلفون هنا ، كما لم يلتفتوا فى أى موضع آخر من تأليفهم ، إلى الصورة غير المقبولة التى أظهروا بها شخصية الإله (١) .

وهكذا تبدأ الضربات العشر ، أو النكبات العشر ، التى يقضى « يهوه » فى نهايتها على فرعون قضاء مبرما ، وكأنه ملاكم من الوزن الثقيل يصرع خصمه بالضربة القاضية فى الجولة العاشرة :

الضربة الأولى : الدم .

تبدأ الجولة الأولى - أو الضربة الأولى - وفيها يستعرض الإله اليهوى جبروت قدرته ومقدار تدميره وسطوته . لقد قرر أن يحول كل المياه الموجودة في أرض مصر إلى

---

(١) شفيق مقار ، ص ٨٤ .

دم ، حتى تلك القطرات التى ربما توجد فى الأخشاب أو الأحجار أو ما صنع منها ، وهو عقاب رهيب ، لن ينال فرعون ورجاله فقط ، إنما سيشمل ملايين المصريين البسطاء الذين لايدرون بما يجرى بين ذلك الإله الدموى وفرعون مصر ، ولا يعرفون من هو ذلك ألـ « يهوه » أو ذلك ألـ « موسى » أو ذلك ألـ « هارون » . إنهم لايدركون شيئا ، ولا يعرفون شيئا ، ولا ذنب لهم ولا جريرة ولا إثم ارتكبوه . ورغم ذلك يصر « يهوه » على إيذائهم وتعذيبهم وتدمير ديارهم وممتلكاتهم ، وهذا بكل تأكيد يحط من شأنه كإله .

إن العدالة صفة من صفات الألوهة . وهذا الإله لا يقيم وزنا للعدل ، ولا يعرف شيئا عن الحق . وربما لا نجد لهذا الإله وصفا أبلغ مما وصفه به اليهودى « المستنير » سيجمند فرويد ، عندما قال : **ربما لم يكن الإله يهوه كائنا عظيما بأى حال من الأحوال . فلقد كان إلها فظا ، ضيق العقل ، محليا ، عنيفا ومتعطشا للدماء (١)** .

ويكرر الأستاذ محمد خليفة التونسي نفس المعني عندما يصف يهوه بأنه إله شيطانى : إن الإله « يهوه » كما وصفته التوراة شيطان متوحش شرير شغوف بالخراب والفساد وإراقة الدماء (٢) .

يصدر يهوه الأمر إلى موسى : « إذهب إلى فرعون فى الصباح . إنه يخرج إلى الماء . وقف للقائه على حافة النهر . والعصا التى تحولت حية تأخذها فى يدك » (خروج ٧ : ١٥)

ولا يخبرنا كتبة التوراة لماذا يخرج فرعون إلى الماء فى الصباح !! هل يخرج ليتعبد أمام النهر ؟ أم يخرج كى يستحم أمام أعين الناس ، كما فعلت ابنة فرعون التي خرجت كى تستحم - حسب حكاية التوراة - فوجدت الطفل الرضيع الذى يقف الآن فى نفس المكان تقريبا مزمعا تدمير مصر وأهلها ؟ هل نسى موسى أنه كان من المحتمل جدا أن تأكله الأفاعى أو الأسماك أو الجوارح ، لولا أن أنقذته سيدة مصرية واتخذته لها ولدا ، ربته وعلمته وثقفته وصنعت منه شيئا مذكورا ؟

ها هو ذا موسى « نبى يهوه » يقابل الجميل بالحقد الحقود والتدمير الأسود مدفوعا بقوة يهويه شيطانية تأمره بنشر الخراب فى ربوع البلدة الآمنة التى آوته هو والجياع المشردين من سلالة إسرائيل .

---

(١) فرويد ، ص ١١٣

(٢) بروتوكولات حكماء صهيون ، المقدمة ، ص ٦٢ .

« ها أنا أضرب » ، يقول موسى لفرعون « بالعصا التي في يدى على الماء الذى في النهر فيتحول دما ويموت السمك الذى فى النهر وينتن النهر فيعاف المصريون أن يشربوا ماء النهر » (خروج ٧ : ١٧ - ١٨) .

ولا يكتفى موسى بعصاه المسماة بعصا « الله » - والتي يمكن أن توصف بأنها « عصا الله التخريبية » أو « عصا الله الشيطانية » - لكنه يطلب من هارون أن يأخذ هو أيضا عصاه كي يكمل « العفن » و« النتن » الذى بدأته «عصا الله » . « قل لهرون خذ عصاك ومد يدك على مياه المصريين على أنهارهم وعلى سواقيهم وعلى آجامهم وعلى كل مجتمعات مياههم لتصير دما . فيكون دم فى كل أرض مصر في الأخشاب وفي الأحجار » (خروج ٧ : ١٩) .

نفذ موسى وهارون الأمر ، فمات السمك في الحال وأنتن النهر ، وكان الدم في كل أرض مصر حتى الأخشاب والأحجار .

ويقع كتبة التوراة فى خطأ غبى ، عندما يقولون فى نفس السياق « وفعل عرافو مصر كذلك بسحرهم » (خروج ٧ : ٢٢) . أى أن المسألة في صلبها وأصولها لا تزيد عن كونها مسألة سحر . لكن المهم هو : ما معنى « وفعل عرافو مصر كذلك بسحرهم » ؟

الرد ببساطة ووضوح هو أنهم أيضا حولوا الماء إلى دم وبذلك تساووا مع « كاهنى » يهوه وأثبتوا أنهم لايقلون عنهما في السيطرة على قوى الطبيعة بمقدراتهم السحرية .

هنا يثار سؤال آخر : أى ماء ذلك الذى حوله سحرة المصريين إلى دم ، إذا كان موسى وصاحبه قد حولا كل قطرة ماء في مصر إلى دم حتى مافي الأحجار وما في الأخشاب ؟ هل تبقى بعد ذلك ماء كي يحوله سحرة مصر إلى دم ؟

لانعرف بالطبع أى غباء أوحى إليهم بتلك العبارة الفاضحة . كان المفروض أن يفعل كهنة مصر العكس ويحولوا الدم إلى ماء ، أى يعيدو الماء إلى طبيعته الأولى ويبطلوا سحر موسى وصاحبه . لكنهم - كما يدعى كتبة التوراة - فعلوا العكس مع عدم وجود ما يفعلون به .

هذا مادعا ابن حزم إلى اتهام اليهود بالتزييف والكذب يقول ابن حزم : إذا كان كل الماء الذى كان موجودا بمصر في أنهارها وأوديتها ومروجها وجناتها وأواني الخشب

والتراب قد صار دما ، حسب نص كتاب اليهود ، فأى ماء بقى حتى تقلبه السحرة دما كما فعل موسى وهارون (١) .

ويقرر « يهوه » - ذلك الإله المقيت - أن تظل مصر فى دمها ونتنها وعفنها الذى قدره عليها ، لمدة سبعة أيام كاملة . وإذا ما سأل البعض : كيف عاش ملايين المصريين ومئات الآلف من العبرانيين ، وكذا الحيوان والطير ، بلا ماء لمدة سبعة أيام ؟ .. وجدوا الإجابة البلهاء التى خطتها أقلام كتبة التوراة « وحفر جميع المصريين حوالى النهر لأجل ماء ليشربوا » (خروج ٧ : ٢٤) . ولم يذكر لنا « البلغاء الفصحاء » ماذا فعل بنو إسرائيل الذين لم يستثنهم يهوه من هذه الضربة .

يعلق الأستاذ شفيق مقار على هذه الضربة « التخيلية » بأسلوب ملئ بالسخرية ، يقول : لو حدث ذلك فعلا وحولت عصا هارون كل ماء في مصر إلى دم .. لو أن ذلك حدث حقيقة واستمر ولو لوقت قصير ، لكان كل حى فى مصر ، من البشر والمخلوقات الحية الأخرى ، قد مات ميتة فظيعة بحق متسمما بذلك الدم كله الذى أمات السمك وجعل النهر ينتن . ولما لم يكن المصريون قد أبيدوا فى الوقت الذى يفترض أن تلك الأحداث الخطيرة وقعت فيه ، وجد الكهنة من المتعين ، حرصا على مصداقية الحكى ، تبرير ذلك ، فكان أن ذيلوا الحكى المحموم بحاشية عابرة قالت « وحفر جميع المصريين حوالى النهر لأجل الماء ليشربوا » وهذه شطارة من جانب المؤلفين . ولكنها شطارة خائبة ، إذ تناقض كل ماكتبوه فى تلك الحكاية الدموية . فالحكاية أكدت أن كل قطرة ماء فى مصر .. تحولت إلى دم .. حتى فى الأخشاب وفى الأشجار ، أى أن كل تربة مصر قد تشبعت به .. وهكذا يكون ما انبجس للمصريين عندما حفروا حول النهر ليشربوا دما خالصا ، لا ماء عذبا .. وإن كان المصريون ومواشيهم قد نفقوا فمن أين جاء يهوه بأبكار المصريين وأبكار مواشيهم ليقتلهم فى ضربة ماحقة لاحقة ؟ .. هل أحياهم ثانية كي يتمجد فيهم ؟ .. إننا ننتهك عقولنا إذا ماصدقنا أن شيئا من هذا الهذيان المحموم قد حدث (٢) .

ويبلغ المؤرخ اليهودى يوسيفوس قمة الابتذال والإسفاف عندما يخترع من عنده مالم يجرؤ مؤلفو التوراة على اختراعه أو القول به أو حتى مجرد ادعائه . يقول يوسيفوس محاولا تبرير نجاة « بنى إسرائيل » من هذه الضربة القاصمة : تحولت مياه

---

(١) د . صلاح الدين بسيونى رسلان ، الاخلاق والسياسة عند ابن حزم ، مكتبة الشرق ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ١٢٨ .
(٢) شفيق مقار ، ص ١٨٦ - ١٨٧ .

النهر بالنسبة للمصريين إلى دم بأمر الرب . لكن الماء لم يكن فقط فى لون الدم ، بل إنه أصاب هؤلاء الذين خاطروا بالشرب منه بآلام رهيبة وعذاب مرير .. أما بالنسبة للعبرانيين فقد كان ماءً حلوا ، لذة للشاربين (١)

هذا الكلام لم يوح به يهوه إلى موسى . أو ربما أوحى به ونسى موسى أن يسجله . أو ربما سجله موسى وحلفه كتبة التوراة . لكن الأمر الأكثر احتمالا هو أن يوسيفوس أوحى إلى نفسه بهذا الكلام فخطه قلمه على أنه تاريخ .. ولو من باب الإضحاك !!

ويحاول كاسوتو أن يجد مخرجا لهذه المأزق - الذى أوقع فيه كتبة التوراة الإله يهوه ورجليه موسي وهارون - فيقول إن الماء لم يتحول حقيقة إلى دم ، لكنه تحول فقط إلى مايشبه الدم فى اللون والمظهر (٢) ، وهذا ما يحدث كثيرا أيام الفيضان عندما يحمّل الماء بكمية هائلة من الطمي

الضربة الثانية : الضفادع .

تستمر الضربة الأولى ، أو الجولة الألى ، سبعة أيام - كما يحكى كتبة التوراة - ولا يكترث فرعون بيهوه أو بشامانيه ، أى ساحرية ، كما يسميهما الأستاذ شفيق مقار . لهذا يقرر يهوه أن يرسل موسى إلى فرعون يهدده من جديد . إما أن يطلق الشعب وإما أن يوجه له « يهوه » ضربة ثانية ، شديدة الخطورة ، شديدة المأساوية ، لأن « يهوه » بلؤمه المعهود سيحاول أن يدمر بها رمزاً من رموز مصر المقدسة .

« ادخل إلى فرعون » ، هكذا يصدر الأمر اليهوى المضحك ، وكأن فرعون الملك صاحب « حانة » يدخلها موسى عندما يشاء وحيثما يريد . ويستمر إله موسى فى إصدار أومراه : « قل له هكذا يقول الرب أطلق شعبى ليعبدونى . وإن كنت تأبى أن تطلقهم فها أنا أضرب جميع تخومك بالضفادع فيفيض النهر ضفادع . فتصعد وتدخل إلى بيتك وإلى مخدع فراشك وعلى سريرك وإلى بيوت عبيدك وعلى شعبك وإلى تنانيرك وإلى معاجنك . عليك وعلى شعبك وعبيدك تصعد الضفادع » (خروج ٨ : ١ - ٤) .

---

(١) يوسيفوس ، ص ٦١
(٢) كاسوتو ، ص ٩٧

إن « يهوه » نفسه يعترف بأن شعب مصر مازال يعيش ، ولم تتم إبادته أو تدميره ، رغم عدم وجود قطرة ماء واحدة فى كل أرض مصر ولمدة أسبوع كامل .. مازال الشعب يحيا ، وفرعون ، وكذا العبيد . كيف ؟! هذا مالا يقوله لنا مؤلفو التوراة .

مد هارون يده على مياه مصر « فصعدت الضفادع وغطت أرض مصر . وفعل كذلك العرافون بسحرهم وأصعدوا الضفادع علي أرض مصر » (خروج ٨ : ٦)

هل هناك هراء أرخص وأكثر ابتذالا من هذا الهراء ؟!!

أن يرسل «يهوه » الضفادع على مصر وفرعونها وأهلها كي يحيل حياتهم إلى جحيم ، هذا منطقى ومتوقع من إله شرير حقود . أما أن يقوم سحرة مصر وكهنتها هم أيضا بإصعاد مزيد من الضفادع على أرض مصر ، وبذلك يساعدون ذلك الإله « الشيطانى » في تدمير مملكتهم ، فهذا مالا يقبله منطق ولو فعلوا ذلك حقا لقطع فرعون أوصالهم وعلقهم على جذوع الشجر ، لأنهم وقفوا من خصمه موقف المآزر والنصير وكان عليهم إما أن يوقفوا زحف الضفادع بسحرهم ، أو أن يعلنوا عن عجزهم وإفلاسهم أما أن يضاعفوا البلاء وكأنهم سوط عذاب من جحيم « يهوه » ، فهذا مالا يتقبله إلا عقل مختل مخبول .

غطت الضفادع - طبقا لحكاية التوراة - وجه الأرض في البيوت والمخادع والأسرة والطعام والعجين .. ملايين الملايين .. تزاحم البشر والدواب والزواحف وكل ما على الأرض الخربة منها والمعمورة .

ومأساوية هذا البلاء - في رأى ميير - هو أن الضفدع كان شعار إلهة الوفرة والإخصاب . وبناء عليه فقد تم تدمير الرمز المقدس (١) .. ويؤكد كاسوتو نفس الرأى عندما يقول إن إحدى الإلهات المصرية القديمة تظهر فى صورة امرأة لها رأس ضفدع (٢) .

وبدلا من الوفرة والإخصاب ، تلتهم الضفادع كل ثمر الأرض وتتركها جرداء . ولا يخبرنا كتبة التوراة عن المدة التى استغرقتها هذه الضربة ، لكن كاسوتو يقرر أنها كسابقتها استمرت سبعة أيام (٣) .

---

(١) ميير ، ص ٥٧ .
(٢) كاسوتو ، ص ١٠٠ .
(٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

وتصور الحكاية فرعون مصر وقد فقد الحيلة والمقدرة ، وبدا في صورة العاجز أمام « الإله » القادم من صحراء مديان . وبدلا من أن يستدعى كهنته وحكماءه وسحرته ويأمرهم بالمقاومة ورفع البلاء عن الأرض ، يلجأ ببساطة واستضعاف ، وربما في إذعان إلى موسى وهارون ، راجيا أن يصليا « إلى الرب ليرفع الضفادع عنى وعن شعبى فأطلق الشعب ليذبحوا للرب » (خروج ٨ :٨) .

هكذا خضع فرعون – تخيلا – في عقول كتبة التوراة ، وانتصر « يهوه » انتصارا بينا لايعوزه برهان . يقول موسى في كبرياء وهو يرشق فرعون بنظرات متشفية « لكي تعرف أن ليس مثل الرب إلهنا » (خروج ٨ : ١٠) .

وتموت الضفادع بعد خضوع فرعون . ويتم جمعها كوما كثيرة بالآلاف والملايين ، من البيوت والدور والقصور والحقول وتنتن الأرض ، كما أنتنت في الضربة الأولى ، وكأن « يهوه » بذلك يريد أن يكون رمزا ، أو تجسيدا ، لإله « النتن » .

وبأسلوبه الساخر اللاذع يعلق الأستاذ شفيق مقار على الضربة الثانية بقوله : وبعد سبعة أيام من ضربة الدم ، عاد يهوه إلى التنكيل بالمصريين عن طريق سحر شامانيه [ساحريه] موسى وهارون ، فضرب جميع تخوم مصر بالضفادع .. والضفادع موجودة في مصر منذ وجد النيل . ولابد أن « سكان الرمل » بوغتوا بها عندما استقروا في مصر واعتبروها شيئا مخيفا ، لكن المصريين عرفوها من قديم وأدخلوها في شعائرهم ، بل وجعلوها حيوانات مقدسة للإلهة « هيكيت » ، زوجة « خنوم » ، وهى من الآلهة الضاربة في القدم التى ربط المصريون بين عبادتها وبين عمليات الخلق والميلاد .. كما أن الضفدع من الحيوانات الملازمة لإله النيل « حابي » وهو من معبودات الخصب المصرية .. فالضفادع لم تكن في أى وقت طارئة على مصر ، ولم تكن نقمة ، بل اعتبرت دائما علامة خير . لكنها بالنسبة للبدو الوافدين من الصحراء .. بدت لعقولهم المليئة بالمخاوف والتصورات المرتعبة منطوية على تهديد ما ولاشك أن ذلك الخوف تلبث في تراثهم المتناقل شفاها ووجد تربة خصبة في عقول كهنة السبى فترعرع وطرح ذلك التصور المحموم الذى ورد في الضربات العشر . وتراءت الضفادع فيه للعقل المريض بالذهان وقد خرجت من الماء فزحفت على كل شئ وغطت كل شئ (١) .

---

(١) شفيق مقار ، ص ١٨٧

الضربتان الثالثة والرابعة : البعوض والذباب

في هاتين الضربتين يستعين « يهوه » بجيوش البعوض والذباب في معركته ضد فرعون . ولنا أن نتصور إلها يستخدم مثل هذه النوعية من المحاربين . إنها بكل تأكيد حرب قذرة لا يملك ذلك الإله من أدواتها إلا الحشرات كي يضيفها إلى عفن ونتن ضربتيه السابقتين . لقد أطلقوا عليه في « التوراة » لقب « رب الجنود » وإذا كانت هذه هي جنوده ، فهو بلا أدنى شك « رب الجنود » القذرة . ولا يجادل في ذلك إلا جاهل أو مكابر .

في الضربة الثالثة - كما يحكي كتبة التوراة - يقول « يهوه » لموسى قل لهارون مد عصاك واضرب تراب الأرض ليصير بعوضا في كل أرض مصر . وضرب هارون تراب الأرض بعصاه « فصار البعوض على الناس وعلى البهائم . كل تراب الأرض صار بعوضا في جميع أرض مصر » (خروج ٨ : ١٧) .

ويقول كتبة التوراة إن العرافين فعلوا « كذلك » بسحرهم ، لكنهم لم يفعلوا ماقد فعلوه في الضربتين الأولى والثانية ، أي الإسهام في زيادة الدم ومضاعفة أعداد الضفادع .. لقد فعلوا هنا ماكان يجب عليهم أن يفعلوه منذ البداية وهو المقاومة ، ومحاولة إيقاف قوى « يهوه » التدميرية . لقد حاولوا أن يخرجوا البعوض . ويعلق كتبة التوراة على هذه المحاولة بقولهم : « فلم يستطيعوا » .

هكذا تمت هزيمة الكهنة والحكماء والسحرة ، علنا وعلى رؤوس الأشهاد ، كما أراد لهم كتبة التوراة أن يهزموا . ولم يخفواهم أنفسهم قلة حيلتهم وعجزهم وخيبة سحرهم .. أعلنوا تسليمهم الكامل عندما قالوا لفرعون « هذا أصبع الله » (خروج ٨ : ١٩) . بمعنى أنه من فعل قوة علوية لايستطيع البشر مقاومتها . هذا الاعتراف وضعه كتبة التوراة وأنطقوا به - وهما - السحرة المصريين ، ورغم ذلك فهو في رأى كاسوتو اعتراف جزئي : لأنهم لم يقولوا هذا أصبع « يهوه » ،بل اكتفوا فقط بقولهم هذا أصبع الله . وهذا معناه أنهم لم يعترفوا بألوهية « يهوه » (١) .

بدأت الأمور تسوء بحق - كما يقول الأستاذ شفيق مقار - فقد عجز سحرة المصريين عن مجاراة « ساحرى » يهوه وارتعبوا .. وتركوا الساحة لموسى وهارون ، فضربا أرض مصر بالبعوض ، وبذلك يكون المصريون هم المتسببون - بحرونتهم

---

(١) كاسوتو ، ص ١٠٦

وإثقالهم على الشعب بعبودية قاسية - في إصابة العالم كله بآفة البعوض . وهذا هو التفسير اليهوى للتاريخ الطبيعي للعالم (١)

لايكترث فرعون ببعوض « يهوه » ولا بأصبعه ، فيعاجله « يهوه » بالضربة الرابعة مسلطا عليه العديد من ملايين « الذباب » .

لكن « يهوه » فجأة يتذكر شعبه .. لقد تحمل « بنو إسرائيل » الضربات الثلاث الأولى مع المصريين وعانوا منها ، لأن يهوه في معركته الشرسة ضد فرعون نسي أن شعبه المختار يعيش هو أيضا في أرض مصر . فجأة تذكر الإله – ولا يعرف من الذى ذكره – أن « بني إسرائيل » يجب أن يكونوا بمنأى عن هذا العذاب ، من الضربة الرابعة وحتى نهاية الضربات : « ولكن أميز في ذلك اليوم أرض جاسان حيث شعبي مقيم حتى لايكون هناك ذبان . لكي تعلم أني أنا الرب في الأرض . وأجعل فرقا بين شعبي وشعبك » (خروج ٨ ٢٢ -٢٣) .

أما لماذا لم يفرّق « يهوه » بين « الشعبين » في ضربة الدم وضربة الضفادع وضربة البعوض ، فهذا مالم يخبرنا به « يهوه » واحتفظ بالسر لنفسه ، ولم يفسره لنا الكتبة . ربما أراد « يهوه » أن يخوف شعبه المختار ويشعره أنه يستطيع إبادته هو أيضا إن تمرد وخرج عن طاعته .. ربما !!

هجم الذباب بأعداد رهيبة على قصر فرعون وبيوت أتباعه وعبيده ، وبيوت المصريين ومعابدهم ، وكل المدائن والقرى . وتؤكد حكاية التوراة أنه « في كل أرض مصر خربت الأرض من الذباب » (خروج ٨ : ٢٤) . وكأنها لم تخرب من قبل بفعل الدم والضفادع والبعوض .

يقول مير : لانعرف بالضبط معنى تلك الكلمة التى تمت ترجمتها بـــــ « الذباب» ، وبالرغم من أن هذه الترجمة قد تكون صحيحة ، إلا أنه من المحتمل أنها ترمز إلى نوع من « الخنفساء » كان في تلك الآونة رمزا لإله الشمس . وهكذا فإن أقوى آلهتهم بدا وكأنه قد انقلب عليهم كي يكون سوط عذاب في يد إله الرعاة المستعبدين (٢) .

ويعلق الأستاذ مقار على ضربة الذباب بسخريته المعهودة من حكايات كتبة

(١) شفيق مقار ، ص ١٨٩
(٢) مير ، ص ٨٥

التوراة .. يقول : ولم يقتصر ذنب المصريين على ذلك [إصابة العالم كله بآفة البعوض] ، بل شمل ابتلاء العالم بآفة الذباب أيضا . ولاحاجة بأحد طبعا لمن يقول له إن الذباب وغيره من الحشرات سبق الشعب إلى الوجود بملايين السنين .. لكن تلك الذبابة التى عرفها المصريون وتعاملوا معها منذ آلاف السنين انقلبت فجأة ، فى حكى التوراة ، ضربة قاصمة وجهها سحر شامانى « يهوه » ، موسى وهارون ، إلى المصريين (١) .

بعد أن خربت الأرض - فى الحكاية - يبدأ كتبة التوراة فى تصوير إذعان فرعون إنه هو الذى يسرع بالأمر باستدعاء ممثلى « العبيد » ، بعد أن كانا هما اللذان يلحان على مقابلته والمثول بين يديه . يقول لهما فيما يشبه الاستسلام : « إذهبوا اذبحوا لإلهكم فى هذه الأرض » . لقد بدأ يعترف أن لهم إلها ، بعد أن كان يقول : « من هو الرب » ، أنا لاأعرف الرب » .

ويرفض موسى أن يذبح للرب إلهه فى أرض مصر ، ذلك لأن الحيوانات التى سوف تذبح تعتبر رموزا مقدسة لآلهة المصريين ، وعلى ذلك فقد يقدم المصريون على الفتك بهم . ويصر موسى على مسيرة ثلاثة أيام فى البرية كى يذبحوا هناك .

لايجد فرعون مناصا من الموافقة ، فيمنحها ، لكن بصورة تحفظ له الكبرياء وماء الوجه عندما يستخدم عبارتي : « أنا أطلقكم .. لكن لاتذهبوا بعيدا » (خروج ٨ : ٢٨) . وهذا معناه أنه هو صاحب الأمر وأنه هو الذي سوف يطلقهم بإرادته ولا أحد غيره ، وفى نفس الوقت يصدر إليهم تحذيرا : « لا تذهبوا بعيدا » لأنهم إن فعلوا وعصوا أمره فلن يتركهم دون عقاب .

بعد أن حصل موسى على موافقة فرعون ، صلى للرب . بعدها ارتفع « الذباب عن فرعون وعبيده وشعبه . لم تبق واحدة » (خروج ٨ : ٣١) . ولا يعرف أحد بالطبع أين ذهبت تلك الملايين من جيوش الذباب ، ومن قبلها ملايين البعوض ، ومن قبلها ملايين الضفادع التى غطت كل أرض مصر ولم تترك فيها فراغا لم تصل إليه أو مجرد ثقب لم تشغله .

لكن فرعون يغلظ قلبه أيضا هذه المرة ولايطلق الشعب ، وهذا بكل تأكيد مايريده « يهوه » ، لأن موافقة فرعون معناها أن الخطة التآمرية التى رسمها « إله بنى إسرائيل » لن تكتمل ، وأن « يهوه » لن يصل إلى مراده بأن يظهر عجائبه ويتمجد .

---

(١) شفيق مقار ، ص ١٨٩ .

الضربة الخامسة : الوبأ .

فى هذه الضربة يصب « يهوه » جام غضبه على الخيل والحمير والبغال والجمال والبقر والغنم فيبيدها جميعا . ولا يدرى أحد لماذا سلط « يهوه » وباه على تلك الحيوانات التى لادخل لها من قريب أو بعيد بحقد « يهوه » على فرعون أو بالمعركة الدائرة بينهما . إن رغبة « يهوه» التدميرية ترسل بلاءها دون تفكير ، وكأن ذلك الإله لاعقل له ، ولا منطق ولا خلاق .

« ماتت جميع مواشى المصريين . وأما مواشى بنى إسرائيل فلم يمت منها ولا واحد » (خروج ٩ : ٦) .

ويجب التركيز على استخدام كلمة « جميع » ، لأنها تعنى أنه لم يعد فى مصر أى أثر يذكر لخيل أو حمير أو جمال أو بقر أو غنم ، أو أى نوع من أنواع الماشية . ويؤكد ميير نفس رأى كتبة التوراة عندما يقرر أن « كل » ماشية مصر ضربت بالوبأ وماتت .. الماشية التى تعيش على الكلأ الأخضر فى مراعى النيل .. والجياد التى يمتلكها الأثرياء والتى اشتهرت بها مصر .. وحمير الفقراء .. والجمال التى تحمل البضائع لمسافات طويلة .. والثيران التى تحرث الحقول .. والأغنام التى تمثل جزءا كبيرا من الثروة .. عليها حل الوبأ فأبادها جميعا . لقد امتلأت الأرض بالموت (١) .

المبالغة واضحة والخطأ بيِّن والتناقض فيما يكتبه مؤلفو التوراة سيظهر مباشرة فى الضربة التالية ، أى الضربة السادسة .

ولن نتساءل - فلا جدوى من التساؤل - كيف عاش المصريون وقد غطى وجه الأرض آلاف الآلاف من جثث الماشية المتعفنة ، وقبلها ملايين الضفادع المنتنة وجيوش الذباب والبعوض المتحلله !! لابد وأن هذا الشعب ربما كان - كما يقولون - له سبعة أرواح ، عجز الإله « يهوه » فى القضاء ولو على مجرد واحدة منها .

وكما هو متوقع ، كى يتم تمجيد « يهوه » على أيدى كتبة التوراة ، رفض فرعون أن يطلق الشعب .

الضربة السادسة : الدمامل .

تأتى هذه الضربة فجأة ودون سابق إنذار . لقد قرر « يهوه » أن يصيب كل ما علي أرض مصر بالدمامل والبثور ، أى بالقيح والصديد ، وكأنه إله تخصص في فن التعفن والنتن .

---

(١) ميير ، ص ٦٠

قال الرب لموسى وهارون : « خذا ملء أيديكما من رماد الأتون وليذره موسى نحو السماء أمام عيني فرعون ليصير غبارا على كل أرض مصر . فيصير على الناس وعلى البهائم دمامل طالعة ببثور في كل أرض مصر .. ولم يستطع العرافون أن يقفوا أمام موسى من أجل الدمامل لأن الدمامل كانت في العرافين وفي كل المصريين » (خروج ٩ : ٨ - ١١)

عاد مؤلفو التوراة إلى السخف الغبي مرة أخرى . موسى وهارون سوف يملآن أيديهما بالرماد ويتوجهان إلى قصر فرعون حتى يصلا إلى العرش فيذر موسى الرماد أمام عيني فرعون نحو السماء !! هل هذا كلام يصدقه عقل ؟ هل هما ذاهبان إلى « طابونة » ، أو إلى « وكالة » ، أو إلى «حظيرة بهائم » لا يعترضهما أحد ، ولا يسألهما أحد عما امتلأت به أيديهما ؟ هل نسي كتبة التوراة أن فرعون مصر كان يعتبر سليل الآلهة ولا يصل إليه خاصة الخاصة إلا بقدر ؟ إن كبار الكهنة المختارين لم يكن يسمح لهم بالدخول عليه إلا بالمسك والعود وطيب البخور ، فهل يسمح لهذين بالدخول عليه وأيديهما ممتلئة برماد الأتون ؟

هذا هزل رخيص . لكن هذا الهزل الرخيص يصل إلى درجة الإضحاك المثير للاشمئزاز ، عندما يقرر كتبة التوراة أن موسى لما ذرى الرماد نحو السماء أمام فرعون « صار دمامل بثور طالعة في الناس وفي البهائم » (خروج ٩ : ١) .

أية بهائم يقصدها كتبة التوراة ؟ وعلى من تطلق هذه الكلمة ؟ ألم يقولوا في حكايتهم إن الإله « يهوه » في الضربة الخامسة أفنى «جميع » بهائم المصريين ، وهذا معناه أنه لم يبق منها ولا مجرد شاة واحدة للذكرى ؟ أم أنهم بالبهائم هنا يقصدون الكلاب والقطط والأرانب والفيران لأنها لم تذكر بالاسم في مضمون الضربة الخامسة ؟

أما عرافو مصر وكهنتها وسحرتها ، فما كان لفرعون أن يتوقع منهم أي رد فعل أو مقاومة بعد أن أعلنوا استسلامهم وعجزهم من قبل قائلين « إنها أصبع الله » ، وما كان بمقدورهم الصمود أمام هذا « الأصبع » . لكن « يهوه » الإله المفترس . لايكتفي منهم بهذا الاستسلام . إنه يهاجمهم في ضراوة ويصيبهم بالدمامل ، أي بالقيح والصديد والعفن ، فيفرون من أمام موسى : « ولم يستطع العرافون أن يقفوا أمام موسى من أجل الدمامل . لأن الدمامل كانت في العرافين وفي كل المصريين » (خروج ٩ : ١١) .

ويرى الأستاذ شفيق مقار أن : هذه الضربة لاتزيد عن كونها مجرد هذيان لمريض بالذهان يحاول فى استماتة التخلص من عذابه باسقاطه على « مضطهديه » .. لقد أوقع موسى وهارون ، فى الحكى التوراتي ، الضربة التالية بالمصريين .. وكانت ضربة الدمامل المقززة . ومن إطالة الحديث الذى أجرى على لسان يهوه فى التوراة عن الأمراض الجلدية العديدة ، يبدو واضحا أن تلك الأمراض ظلت بلاءً ملازما للشعب .. لقد ابتلى الشعب وراثيا نتيجة للعيش الخشن فى الرمال والافتقار إلى الماء ، بالدمامل التى ابتلتهم بها حكاية الخروج .. إن ضربة الدمامل تلك لم تكن إلا من قبيل تخلص الشعب - خاصة إذا كان مريضا بالبرص والسيل والدمامل والبهق والقرع والجرب والحكة والجراريج ، وبالذهان أيضا - من بعض عذاباته ، فى الوهم ، بنقلها - سحريا- إلى المصريين (١) .

الضربة السابعة : البرد والنار

فى هذه الضربة يظهر « يهوه » ، الإله البركانى عنفوان سطوته ، فيقرر أن يدمر مصر بالرعد والبرد والنار .

ويحدث تغير قد لاتلحظه الكثرة فى موقف الرب من موسى وهارون . لقد كان « الرب » فى الضربات السابقة يوجه كلامه إلى كل من موسى وهارون . ويقوم هارون بدور فاعل عندما يستخدم عصاه مستنزلا البلاء . أما فى هذه الضربة فإن « يهوه » يوجه حديثه إلى موسى فقط : « ثم قال الرب لموسى بكر فى الصباح وقف أمام فرعون وقل له هكذا يقول الرب إله العبرانيين أطلق شعبى ليعبدنى » (خروج ٩ : ٣) .

موسى هو الذى سيتحدث إلى فرعون ، وموسى هو الذى سيهدد ويتوعد ، وموسى هو الذى سيمد « عصا الله » نحو السماء كى يستجلب لعنات الرب وغضبه : « ثم قال الرب لموسى مد يدك نحو السماء ليكون البرد فى كل أرض مصر على الناس وعلى البهائم وعلى كل عشب الحقل فى أرض مصر . فمد موسى عصاه نحو السماء فأعطي الرب رعودا وبردا وجرت نار على الأرض وأمطر الرب بردا على أرض مصر . فكان برد ونار متواصلة فى وسط البرد .. فضرب البرد فى كل أرض مصر جميع مافى الحقل من الناس والبهائم . وضرب البرد جميع عشب الحقل وكسر جميع شجر الحقل » (خروج ٩ : ٢٢ - ٢٦)

---

(١) شفيق مقار ، ١٩٠ - ١٩١

وبالطبع استثنى « يهوه » أرض جاسان حيث يقطن « بنو إسرائيل » ، فلم يصبها شئ .. لا برد ولا نار .

ويلاحظ من الكلمات التى يستخدمها « يهوه » ويوجهها إلى فرعون ، هذه المرة على لسان موسى ، أنه يصف نفسه بأنه إله العبرانيين ، لا إله الكون أو إله العالمين أو إله الناس ، ولم يكترث بأن يطلب من فرعون أو غيره أن يؤمنوا به ويتبعوه . وهذا معناه أن « يهوه » هذا لا يزيد عن كونه مجرد إله محلى ، خصص نفسه لعدة آلاف من الخلق ، ولا يهمه من يعبد أو مايعبد البشر فى كل الأرجاء . إنه ليس إله الناس جميعا ، ولا رب الناس جميعا ، ولا يهمه إلا أن يكون إلها لتلك الزمرة من الرعاة العبرانيين .

ومن المثير للعجب أن « يهوه » فى هذه الضربة أيضا يصر على إفناء كل مافى مصر من « بهائم » . لقد نسى هذا الإله.. بكل تأكيد نسى - أنه قد أفناها « جميعا » فى الضربة الخامسة وهى ضربة الوبأ ، ثم نسى فأعاد إفناءها فى الضربة السادسة وهى ضربة الدمامل . وها هو ذا يبعث الحياة فى أوصالها من جديد كى يتلذذ بأفنائها مرة أخرى !!

فى الحكاية التوراتية ، تقصم هذه الضربة ظهر فرعون ، وتذل كبرياءه ، فيرجو ويتوسل ، وينحنى أمام موسى وهارون وهو يعترف ، فى انكسار ، أنه هو وشعبه هم الأشرار !! « فأرسل فرعون ودعا موسى وهارون وقال لهما أخطأت هذه المرة . الرب هو البار وأنا وشعبى الأشرار » (خروج ٩ : ٢٧) . إنه يتوسل إلى موسى أن يصلى لربه كى يرفع هذا البلاء ، وسوف يتركهم يرحلون ولن يعترض أبدا على مايفعلون .

هكذا وصل كتبة التوراة - تخيلا - بفرعون مصر العظيم إلى لحظة الانحناء والانكسار والإذلال ، بعد أن أصابوا كهنته وسحرته ، من قبل بالعجز والهزيمة والانسحاق أمام « أصبع الله » ، بل وعاقبوهم بالدمامل ، وأظهروهم فى صورة مخزيه وهم يفرون من أمام موسى وهارون .

لايكتفى موسى بما حدث لفرعون ، ولايكترث باعترافه بالخطأ أو بتوسلاته .. إنه ينظر إليه فى كبرياء واستعلاء ويوبخه : « وأما أنت وعبيدك فأنا أعلم أنكم لم تخشوا بعد من الرب الإله » (خروج ٩ : ٣٠) . هكذا تحدث المفاجأة غير المتوقعة : زعيم البدو « المستعبدين » يوبخ فرعون مصر ، الملك « سليل الآلهة » ، العظيم !! هل هناك من الخيال ما هو أخصب من هذا ؟

يقول ميير : إن موسى أصبح متمكنا من القدرة على البلاغة فى الحديث .. وهذا مثار دهشة بالغة تلك الشفاة المتعلثمة أصبحت مصدرا لبلاغة غير متوقعة ، أشعلتها طاقة خلاقة هى أيضا غير متوقعة . وبدا موسى وكأنه فجأة قد أصبح قادرا على أن ينحى وساطة هارون .. لن يصبح هارون بعد ذلك هو المتحدث بدلا عنه ، بل سيقف هو باستقلالية كاملة ويتحدث عن نفسه (١) .

والأمر ليس مثار دهشة على وجه الإطلاق كما يدعى ميير ، فقد كانت لغة موسى هي لغة فرعون ، ويجب ألا ننسى أنه تربى في قصر الملك وقضى به مايقرب من الأربعين عاما . أما تعلثمه فقد كان فى مواجهة العبرانيين الذين لم يكن قد أجاد لغتهم بعد . ومن هنا كانت حاجته الملحة إلى هارون كي يكون له « فما » ، لكنه عندما يتقن لغة العبرانيين ويسيطر عليها مع مرور الوقت ، نجده فى غير حاجة إلى هارون على وجه الإطلاق . وسيبدو هذا بوضوح فى خطبته الأخيرة البليغة .. خطبة ما قبل الموت .

ويتساءل الأستاذ شفيق مقار فى سخريته المعهودة : لكن لماذا قال يهوه لفرعون على لسان موسى « والآن أرسل احم مواشيك وكل مالك فى الحقل ..» (خروج ٩ : ١٩) . هذه خيرية غريبة من يهوه الذى كان في أشد حالات الغضب على فرعون وأرسل يقول له على لسان موسى « هذه المرة أرسل جميع ضرباتي إلى قلبك وعلى عبيدك وشعبك » (خروج ٩ : ١٤) . لكن هذا ما اقتضاه الحرص على منطقية الحكى وجعله قابلا للتصديق ، لأن « الشعب » بغير ذلك كان حريا أن يتساءل عن السبب فى أن بعض مواشى المصريين ظلت حية ليسرقها وهو خارج (٢) .

الضربة الثامنة : الجراد .

فى بداية هذه الضربة يعترف الإله « يهوه » ، صراحة ، أنه قد غلظ قلب فرعون كي لايترك « بنى إسرائيل » يرحلون ، أى أنه هو عن قصد وإصرار لايريد موافقة فرعون على خروج شعبه ، بل على العكس من ذلك يدفع هو نفسه فرعون إلى الرفض والعناد. ولا يخفى « يهوه » هدفه ، وهو أنه يريد أن يتمجد ويظهر عجائبه ، كى يتحدث عنها – فى الحكى التوراتي – بنو إسرائيل لأبنائهم وأبناء أبنائهم جيلا بعد جيل : « أدخل إلى فرعون فإني أغلظت قلبه وقلوب عبيده لكى أصنع آياتى هذه بينهم . ولكى تخبر فى مسامع ابنك وابن ابنك بما فعلته فى مصر وبآياتى التى صنعتها بينكم » (خروج ١٠ : ١ – ٢)

---

(١) ميير ، ص ٨٣ .
(٢) شفيق مقار ، ص ١٩٣

إن « يهوه » يستخدم ضد فرعون أسلحة غير نظيفة ، بل إن سلوكه هو نفسه كإله يعتبر بلا أدنى شك سلوكا غير شريف . ولا يستطيع أى ناقد منصف أن يقول بغير ذلك .

يصرح كاسوتو ، بجرأة أخلاقية نادرة ، أنه إذا كان الرب هو الذى يغلظ قلب فرعون ، فإن الأخير لايمكن أن يلام على سلوكه . وبناءً عليه فإنه من غير الأخلاقى أن يعاقب على شئ لا إرادة له فيه .. وإذا كان الرب هو الذى دفع فرعون إلى فعل مافعل ، فإن العقاب الذى حل بفرعون في هذه الحالة يعتبر ضربا من ضروب الظلم .. لكننا لانتعامل هنا مع قضايا فلسفية تعالج العلاقة بين الإرادة الحرة للإنسان والعلم المسبق لله، أو تبرير العقاب والثواب لسلوك الإنسان الذى دفعه الرب بنفسه كي يسلكه . إن التوراة لا تهدف إلي تعليمنا دروسا في الفلسفة ، أو حتى فيما يسمى بالفلسفة الدينية (١) .

دخل موسى وهارون إلى فرعون ، وكأنهما قد حصلا على تصريح بالدخول دون استئذان وقتما يشاءان ، أو ربما اعتقدا أن القصر الفرعونى قد أصبح خاضعا لسطوتهما فلا حاجة بهما حتى إلى مجرد الاستئذان .

يأمرهما « يهوه » أن يوجها إلى فرعون كلاما شديدا في تهديده وفي لهجته المتعالية : « يقول الرب إله العبرانيين إلى متى تأبى أن تخضع » ؟ (خروج ١٠ : ٣) . إن هذا العناد الفرعونى - الذى يدعمه « يهوه » ويقويه بأسلوب خفي لئيم - لابد وأن يقابل بالعقاب المدمر والخراب الشامل .

ويحدد « يهوه » نوع الكارثة المقبلة ، بل ويزيد على ذلك بأن يحدد لها ميعادا : « إن كنت تأبى أن تطلق شعبى ها أنا أجئ غدا بجراد على تخومك فيغطى وجه الأرض حتى لا يستطاع نظر الأرض .. ويأكل جميع الشجر النابت لكم من الحقل » (خروج ١٠ : ٤ - ٥) .

لقد تم تحديد ميعاد ضربة الجراد : الغد . وعلى فرعون أن يفكر .. إن يتراجع .. أن يطلق « بنى إسرائيل » . لكن كيف يتراجع فرعون ، ويتسامح ، ويترك « الشعب » يرحل ، و«يهوه» هو الذى أغلظ قلبه ؟ إن « إله العبرانيين » اعترف هو نفسه بذلك : «إني أغلظت قلبه » ، وهذا معنا أن « يهوه » لايريد موافقة فرعون . إنه يريد أن يلهو

(١) كاسوتو ، ص ٥٥ .

بفرعون وشعبه ثم يضرب ويتمجد تماما كما يلعب القط بفأر ويلهو به ثم يفترسه في النهاية . هذا هو بالضبط ما يرمى إليه « إله العبرانيين » : أن يكون قطا متوحشا مفترسا .

ويفطن رجال فرعون إلى الحيلة والخديعة والفخ الذى ينصبه لهم ذلك الإله الدموى .. يقولون صراحة لفرعون محذرين : « إلى متى يكون هذا لنا فخا . أترك الرجال . ألم تعلم بعد أن مصر قد خربت » (خروج ١٠ : ٧) . ومن غير المعقول ، بكل تأكيد ، أن تخرب مصر ويفنى شعبها من أجل جماعة من العبرانيين الذين لاتزيد منزلتهم عن منزلة «العبيد» .

يحاول فرعون أن يصل إلى حل وسط يرضى رجال البلاط وفى نفس الوقت يرضى موسى وأتباعه إنه يطلب من « عبيده » إحضار موسى وهارون للمثول بين يديه ، وهذا الطلب فى حد ذاته تنازل من فرعون . وعندما يمثلان أمامه ، يخبرهما أنه قد سمح لهم بالخروج كى يعبدوا ذلك الرب إلههم . لكنه يستدرك بسؤال : من ومن هم الذين يذهبون ؟

هنا ينظر إليه موسى - كما تصوره الحكاية - فى استعلاء ويتحدث إليه فى كبرياء ، يقول بلهجة قاطعة : « نذهب بفتياننا وشيوخنا . نذهب ببنينا وبناتنا بغنمنا وبقرنا » (خروج ١٠ : ٩) . إنه لن يقبل شروطا ولن يخضع لمساومة ، ولن يتحدث أبدا كما يتحدث العبد إلى مولاه بل يرفع صوته محذرا ومهددا ، وكأنه قوة تتحدى قوة ، وسلطانا فى مواجهة سلطان .

يرفض فرعون ، كما أراد له « يهوه » أن يرفض : الرجال فقط هم الذين يذهبون . ويواجه موسى الرفض بالرفض . ولايتردد فرعون فى طرد موسى وصاحبه .

هكذا نجح « يهوه » بلؤمه الخبيث فى تحقيق هدفه . قال لموسى مد يدك على أرض مصر لأجل الجراد « فمد موسى عصاه على أرض مصر . فجلب الرب ريحا شرقية كل ذلك النهار وكل الليل . ولما كان الصباح حملت الريح الشرقية الجراد فصعد الجراد على كل أرض مصر وحل فى كل تخوم مصر . شئ ثقيل جدا لم يكن قبله جراد هكذا مثله ولا يكون بعده كذلك . وغطى وجه كل الأرض حتى أظلمت الأرض . وأكل جميع عشب الأرض وجميع ثمر الشجر الذى تركه البرد حتى لم يبق شئ أخضر فى الشجر وعشب الحقل فى كل أرض مصر » (خروج ١٠ : ١٣ - ١٥)

وطبقا للمنطق فإن الجراد الذى غطى وجه الأرض حتى أظلمت ، لم يكن فى حاجة إلى ريح شرقية كى تدفعه إلى أرض مصر ، بل إلى ريح جنوبية ، ذلك لأنه يأتى جنوبا من السودان . وظاهرة الجراد هذه ظاهرة طبيعية تعرفها مصر منذ آلاف السنين ، وتعرف مصدرها ، وغالبا ما تتوقع مواعيدها . لكن « يهوه » أراد أن تكون هجمة الجراد - فى الحكى التوراتى - إعجازا من إعجازاته التدميرية يعاقب بها فرعون وشعبه ويتمجد هو .

يسرع فرعون - كما يدعى كتبة التوراة - باستدعاء موسى وهارون ، ويعترف لهما أمام الجميع أنه أخطأ إلى الرب إلههما عندما لم ينفذ أوامره ، بل ويصل الأمر بفرعون إلى الاعتذار لموسى وهارون أيضا لأنه أساء إليهما عندما طردهما .. ويتوسل فرعون مصر العظيم إلى ممثلى «العبيد » أن يصفحا عنه هذه المرة ، على أن لايعود لمثلها أبدا . يقول فرعون « أخطأت إلى الرب إلهكما وإليكما . والآن اصفحا عن خطيتى هذه المرة فقط وصليا إلى الرب إلهكما ليرفع عنى هذا الموت فقط » (خروج ١٠ : ١٦ - ١٧) . ويستجيب « يهوه » لصلاة موسى فيرسل ريحا غربية شديدة تطرح الجراد كله فى بحر « سوف » .

هل هناك إذلال أشد وطأة على النفس من هذا الإذلال ؟ فرعون مصر «المعبود » يرجو ويتذلل إلى اثنين من سلالة العبرانيين « المستعبدين » فى أرض مصر ، لأن الجراد هاجم الأرض وأكل العشب وثمر الشجر . وإذا كان هذان العبريان قد سببا له ولبلده كل هذا البلاء ، ألم يكن من الأسهل والأيسر له أن يأمر بعض عبيده بقطع رقبتيهما ، أو بربطهما فى حجرين ثقيلين وإلقائهما فى قاع النهر ؟

لو أن هذا كله حدث فعلا ، أو حتى بعضه ، ما تردد فرعون الملك فى أن يقطع رقبة موسى على أقل تقدير ، ولن يحاسبه أحد ، ذلك لأن موسى قتل مصريا وفر هاربا ، والقصاص حق .. نفس بنفس ، ودم بدم ، وحر بعبد لايكفى ، وربما لاتكفى قبيلة من العبيد .

لكن ذلك الضرب القمئ من التأريخ الأسطورى بالتمنى - كما يقول الأستاذ شفيق مقار - الذى يشكل ما يمكن أن نسميه بـ « نبع » الإبداع القصصى فى حكايات التوراة ، هو نبع مسموم بالكراهية والحقد والحسد الحضارى الذى تلبث فى التراث المتناقل شفاها ونضحت به مؤلفات كهنة عصر السبى وما بعده بادعاء أنه تسجيل تاريخى لأحداث وقعت حقيقة . ومن الكاشف المثير للشفقة حقا ذلك الانتقام

من المصريين بطريقة المريض بالذهان ، إذ تتوقد في رأسه المعتل رؤى وتصورات محمومة عما هو حادث لأعدائه الذى يصور له ذهانه أنهم يضطهدونه بينما التى تضطهده وتعذبه أخيلته المريضة . وكلما توقدت في رأسه تلك الرؤى والتصورات ارتاح ورضى وهو يرى كل تلك المصائب منهالة - داخل جمجمته فوق رؤوس أعدائه (١) .

الضربة التاسعة : الظلام .

يوجه « يهوه » ضربته التاسعة فجأة ودون سابق إنذار ، في فجائية لم تخطر على بال فرعون أو أى من كهنته أو عبيده . كما أن الأمر يصدر لموسى كي ينفذه في نفس اللحظة دون أن يكترث بالحديث مع فرعون أو غير فرعون : « قال الرب لموسى مد يدك نحو السماء ليكون ظلاما على أرض مصر . حتى يلمس الظلام . فمد موسى يده نحو السماء فكان ظلام دامس في كل أرض مصر ثلثة أيام . لم يبصر أحد أخاه ولا قام أحد من مكانه » (خروج ١٠ : ٢١ - ٢٣) . أما عن « بنى إسرائيل » فقد جعل لهم « يهوه » في كل مساكنهم نورا .

وضربة الظلام هذه يمكن تفسيرها كضربة الجراد على أنها ظاهرة طبيعية مألوفة (٢) .. عاصفة رملية هوجاء شديدة الكثافة والعنف حلت بأرض مصر لمدة ثلاثة أيام ، أظلم فيها الجو إظلاما كاملا . وأمثال هذه الظواهر ليست بنادرة الحدوث . لكن الإله « يهوه » ينسبها لنفسه كي يتمجد بها ، ويدونها كتبة التوراة في أسطورة يتغنى بها الآباء للأبناء والأحفاد . لقد انتصر الإله « يهوه » - في خيالهم المريض - على الإله « رع » وأرغمه على التخلى عن رعاياه فجأة ، بعد أن هرب في انهزام مكسور .

وفي حالة هذا الظلام المطلق الذى شمل : كل أرض مصر » - كما يقول كتبة التوراة - أى من شمالها إلى جنوبها ، ومن شرقها إلى غربها ، واختفاء الشمس كلية لمدة ثلاثة أيام ، لايدرى أحد من أين جاء ذلك الضوء الذى غمر أرض جاسان ، رغم أن أرض جاسان جزء من أرض مصر وكان على كتبة التوراة ، زيادة في الحيطة والحذر والمكر الفنى في التأليف الأسطورى ، ألا يستخدموا كلمة « كل » ، حتى يمكنهم استثناء « جاسان » وإبعادها عن عموم الأراضى المصرية التى أصابها « يهوه » - تخيلا - بطعنة نافذة من طعنات البلاء ، كي يعطى : بنى إسرائيل » - وقد غمرهم الضياء -

---

(١) شفيق مقار ، ص ١٨٦

(٢) حل الظلام في وسط النهار حديثا كظاهرة طبيعية في كثير من مدن العالم عندما حدث كسوف للشمس يوم الأربعاء ١١ /١٩٩٩/٨ .

فرصة الاستعداد للرحيل دون خوف من أن يلحظ ذلك أحد ، وقد أصبح الظلام ضربا من ضروب العماء

وصدق أندرسون عندما كتب فى هذا الخصوص يقول : إن القارئ الحديث يجد مصاعب جمة فى استيعاب موضوع الضربات والكوارث التى أصاب بها « يهوه » المصريين .كيف أمكن حدوث كل هذا ؟ أن تتوالى الضربات المهلكة التدمير فى كل أرض مصر ، ورغم ذلك لايصاب عبراني واحد.... هذا أمرغير قابل للتصديق (١) !!

لكنه حدث أسطوريا فى الحكى التوراتى ولابأس من متابعة الحكاية

يستدعى فرعون موسى ، ويوافق على مالم يوافق عليه من قبل . أن يرحلوا جميعا ، حتي الأطفال ، لا يبقى منهم أحد: « إذهبوا » ، ما عاديرغب فى إعاقتهم ، ماعاد يرغب فى بقائهم ويضع كتبة التوراة على لسان فرعون عبارة كان من المستبعد تماما أن ينطق بها فرعون مصر : « أعبدوا الرب » !! أى رب ؟ رب العبرانيين بالطبع وكأن فرعون مصرالعظيم قد أصبح كاهنا من كهنة « يهوه » ، أو درويشا مخبولا من دراويشه ، يصرخ فى الأتباع : «اذهبوا .. أعبدوا الرب » (خروج ١٠ : ٢٤) .

لكن إله الانتقام الدموى لايريد ذلك . مازالت هناك ضربة عاشرة لابد وأن يتمجد بها ، وموافقة فرعون تحرمه من لذة سفك الدم . لذا فهو « يشدد » قلب فرعون كى لا يطلقهم .

فبعد أن أصدر فرعون قراره بالموافقة على خروج « بنى إسرائيل » جميعا اذا به - بعد أن شدد « يهوه » بمكر قلبه - يضيف شرطا شديد التفاهة ، لكنه بالنسبه ليهوه ذريعة كافية كى يضرب ضربته الأخيرة - القاضية .

فرعون مصر الملك المسيطر على إمبراطورية مترامية الأطراف يطلب من العبرانيين « العبيد » أن يتركوا له غنمهم وبقرهم . « غير أن غنمكم وبقركم تبقى » (خروج ١٠ : ٢٤) ويرد موسى فى صفاقة لايتخيلها عقل « تذهب مواشينا أيضا معنا لايبقى ظلف » (خروج ١٠ : ٢٦) ثم يضيف فى غطرسة أسطورية - لأنها لاتحدث إلا فى حكايات المردة والعفاريت والشاطر حسن وأمنا الغولة - آمرا فرعون أنت تعطى أيضا فى أيدينا ذبائح ومحرقات لنصنعها للرب » (خروج ١٠ : ٢٥)

---

(١) أندرسون ص ٦٨

إنه لايريد أن يخرج بغنمه وبقره فقط لايبقى ظلف بل على فرعون أن يعطيه زيادة عليها غنما وبقرا من عنده كي يقدمها محرقات لإله إسرائيل . وبذلك يتم تركيع فرعون تركيعا كاملا . وصدق أندرسون عندما قال : هذا كلام غير قابل للتصديق !!

لكن فرعون ، على أية حال ، ينتفض غاضبا ، فى محاولة للحفاظ على كبريائه الذى بدأ ينزف بفعل إهانات ممثل « العبيد » . يصيح فرعون ، وقد سيطر عليه غضب ملكى « مقدس » : « إذهب عنى . احترز . لاتر وجهى أيضا . إنك يوم ترى وجهى تموت » . ويرد موسى بعنف : « أنا لا أعود أرى وجهك أيضا » (خروج ١٠ : ٢٨) .

الضربة العاشرة : مجزرة الأبكار .

الغريب فى الجدل الدرامى العنيف - الذى ابتدعته عقليات مؤلفى التوراة - أن فرعون يهدد موسى بالموت لو ظهر أمامه مرة أخرى ، وموسى يرد غاضبا بأنه هو أيضا لن يعود لرؤية وجه فرعون .. أى أن هذا هو الفراق الذى مابعده لقاء . ورغم ذلك يلتقى فرعون وموسى ، قبل الضربة العاشرة مباشرة ، ولا ينفذ فرعون تهديده فيقتل موسى ، ولايتذكر موسى غطرسته فيعود لرؤية وجه فرعون ، وكأنهما قد نسيا ، أو كأنهما كانا يتمازحان فى لهو سوداوى كئيب ، أو ربما أفقدهما الإله « يهوه » الذاكرة ، فنسيا الوعيد والتهديد والتقيا من جديد .

يقف موسى أمام فرعون ليعلنه عن الضربة العاشرة ، وهى القاصمة القاضيه . إنها الجولة الاخيرة فى التحدى المميت بين الإله « يهوه » وفرعون الملك والضحية هو الإبن البكر : إذا كسبها فرعون يظل إسرائيل - ابن « يهوه » البكر - مستعبدا فى أرض مصر ، ولو كسبها « يهوه» يموت ابن فرعون البكر . إنها جولة الحياة والموت « فتقول لفرعون هكذا يقول الرب إسرائيل ابنى البكر . فقلت لك أطلق ابنى البكر ليعبدنى فأبيت أن تطلقه . ها أنا أقتل ابنك البكر » (خروج ٤ : ٢٢ - ٢٣)

هذا أب يواجه أبا ويهدده - كما يقول بوبر - وبصورة مثيرة للرعب (١)

يواجه موسى فرعون ويوجه له الإنذار الأخير : « هكذا يقول الرب إنى نحو نصف الليل أخرج فى وسط مصر . فيموت كل بكر فى أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التى خلف الرحى وكل بكر بهيمة ويكون . صراخ

---

(١) بوبر ، ص ٦٦

عظيم فى كل أرض مصر لم يكن مثله ولايكون مثله أيضا .. ثم خرج من لدن فرعون فى حمو الغضب » (خروج ١١ : ٤ - ٨) .

بعد هذا التهديد وفى انتظار حلول الوباء الخبيث الذى سيهلك كل بكر ، كان على « بنى إسرائيل » أن يعدوا أنفسهم للرحيل . ويصدر لهم « يهوه » أوامره :

كان عليهم أولا وقبل كل شئ أن يسلبوا أموال المصريين ، ذهبهم وفضتهم وكل مايستطيعون نهبه حتى الثياب : « تكلم فى مسامع الشعب أن يطلب كل رجل من صاحبه وكل امرأة من صاحبتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب » (خروج ١١ : ٢) ذلك لأن العبرانيين كانوا يعلمون أنه خروج بلا عودة ، وما أخذ عن طريق الإعارة لن يرد أبدا ويعترف كتبة التوراة صراحة بهذه السرقة : « وأعطى الرب نعمة للشعب فى عيون المصريين حتى أعاروهم . فسلبوا المصريين » (خروج ١٢ : ٣٦) .

أما الأمر الذى أصدره « يهوه » فهو : هذا الشهر ، أبيب ، يصبح لهم أول شهور السنة ، وفى العاشر منه يأخذ كل رأس عائلة شاة صحيحة ، أى خالية من العيوب وإن كان البيت صغيرا يأخذ شاة له ولجاره القريب من بيته ، وعليهم أن يحتفظوا بهذه الشياه حتى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر .. ثم تقوم جماعة بنى إسرائيل كلها بالذبح فى العشية . وعليهم أن يحتفظوا بدم الذبيحة فى وعاء ويرشوه على قوائم وعتبات بيوتهم حيث يسكنون ويأكلون . وعليهم بشى الذبيحة كاملة ، وتؤكل مع فطير أى خبز بدون خمير ، وأعشاب مرة .. لا يؤكل منها أى جزء نيئا أو مسلوقا .. الرأس مع الأكارع والجوف .. لا يتبقى شئ إلى الصباح .. وما يتبقى يحرق بالنار .. ويجب إبعاد الخمير تماما من البيوت ، وكل من يأكل خميرا يعزل من بنى إسرائيل . هذه الوجبة يجب أن تتم بسرعة .. يأكلون فى عجلة .. وأحقاؤهم مشدودة ، وأحذيتهم فى أرجلهم وعصيهم فى أيديهم .. « هو فصح للرب » .

كان الجميع ينتظرون صوت البوق ، وهو إيذان للجماعة كلها بالخروج ، فى « حماية الدم » .

لقد جدد « يهوه » توقيت ضربته القاصمة والتى بعدها يتم « الخلاص » : « فإنى أجتاز فى أرض مصر هذه الليلة وأضرب كل بكر فى أرض مصر من الناس والبهائم . وأصنع أحكاما بكل آلهة المصريين . أنا الرب . ويكون لكم الدم علامة على البيوت التى أنتم فيها فأرى الدم وأعبر عنكم فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين

أضرب أرض مصر . ويكون لكم هذا اليوم تذكارا فتعيدونه عيدا للرب . فى أجيا لكم تعيدونه فريضة أبدية » (خروج ١٢ : ١٢ - ١٤)

ولايعرف أحد من أين سيأتي « يهوه » بأبكار البهائم كى يضربها ، وقد أفناها « جميعا » من قبل أكثر من مرة .. وفى كل مرة ينسى !!

يريد الرب « يهوه » علامة على بيوت « بنى إسرائيل » كى يعرفها ويفرق بينها وبين بيوت المصريين ، والدم هو العلامة . ولاغرابة أن يختار الدم ، فهو بطبيعته منذ البداية إله دموى . لكن حاجته إلى علامة كى يفرق بين بيوت المصريين وبيوت العبرانيين ، تظهر أن هناك قصورا فى اتساع علمه ، وتبرهن ولو على قليل من جهالة جهله .. فبدون « الدم » العلامة ، لن يستطيع هذا الإله أن يميز بيوت شعبه عن بيوت المصريين ، وتكون ضربة الهلاك ، حين يضرب ، ضربة عمياء .

ويحاول مير أن يجد تفسيرا ، لطلب « يهوه » ، بقوله: كان موسى يشعر أ ن الرب ، بطلبه رش الدم ، لايعفى شعبه من الخطيئة .. لقد نسوا السبت وعبدوا آلهة أخرى ، وشاركوا فى الطقوس الوثنية للمصريين لهذه الأسباب على الأقل أعتبروا مذنبين فى نظر الرب . وكان من المحتمل أن تموت أبكارهم ، لولا أن قاموا بتنفيذ الأمر ومسوا الأعتاب والقوائم بالدم (١) .

وفى حماية الدم إطمأنت قلوب « بنى إسرائيل » . لن تحل بهم الكارثة ، ولن يتركوا وراءهم أبكارا موتى .

حوالى منتصف الليل ، الوقت المحدد للكارثة ، تنزل القاضية .. وبا مخيف يعم كل أرض مصر ... يموت كل بكر فيها ، من بكر فرعون الجالس على العرش إلى بكر الجارية .. أبكار كل البشر ، سادة كانوا أو عبيدا .. وكذا أبكار الماشية !!

يحدث الوبا من تلقاء نفسه دون حاجة إلي أن يرفع موسى يده إلى السماء . وانتشرت الأخبار انتشار النار فى ليل عاصف : وريث العرش مات !!

كانت الصرخة رهيبة فى كل أرض مصر .. لأنه لم يكن هناك بيت ليس فيه ميت !!

---

(١) مير ، ص ٦٨ .

وحسب حكاية التوراة ، تحرك فرعون بالسرعة التى تطلبتها فجائية الكارثة . قام ليلا هو وعبيده .. استدعى موسى وهارون ، قال : « قوموا . أخرجوا من بين شعبى . أنتما وبنو إسرائيل جميعا .. خذوا غنمكم أيضا وبقركم كما تكلمتم واذهبوا » (خروج ١٢ : ٣١ - ٣٢)

لم يكن هناك جدل أو نقاش .. عليهم أن يخرجوا جميعا وكل ما يملكون .. المهم هو أن يتركوا أرض مصر حتى تتخلص البلدة من لعنة وبائهم .

كانت رغبة المصريين جميعا هى أن يخرج هؤلاء القوم بأسرع ما يمكن ، ومهما كانت التكاليف ، لذا أعطوهم كل ما طلبوا من ذهب وفضة وثياب ، رغم علمهم بأن هذا سلب ونهب وسرقة . لكن فقدان الذهب والفضة كان أفضل بكثير ، بالنسبة للمصريين ، من فقدان الأرواح . إن التخلص من تلك الجماعات الموبوءة كان معناه التخلص من الطاعون .

وكان ما كان . نهب البدو « الحرامية » كل ما استطاعوا نهبه . وبدأت حكاية الرحيل .

يعتقد مير أن ماحصلوا عليه هو مقابل الشقاء الذى لاقوه أيام عبوديتهم الطويلة وبذلك تصبح سرقتهم - فى رأى مير - سرقة حلال ونهبهم أيضا للمصريين نهب حلال . ويضيف مير فى نبرة ملؤها الزهو : هكذا بدأ العبرانيون أول خطواتهم نحو الحرية ، ولأول مرة يشعر بنو إسرائيل أنهم أمة .. ولأول مرة فى حياتهم بدأوا يستنشقون رحيق الحرية .. هذه الجموع من العبيد تبلور وجودها فجأة فإذا بها تصبح أمة (١) .

وقصة الضربة العاشرة - فى رأى أندرسون - تؤيد وجهة النظر القائلة بأن « الخروج » كان عملية طرد للعبرانيين : إذ أنه بعد انتشار الوبأ القاتل لم يتوان فرعون لحظة فى إجبارهم على الرحيل . ولقد كانت رغبة المصريين بالغة فى التخلص منهم ، لدرجة أنهم لم يترددوا فى إعطائهم كل ما طلبوه ، بما فى ذلك الملابس والمجوهرات (٢) .

ويعتقد مارتن بوبر أن المحادثات بين فرعون مصر الذى يعرفه التاريخ وبين موسى وهارون - الذين يطلق عليهما بوبر عبارة « ممثلى العبيد » - لايمكن أبدا أن تحدث

---

(١) مير ، ص ٧٣ .
(٢) أندرسون ، ص ٧٢

بالصورة التى أوردتها التوراة . كما أن الضربات العشر ما هى إلا مجرد ظواهر طبيعية مألوفة لدى المصريين (١) .

ويتأكد رأى بوبر فيما ذكره أندرسون عن أن ماحدث فى الضربات العشر ماهو إلا انعكاس لبعض الظواهر الطبيعية المألوفة فى مصر ، مثل احمرار ماء النيل الذى يقترب من لون الدم بسبب الطمى فى موسم الفيضان ، والخسائر التى تسببها الضفادع والجراد ، وكذا رياح الصحراء التى تجعل السماء تظلم بما تحمله من رمال . **لكن هذه الظواهر الطبيعية إتخذها الخيال الفولكورى مادة له وحولها إلى أساطير (٢) .**

وتتفق وجهة نظر ديلى مع ماسبق من آراء عندما يؤكد ، فيما يختص بالضربات العشر ، أنها جميعا ظواهر طبيعية معروفة لدى المصريين ، وليست المعجزة فيها بل فى ظروفها (٣) .

ويتساءل الأستاذ شفيق مقار بأسلوبه المتميز ، نقدا واستنكارا : كيف أمكن أن تقع كل تلك الأحداث فى بلد كان فى قمة العالم المأهول وفى مركز القلب منه وكان محط أنظار كل أمم الأرض ، عدوة كانت أو صديقة ، دون أن يرد لأى حدث منها ذكر، ولو من بعيد ، لا فى تاريخ مصر ، ولا فيما سجلته تواريخ البلدان الأخرى عن مصر ؟ .. لقد سجلت مصر باستمرار أحداث تاريخها ، وسجلت الكثير منها بلدان أخرى كثيرة أثارت مصر فضول شعوبها أو اهتمام حكامها ومؤرخيها . وحتى اليونان البعيدة بمقاييس تلك العصور ، انشغلت بمصر وثقافتها وديانتها وأحداث تاريخها ..

ويضيف الأستاذ مقار : لو كانت مصر قد فقدت كل أبكارها وكل أبكار مواشيها فى ليلة واحدة يهيوية سوداء ، وأقيم فى جنباتها ذلك المأتم الشامل الذى صورته الحكاية بقدر بالغ من التلذذ والشماته ، لكانت أخبار المذبحة الإلهيه قد ترامت إلى الشعوب الأخرى البعيدة والقريبة .. ولكان المصريون الذين اهتموا دائما بمثل تلك المسائل المتعلقة بالموت والحياة الأخرى قد سجلوا الواقعة فى ألف سجل وسجل على جدران معابدهم وفى حجرات الدفن التى دفن فيها أولئك الأبكار ومنهم - طبقا للحكاية - بكر فرعون وأبكار نبلائه ، وفى البرديات وفى كتاب الموتى .. لكن كلمة واحدة عن مثل تلك الواقعة الرهيبة لم يعثر عليها أثرى واحد فى معبد مصرى ، أو فى

---

(١) بوبر ، ص ٦٣ .
(٢) أندرسون ، ص ٦٩ .
(٣) ديلى ، ص ١٤٥ .

مقبرة مصرية ، أو فى بردية . فهل ياترى تكتم المصريون نبأ الكارثة صونا لماء وجوه سحرتهم الذين خابوا تلك الخيبة أمام ساحرى يهوه ؟ .. ومن غير المعقول أن يفعل يهوه كل مافعل بالمصريين لكى يسمع باسمه كل من فى الأرض ثم يدع ذكر مافعل يمحى من أذهان البشر لعدم تسجيله فى أى تاريخ من تواريخهم (١) .

وللأستاذ شفيق مقار فى كهنة اليهود رأى غير مألوف لكنه مثير للانتباه . يقول الأستاذ مقار : ما من شك فى أن إدمان كهنة اليهود ونبييهم لتعاطى عقار الهلوسة الموجود فى الفطر « المقدس » المعروف علميا باسم « Amanita Muscaria » استجلابا لحالة « التجلى » والدروشة التى ثبت علميا أنهم كانوا يتنبأون ويعلنون « الوقائع المقدسة » وهم فى قبضتها ، ساعد كثيرا على اندفاق تلك الرؤى والتصورات المحمومة فى الأدمغة المباركة بوصفها وقائع تاريخية حدثت فعلا (٢) .

---

(١) شفيق مقار ١٩٨ - ١٩٩
(٢) نفس المرجع : ص ٢٠٩

الفصل السادس

الخروج ومعجزة البحر

الفصل السادس

الخروج ومعجزة البحر

يدعى أندرسون أن « الخروج » هو البداية الحقيقة لتاريخ « بنى إسرائيل » ، عندما حرر إله إسرائيل شعبه ، بصورة إعجازية ، من نير العبودية . وأخرجهم باقتدار ، من مصر ، على أجنحة النسور (١)

« الخروج » إذا ، فى رأى أندرسون وكثرة معه ، هو بداية تاريخ « الشعب » الإسرائيلى ، وهو - كما يدعون - ليس مجرد تحرير لجماعة من العبيد المضطهدين وفرارهم من وجه الطغيان الاجتماعى والسياسى ، ولكنه فى حقيقة الأمر إظهار وتجلى للقدرة الإعجازية لذلك الإله الذى قرر أن يتخذ من « بنى إسرائيل » شعبا .. أن يعقد معهم ميثاقا : يقودهم إلى أرض اللبن والعسل . مقابل أن يفرض عليهم ألوهيته

والفارق بين سلوك « يهوه » وسلوك فرعون ، فارق يسير لايكاد يبين . لقد فرض عليهم فرعون - كما يقول كتبة التوراة - عبوديته ، وها هو ذا « يهوه » يفرض عليهم ألوهيته ، بل ويرغمهم عليها ، رغم تمردهم وثورتهم عليه المرة تلو المرة .. وبذلك تصبح تلك الألوهية ضربا من ضروب العبودية .

هنا تثار عدة أسئلة على قدر كبير من الأهمية لأنها تتصل بالتاريخ . او بعبارة أكثر دقة ، بتزييف التاريخ : من هم هؤلاء الذين خرجوا من مصر تحت قيادة موسى ؟ هل هم حقيقة سلالة إسرائيل ؟ هل كان حقيقة أمامهم - أو وراءهم - إله وفى قلوبهم عقيدة ودين ؟ هل كان هذا « الخروج » خروجا دينيا أو خروجا همجيا . أم كان مجرد عملية طرد لفلول من الرعاة الخطافين وشراذم من المرضى الموبوئين ؟؟

تتعدد الأقوال وتختلف الآراء فى هذا المجال

يرى أندرسون - كما سبق وأشرنا - أن إله إسرائيل الذى عرف خلال الأجيال المتعاقبة باسم « يهوه » والذى كانت الألسنة دائما تسبح بحمده وتلهج بالثناء عليه ،

---

(١) أندرسون . ص ٩

هو الذى أخرج جماعة « العبيد » من مصر وفتح أمامهم آفاق المستقبل .. وكانت هذه هى بداية التاريخ الحقيقى لبنى إسرائيل (١)

يركز أندرسون على « بنى إسرائيل » فقط ، على أنهم هم أتباع موسى وأنهم هم الذين رحلوا ، وهم الذين آمنوا ، وبالتالى هم الذين ضاعوا فى أرض التيه - وهم الذين قاتلوا ثم حاولوا إقامة دولة

وبذلك يتجاهل أندرسون حقيقة أن الذين خرجوا مع موسى هم خليط من أجناس متعددة ، ربما خرجوا لإحساسهم بالاضطهاد سواء كان ذلك اجتماعيا أو دينيا أو سياسيا ، أو ربما خرجوا لأنهم أرغموا على الخروج

وفى حديثه عن اتباع موسى الذين خرجوا من مصر ، يقول ديلى لم تتبع موسى عشيرة يعقوب وحدها ، بل كان هناك كثيرون من الساميين المضطهدين ، ومن المصريين وغير المصريين الذين يريدون أن ينزحوا عن أرض فرعون .. ولم يكن بين هذه الألوف المختلفة من وحدة ، وما كان ليوحد بينها سوى الدين الذى كان لابد وأن يصهرها جميعا فى بوتقة واحدة . من هنا بزغت فى عقل موسى فكرة عقد ميثاق مع الله (٢) . وعن طريق هذا العهد أو الميثاق يستطيع موسى أن يوحد بين هذه الفلول المتنافرة ويطبعها بطابع خاص ، وإلى الأبد .

ويميل الدكتور أحمد شلبى إلى نفس الرأى ، عندما يشير إلى المراجع التاريخية والأبحاث الأنثروبولوجية التى تجمع على أن خروج إسرائيل من مصر كان حدا فاصلا بين عهد النقاء وعهد أختلاط الدم . ويستشهد الدكتور شلبى بكلمات « غوستاف لوبون » فى كتابه «**اليهود فى الحضارات الأولى**» ، عندما يقول : ولحق ببنى إسرائيل عدد من المصريين الساخطين من الأسارى ومن العبيد ، ولما جاوز بنو إسرائيل بحر القلزم.. بدوا كجماعة من نسل رجل واحد وإن كانت فى الحقيقة فاتحة صفوفها لجميع الفرار المستعدين لانتحال اسمها وتقاليدها ومعبوداتها (٣) .

أما الاستاذ أحمد عثمان فيورد رأى « مانيتو » المؤرخ المصرى الذى كتب تاريخ الأسرات باللغة اليونانية بناء على طلب بطليموس الثانى خلال القرن الثالث قبل الميلاد . ويرى « مانيتو » أن أتباع موسى كانوا مصريين ولم يكونوا أجانب ، ويقول - كما

---

(١) أندرسون ، ص ١٣
(٢) ديلى ، ص ١٥١
(٣) د. أحمد شلبى : ص ٦١

ينقل عنه الأستاذ أحمد عثمان - إن الملك المصرى جمع عددا من المصريين أتباع « أوزارسيف » ، الذى غير اسمه بعد ذلك وجعله موسى ، ووضعهم فى المحاجر ، حيث أوكل إليهم القيام بأعمال تكسير الحجارة الشاقة عقابا لهم وبلغ عدد هؤلاء ثمانين ألفا من بينهم أناس من المتعلمين ومن الكهنة .. ثم جمع كل هؤلاء ووضعهم فى نفس المدينة « أواريس » التى كانت عاصمة الهكسوس من قبل ، وهناك انضم إليهم عدد من الآسيويين وأصبحوا يهددون أمن البلاد إلى أن تم طردهم (١) .

ويطلق الدكتور أحمد سوسة على الذين خرجوا مع موسى اسم « الموسويون » ، لا « الإسرائيليون » ، وهم على أرجح الاحتمالات ، جماعة من الجنود الفارين ، تصحبهم جماعة كبيرة من بقايا الهكسوس . وهؤلاء - فى رأيه - كانوا يدينون هم والنبى موسى بدين التوحيد الخالص الذى دعا إليه أخناتون .. ، وهم بطبيعة الحال كانوا يتكلمون باللغة المصرية وبها نقل النبى موسى الشريعة والوصايا العشر وكتبت بالهيروغليفية التى تعلمها فى بلاط فرعون .. وشريعة موسى هذه لم يعثر لها على أثر ثم أخذ هؤلاء الموسويون بلغة كنعان وثقافتها وتقاليدها ومارسوا حتى ديانتها الوثنية فى أكثر فترات وجودهم بين الكنعانيين وسكان فلسطين الأصليين ، وانحرفوا عن ديانة موسى وشريعته .. هؤلاء هم الذين صاروا يعرفون فيما بعد باليهود (٢) .

ويستشهد الدكتور سوسه برأى « مانيتو » كى يدلل على حقيقة أن أكثرية الجماعة التى خرجت من مصر كانت من بقايا الهكسوس الرعاة الذين تم طردهم من مصر فى زمن تحوطمس (ويبدو أنه هنا يقصد تحوطمس الثالث ١٥٠٤ - ١٤٥٠ ق . م) .. إلا أن عددا منهم تخلف وتجمع فى منطقة مساحتها عشرة آلاف فدان تسمى « أفاريس » فحصنوها بسور واسع ومنيع .. وجمعوا هناك جميع ممتلكاتهم . وقد حاول تحوطمس ومعه أربعمائة وثمانون ألف رجل إحتلال هذه المنطقة عنوة فضرب الحصار عليها وقطع عليهم باب النجاة ، ولكنه لم يفلح فى التغلب عليهم ، فلجأ إلى المصالحة ، على أن يخرج جميع من فى المنطقة من غير أن يمسوا بسوء ، فخرجوا هم وعوائلهم ومعهم ممتلكاتهم ، وعددهم ٢٤٠,٠٠٠ نسمة ، واتجهوا فى رحيلهم من مصر فى البرية نحو سورية ولما كانوا يخشون خطر الأشوريين الذين فرضوا سلطانهم على آسيا اتجهوا نحو « فلسطين » .

---

(١) أحمد عثمان، جـ ١، ص ٧٩ - ٨٠ .
(٢) د . أحمد سوسة ، ص ٨٨ - ٨٩

والذى يستوحى من هذا المقال أن كتبة التوراة اتخذوا من هذه الحادثة الخيوط التى نسجوا منها قصة الخروج التى ربطوها بتاريخهم القديم وخرجوا بها بصورة ممتعة ترجع باصل اليهود إلى أقدم وأقدس الشخصيات المعروفة فى تلك الأزمان (١)

ولا يختلف رأى الأستاذ شفيق مقار كثيرا عما عرضه الدكتور أحمد سوسه. يقول الأستاذ مقار إنه: عندما عاد موسى من مضارب مديان وفى مخلاته الثقافية حكايات يترون حميه عن معبود المديانيين « يهوه » ، وفى رأسه المعذب فكره تأسيس ديانه جديدة حول ذلك المعبود لم يجد من يعلمه تلك الديانة إلا من وصفهم الكاتب اليهودى « أوزبل ناتان Ausubl Nathan » : بقطيع العبيد الابقين الغارقين فى الجهل والبربرية ، أى شتات البدو الرعاة سلالة الآراميين التائهين الذين كانوا قد تسللوا واستوطنوا بعض مناطق شرق الدلتا (أرض جاسان كما أسمتها التوراة) فى ظل الرعاة الهكسوس. ثم - لما نظف أحمس أرض مصر من سوأة وجود الهكسوس - رحل بعض العبيد الآبقين معهم. وقر قرار موسى بعد أن وجد تلك الأشتات أن يتخذها عبادا لإلهه الجديد « يهوه » (٢)

ويرى أن الذين خرجوا من مصر هم جماعات ممن يطلق عليهم اسم « العبيرو » أو « الهبيرو » ، أو « الأبيرو » ، وهم فى مجملهم من البدو الرحل ، الخطافة « الحرامية » ، الذين تسللوا إلى حدود مصر منذ القرن السابع عشر او الثامن عشر قبل الميلاد ، بعد أن سحقهم الجوع والجفاف فى جحيم الصحراء ، فزحفوا إلى نعيم مصر ، كى يلتهموا - كما الجراد الشرس - خيرات جنانها ونيلها. ولم يكتفوا بذلك ، بل اصبحوا أداة خيانة وغدر فى يد الحاكم الهكسوسى الدخيل الذى تم طرده ، كما أسلفنا من قبل

ومن المحتمل بالطبع أن يكون بين تلك الشراذم الغادرة الخائنة ، بعض من سلالة يعقوب الملقب فى « التوراة » بإسرائيل ، وقد جاءوا هم أيضا زحفا على بطونهم بحثا عن الطعام ، فطمعوا فى كرم أهل مصر بعد أن طعموا وشبعوا وارتوا وامنوا.. ولم يكتفوا بذلك بل سرقوا ايضا ونهبوا ، بناء على أوامر من إلههم المعبود ، كما ينص على ذلك كتبة التوراة

لم تخرج تلك الشراذم من أرض مصر طواعية كما يخيل للبعض ، ولم يكافحوا تحت إمرة موسى أو يقاتلوا بقيادة إلههم « يهوه » كى يتحرروا من عبوديتهم

(١) د أحمد سوسة ، ص ٥٥٥
(٢) شفيق مقار ص ٣١٩

لفرعون مصر ، أو كي يحصلوا على حريتهم كشعب له كيانه واستقلاليته ، ثم بعد ذلك - كما يدعى بعض الدارسين - كي يقيموا أمة لها مكانتها فى التاريخ وسيادتها بين مختلف الأمم .

لقد خرجوا من مصر مرغمين لا راغبين ، عاجزين لاقادرين ، ناقمين لا شاكرين، متمردين على من تولى أمرهم لا طائعين . ولقد ظلوا ولسنين طويلة يندمون على مغادرتهم أرض مصر ويتشوقون لقدور اللحم التى حرموا منها : « فتذمر كل جماعة بنى إسرائيل على موسى وهارون فى البرية . وقال لهما بنو إسرائيل ليتنا متنا فى أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزا للشبع . فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكى تميتا كل هذا الجمهور بالجوع » (خروج ١٦ : ٣) .

لم يخرجهم موسى كى يحررهم ويصنع منهم شعبا وأمة ، كما يدعى كتبة التوراة ومن سار على دربهم ، بل طردوا شر طردة بسبب قذارتهم التى تعودوا عليها وألفوها أثناء حياة التشرد فى الصحراء ، فندرة المياه ما كانت لتسمح لهم بالاغتسال أو الاستحمام أو مراعاة أقل فرض من فروض النظافة والتطهر . ولقد ألفوا القذارة وتواءموا معها وكأنها جزء لا ينفصل عن بنيتهم الجسدية والنفسية ، حتى بعد أن توفر لهم فى مصر من الماء ما يكفى للتطهر والاغتسال . لذا انتشرت بينهم الأمراض والأوبئة من دمامل وبرص وسيل وبهق وقرع وجرب .. وكان وجودهم وبالا على المصريين الذين بدأوا هم أنفسهم يعانون من انتشار هذه الأوبئة .

يورد يوسيفوس حكاية المؤرخ المصرى مانيتو عن الملك « أمينوفيس Amen-ophis » الذى تملكته الرغبة فى أن يرى الآلهة ، لكنه أحيط علما أنه لن يستطيع رؤية الآلهة إلا إذا طهر أرض مصر كلها من جموع الموبوئين ومن كل المصابين بالبرص . ولقد سعد الملك بأن يلبى طلب الآلهة ، وعلى ذلك فقد جمع كل المصابين بهذه الأمراض القاتلة وكل أصحاب العاهات وطردهم خارج مصر . وكان عددهم ثمانين ألفا (١) .

ويحكى تاسيتوس Tacitus قصة بنفس المعنى ، عندما يكتب ما نصه : أن وبأ شديد العدوى انتشر فى أرض مصر ودنس أجساد الناس وشوهها ، مما دفع الملك بوكوريس Bocchoris أن يتوسل إلى الآلهة كى تنقذ البلدة من هذا البلاء . وكان

---

(١) يوسيفوس ، ص ٦١٧

قرار الآلهة أن لا خلاص إلا بتطهير الأمة من كل هؤلاء الموبوئين ، البرص المجزومين ، وذلك بطردهم إلى بلدة أخرى يحل عليها غضب الآلهة .. وكان من بين المحكوم عليهم بالنفي رجل اسمه موسى (١)

هذا معناه ، في رأى تاسيتس ، أن موسى نفسه كان مصابا بالبرص . لذا تم طرده مع من حكم عليهم بالنفي ومغادرة البلاد .

ويؤكد مانيتو هذا المعنى : فيما ينقله عنه يوسيفوس ، عندما يقرر أن المصريين أنفسهم كانوا يعترفون بموسى ويعتبرونه شخصية رائعة على قدر هائل من التقوى ، وأنه كان أحد كبار كهنة هليوبوليس ، أى أنه مصرى ، لكنه طرد مع من طردوا وذلك لإصابته بداء البرص (٢)

ويضيف مانيتو أن جموع الموبوئين قد اختاروا من بينهم قائدا – وهو أحد كهنة هليوبوليس ، وكان اسمه أوزارسيف Osarsiph – وأقسموا أن يدينوا بالولاء والطاعه له ولكل مايصدره من أوامر وتعليمات . ولقد أرسل أوزارسيف هذا رسلا للرعاة الذين كان قد تم طردهم من قبل أيام حكم الملك تحتمس Tethmosis ، وسعد الرعاة بهذه الدعوة واستجابوا لنداء الكاهن ، وأتى منهم مائتى ألف رجل

ويؤكد مانيتو أن هذا الكاهن أوزارسيف هو من مواليد هليوبوليس . لكنه عندما طرد مع جماعة الموبوئين ، بسبب إصابته بالبرص ، تزعمهم وشرع لهم ورسم لهم سياستهم بعد أن تخلص من اسمه القديم وأصبح يعرف باسم موسى (٣) .

هناك الكثير من النصوص التوراتية التى تؤكد إصابة « الشعب » اى « بنى إسرائيل » بالعديد من الأمراض الجلدية وعلى رأسها البرص والبهق والقرع . بل إن مريم « النبية » ، وهى أخت موسى وهارون ، قد أصيبت هى نفسها بالبرص ، كما ينص على ذلك كتبة التوراة : « فلما ارتفعت السحابة عن الخيمة إذا مريم برصاء كالثلج فالتفت هرون إلى مريم وإذا هى برصاء » (عدد ١٢ : ١٠) .

بل إن هناك فى نص التوراة ذاتها ما قد يوحى بأن موسى نفسه قد أصيب بالبرص ورغم أن الكلمات لاتعبر عن ذلك تعبيرا صريحا ، إلا أنها على الأقل تثير التساؤلات والشكوك : وكان لما نزل موسى من جبل سيناء ولوحا الشهادة فى يد

---

(١) يوسيفوس ، ص ٦٥٣
(٢) نفس المرجع ، ص ٦٢٠
(٣) نفس المرجع ، ص ٦١٨

موسى عند نزوله من الجبل أن موسى لم يعلم أن جلد وجهه صار يلمع فخافوا أن يقتربوا إليه .. ولما فرغ موسى من الكلام معهم جعل على وجهه برقعا » (خروج ٣٤ ٢٩ - ٣٣) .

ويعلق الأستاذ شفيق مقار على النص السابق بقوله : إن اللمعه فى الجلد هذه كانت مسألة خطيرة للغاية عند القوم وكهنتهم ، بل وعند « يهوه » ذاته الذى اعتبر الإصابة بها نجاسة توجب طرد المصاب بعيدا عن بقية الشعب .. تلك اللمعة كانت حرية بأن تجعل الشعب ينبذه ويجعله يقيم بعيدا خارج المحلة ، والشعب كما تبين التوراة - كان مبتلى بالأمراض الجلدية بشكل جعلها محل اهتمام خاص من موسى (١) .

ويضيف الأستاذ مقار أن تلك الأمراض الجلدية العديدة ظلت بلاءً ملازما « للشعب » : لقد ابتلى الشعب « وراثيا » نتيجة للعيش الخشن فى الرمال والافتقار إلى الماء ، بالدمامل التى ابتلتهم بها حكاية الخروج ، أو بغيرها من الأمراض الجلدية ، التى كانت - بجانب الحميات الخبيثة والدوزنتاريا وأمراض العيون - أمراضا ملازمة للشعب (٢) .

ويرى تاسيتوس أن اليهود يحرمون لحم الخنزير ذلك لأن الخنزير يذكرهم بذلك الدمار التعس الذى حل بهم نتيجة لإصابتهم بداء الجرب الذى دنسهم ، والذى يعتبر من الأمراض المنتشرة بين الخنازير (٣)

« الشعب » إذن كان مدنسا موبوءا ، مصابا بمختلف الأمراض الجلدية وغير الجلدية ، حصادا لميراث القذارة والعفن . ويتساءل الأستاذ شفيق مقار بسخريته المعهودة لِمَ لَم يشف « يهوه » - وهو القادر على كل شئ - شعبه ، ابنه البكر معبوده ، من كل ذلك السيل الصديدى والنزف واللمعان والبرص والقوباء والنتوءات والأورام الخبيثة والتقيحات مرة واحدة وينتهى فلا يترك « الشعب » المسكين يتعذب ويشغل كهنته المقدسين بفرز النجس من غير النجس ؟ .. رغم أنه فعل كل شئ آخر من أجله ابتداءً من التواطؤ على السلب .. إلى دفع عشرات الشعوب إلى يد الشعب المبارك ليفترسها ويشرب دماءها (٤) .

---

(١) شفيق مقار . ص ١٥٣
(٢) نفس المرجع ، ص : ١٩٠ .
(٣) يوسيفوس ، ص ٦٥٣ .
(٤) شفيق مقار ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

طبقاً لرواية التوراة ، على أية حال ، قاد موسى أتباعه من « بنى إسرائيل » ، وكان آنذاك فى الثمانين من عمره ، وكان هارون فى الثالثة والثمانين . ولم ينس موسى أن يحمل معه عظام يوسف .

وينص كتبة التوراة على أن « بنى إسرائيل » أقاموا فى مصر بأجيالهم المتعاقبة لمدة أربعمائة وثلاثين عاماً : « وأما إقامة بنى إسرائيل التى أقاموها فى مصر فكانت أربع مئة وثلثين سنة وكان عند نهاية أربع مئة وثلثين سنة فى ذلك اليوم عينه أن جميع أجناد الرب خرجت من أرض مصر » (خروج ١٢ : ٤٠ - ٤١) .

يعتبر يوسيفوس المعلومة التوراتية السابقة معلومة خاطئة . لقد أخطأ كتبة التوراة - فى رأيه - فى حساب السنين . ويعتقد يوسيفوس أن موسى قاد الخروج بعد أربعمائة وثلاثين عاماً من وصول الجد الأكبر إبراهيم إلى أرض كنعان ، لكن بعد مائتين وخمسة عشر عاماً فقط من وصول يعقوب إلى مصر (١) .

ويرى يوسيفوس أنه من العسير إحصاء عدد كل الذين خرجوا بما فيهم النساء والأطفال ، لكنه يوافق على ما قال به كتبة التوراة من أن عدد القادرين على القتال من بين الذين خرجوا كان ستمائة ألف « فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت نحو ست مئة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد » (خروج ١٢ : ٣٧) .

هذا تقدير خاطئ بكل تأكيد ، لأنه إذا كان عدد القادرين على حمل السلاح ستمائة ألف عدا الشيوخ والأطفال والنساء ، فإن هذا معناه أن عددالذين خرجوا يقترب من المليونين أو ربما يزيد . والمنطق يرفض هذا التقدير .

لقد جاء « إسرائيل » بكل أفراد أسرته إلى مصر - حسب حكاية التوراة - وعددهم سبعين فردا . ومن المستبعد جدا ، إن لم يكن من المستحيل ، أن يتكاثر سبعون فردا فيصبح عددهم مليونين أو يزيد خلال قرنين من الزمان .

ويعتقد مانيتو أن الذين طردوا من مصر وغادروها تحت قيادة موسى كان عددهم عشرة آلاف ومائة فرد (١) . وهذا التقدير يقارب الصواب ، رغم أننا لا نستطيع أن نجزم بصحته إلا أن مايقربه إلى المعقولية هو أن النص التوراتى فى سفر « التكوين » يقرر أن الذين عاشو فى مصر من بنى إسرائيل هم أربعة أجيال ، وأن الجيل الرابع قد عاد إلى

---

(١) يوسيفوس ، ص ٦٢ .
(٢) يوسيفوس ، ص ٦٢٣ .

الأرض التي وعد الرب بها إبراهيم : « وفى الجيل الرابع يرجعون إلى ههنا » (تكوين ١٥ : ١٦) .

ويحدد كاسوتو هؤلاء الأجيال الأربعة بأنهم : لاوى ، وقحات ، وعمرام ، وهارون . وجيل هذا الأخير هو الذى حظى بالخروج من مصر والوصول إلى مشارف الأرض الموعودة . ويأخذ كاسوتو حذره عندما يضيف قائلا إن تحديد العدد بستمائة ألف راجل - أى سائر على الأقدام وقادر على حمل السلاح والقتال - ماهو إلا كلام تقريبى يخلو من الدقة : الرقم ليس مضبوطا ، إنما يدل فقط على أن العدد كان كبيرا (١) .

ويرى أندرسون أن العدد الذى حددته التوراة ، لو أضفنا إليه عدد الأطفال والمراهقين والشيوخ والنساء ، لزاد عن مليونين .. ويشير إلى أن خروجا بهذا الحجم ماهو إلا مبالغة من المبالغات التي تمت إضافتها فيما بعد .. هذا إذا لم يتناقض تناقضا صريحا مع النص التوراتى الذى أوضح بما لايدعو للشك أن قابلتين كانتا تقومان بتوليد كل نساء العبرانيات (٢) .

ودون أدنى شك فإن عدد جماعة « العبيد » - كما يطلق عليهم أندرسون - كان أقل من ذلك بكثير .

على أية حال ، وحسب حكاية التوراة ، يعد « بنو إسرائيل » أنفسهم للرحيل تحت قيادة موسى وهارون ، منتهزين فرصة الظلام الكامل الذى حل بأرض مصر وأفقد المصريين القدرة على الرؤية والحركة معا .

ولم يلب « بنو إسرائيل » نداء موسى ودعوته للخروج - كما يدعى كتبة التوراة - بسبب العبودية والإهانة والإذلال والفقر ، فقد خرجوا وهم - بمقاييس ذلك العصر - على قدر من الثراء ، يسوقون أمامهم الكثير من قطعان الماشية ، ويحملون ما اكتنزوه من ذهب وفضة ، وكذا ما نهبوه من المصريين من مجوهرات وثياب . ولاننسى ندمهم وتمردهم على موسى أكثر من مرة لأنه هو الذى حثهم - حسب الحكاية - على ترك مصر ، حيث رغد العيش وقدور اللحم . فأى عبودية تلك التى يتحدث عنها كتبة التوراة ؟!!

(١) كاسوتو ، ص ١٤٧ .
(٢) أندرسون ، ص ٧٥ .

إن « الشعب » لم يخرج مع موسى راغبا من أجل إلهه « يهوه » ، ولكن لأن موسى أغراه ووعده بأن يتملك أرضا أكثر خصوبة وأوفر ثمرا ، أرضا « تفيض لبنا وعسلا » .. ووعده كما يقول الأستاذ شفيق مقار - بأن يهوه سيمكنه من ذبح أصحابها وأخذها لنفسه بكل خيراتها الوافرة ومدنها العامرة . ولم يخرج الشعب لأنه صدق ما قاله موسى من أنه التقى فى الصحراء بإله آباء « الشعب » وأن اسم ذلك الإله « يهوه » ، فالشعب كان يعرف جيدا اسم إلهه وإله آبائه ، وهو « بعل صفون » الذى كان مركز عبادته فى بلدة بلزيوم « بين مجدل والبحر » ، ولم يكن قد سمع طوال تاريخه بذلك الإله يهوه (١) .

ورغم تعدد الآراء واختلافها حول من تزعمهم موسى وعددهم عندما غادروا مصر ، فإن الاحتمال الأقرب إلى الحقيقة هو أنهم خرجوا مرغمين مطرودين . وهناك عبارة فى التوراة - قد لاتسترعى إلا انتباه العين الفاحصة ،ذلك لشدة اختصارها - تؤيد هذا القول : « وخبزوا العجين الذى أخرجوه من مصر خبز ملّة فطيرا إذ كان لم يختمر لأنهم طردوا من مصر ولم يقدروا أن يتأخروا . فلم يصنعوا لأنفسهم زادا » (خروج ١٢ : ٣٩) .

النص صريح : لقد خرجوا مطرودين . وهكذا تتناقض التوراة مع نفسها ، عندما يقول كتبتها فى سفر « العدد » : « هذه رحلات بنى إسرائيل الذين خرجوا من مصر بجنودهم عن يد موسى وهرون .. ارتحلوا من رعمسيس فى الشهر الأول فى اليوم الخامس عشر من الشهر الأول .. خرج بنو إسرائيل بيد رفيعة أمام أعين جميع المصريين» (عدد ٣٣ : ١ - ٣) .

يحدد « ديلى » تاريخ هذا « الخروج » بعام ١٢٢٥ ق . م (٢) . ويصف « ميير » مسيرة الجموع « الإسرائيلية » وكأنه شاهد عيان : بعد منتصف الليل بقليل بدأت الجموع الإسرائيلية فى التحرك . وبزغ عليهم الفجر وهم يسيرون فى صفوف متتالية ، كل خمسة رجال فى صف تتبعهم النساء والأطفال والماشية . طابور طويل من الصفوف المتتالية بلغ عدد الرجال فيه ستمائة ألف والعدد الإجمالى لايقل عن مليونين ونصف المليون ، وتوجه الجميع إلي نقطة الملتقى فى سكوت (٣) .

---

(١) شفيق مقار ، ص ٣٥ .
(٢) ديلى ، ص ١٤٧ .
(٣) ميير ، ص ٧٥ .

ومعنى أن يسير مليونان ونصف في صفوف متتالية ، كل خمسة في صف ، هو أن يصل طول مثل هذا الطابور إلى مايزيد عن ثلاثمائة كيلو متر ، ولا نعرف أين يكون أوله ولا أين يكون آخره ، ولا كيف يعبر هذا الطابور الرهيب بحرا في ليلة واحدة ، سواء كان ذلك بحرا من الماء أو بحرا من البوص ، كما يقول بعض المفسرين .

كان أسهل طريق يوصل مابين منطقة القنطرة - التي تطلق عليها التوراة أرض جاسان - وأرض كنعان هو عبر برزخ السويس . وكانت سيناء آنذاك - كما يكتب الأستاذ أحمد عثمان - معزولة عن وادي النيل يحاجز من المياه يمتد بين خليج السويس جنوبا والبحر المتوسط شمالا .. وكانت المنطقة الممتدة بين البحيرات المرة وبحيرة التمساح عند الإسماعيلية منطقة مستنقعات ينمو فيها البوص .. وبحسب الرواية التوراتية فإن موسى عند مغادرته منطقة القنطرة ، لم يسر في طريق أرض الفلسطينيين « طريق حورس » القريب من المنطقة ، وإنما اتجه جنوبا في اتجاه الإسماعيلية إلى أن وصل منطقة مستنقعات البوص ، والتي كانت متصلة بخليج السويس (١)

كان على موسى وأتباعه أن يسلكوا طريقا من ثلاث : إما طريق الساحل ، أو طريق الشرق وهو طريق يمر ببئر سبع إلى كنعان ، أو طريق الجنوب وهو أكثرها طولا .

ويقدم كاسوتو بعض التفصيلات عن هذه الطرق الثلاث : الأول إلى الشمال الشرقي ، والثاني إلى الجنوب الشرقي والثالث مابينهما . والأول كان الطريق المعروف باسم « طريق البحر » على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وكان هذا هو الطريق الذي تستخدمه القوات المصرية كلما اتجهت حملاتها إلى الشمال . الطريق الثاني كان يمر ببئر سبع - كما سبق وذكرنا - ويقود مباشرة إلى أرض كنعان . أما الطريق الشرقي في اتجاه شبه جزيرة سيناء ، فهو لا يقرب « المهاجرين » إلى أرض كنعان بل على العكس يبعدهم عنها ، ورغم ذلك فقط كان هو الطريق الذي اختاره موسى من بين الطرق الثلاث .

الطريق الأول كان غير مناسب بكل تأكيد ، ذلك لأن المصريين كانوا يقيمون عليه حراسة مشددة بواسطة قوات على قدر عال من الكفاءة والتنظيم . والسير في هذا الطريق لم يكن ليعني أبدا التحرر من عبودية مصر ، بل يعني على العكس تسليم رقاب « بني إسرائيل » لنير المصريين وعلى ذلك فليس هناك أدنى إشارة في النص إلى سلوك هذا الطريق .

---

(١) أحمد عثمان ، جـ ١ ، ص ٧٢ - ٧٤

وبخصوص طريق الوسط ، تنص التوراة على أن الرب نفسه هو الذى لم يهدهم إليه ، رغم أنه أقرب الطرق ويقودهم مباشرة إلى أرض «الفلسطينيين» : « وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدهم فى طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة لأن الله قال لئلا يندم الشعب إذا رأوا حربا ويرجعوا إلى مصر » (خروج ١٣ : ١٧) .

ويعلق أندرسون على هذا النص قائلا : من الواضح أن هذه الحكاية كتبت مابعد عصر موسى بكثير ، ذلك لأن عبارة « طريق أرض الفلسطينيين » تنطوى على مفارقة تاريخية ، وتعكس استخدام عبارات فترة تاريخية تالية ، فالفلسطينيون لم يحتلوا تلك المنطقة إلا بعد القرن الثانى عشر ق . م بقليل ، تقريبا بعد قرن كامل من زمن موسى (١) .

وكانت الحجة الإلهية هى أنه لو وصل « بنو إسرائيل » سريعا إلى أرض كنعان - عن طريق الوسط - بعد عدة أيام من خروجهم من مصر لكان عليهم فى هذه الحالة أن يقاتلوا سكان تلك الأرض وهم ليسوا على استعداد للقتال نتيجة لانخفاض روحهم المعنوية بعد فترة طويلة من العبودية . وكان من المتوقع فى هذه الحالة أن يعودوا إلى مصر ، مفضلين « شظف العيش وقسوة الحياة هناك » ، بدلا من مواجهة مخاطر الموت فى معارك لاطاقة لهم بها .

لهذا السبب تم اختيار طريق الجنوب الشرقى : قاد الرب « الشعب » فى طريق طويل ، غير مباشر ، يمر عبر البرية تجاه « بحر البوص The Sea Of Reeds » وشبه جزيرة سيناء . وهذا يتفق مع ماأخبر به موسى من قبل وهو أنه عند مغادرتهم مصر سيقوم « بنو إسرائيل » بتأدية فروض العبادة لإلههم عند جبل حوريب فى سيناء : « فقال إنى أكون معك وهذه تكون لك العلامة أنى أرسلتك . حينما تخرج الشعب من مصر تعبدون الله على هذا الجبل » (خروج ٣ : ١٢) . وبحر البوص المذكور هنا هو أحد البحيرات الواقعة شمال السويس (٢) .

وطبقا لحكاية التوراة ، غادر « بنو إسرائيل » « سكوت » متوجهين إليس « إيثام » وهى أقرب الأماكن المسكونة إلى صحراء سيناء ولا تنص التوراة على المدة التى قضوها فى « سكوت» ، سواء كانت يوما أو يومين أو أكثر . وبالمثل لايرد ذكر عدد الأيام التى قضاها موسى وأتباعه فى الوصول من « سكوت » إلى « إيثام » . ويقول كاسوتو إنه

---

(١) أندرسون ، ص ٧٦
(٢) كاسوتو ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

لايمكن بالضبط تحديد موقع « إيثام » هذه المذكورة فى التوراة ، كل مايمكن قوله أنها على حافة سيناء تفصل مابين المناطق المعمورة ورمال الصحراء . ويضيف : إن استخدام صيغة « وارتحلوا من وكان كذا ونزلوا فى مكان كذا » ، هى الطريقة المألوفة لوصف الترحال فى البرية (١) .

وكما هو مألوف لدى قبائل البدو الراحلة فى جوف الصحراء ، كان لابد من وجود دليل يرشدهم كى لايضلوا الطريق . وكانت العلامة التى استخدمها « يهوه » ، كراع ومرشد لشعبه المختار ، هى عمود سحاب بالنهار وفى الليل عمود نار : « وارتحلوا من سكوت ونزلوا فى إيثام فى طرف البرية . وكان الرب يسير أمامهم نهارا فى عمود سحاب ليهديهم فى الطريق وليلا فى عمود نار ليضئ لهم . لكى يمشوا نهارا وليلا » (خروج ١٣ : ٢٠ - ٢١) .

هذه ، كما يقول برستد فى كتابه **فجر الضمير** ، مجرد ظواهر بركانية : وقد صحب خروج العبرانيين من مصر خوارق جاء وصفها فى كتاب العهد القديم ، لاشك فى أنها ذات صبغة بركانية ، فالمظهر الغريب الذى ظهر به يهوه فى صورة « عمود نار » أو « عمود دخان » ، ثم تجليه فوق « طور سيناء » محدثا للرعد والبرق والسحاب الكثيف ، هى بالبداهة ظواهر بركانية (٢) .

ما أن يصل موسى وأتباعه إلى « إيثام » على حافة برية سيناء ، حيث ما كانوا يحلمون به من خلاص فى طريقهم إلى أرض « اللبن والعسل » ، حتى تصدر لهم الأوامر من يهوه بأن لايستمروا فى التقدم تجاه الجنوب الشرقى الذى يقودهم مباشرة إلى الصحراء ، وأن ينعطفوا تجاه الجنوب الغربى حيث يعودون مرة أخرى إلى حافة المنطقة الآهلة بالسكان : « وكلم الرب موسى قائلا . كلم بنى إسرائيل أن يرجعوا وينزلوا أمام فم الحيروث (٣) بين مجدل(٤) والبحر أمام بعل صفون (٥) . مقابله تنزلون عند البحر » (خروج ١٣ : ١ -٢) .

---

(١) كابسوتو ، ص ١٥٧

(٢) برستد ، **فجر الضمير** ، ص ٣٠٠

(٣) فم الحيروث : اللفظ محرف عن الاسم المصرى القديم لقلعة « أواريس » وهى التى بناها الهكسوس عند أستيلائهم على مصر عام ١٧٥٦ ق . م واللفظ بأكمله يعنى مصب فرع النيل الشرقى الذى يكتنف القلعة من الجنوب الشرقى فى نهايته عند البحر المتوسط (غطاس عبد الملك ، ص ٢١٥)

(٤) « مجدل » اسم موضع فى الآثار وكان بمثابة نقطة حراسة محصنة على قرب من حوالى ٢٠ كيلو مترا جنوبى قلعة أواريس ، وجد على الخرائط القديمة باسم « مجدولون » ، إلى الجنوب الغربى من بئر الدويدار ، بما يقرب من ستة كيلوا مترات ، وعلى طريق فرعى موصل إلى الطريق الساحلى العام إلى فلسطين (غطاس عبد الملك ، ص ٢١٥) .

(٥) ربما يعنى « صوعن » أى مدينة صان الحجر (غطاس عبد الملك ، ص ٢١٦)

ويعلق كاسوتو على عبارة « عند البحر » بقوله إن المقصود هنا هو « بحر البوص The Reeds Sea » لا « البحر الأحمر » ، كما يدعى بعض المترجمين والمعلقين القدماء . إن بحر البوص هنا يشير إلى إحدى المستنقعات أو البحيرات القريبة من البحر الأحمر حيث ينمو البوص . وأقرب التفسيرات المحتملة هو أن التوراة تشير إلى إحدى البحيرات المرة شمال السويس ، وإلى أكبر هذه البحيرات على وجه التحديد ، التى كان من المحتمل اتصالها بالبحر الأحمر فى الزمن القديم ، والتى كان من المحتمل أيضا اعتبارها جزءا منه ، وربما أطلق عليها نفس الإسم (١)

وعلى ذلك ، فإن الذى ضرب موسى وأتباعه خيامهم ونزلوا أمامه ثم عبروه فيما بعد ليس هو البحر الأحمر ، ولكنه « بحر البوص » أى إحدى البحيرات المرة الممتلئة بالبوص ، ثم تم تحريف « بحر البوص The Reeds Sea » ، فيما بعد إلى « The Red Sea » أى البحر الأحمر . **وهذا معناه بوضوح شديد أن موسى وأتباعه لم يعبروا البحر الأحمر .**

يقول أندرسون إن النصوص التوراتية لاتعطينا صورة واضحة عنّ الطريق الذى سلكه موسى وأتباعه .. لكن على وجه العموم هناك من الدلالة مايشير إلى أنهم أخذوا طريق الجنوب ، على الأقل فى حالة هؤلاء العبرانيين الذين وصلوا إلى سيناء . وطبقا للرواية التوراتية « أدار الله الشعب فى طريق برية بحر سوف » (خروج ١٣ : ١٨) .

ويعلق أندرسون على عبارة « بحر سوف » ، التى غالبا ما تترجم على أنها « البحر الأحمر » ، قائلا : إن عبارة « بحر سوف » فى النصوص التوراتية لها معان متعددة ، فيمكن أن يكون المقصود بها خليج السويس (عدد ٣٣ : ١٠ - ١١) ، أو خليج العقبة (ملوك أول ٩ - ٢٦) ، وهما ذراعا الماء الممتدان من البحر الأحمر . كان هذا هو مفهوم عبارة « بحر سوف » بمعناها الواسع فى الترجمة « السبعينية » « للعهد القديم » فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وتم نقل العبارة ذاتها لنفس المفهوم فى الترجمة « اللاتينية » المعتمدة لدى الكنيسة الكاثوليكية . لكن المؤرخين فى الوقت الحالى يعتقدون أن « بحر سوف Yam Suph » ، عندما تستخدم فى نصوص متصلة بسفر « الخروج » يجب أن تترجم « Reed Sea » أى « بحر البوص » أو « بحيرة البردى » . إن كلمة « يم » فى العبرية تعنى « بحر » (البحر الأبيض المتوسط مثلا) ، أو تكوين مائى داخلى (مثل بحر الجليل) . أما « Suph » فمعناها : « بوص » ،

---

(١) كاسوتو ، ص ١٥٩

(٢) أندرسون ، ص ٧٦ - ٧٧

والإشارة هنا إلى البوص الذى ينمو حول أو داخل أى تكوين مائى . ومن المحتمل أن النص هنا يشير إلى إحدى البحيرات المستنقعية شمال امتداد خليج السويس ، حول منطقة بحيرة المنزلة (وربما بحيرة التمساح) . وفى طريقهم للهرب وصل العبرانيون إلى هذه المنطقة (١) .

هكذا يؤيد أندرسون الرأى الذى يرجح أن « العبرانيين » لم يعبروا البحر الأحمر ، بل عبروا « بحر البوص » ، أى إحدى البرك أو المستنقعات التى يغطيها البوص . ويقرر أندرسون أنه من الصعب أن نحدد بالضبط مكان العبور : لكن يجب ألا نزيد من صعوبة الرواية - وهى بطبيعتها صعبة - بأن نفترض أن أتباع موسى بطريقة ما عبروا خليج السويس ، حيث أن البوص فى الواقع لا ينمو هناك (٢) .

ويؤكد ل . م هوبفى أن القراءة المألوفة لعبارة « البحر الأحمر » ، قامت على أساس ترجمة قديمة خاطئة لعبارة « The Reeds Sea » أى « بحر البوص » . **وهذا معناه أن موسى وأتباعه لم يعبروا البحر الأحمر** ، كما سبق وأوضح كثرة من الدارسين .

ويشير جارودى إلى « بحر البوص » . لا « البحر الأحمر » ، ويستشهد برأى مرشيا إيلياد ، الذى أورده فى كتابه **تاريخ العقائد والأفكار الدينية** حيث يقول إيلياد : لايهم فى شئ ألاّ يعتبر عبور «بحر البوص» بحدث تاريخى ، وهو حدث لايخص كافة العبرانيين ، بل بعض مجموعات من الهاربين (٣) .

يلخص الأستاذ سعيد أبو العينين ماسبق من آراء ، فى كتابة : **الفرعون الذى يطارده اليهود** ، عندما يكتب عن اختلاف آراء العلماء والباحثين فى تحديد البحر الذى انفلق : قالوا إنه البحر الأحمر . وقالوا إنها بحيرة المنزلة . وقالوا إنها بحيرة البردويل . وقالوا خليج السويس . وقالوا إنه النيل - أحد فروع النيل فى الدلتا الشرقية . لكن فريقا من الباحثين يتوقف طويلا عند بحيرة المنزلة ويقول إنها المقصودة بكلمة البحر وإنها تقع قبالة « قنتير» وهى مدينة - بى رعمسيس - التى بدأت منها مسيرة الخروج . وهذا الافتراض يقوم على أساس المعنى الذى يفهم من كلمة (٤) «بحر سوف » أو « يم سوف » . فكلمة « أليم » فى اللغة العبرية تعنى البحر أو النهر ، وكلمة « سوف » تعنى

---

(١) أندرسون ، ص ٧٦ - ٧٧ .
(٢) نفس المرجع ص ٧٧ .
(٣) رجاء جارودى ، **الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية** ، دار الغد العربى ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، (ترجمة عن الفرنسية قسم الترجمة بدار الغد العربى) ، ص ٤٩٦
(٤) أعتقد أن الاستاذ سعيد يقصد « عبارة » بدلا من « كلمة » .

« البوص » ، وهو نبات يكثر وجوده فى المياه الضحلة عند مصبات الترع والمصارف كما فى بحيرة المنزلة (١) .

تتناقض قصة التوراة مع نفسها : « يهوه » لايريد لأتباعه أن يسلكوا أقصر الطرق إلى كنعان ، أى إلى أرض اللبن والعسل التى وعد بها الآباء والأحفاد ، كى لايخوضوا حربا هم غير مستعدين لها .. وفى نفس الوقت بعد أن وصلوا إلى مشارف برية سيناء يعيدهم مرة أخرى إلى المنطقة المأهولة بالسكان كى يواجهوا جنود فرعون وجيوشه النظامية المدججة بالسلاح والتى كانت تعتبر فى ذلك الحين من أقوى جيوش الأرض .

يعلل « يهوه » هذا السلوك الشاذ بقوله إنه يريد أن يتمجد ، وكأنه لم يكتف بما تمجد به - وهماً - من قبل : « وكلم الرب موسى قائلا . كلم بنى إسرائيل أن يرجعوا وينزلوا أمام فم الحيروث بين مجدل والبحر أمام بعل صفون . مقابله تنزلون عند البحر. فيقول فرعون عن بنى إسرائيل هم مرتبكون فى الأرض . قد استغلق عليهم القفر . وأشدد قلب فرعون حتى يسعى وراءهم فأتمجد بفرعون وبجميع جيشه . ويعرف المصريون أنى أنا الرب . ففعلوا هكذا » (خروج ١٤ : ١ - ٤) .

ولا ندرى لماذا لم يتمجد ذلك الإله فى أرض كنعان ويدمر جيوش تلك الأرض ، بدلا من أن يعيد شعبه التعس إلى حيث كان !!

هنا تثار عدة تساؤلات : هل « العبرانيون » جادون فى الرحيل ؟ هل هم يتخبطون ؟ هل ضلوا الطريق ؟ هل يريدون العودة من جديد ؟

يقول بوبر Buber إنه لايمكن صياغة حكاية الخروج هذه صياغة منطقية طبقا للحكى التوراتى . ولكى تصبح الحكاية ممكنة لابد وأن نقلل من عدد أفراد القبائل الذين خرجوا .. وهو عدد لابد وأن يكون أقل من العدد المذكور بكثير (٢) .

إن يهوه - طبقا لحكاية التوراة - يريد إهلاك فرعون وجنده ، وعلى ذلك فلابد أن يخرج فرعون فى أثر موسى وأتباعه كى يعيدهم إلى عبوديته . ونسى كتبة التوراة أنهم نصوا صراحة على أن « العبرانيين » قد « طردوا من مصر » (خروج ١٢ : ٣٩) . وعلى ذلك ، فطبقا للرواية الجديدة ، يشعر فرعون مصر بالخسارة الفادحة ، وكأن حركة الحياة والنماء كانت تقوم على أكتاف هؤلاء البدو المتخلفين الموبوئين .

---

(١) سعيد أبو العينين ، **الفرعون الذى يطارده اليهود** ، كتاب اليوم ، دار أخبار اليوم ، القاهرة ، ١٩٩٧ ، ص ٩٢ .
(٢) بوبر ، ص ٧٥ .

ويصور « مير » فى مبالغة غير مقبولة كيف توقفت عجلة الحياة فى مصر بعد رحيل « بنى إسرائيل » : لقد توقفت الأشغال العامة بسبب قلة الأيدى العاملة ، كما خلت مساحات شاسعة من الأرض وأصبحت بلا آهلين . وفى كل المجالات شعر الجميع بأنهم افتقدوا جهد ذلك الشعب المستعبد الذى كان يحرك عجلة العمل فى كل من المدينة والقرية . وبذلك نقص الدخل العام بصورة مفاجئة (١) .

وادعاء مير بأن العبرانيين كانوا يحركون عجلة الحياة فى كل مدينة وقرية ، فى كل أنحاء مصر ، يعتبر مبالغة ينقصها الكثير من الذكاء ، وكذا الكثير من الفهم ، وكأنه لم يقرأ نص « التوراة » التى حددت إقامتهم فى منطقة واحدة لم يتجاوزوها وهى «أرض جاسان » . ولو قد عاشوا فى كل مدينة وقرية من مدن مصر وقراها ، كما يدعى مير ، ما استطاع « يهوه » أن يستثنيهم من ضرباته القاتلة .

وربما كان من الأفضل بالنسبة لمير أن يقول إنهم نهبوا أموال المصريين وثيابهم وذهبهم وفضتهم ولاذوا بالفرار ، وعلى ذلك فقد لاحقهم حرس الحدود كى يستردوا ماسلبه البدو « الخطافة » . ربما فعل الحرس ذلك من تلقاء أنفسهم ، وربما أرسل لهم المسئولون أمرا خاصا بالمطاردة ، لا لإعادتهم ، ولكن فقط لإعادة ما سرقوه .

ويبدو أن مير قد تأثر برأى يوسيفوس الذى يدعى أن فرعون قد شعر بالحزن والأسى بعد رحيل العبرانيين فقرر مطاردتهم . وعلى ذلك فقد جهز عدته الحربية وأعد جنده وخرج فى أثرهم كى يعيدهم إلى حيث كانوا (٢) .

خرج فرعون بنفسه - كما يدعى مير - فى ستمائة عجلة حربية ، وآلاف من الفرسان والمشاة . ولانعرف من أين أتى فرعون بالخيل كى تجر العجلات الحربية ، وكى يمتطيها الفرسان ، وقد أفنى يهوه فى إحدى ضرباته « كل » مافى مصر من خيل وحمير وبغال ، ثم عاد وأفناها فى ضربة أخرى بعد أن نسى أنه قد أفناها « كلها » فى ضربة سابقة . لانعرف كيف أتى فرعون فجأة بكل هذا العدد من الخيل . ربما استوردها - بوحى من يهوه !! الذى يريد أن يتمجد ويتلذذ بإظهار جبروته وذلك عن طريق إفنائها هذه المرة هى وفرسانها !!

---

(١) مير ، ص ٧٨ .
(٢) يوسيفوس ، ص ٦٢ .

وإذا كان جنود فرعون قد خرجوا فعلا ، فهم لم يخرجوا لإعادة موسى واتباعه ، وإنما خرجوا لمطاردتهم وإبعادهم بعد أن عادوا ، هم أنفسهم ، من حدود الصحراء إلى الأرض المسكونة . وفى هذا تهديد للمصريين مابعده تهديد ، إذ أن معناه أن يعود هؤلاء البدو « اللصوص » لنشر أقذارهم وأوبئتهم وبرصهم .. وما كان لفرعون أن يسمح بذلك أبدا .

لايمكن أن نحدد بصورة قاطعة المكان الذى عثر فيه المطاردون - فى حالة حدوث مطاردة فعلية - على جموع المطرودين . ربما يكون ذلك فى مكان قريب من مدينة السويس الحالية ، أو - إذا كان خليج السويس ، كما يفترض بوبر ، مختلف فى شكله آنذاك عن شكله الحالى (١) - فى مكان متقدم شمالا عند إحدى البحيرات المرة أو أية بحيرة أخرى داخلية .

يرى ديلى أن جيوش فرعون قد طلعت علي موسى وأتباعه : وهم فى المخيم الذى ضربوه قرب عبر السويس ، عند البحيرات المالحة .. كانت الحالة خطيرة والموقف حرجا والموت محتوما .. ألوف المشاة محصورين فى سهل لامخرج منه .. فالبحيرات تمتد متصلة الحلقات بالبحر الأحمر .. والعبر لايؤمن عبوره فى كل آن .. وممر الجبال سدته مراكب فرعون (٢) .

لم يكن أمام موسى وأتباعه ، فرارا من الموت ، إلا أن يخوضوا فى المستنقعات . ويعبروا « يم سوف » أى « بحر البوص The Reeds Sea » . هذا ما كان . وهكذا تم الخلاص ، إذ لم تستطع عجلات المصريين الحربية بكل ثقلها - من وجهة نظر ديلي - أن تتحرك بحرية فى رمال المستنقعات وطينها ، وكذا لم يستطع الفرسان . وتدفع غريزة حب الحياة موسى وأتباعه إلى عبور المستنقع ، بعد أن احتموا بالبوص ، وقاوموا فى استماتة ثقل الرمل ووحل الطين . ويعود جنود فرعون بعد أن تأكدوا أن جموع « العبيد » قد فرت وبلا عودة .

لكن « التوراة » تورد قصة أسطورية هائلة ، تصور ما اسمته « بالخروج » على أنه ملحمة بطوليه نادرة لشعب « يهوه » المختار ، وتصور الرب نفسه وهو يحلق فوق شعبه فى جبروت «يهوى » متفرد يفتح لموسى ومئات الآلاف من أتباعه طريق الخلاص وذلك بأن يحدث فى أرض الواقع إعجاز الإعجاز .. يعبر ما يقرب من مليونين ونصف

---

(١) بوبر ، ص ٧٥ .
(٢) ديلى ، ص ١٤٨ .

المليون من بنى إسرائيل البحر، ثم يهلك فرعون نفسه وآلاف من جنوده وسط الماء .. وكل ذلك ، على وجه التقريب ، فى عدة ساعات لايزيد امتدادها عن طول ليلة واحدة !!

هل هذا منطق يقبله عقل ؟ كيف عبر الطابور – الذى وصف من قبل بأنه يبدو للعين المجردة لانهائيا – قاع البحر سيرا على الأقدام ، ثم خرج من القاع إلى الجانب الآخر ، فى أقل من ليلة واحدة ، حتى يتبقى من الليلة ما يكفى لإغراق فرعون وآلاف من جنوده ؟!!

للأسطورة على أية حال منطقها الذى لايعترف بما هو معقول أو غير معقول .

تعود إلى الحكاية كما تقصها التوراة : « شد فرعون مركبته وأخذ قومه معه » .. الصورة – كما نرى – شاعرية ملحمية ، مثيرة للانتباه ، مولدة للكثير من التوقعات ، تشد القارئ بقوة إلى حافة الخطر ، وتجعل قلبه يدق فى عنف إنتظارا لما سيكون . لابد وأن مذبحة رهيبة سوف تحدث فى صفوف التعساء من « بنى إسرائيل » خصوصا وأن فرعون قد أخذ معه « ستة مئة مركبة منتخبة » ليس هذا فقط ، بل أخذ أيضا « سائر مركبات مصر وجنودا مركبية على جميعها » (خروج ١٣ : ٦ – ٧) .

الهول إذن قادم لا مفر ، والهلاك متوقع ، ولا مهرب من فرعون القادم وفى ركابه « سائر » مركبات مصر . ولا نعرف بالطبع من الذى أحصى عدد مركبات مصر « ست مئة مركبة » وأبلغ بها « بنى إسرائيل » كى يسجلها كتبتهم فى توراتهم .. ربما كان لهم جواسيس بين صفوف المصريين .. وربما أحصاها « يهوه » بنفسه كى يبلغ بها الكتبة بعد ما يزيد عن ستمائة عام من حدوث الواقعة المتخيلة .. ربما !!

تقترب الكارثة ، يفغر الموت فاهه ، ذلك لأن المصريين قد سعوا وراء بنى إسرائيل « وأدركوهم . جميع خيل مركبات فرعون وفرسانه وجيشه وهم نازلون عند البحر عند فم الحيروث أمام بعل صفون » (خروج ١٤ : ٩) .

هنا تشتعل نار الثورة .. ثورة العبرانيين ضد كاهنهم وقائد مسيرتهم : وتبلغ أزمة الحدث الروائى ذروتها : فى فزع مخبول يصرخ « بنو إسرائيل » فى وجه موسى .. « هل لأنه ليست قبور فى مصر أخذتنا لنموت فى البرية . ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر . أليس هذا هو الكلام الذى كلمناك به فى مصر قائلين كُفَّ عنا فنخدم

المصريين . لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت فى البرية » (خروج ١٤ : ١١ - ١٢) .

ولا يهتز القائد الملهم ، الذى يمسك فى يده « عصا الله » رغم أنه يرى الموت أمام عينيه متقدما على أسنة السيوف والرماح وعلى ظهور الخيل .

يقول لهم البطل الأسطورى فى ثبات كرسوخ الجبال : « لاتخافوا » !! موسى ، ثقيل اللسان ، « المتلعثم » الذى لايبين له كلام يتحدث الآن فى صوت قوى كالرعد : « قفوا وانظروا » !! ينظرون ماذا ؟؟

« خلاص الرب الذى يصنعه لكم اليوم » .

الرب ، إذن ، هو الذى سيواجه فرعون : إله ضد فرعون !!

أما موسى وأتباعه فما عليهم إلا أن يقفوا وينظروا .. أى يتفرجوا على الموقعة التى سوف تبدأ بين إله « إسرائيل » وفرعون مصر : « قفوا وانظروا خلاص الرب الذى يصنعه لكم اليوم فإنه كما رأيتم المصريين اليوم لاتعودون ترونهم أيضا إلى الأبد . الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون » (خروج ١٤ : ١٣ - ١٤) .

هكذا أوحى (؟!!) « الإله » يهوه إلى « النبى » موسى أنه هو الذى سيقاتل عن بنى « إسرائيل » . وإذا كان « الرب » هو الذى سيقاتل ، فالنتيجة معروفة سلفا ولا تحتاج كثير تفكير .. لايمكن أن يكون هناك تكافؤ فى معركة يقودها بشر ضد إله فمعارك « الآلهة » مهولة لايطيقها إنسان .

لكن المشكلة الحقيقية هى أن أغلب الذين « خرجوا » مع موسى . لم يكن خروجهم بسبب إيمانهم بذلك الإله الذى أتى به موسى من أرض مديان .. لقد خرجوا - ضمن من خرجوا مطرودين - فى صحبته لأنه وعد بأن يقودهم إلى أرض تفيض لبنا وعسلا .. لم يتبعوه لأنهم آمنوا ، بل من أجل قطعة أرض ورغيف خبز وقدر لحم .. ربما يعوضهم عما فقدوه فى مصر ، وربما يزيد .

ولكى يؤمنوا كان لابد وأن يحدث الإعجاز اليهوى الذى ينظرونه بأعينهم ويشهدون به جميعا وهم على حافة الموت : « قال الرب لموسى مالك تصرخ إلى » ؟ لقد كان موسى نفسه يصرخ ، ويبدو أن إيمانه هو أيضا قد بدأ يهتز .

يصدر الرب أمره في لحظة قدرية فارقة : « قل لبني إسرائيل أن يرحلوا . وارفع أنت عصاك ومد يدك على البحر وشقه . فيدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة » (خروج ١٤ : ١٥ -١٦) .

هنا تحدث معجزة البحر التوراتية : « مد موسى يده على البحر . فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل وجعل البحر يابسة وانشق الماء . فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة والماء سورلهم عن يمينهم وعن يسارهم . وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم . جميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه إلى وسط البحر . وكان في هزيع الصبح أن الرب أشرف على عسكر المصريين في عمود النار والسحاب وأزعج المصريين . وخلع بكر مركباتهم .... فقال الرب لموسى مد يدك على البحر .. ليرجع الماء على المصريين على مركباتهم وفرسانهم . فمد موسى يده على البحر فرجع البحر عند إقبال الصبح إلى حاله الدائمة .. فدفع الرب المصريين في وسط البحر . فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذى دخل وراءهم في البحر . لم يبق منهم ولاواحد . أما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم .... ونظر إسرائيل المصريون أمواتا على شاطئ البحر .... فخاف الشعب وآمنوا بالرب وبعبده موسى » (خروج ١٤ : ٢١ - ٣١) .

هكذا يبدأ الحدث الأسطورى ، وهكذا ينتهي ، في ليلة واحدة !!

ولا نعرف بالضبط ما هي مساحة اليابسة التي جهزها الرب في وسط البحر ليعبر عليها « إثنان ونصف مليون » من أتباع موسى وفيهم نسوة وشيوخ وأطفال ، ومعهم ماعز وبغال وحمير وجمال وأحمال ، والماء سور لهم عن اليمين وعن الشمال .. كل ذلك في أقل من ليلة واحدة !! ونقول في أقل من ليلة ، ذلك لأنه في بقية تلك الليلة الأسطورية دخل فرعون وكل مركبات مصر وكل جنده إلى قلب البحر وغرقوا « عند إقبال الصباح » .

هناك سؤال قد يبدو مثيرا للإضحاك : هل كان الرب في حاجة - كي يهلك المصريين - إلى أن يقوم بنفسه بخلع « بكر مركباتهم » ؟ ألم يكن باستطاعته أن يهلكهم دون اللجوء إلى هذه الحيلة الساذجة التي لا تسمو إلى مستوى السلوك الإلهي ؟ ثم : هل كان من الضرورى أن يخوّف « الشعب » كي يؤمنوا به ؟ .. « فخاف الشعب وآمنوا بالرب » .. أليس معنى هذه العبارة أن الشعب لم يؤمن مطلقا ، فكان على الرب أن يخوفه كي يرغمه على الإيمان به وبعبده موسى ؟!!

كان انتصار الرب - كما يبدو فى الحكاية التوراتية - ساحقا ماحقا ، حازما حاسما ، مخلصا ومدمرا فى آن واحد : ونظر إسرائيل وإذا المصريون أموات على شاطئ البحر !!

هل هناك ما هو أكثر إبداعا من هذا الإبداع ؟ هل هناك ما هو أكثر روعة وترويعا من هذه الخاتمة المأساوية لحاكم من أعظم حكام عصره ، هو وكل عتاده وسلاحه وجنده ؟ هل هناك انتصار يفوق هذا الانتصار « اليهوى » القادم ما « فوق أجنحة النسور» ؟

لن يختلف اثنان من نقاد الأدب على أن المؤلف قد أبدع فى رسم الصورة بحرفية فنية عالية . لكنه لايكتفى بهذا القدر ويسدل الستار على النهاية المأساوية التى حلت بأعداء يهوه . إنه يختمها بأغنية ورقصة من مريم « النبية » .

مريم أخت هارون وموسى ، والتى وصفت بأنها « نبيه » ، ينطلق صوتها - كما يقول بوبر - بأغنية ، ويهتز وسطها برقصة .. ويمكن تخيلها وهى تغنى على دقات الطبول وتتمايل على أنغام الدفوف (١) .. وتتجاوب النسوة .. آلاف النسوة .. يقدمن تأوهاتهن وحركات أجسادهن قربانا للمعبود .

يقول مؤلف النص التوراتى : « فأخذت مريم النبية أخت هرون الدف بيدها وخرجت جميع النساء وراءها بدفوف ورقص . وأجابتهم مريم . رنموا للرب فإنه قد تعظم . الفرس وراكبه طرحهما فى البحر » (خروج ١٥ : ٢٠ - ٢١) .

ويؤكد كاسوتو أن موسى وأتباعه لم يعبروا البحر الأحمر ، بل عبروا « بحر البوص » فى منطقة البحيرة المرة الكبرى (٢) .

ويرى أندرسون أن « معجزة البحر » تنتمى إلى التراث الشعرى الإسرائيلى ، لكن ماحدث عند « بحر البوص » - إذ أنه هو أيضا يؤكد أن « العبور » كان من خلال « بحر البوص » لا البحر الأحمر - ليس خيالا خالصا ، إنه يقوم على شئ من الواقع . فما حدث فى منطقة المستنقعات ، عند « بحيرة المنزلة » ، ليس مستحيلا . لكن القصة أضيف لها الكثير لإظهار مدى الإعجاز فى الحدث . وعبر الأجيال المتتالية

---

(١) بوبر ، ص ٧٤
(٢) كاسوتو ص ، ١٦٨

تمت صياغة القصة من جديد ثم إعادة صياغتها ، وفي كل مرة يضاف إليها مايظهر الحدث في صورة إعجازية تفوق كل طاقات البشر . **لكنها بكل تفاصيلها – وهذه هي قناعة أندرسون – لايمكن أن ترضى فضول أى مؤرخ فى العصر الحديث .**

ولايخوض أندرسون مطلقا فى موضوع غرق فرعون وجنوده . لأن حدثا مروعا كغرق ملك لواحدة من أكبر ممالك الأرض فى تلك الآونة يحتاج إلى توثيق تاريخي . وهذا مالا يملكه أندرسون وما لايستطيع إثباته . لكنه يكتفي بالقول : **إننا لا نتوقع أن يسجل التاريخ المصرى هرب جماعة من العبيد ، فى وقت ازدحمت فيه الأحداث بما هو أكثر أهمية وأشد خطورة . وما كان للمؤرخين المصريين أن يهتموا بحادث حدودى على هذا القدر من الضآلة (١) .**

ويشهد بوبر بأن « المعجزة الكبرى » ، وهي معجزة الخلاص عند البحر ، لاتبرز لنا الصورة بأسهاب كحقيقة تاريخية .. ولا يمكن استجلاء الموقف وتبريره منطقيا ، طبقا للرواية التوراتية .

ولايشير بوبر مطلقا إلى غرق فرعون ، بل يرى أنه من المحتمل أن جماعة من حرس الحدود هم الذين طاردوا جموع « الآبقين » ، ولحقوا بهم ، ربما عند مدينة السويس الحالية ، أو على بعد منها فى الشمال عند البحيرات المرة ، حيث عبر موسى وأتباعه ولم يستطع المصريون اللحاق بهم بسبب ثقل مركباتهم الحربية التى غاصت فى الطين والرمال . لكن الشئ الحاسم فى تاريخ بنى إسرائيل ، على أية حال ، هو أنهم **فهموا هذا الحدث على أنه معجزة قام بها الإله « يهوه »** . وهذا ليس معناه أنهم **فسروا التجربة على أنها معجزة ، بل آمنوا أنهم قد عاشوا المعجزة ذاتها . وهذا الإيمان فى تلك اللحظة القدرية يعزى بالدرجة الأولى إلى موسى نفسه (٢) .**

ويرجع برستد نجاة « بنى إسرائيل » وهلاك الجنود المصريين إلى بعض الظواهر الطبيعية .. يقول : من الواضح أن التخلص من النير المصرى قد تزامن مع بعض الظواهر المدمرة التى عزيت إلى بطش « يهوه » الشديد . إن الرأى القائل بحدوث انفجار بركانى فى سيناء ، حينما ضاق الخناق على العبرانيين فى خروجهم ، يجد له من الأسباب مايبرره ، إذ يمكن أن نفترض أن الزلزال الذى صحب ذلك الانفجار وموجة

(١) أندرسون ، ص ٧٨ - ٨٣ .
(٢) بوبر ، ص ٧٤ - ٧٥

المد التي نتجت عنه ، هما اللذان أفضيا إلى « إبتلاع » الجنود المصريين الذين كانوا يقتفون أثر القوم الفارين (١).

وفيما يختص بأسطورة انفلاق البحر ، يروى الدكتور أحمد فخرى ، فى كتاب تاريخ الحضارة المصرية ، قصة أسطورة مصرية قديمة . تقع أحداثها فى عهد الملك سنفرو آخر ملوك الأسرة الثالثة (٢٨١٣ - ٢٧٨٩ ق . م) ، تتعلق بعملية شق الماء يقوم بها كاهن مصرى . لكن الكاهن المصرى لايكتفى بعملية شق الماء فقط ، إنه يأتى بما هو أكثر إعجازا عندما يجعل نصف ماء البحيرة يعلو فوق النصف الآخر .

وهذه هى القصة باختصار كما أوردها الدكتور أحمد فخرى : أحس الملك سنفرو فى يوم من الأيام بأنه ضيق الصدر حزين النفس ، فاستدعى إليه رجال القصر وطلب منهم أن يبحثوا عن شئ يشرح صدره ، ولكنه ظل على حالته . وأخيرا أمر بأن يستدعوا كبير الكهنة المرتلين « زازا - أم - عنخ » فجاء فى الحال .. واقترح أن ينزل الملك فى أحد القوارب إلى بحيرة قصره ، وأن يختار بحارته من فتيات القصر الجميلات .. ولم يمض إلا وقت قصير حتى حدث ما قاله كبير المرتلين وبدأ الانشراح يجد طريقه إلى صدر الملك .

وحدث بعد ذلك أن توقفت زعيمة أحد جانبى التجديف ، فتوقف كل من كان فى صفها ، وذلك لأن حلية على صورة سمكة صغيرة من الفيروز كانت معلقة فى شعرها سقطت إلى الماء .. وأمر الملك أن يحضروا « زاز - أم - عنخ » . فلما وصل ذكر له ماحدث ، وعند ذلك ألقى كبير المرتلين شيئا من السحر جعل نصف ماء البحيرة يعلو فوق النصف الآخر ، فأصبح ارتفاع ماء البحيرة أربعة وعشرين ذراعا فى أحد الجانبين بعد أن كان إثنى عشر فقط . ورأوا فى تلك البحيرة تلك الحلية وقد استقرت فوق قطعة مكسورة من الفخار ، فأشار إليها فارتفعت وسلمها إلى صاحبتها (٢) .

يورد الأستاذ شفيق مقار نفس الأسطورة المصرية القديمة ، التى ذكرها الدكتور فخرى ، ويؤكد أن معجزة انشقاق البحر التى قام بها موسى ، وكذا ما قيل عن خوارق أتى بها أنبياء بنى إسرائيل ، هى جميعا مسروقة من أصول قديمة .

---

(١) برستد ، ص ٣٠٠

(٢) د . أحمد فخرى ، تاريخ الحضارة المصرية ، ص ٣٩٨

يقول الأستاذ مقار : إن كل تلك الخوارق مسروقة من أصول ضاربة في القدم وسابقة لظهور الإله « يهوه » ورجاله بعشرات القرون . وأنها – وقد سرقت بهذا الشكل – لم تتحقق الخوارق بأيدى رجال الإله أو بيد الإله ذاته لأنها أشياء رفعت رفعا من تواريخ دينية قديمة وحكيت في غمار تلفيق تركيبي لديانة جديدة مستنسخة من مصادر أسطورية متباينة وكثيرة (١) .

ويثير أغلب الدارسين سؤالا : من هو فرعون الإضطهاد ومن هو فرعون الخروج؟

والإجابة على السؤال لا تعنينا في شئ ، لأ نه – كما سبق وأوضحنا – لم يكن هناك اضطهاد ولم يكن هناك خروج .. كل ما تم هو مجرد عملية طرد لخليط من الموبوئين والبدو الذين ما أن وصلوا حدود صحراء سيناء حتى حاولوا العودة من جديد كي لا يموتوا جوعا . وعندما اكتشف حرس الحدود محاولة عودتهم طاردوهم فهربوا من خلال مستنقعات البوص . وقد حدث ذلك زمنيا في القرن الثالث عشر قبل الميلاد على وجه التقريب ، في الفترة التي شملت حكم رمسيس الثاني (١٢٩٠ – ١٢٢٤ ق . م) وولده منبتاح الذى تولى من بعده (١٢٢٤ – ١٢٠٤ ق . م) . وهذا افتراض تقريبي ، ذلك لأن تلك الجماعات لم يرد لها ذكر في كتب التاريخ .

ونرى أن تعليق فرويد على هذه النقطة بالذات يعتبر قمة في الفهم وروعة في اللمح . يقول فرويد : ويبدو لى سؤال « من كان فرعون في وقت حدوث الخروج ؟ » سؤالا فارغا .. **إذ أنه ليس بوسع أى مؤرخ أن ينظر إلى القصة التي ترويها التوراة عن موسى والخروج بأكثر من أنها أسطورة دينية (٢)** ..

يؤكد الأستاذ شفيق مقار نفس المعنى الذى أورده فرويد عندما يقول : **الكثير من حكايات التوراة والعهد القديم لايوجد أى فرق بينه وبين الحكايات الخرافية** ..... ولا شك أن الهدف الديني الأهم الذى ألفت من أجله حكاية الخروج بالشكل الذى وصلتنا به ، كان صنع « إله ملك » للشعب ، وإنشاء ديانة حول شخصية ذلك الإله (٣) .

ويرى بوبر أن هؤلاء الناس ، أى بني إسرائيل ، كانوا دوما يتعطشون إلى حدوث معجزة ، **لذا كانت ذاكرتهم التي تعيد صب الأشياء تسمح لهم بأن يتصوروا أحداثا لم**

(١) شفيق مقار ، ص ٣٩٥
(٢) فرويد ، ص ٨٤ .
(٣) شفيق مقار : ص ٨٩

تحدث أبدا .. وما كان لها أن تحدث أبدا .. كانوا على استعداد لأن يحولوا « الله » نفسه إلى مجرد دجال وساحر ومشعوذ .. وكذا رسوله أيضا (١) .

---

(١) بوبر ، ص ١٢٣

الفصل السابع

التيه والموت

الفصل السابع

التيه والموت

خرج موسى وأتباعه من « يم سوف » ، أى من « بحر البوص » ، وارتحلوا - كما يحكى كتبة التوراة - إلى « برية شور» (١) هنا وجد موسى نفسه على رأس مجموعة متنافرة من البشر ، لاتوافق بينهم ولاتناغم ، لايجمع بينهم سوى هدف واحد وهو أن يصلوا - كما وعدهم - إلى أرض تفيض لبنا وعسلا ، حيث يجلسون عند قدور اللحم يأكلون حتى الشبع ، كما كانوا يفعلون فى أرض مصر ولم يكن تحقيق هذا المطلب بالنسبة لهم ، وبالنسبة لموسى أيضا ، بالأمر اليسير

كان على موسى أول بدء أن يصنع من هذه الجموع المتنافرة شعبا متجانسا ، وأمة متوحدة وما كان لهذا الهدف أن يتحقق فى أيام أو شهور أو حتى فى بضع سنين

لقد قضى موسى ما يقرب من أربعين عاما فى البرية ، يقنن ويشرّع ويعلم ويقوم ، فى محاولة مستميتة كى « يصوغ من تلك الأشتات المتنافرة المنبوذة شعبا يصنع منه أمة » (٢) لكنه غالبا ماكان يقابل بالعصيان والردة ، والتمرد والثورة ، ووصل الأمر أكثر من مرة إلى حد رجمه بالحجارة ولم يكن هذا من جموع «الرعاع» فقط

إن هارون نفسه يقوم بصناعة « العجل الذهبى » كى تسير وراءه الجموع هاتفة هذه هى آلهتك يا إسرائيل وينقلب اللاويون ضد اللاويين ويثور قورح ومعه بعض علية القوم مدعين أن موسى وهارون ليساهما الأفضل ، فلم يستأثران بالزعامة والكهانة دون بقية « بنى إسرائيل » ؟ وتصل الأزمات دروتها عندما تتكلم مريم ومعها هارون ضد مرسى ، وتكون « ثورة » داخلية فى بيت النبى »

ويقابل موسى هذا كله بالحديد والنار يقتل اللاوى اللاوى بحد السيف ، ويباد قورح وأتباعه إبادة كاملة بأن تنشق الأرض حسب حكاية التوراة وتبتلعهم ، أما مريم أخت موسى فتصاب بالبرص عقابا لها على تمردها

---

(١) الجزء الشمالى الغربى من سيناء
(٢) شفيق مقار، ص ١٢٥

ورغم ذلك كله ، وبعد مرور مايقرب من أربعين عاما فى البرية ، لايستطيع موسى أن يصل « بشعبه » إلى الأرض التى وعد بها « يهوه » الآباء والأبناء . إن موسى نفسه يموت على مشارفها ويدفن فى قبر مجهول ، أو ربما لم يدفن على وجه الإطلاق.

لقد دخل موسى - كما يقول الأستاذ شفيق مقار - فى صراع غير متكافئ ظلت غايته توحيد الشراذم التى خرج بها من مصر فى ظل هيكل « يهوه » ، وهو صراع فاجع كان من المحتم أن ينتهى بموسى إلى قبر مجهول طمره قادة الشعب فيه بعد أربعين سنة من ابتداء مأساته بطمره مواطنه المصرى الذى وجده يتشاجر مع « عبرانى » فقتله (١)

وفيما يختص بتنوع الشراذم وتعدد القبائل بين من حاول موسى أن يصنع منهم شعبا ، يقول الدكتور السيد يعقوب بكر : ومن المحتمل أن القادمين الجدد وجدوا إلى جانب الكنعانيين والجماعات غير السامية من السكان ، جماعات عبرية أخرى استقر بها المقام من قبل فى فلسطين فى المنطقة الوسطى ولم تشارك فى حركة الخروج من مصر (٢)

ينفى بوبر الزعم القائل بأن موسى قد قام بقيادة قبائل إسرائيل الإثنى عشر فى خروج إعجازى مهيب ، قاده « يهوه » حاملا شعبه المختار على أجنحة النسور ، ذلك لأن قبائل إسرائيل الإثنى عشر لم يكن لها فى مصر وجود يقول بوبر بالحرف الواحد : **يسود هذه الأيام رأى واسع الانتشار وهو أن قبائل إسرائيل الإثنى عشر لم يكن لها أبدا أى وجود فى مصر ، وأن هذه التى وجدت فى مصر هى : « قبائل يوسف وأتباعهم »** ، وأن هؤلاء اتحدوا فى كنعان لأول مرة مع بقية القبائل فى وحدة إثنى عشرية (٣) ويعتقد بوبر أن هذه الوحدة تمت تحت قيادة يشوع .

مهما يكن من أمر ، فقد كان لزاما على موسى لأن يعد هذه الجموع المتنافرة إعدادا يتسم بالقوة والصلابة ، كى يخلق منها وحدة متماسكة تؤمن فى أعماقها بأن « يهوه » قد اصطفاها كى يكون لها إلها وكى تكون له شعبا مختارا . من أجل هذا كان لابد وأن يكون هناك « عهد» ، مع عزم وحسم وعنف يصل أحيانا إلى حد البتر مع كل من تسول له نفسه الخروج على نصوص « العهد »

ويؤكد أتدرسون نفس الفكرة بقوله إن هؤلاء الذين تبعوا موسى فى «الهروب»

(١) شفيق مقار ، ص ١٣٥
(٢) موسكاتى ، ص ١٤
(٣) بوبر ص ١١٢

من مصر كانوا جماعات متنوعة .. وكما تنص كلمات التوراة « صعد معهم لفيف كثير أيضا » (خروج ١٢ : ٣٨) .. وقد دفعتهم للتكاتف معا رغبة رئيسية مشتركة ، ألا وهي الرغبة في التحرر من العبودية . وكانت هذه الجموع غير المتآلفة ينقصها الوعي بالتماثل ، أي بالهوية الواحدة ، وكذا الإلتزام بأسلوب حياة مشترك من التاريخ الذي يمكن أن يصنع شعبا . وفي برية شبه جزيرة سيناء بدأ موسى يصنع من هذا الخليط الشعب المختار للإله « يهوه » (١) .

ولم يكن هذا بالأمر اليسير ، إذ ماتكاد ان تنقضي على أتباع موسى في الصحراء ثلاثة أيام ، إلا ويبدأون تدمرهم . لم يكن هذا أول تدمر لهم . فقد تذمروا ضد موسى من قبل وطلبوا منه أن يتركهم وشأنهم عندما فشل في لقائه الأول بفرعون ، وكانت النتيجة أن وجد « مدبرو بني إسرائيل أنفسهم في بلية » . لهذا واجهوا موسى وهارون في غضب بقولهم : « ينظر الرب إليكما ويقضي لأنكما أنتنتما رائحتنا في عيني فرعون وفي عيون عبيده حتى تعطيا سيفا في أيديهم ليقتلونا » (خروج ٥ : ١٩ - ٢١) .

لم يضعوا ثقتهم في موسى ولا في إله موسى منذ البداية .

ارتحل موسى وأتباعه من « بحر سوف » إلى برية « شور » (٢) . ساروا لمدة ثلاثة أيام لم يجدوا فيها ماء ، وما حملوه معهم من ماء كان بالطبع لايكفي كل تلك الجموع التي جاء ذكرها في التوراة . وعندما وصلوا إلى بقعة بها بحيرة ماء انتعش أملهم في الشرب حتى الارتواء ، لكنهم لما قربوا الماء وتذوقوه لم يستطيعوا ان يشربوه . كان الماء مرا بسبب كمية الأملاح التي يحتويها . لذا دعى اسم المكان « مارة » . ويرى كاسوتو أنه لايمكن تحديد موقع « مارة » بصورة قاطعة ، وكل مايمكن قوله هو إنه من المحتمل أن تكون بحيرة مياه مرة تقع على بعد مسيرة ثلاثة أيام من البحيرات المرة (٣) .

هنا نفذ صبر أتباع موسى ، ضاقت صدورهم ، لم تعد لهم طاقة على العطش . لقد كانوا في أرض يفيض فيها النيل وتتفجر من جوفها عيون وينابيع وكلها حلو مذاقها

---

(١) أندرسون ص ٨٤

(٢) يقول كاسوتو أنه ربما أطلق عليها هو الاسم بسبب السور أو الحائط : بمعنى السور المحصن الذي كان من المرجح أنه قد تم بناؤه على حدود مصر .

(٣) كاسوتو ، ص ٨٣

ويقول الأستاذ عطاس عبد الملك في هوامش كتابه : إن « مارة » اسم تعرف في الخرائط الطوغرافية باسم « بئر مرة » وهي إلى الجنوب من سفح جبل بهذه التسمية إلى الشمال الشرقي من عيون موسى بمقدار ١١ كيلو متر (ص ٢١٦) .

صرخوا في وجه موسى ، صاحوا في غضب مغلول « ماذا نشرب » ؟وصرخ موسى بدوره إلى الرب ، فأراه - كما تحكي التوراة - « شجرة فطرحها في الماء فصار الماء عذبا » (خروج ١٥ : ٢٤ - ٢٥) .

ويدعي كاسوتو أن الرب أراد أن يلقن بني إسرائيل درسا . إنهم يمرون بموقف مشابه مرّ به المصريون من قبل عندما لم يستطيعوا الشرب من مياه النيل ، بعد أن حول « يهوه » ماءه إلى دم . ثم يرشد الرب موسى بعد ذلك إلى شجرة لها خاصية امتصاص ملوحة الماء وبذلك يسترد الماء عذوبته . وهذه الخاصية - طبقا لشهادة بعض الرحالة - موجودة في بعض أنواع الورد البري الخلية : « الخلنج الشجري » . وهكذا يرتوي العطاش .

والدرس المستوعب من هذه التجربة - في رأى كاسوتو - هو أن « بني إسرائيل» يجب أن يكونوا على علم بحقيقة يقينية وهي أنهم في حاجة إلى الرب .. في حاجة إلى تعاليمه وإرشاده ، وأنهم لن يستطيعوا الوصول إلى غايتهم بمجرد الاعتماد على أنفسهم . وإدراك « الشعب » لهذه الحقيقة ، كان هو وسيلة موسى لإعدادهم روحيا لتقبل « نير » التوراة (١) .

من « مارة » تحرك موسى وأتباعه إلى « إيليم » حيث وجدوا أثنتي عشرة عين ماء وسبعين نخلة . وموقع « إيليم » هو أيضا محل جدل ونقاش ، ويرى كاسوتو أن المكان بصورة عامة يمكن اعتباره إشارة إلى وادي الغرندل في غرب شبه جزيرة سيناء ، حيث يوجد الآن وفرة من الماء وأشجار النخيل (٢) .

في اليوم الخامس من الشهر الثاني بعد خروجهم من مصر - كما يحكي كتبة التوراة - ارتحل موسى وأتباعه من « إيليم » إلى « برية سين » ، وهي تقع مابين إيليم وسيناء . هنا يبدأ التذمر من جديد ضد موسى وهارون . لا من أجل الماء ، ولكن من أجل اللحم : لقد تذكروا ما كانوا ينهشون من لحم وهم يستمتعون بنعيم أرض مصر ، وقارنوا حالتهم تلك أيام الشبع والارتواء والرخاء بما هم فيه في برية سين من جفاف وجوع وضياع . بدأت الهمهمات ، ثم الهمز واللمز ، ثم التذمر الصريح ضد موسى وصاحبه في فيافي الصحراء : « ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر إذ كنا جالسين عند

---

(١) كاسوتو ، ص ١٨٤
(٢) نفس المرجع ، ص ١٨٥

قدور اللحم نأكل خبزا للشبع . فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكى تميتا كل هذه الجموع بالجوع » (خروج ١٦ : ٣) .

من الواضح أن هذه الجموع لم تؤمن بموسى ولابإله موسى . لقد آمنوا فقط بما كان ، أى بحياتهم فى أرض مصر حيث اللحم والخبز والأكل حتى الشبع .. فى تلك الأرض كانوا دوما يتمنون الحياة . أما قيادة موسى وصاحبه فقد أحسوا أنها لن تؤدى بهم إلا إلى الهلاك تحت أشعة الشمس الحارقة ، حيث تتساقط الأجساد وتذوب موتا فوق الرمال الآكلة .

هذه الشكوى بسبب ندرة اللحم ، أو عدم وجوده كلية ، تبدو شديدة الغرابة ، شديدة التناقض مع ماسبق وقصه علينا كتبة التوراة فى سفر « الخروج » عندما أكدوا أن « بنى إسرائيل » قد خرجوا « مع غنم وبقر مواش وافرة جدا » (خروج ١٢ : ٣٨) .

فأين ذهبت كل هذه الأغنام والأبقار الوافرة جدا ؟ أم أن « بنى إسرائيل » بخلوا على أنفسهم بها ، لأنهم تعودوا نهب خيرات الآخرين واكتناز ما يحوزون ؟ وعلى ذلك فهم يريدون أن يتكفل موسى وربه بإطعامهم دون أن يمس ضرع أو حافر مما يملكون !!

الغريب فى الأمر أن إله موسى يستجيب فى الحال ودون أى تردد كى يسكت صراخ « بنى إسرائيل » . إنه يقول لموسى بإعجازية يهوية متفردة : « أنا أمطر لكم خبزا من السماء » (خروج ١٦ : ٤) . هكذا وبكل بساطة سيمطر « الرب » على شعبه المختار خبزا من السماء كى يأكل حتى يشبع وسيكون هذا فى الصباح . أما فى المساء فسوف يعطيهم لحما . هكذا !!

ماذا يريد الشعب المختار أكثر من ذلك ؟ خبز ولحم من السماء ، فى الصباح وفى المساء .. ليأكلوا ويشبعوا . لقد تكفلت السماء بإطعامهم : « وكان فى المساء أن السلوى صعدت وغطت المحلة . وفى الصباح كان سقيط الندى حوالى المحلة . ولما ارتفع سقيط الندى إذا على وجه البرية شئ دقيق مثل قشور . دقيق كالجليد على الأرض . فلما رأى بنو إسرائيل قالوا بعضهم لبعض من هو . لأنهم لم يعرفوا ما هو . فقال لهم موسى هو الخبز الذى أعطاكم الرب لتأكلوا » (خروج ١٦ : ١٣ - ١٥) . ودعا « بنو إسرائيل » اسمه « منا » ، وهو : كبزر الكزبرة أبيض وطعمه كرقاق بعسل » (خروج ١٦ : ٣١) .

بما أنهم يريدون الخبز فقد أعطاهم « المن » ، وبما أنهم مشتاقون إلى اللحم فقد أعطاهم « السلوى » .

والسلوى - كما يقول كاسوتو - هى طيور مهاجرة ، عادة ماتطير بأعداد هائلة فى فصل الربيع من دول الشمال الباردة إلى المناطق الدافئة فى الجنوب ، وتعود ثانية فى الربيع من المناطق الجنوبية إلى مناطق الشمال . وعندما تصل إلى اليابسة ، بعد يوم من الطيران المتواصل فوق البحر ، فإنها تكون فى حالة إعياء كامل ويسهل على الناس إمساكها بأيدهم . وعلى ذلك فإنه عندما جاءت تلك الأعداد الهائلة من السلوى وغطت « المحلة » ، كان من السهل على « بنى إسرائيل » أن يمسكوا بها ويأكلوا لحما حتى يشبعوا . هكذا تحقق الوعد وأكل « بنو إسرائيل » لحما بدأ كما لو قد أسقطته السماء .

وتم تصوير الأمر على أنه إحدى معجزات « يهوه » . وليس مجرد هجرة طبيعية لآلاف الطيور المهاجرة .

أما عن « معجزة » المن ، أو قصة سقوط المن فى البرية فيفسرها كاسوتو على أنها هي الأخرى مجرد ظاهرة طبيعية محلية . ويستشهد كاسوتو برأى س . بود نهيمر S . Bodenheimer الذى تحقق من هذا الأمر فى شبه جزيرة سيناء منذ سنين قليلة . ويرى بودنهيمر أن الخلفية الطبيعية لما بدا لبنى إسرائيل إعجازا يكمن فى حقيقة أن أنواعا معينة من الأرقة (المنة Aphid ، وهى حشرة تمتص عصارات النبات) إلتى عادة ما تعيش على أشجار الطرفاء Tamarisk الموجودة بكثرة فى هذه المنطقة ، تفرز من أجسادها السكر الزائد عن حاجتها . وهى تفرزه فى شكل نقاط سرعان ما تجف فى جو الصحراء الحار وتصبح كريات دقيقة الحجم بيضاء اللون أو صفراء . تلك الكريات تسقط على الأرض حيث تظل إلى أن يصل إليها النمل ، أو يجمعها الناس فى الساعات الأولى من الصباح . والعرب يسمون هذه الكريات « المن » أو « من السماء » (١) .

ويؤكد بوبر هذا الرأى : بقوله إن المن هو عبارة عن إفراز لحشرة « القرمز » Cochiheal insect ، ومذاقه مثل العسل المبلور ، وهو يغطى شجيرات الطرفاء ، ويتساقط على الأرض فى شكل نقاط سرعان ما تتجمد . ولقد استقبله الهائمون الجوعى فى الصحراء على أنه منحة إلهية (٢) .

(١) كاسوتو ، ص ١٩٥ - ١٩٦ .
(٢) بوبر ، ص ٨٠

هكذا أمدت الطبيعة - حسب تفسير كل من كاسوتو وبوبر : بني إسرائيل
بما يقيم أودهم ويكفل لهم استمرار الحياة . لكن موسى يقنعهم بأن ما حدث هو إحدى معجزات السماء .

ارتحلت الجماعة كلها تحت قيادة موسى من برية سين ونزلوا في « رفيديم » التي يقول الأستاذ شفيق مقار إنها غرب خليج السويس (١) ، ويقول كاسوتو إنها إحدى الواحات الصحراوية التي لايمكن تحديد مكانها بالضبط (٢) . هنا يبدأ التمرد من جديد ، وكأن التمرد والعصيان والثورة قد أصبحوا جميعا هم القاسم المشترك الأعظم بين تلك الفلول الشاردة

لم يكن هناك ماء . ويبدأ الخصام مع موسى من جديد . إنه هو المسئول عن خروجهم من مصر - حسب حكاية التوراة - حيث كانوا يرفلون في نعيم من المستحيل أن ينسوه . صرخوا في وجه موسى وهارون : أعطونا ماء لنشرب !! ولايدرى موسى على وجه التحديد ماذا يمكنه أن يفعل . يتساءل : لماذا تخاصمونني ؟ لماذا تجربون الرب ؟ إن الرب - في رأى موسى - هو الذى يجربهم ، وعليهم أن يخوضوا التجربة بنجاح ويثبتوا أنهم جديرون بأن يكونوا شعبا لهذا الرب . لكنهم لايكترثون بهذا المنطق . الشمس حارقة ، والرمال مترامية . والعطش شديد ، وهم لايريدون !! في هذا القفر تتصاعد صرخات التذمر « لماذا أصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش » خروج ١٧ : ٣

الغريب في الأمر أنهم يذكرون مواشيهم التي سوف تموت هي أيضا عطشا ، رغم أنهم في برية سين - أي قبل وصولهم مباشرة إلى رفيديم - كانوا يطالبون موسى بأن يوفر لهم لحما كي لايموتوا جوعا . ولم يكفوا عن صراخهم حتى حملت إليهم الرياح أعدادا لاتحصى من « السلوى »

يتوسل موسى إلى الرب كي يجد له مخرجا . إنه في موقف شديد الحرج شديد الخطورة . وقد يودى هذا التمرد بحياته . إنهم لن يموتوا قبل أن يموت هو ، وتكون نهايته على أيدى الجموع التي قادها إلى هذا الموقف المأساوى . لقد أمسكوا في أيديهم بالحجارة .. عشرات الآلاف يلوحون في الهواء بقطع الحجارة . إعطنا ماء لنشرب .. أو تموت !!

---

(١) شفيق مقار ، ص ٣٤٢
(٢) كاسوتو ، ص ٢٠٩

صرخ موسى إلى الرب قائلا : « ماذا أفعل بهذا الشعب بعد قليل يرجمونني » (خروج ١٧ : ٤) .

كان لابد وأن يجد الرب لموسى مخرجا ، لأنه يجب ألا يموت . والبطل المأساوى حسب القوانين المسرحية أو الروائية يجب ألا يموت إلا فى نهاية الرواية أو المسرحية ، وهذه الحكاية - كما يقصها كتبة التوراة - لم تنته فصولها بعد .

يقول الرب لموسى « مُرَّ قدام الشعب وخذ معك من شيوخ إسرائيل وعصاك التى ضربت بها النهر خذها فى يدك واذهب . ها أنا أقف أمامك هناك على الصخرة فى حوريب فتضرب الصخرة فيخرج منها ماء ليشرب الشعب . ففعل موسى هكذا أمام عيون شيوخ إسرائيل . ودعا اسم الموضع مسة ومريبة من أجل مخاصمة بنى إسرائيل ومن أجل تجربتهم للرب قائلين أفى وسطنا الرب أم لا » (خروج ١٧ : ٥ - ٧)

يجرد الأستاذ شفيق مقار هذه الحادثة من عنصر الإعجاز « اليهوى » ، ويبعدها إبعادا كاملا عن تدخل السلطان الإلهى ، فالأمر كله لم يكن بالنسبة إليه أكثر من صفقة تمت بين موسى وبعض شيوخ إسرائيل لإقناع الشعب بأن الإله فى وسطهم ولن يتخلى عنهم حتى لو جربوه وشكوا فى وجوده . يقول الأستاذ مقار : الذى نفهمه من الحكاية أنه وقع تمرد وأن موسى استعاد سلطته السحرية على الشعب حكيا بأن ضرب صخرة بعصاه فانفجر الماء .. والواقعة طرحت فى الحكى كما لو كانت تدخلا إلهيا من جانب يهوه أنقذ به موسى من تمرد الشعب .. وتقول حكاية الخروج إن موسى فعل ذلك أمام عيون شيوخ إسرائيل ، لا بمرأى من الشعب كله .. مما يشير إلى أن صفقة ما كانت قد عقدت بين موسى وهرون و « شيوخ إسرائيل » ، أى رؤساء العشائر ، أو بعضهم ، تضمنت العثور على عين ماء وشهادة الشيوخ أمام بقية بنى إسرائيل بأن ذلك الماء تفجر من صخرة ضربها موسى بعصاه (١) .

ويقول تاسيتوس Tacitus ، المؤرخ الرومانى الشهير ، فى مقالة له عن أصل الأمة اليهودية ، إن أتباع موسى استلقوا على الرمال وأعدوا أنفسهم للموت ، وذلك لعدم وجود ماء . وفى بحثه المحموم عن الماء رأى موسى قطيعا من الحمر الوحشية مقبلة من حيث كانت ترعى ، واتجهت إلى صخرة تحجبها الأشجار . جرى موسى خلفها فإذا به يصل دون أن يتوقع إلى ينبوع يتدفق منه الماء .

---

(١) شفيق مقار ، ص ٣٤١ - ٣٤٢ .

ويضيف تاسيتوس إنهم - أى اليهود - يضعون تمثالا لذلك الحيوان فى قدس أقداسهم ذلك لأنه هو الذى أنقذهم من العطش والموت (١) .

ويقول أبيون Apion : إن اليهود قد وضعوا رأس حمار فى قدس أقداسهم . ويؤكد أنه قد تم اكتشاف ذلك عندما استولى « أنتيوكس إيفانس Antiochus Epiphanes » على الهيكل ونهب مافيه ، وكان من بين الأسلاب رأس حمار مصنوعة من الذهب الخالص ، تساوى الكثير من المال (٢) .

هذا الكلام يجرد موسى من بطولته الأسطورية ، ويرسمه فى صورة بدوى بائس يائس يجرى وراء مجموعة من الحيوانات البرية التى تقوده بمحض المصادفة إلى ينبوع ماء . وبذلك تلعب الصدفة ، لا المعجزة ، دورا هائلا فى إنقاذه هو ومن معه .

ويعلق أندرسون على التمرد المستمر لأتباع موسى بقوله إن الحرية فى الصحراء كانت بديلا هزيلا « للعبودية » فى مصر ، إذ أنهم فى أكثر من مناسبة كانوا يحنون لقدور اللحم التى تعودوا عليها فى مصر . لقدكانت هناك ندرة فى الماء والطعام .. هذا إلى جانب القبائل الصحراوية المعادية التى كانت تتجول فى المنطقة وتستاء من تطفل هؤلاء الغرباء .. لقد كان هذا الوقت بالنسبة لإسرائيل هو وقت نزاع وصراع وتمرد ضد موسى . وفوق كل هذا وذاك كان هناك نقص فى الإيمان (٣) .

لم يكن التذمر - فى رأى أندرسون - ضد موسى فقط ، بل كان أيضا ضد إله موسى .. وحانت لحظة وضع الشعب فيها « يهوه » موضع الاختبار ، وطالبوا ببرهان على أن له وجودا حقيقيا فيما بينهم (٤) .

كان وجود هؤلاء القادمين الجدد محل استياء بقية القبائل المتواجدة أصلا فى تلك الأنحاء . وكان من الطبيعى أن يبدأ صدام يصل إلى حد القتال . ولقد وفر هذا الموقف على موسى - مؤقتا - الكثير من المشكلات ، إذ انشغل أتباعه بالدفاع عن أنفسهم ضد الإبادة بالسيف . وكانت المعركة الأولى ضد عماليق : « وأتى عماليق وحارب إسرائيل فى رفيديم . فقال موسى ليشوع انتخب لنا رجالا وأخرج حارب عماليق » (خروج ١٧ : ٨ - ٩) .

---

(١) يوسيفوس ، ص ٦٢٦ .
(٢) نفس المرجع ، ص ٦٢٦ .
(٣) أندرسون ، ص ٨٥ .
(٤) نفس المرجع ص ٨٦ .

وعماليق هم جماعة من البدو يعيشون حياة ترحال فى البادية جنوب كنعان . كان على عماليق أن يوقفوا تقدم موسى وأتباعه ، بعد أن سمعوا أنه ومن معه بدأوا يشقون طريقهم تجاه كنعان . لابد من إيقافهم فى بداية الطريق . إن الرزق فى الصحراء محدود ، وانتزاع لقمة خبز أو شربة ماء من فم قاطن الصحراء معناها أن يموت . إن عماليق تحارب فى سبيل بقائها .

كان موسى قد تقدم فى السنين .. تخطى الثمانين .. لم يكن بمقدوره أن يقود معركة بنفسه . لذا فقد اختار يشوع بن نون ، أخلص أتباعه وحارس خيمته الخاص فيما بعد ، كى ينتقى أشداء الرجال ويخرج لملاقاة عماليق . لم يكن هناك مهرب من القتال . إما أن تأكلهم رمال الصحراء ، أو تأكلهم سيوف عماليق ، أو ينتصروا وتكتب لهم الحياة .

يلعب موسى دوره فى المعركة ، رغم أنه لايحمل سيفا ولا يتقدم الصفوف . إنه يقف على رأس التلّة وفى يده « عصا الله » التى فعلت من قبل « الأعاجيب » : « وأما موسى وهرون وحور فصعدوا على رأس التلة . وكان إذا رفع موسى يده أن إسرائيل يغلب وإذا خفض يده أن عماليق يغلب . فلما صارت يدا موسى ثقيلتين أخذا حجرا ووضعاه تحته فجلس عليه . ودعم هرون وحور يديه الواحد من هنا والآخر من هناك . فكانت يداه ثابتتين إلى غروب الشمس . فهزم يشوع عماليق وقومه بحد السيف » (خروج ١٧ : ١ - ١٣) .

لم ينس « بنو إسرائيل » مافعله بهم عماليق وهم فى بداية الطريق ، فكان العداء أبديا ورغبة القضاء على عماليق قضاء مبرما أمنية قومية ، بل وواجبا وطنيا لابد وأن يحققه جيل من « أجيال بنى إسرائيل » مهما طال الوقت ومهما كان الثمن ، حتى حدث ذلك فى عهد الملك شاول Saul ، وتحقق وعد الرب - كما يقول كتبة التوراة - بأن تمحى ذكرى عماليق من الوجود .

كان لابد وأن تنتشر أخبار موسى وقومه عبر الصحراء وكان لابد وأن يسمع بها يثرون كاهن مديان . وعلى ذلك فقد ارتحل يثرون ، إلى حيث كان موسى وأتباعه فى البرية عند « جبل الله » ، مصطحبا معه زوجة موسى « صفورة » وولديه جرشوم وأليعازر ويبدو أن موسى فى خضم الأحداث الجسام كان قد نسى زوجته وولديه .

وإن كان موسى قد نسى ، فإن كاهن مديان لم ينس . إنه لايزور موسى بصفته الكهنوتية ، ولكن بصفته أب لزوجة وجد لولدين ، كان عليه أن يسلمهم لمن هو أولى منه بالحب والرعاية .

ويؤكد « الأصحاح » الثامن عشر من سفر « الخروج » هذه الصفة بصورة مثيرة للانتباه ، فيشير إلى يثرون بصفة « حمى موسى» ما يزيد عن اثنتى عشرة مرة فيما يقل عن صفحتين ، وكأنه يريد أن ينفى عنه أو يجرده تماما فى وجود « النبى » من صفته الكهنوتية : « فأخذ يثرون حمو موسى صفورة امرأة موسى .. » ، « وأتى يثرون حمو موسى وابناه وامرأته إلى موسى .. » ، « فقال لموسى أنا حموك يثرون آت إليك وامرأتك وابناها معها .. » ، « فخرج موسى لاستقبال حميه .. » ، « فقص موسى على حميه .. » ، « فأخذ يثرون حمو موسى محرقة وذبائح لله .. » ، « فلما رأى حمو موسى ما هو صانع للشعب .. » ، « فقال حمو موسى له ليس جيدا الأمر الذى أنت صانع » ، « فسمع موسى لصوت حميه .. » ، « ثم صرف موسى حماه فمضى إلى أرضه » (خروج ١٨ : ١ - ٢٧) .

عندما وصل يثرون إلى مشارف الخيام أرسل إلى موسى رسالة بواسطة أحد الحراس : أنا يثرون حموك وامرأتك وابناها معا . فخرج موسى لاستقبال حميه ، « وسجد له وقبله » ثم دخل الشيخ وتلميذه السابق إلى الخيمة ، حيث قص عليه موسى كل مامر به وبأتباعه من مشقة وصعاب .. كيف خلصهم الرب من « جبروت » فرعون ، وكيف شق البحر ، وكيف أهلك الأعداء .. ثم ماجرى فى الصحراء من نقص الغذاء وندرة الماء .. إلى حربهم ضد عماليق .

فرح يثرون بكل ماسمع ، وعبر عن ابتهاجه وشكره بطريقة عملية ، وذلك بأن قام وذبح ، وقدم ذبائحه محرقات على مذبح الرب : « فأخذ يثرون حمو موسى محرقة وذبائح لله . وجاء هرون وجميع شيوخ إسرائيل ليأكلوا طعاما مع حمى موسى أمام الله » (خروج ١٨ : ١٣) .

وتقديم يثرون محرقة وذبائح « لله » ، واشتراك موسى وهرون وجميع شيوخ « إسرائيل » فى هذه الوليمة معناه ببساطة شديدة هو أن الإله الذى أتى به موسى كى يقدسه بنو إسرائيل ويتقدسون به ، هو نفس إله يثرون وقبيلته المديانية ، وأن يثرون نفسه

، حما موسى ، هو كاهن يهوه (١) . وطبقا لهذه النظرية ، فإن موسى - بعد هربه من مصر - يكون قد تتلمذ على يد حميه لمدة أربعين عاما ، ثم عاد إلى مصر كى يبشر بذلك الإله الجديد الذى أتى به من أرض مديان بين تلك « الشراذم » المنبوذة .

فى اليوم التالى للقربان الذى قدمه يثرون ، والوليمة التى أقامها لموسى وهارون وشيوخ إسرائيل ، لاحظ يثرون أن موسى يجلس طوال اليوم للقضاء ، أى ليحكم بين الناس ويقضى فيما شجر بينهم من منازعات ، وكذلك ليوصل لهم أحكام الرب وتعاليمه : « وحدث فى الغد أن موسى جلس ليقضى للشعب فوقف الشعب عند موسى من الصباح إلى المساء » (خروج ١٨ : ١٣) . موسى جالس ، والشعب كله واقف ، من الصباح إلى المساء .. هذه بالطبع مبالغة صغيرة إذا ما قورنت ببقية مبالغات كتبة التوراة .

يقدم كاهن مديان نصيحته لزوج ابنته ، يوجهه ويعلمه كما كان يفعل أيام كان موسى لاجئا فى أرض مديان .. والكاهن العجوز حكيم بحكم السن والتجربة والكهانة إن مايقوم به موسى أكبر من كل طاقاته وأعظم من كل مقدراته ، وعلى ذلك فلايجب عليه أن يقوم بذلك وحده : « الآن استمع لصوتى فأنصحك » : هذا مايقوله « الكاهن » لـ « النبى » . وماكان على « النبى » إلا أن يستمع لصوت « الكاهن » .. ذلك لأنه أكبر سنا ، وأعمق خبرة فى حكم القبائل ، وأطول باعا فى علم الكهنوت .

على موسى أن يكرس وقته وجهده لتعليم « الشعب » الفرائض والشرائع وأن يكون الواسطة بينهم وبين الله : « كن أنت للشعب أمام الله . وقدم أنت الدعاوى إلى الله » (خروج ١٨ : ١٩) . أما عن شكاوى الناس العادية ومنازعاتهم اليومية ، فعلى موسى أن يختار من بين أتباعه أناسا ذوى قدرة وخشية من الله واستقامة فى الخلق ، كى يقوموا بأعمال القضاء ، أى بالفصل فى كل الدعاوى التى يقدرون عليها ، أما الدعاوى الكبيرة ، أى مالا يقدرون عليه ، فعليهم بالرجوع بها إلى موسى كى يفصل فيها وينفذ حكم الله .

نصح الشيخ « الكاهن » تلميذه « النبى » بأن يقيم على الشعب رؤساء ألوف ، ورؤساء مئات ، ورؤساء خماسين ، ورؤساء عشرات .. ويقوم هؤلاء الرؤساء بالقضاء بين الناس . هكذا علّم الشيخ تلميذه نظام تعيين القضاة .

---

(١) بوبر ، ص ٩٥ .

ماكان على « التلميذ » إلا أن يستجيب بعد أن استمع إلى صوت الحكمة فى كلمات الكاهن العجوز : « فسمع موسى لصوت حميه وفعل كل ماقال . واختار موسى ذوى قدرة من جميع إسرائيل وجعلهم رؤساء على الشعب رؤساء ألوف رؤساء مئات ورؤساء خماسين ورؤساء عشرات . فكانوا يقضون للشعب كل حين . الدعاوى العسرة يجيئون بها إلى موسى وكل الدعاوى الصغيرة يقضون هم فيها » (خروج ١٨ : ٢٤ - ٢٦) .

وبعد أن أدى الشيخ الكاهن مهمته ولقن تلميذه وزوج ابنته الدرس الأخير ، استأذن فى العودة إلى قومه . فخرج موسى معه .. اصطحبه بعض الطريق .. ثم ودعه . وكان هذا آخر لقاء بين « الكاهن » و « النبى » : « ثم صرف موسى حماه فمضى إلى أرضه » (خروج ١٨ : ٢٧) .

فى الشهر الثالث بعد خروج « بنى إسرائيل » من أرض مصر - كما يقول كتبة التوراة - جاءوا إلى برية سيناء ، ونزلوا هناك مقابل الجبل .

هنا ، فى هذه المنطقة ، أى فى برية سيناء ، أمام جبل الله الذى يعرف أحيانا باسم جبل سيناء ، وأحيانا أخرى باسم جبل موسى ، يبدأ إرساء قواعد « العهد » بين الإله يهوه وأتباع موسى الذين يطلق عليهم كتبة التوراة اسم « بنى إسرائيل » . ويقول كاسوتو إن جبل سيناء المذكور فى التوراة لايمكن تحديد مكانه بالضبط ، وربما يكون هذا الموقع قد تم إخفاؤه عن قصد كى لايقال : هنا تجلى الرب ونزل أمام عيون « شعب إسرائيل » (١) .

صعد موسى إلى الرب ، أى تسلق الجبل . والغريب فى الأمر هنا أن موسى يصعد إلى الرب دون أن يطلب منه ذلك ، أى دون استئذان ، رغم مافى ذلك من خطورة فالجبل « مقدس » ، وكل من يصعد إلى الجبل ، أو حتى يمس طرفه ، يموت : « كل من يمس الجبل يقتل قتلا » (خروج ١٩ : ١٢) .

صعد موسى دون وجل ، وسمع صوت الرب يناديه من قلب الجبل .. حمله رسالة « لبيت يعقوب » ، يرسى فيها « يهوه » دعائم العلاقة الأبدية بينه وبين «الشعب» : « هكذا تقول لبيت يعقوب وتخبر بنى إسرائيل . أنتم رأيتم ماصنعت بالمصريين.وأنا

(١) كاسوتو ، ص ٢٢٥ .

حملتكم على أجنحة النسور وجئت بكم إلى فالآن إن سمعتم لصوتى وحفظتم عهدى تكونون لى خاصة من بين جميع الشعوب فإن كل الأرض لى وأنتم تكونون لى مملكة كهنة وأمة مقدسة » (خروج ١٩ : ٣ -٦) .

وكما يقول « ديلى » ، لهذا « العهد » صفة الشرط والصفقة ، به يتعهد « إسرائيل » أن يطيع الرب فى كل أوامره ، وبه أيضا يتعهد الرب مقابل ذلك أن يتخذ من إسرائيل شعبا مختارا . لكن إذا ما نقض اسرائيل العهد ، أصبح الرب هو أيضا فى حل من كل ما وعد به . ويرى « ديلى » أنه بهذا العهد ، خلق موسى شعبا جديدا هو الشعب العبرانى الذى سيسمى بعد « سبى بابل » بالشعب اليهودى (١).

يؤكد هيتون Heaton نفس الرأى بقوله إن العهد كان مشروطا بالإخلاص الروحى والأخلاقى لإله إسرائيل ، فإن حادوا عن تقواهم وتمسكهم بكلمات الرب ، يصبح العهد فى هذه الحالة لاغيا كأن لم يكن ، ويغدو تميز بنى إسرائيل مجرد نظرية جوفاء (٢) .

هذا « العهد » - من وجهة نظر بوبر - يعبر عن فكر موسى الدينى والسياسى ، أى عن مفهومه للعلاقة بين « يهوه » وإسرائيل ، التى لايمكن إلا أن تكون « سياسية » فى واقعها التطبيقى (٣) .

ومن المحتمل أن يقال إن هذا « العهد » لا ضرورة له ، لو كان « يهوه » هو حقا إله الآباء ، أى إله « إسرائيل » قبل ظهور موسى ، ذلك لأنه طبقا لهذا المفهوم - يهوه إله الآباء - يكون يهوه حقا وصدقا هو إله إسرائيل وإسرائيل هو شعب يهوه ، ولاضرورة فى هذه الحالة لميثاق .

إن الميثاق لايعقد إلا بين الغرباء أو من تتعارض مصالحهم . وعقد هذا الميثاق معناه أن يهوه وإسرائيل غرباء ، أى أن يهوه لم يكن هو إله الآباء .

ويرد بوبر على الاحتمال السابق بقوله إن يهوه وإسرائيل يدخلان فى علاقة جديدة بعقد هذا « العهد » .. علاقة لم يكن لها وجود من قبل ، وما كان من الممكن

---

(١) ديلى ، ص ١٥٢ .

(2)E.W. Heaton , The Old Testament Prophets , . elican Book , R& R. Clark Ltd , Edinburgh . 1961 , P70 .

(٣) بوبر ، ص ١٠١ .

أن يكون لها وجود .. ذلك لأن إسرائيل كدولة ، تستطيع أن تختار لها ملكا وتخضع له، لم تقم لها قائمة إلا فى تلك الساعة (١) .

وكما هو واضح فى النص ، « العهد » مشروط : « إن استمعتم لصوتى وحفظتم عهدى » ، أى إن اتبعتم تعاليمى ووصاياى ولم تحيدوا عنها ، « تكونون لى خاصة من بين جميع الشعوب » . فبالرغم من أن يهوه يعلن صراحة أن « كل الأرض » له ، أى أنه مالك الملك ، إلا أنه يصطفى هذا الشعب لنفسه اصطفاءً خاصا : « أنتم تكونون لى مملكة كهنة وأمة مقدسة » . وهذا – كما يقول أندرسون – مزج غريب بين الخاص والعام : ملكوت يهوه لاحدود له ، لكنه يختار شعبا واحدا ، لا ليميزه فقط ، ولكن ليكلفه بأن يصبح « مملكة كهنة » ، بمعنى أن يصبح مجتمعا خاصا منفصلا عن العالم كله ، مكرسا لخدمة الرب (٢) .

ربما يكون هذا الاعتقاد – كما يقول كارل ماركس – هو الذى دفع اليهودى فى أية دولة ، ألا يقف من هذه الدولة إلا موقف اليهودى ، أى موقف الغريب : إنه يعارض القومية الحقيقية بقوميته الوهمية ، ويقابل القانون الحقيقى بقانونه الخيالى . إنه يظن أن من حقه الانفصال عن سائر البشر .. وهو لايشارك مبدئيا فى الحركة التاريخية .. إنه يطمح إلى مستقبل ليس بينه وبين المستقبل العام للإنسان أية سمة مشتركة .. وهو يعتبر نفسه بمثابة عضو من الشعب اليهودى ويرى أن الشعب اليهودى هو الشعب المختار (٣) .

ويرى الأستاذ شفيق مقار أن الإحساس بالتفاهة والضآلة والضياع ، هو الذى دفع موسى إلى أن يطلب من ربه أن يجعل منه ومن شعبه أمة مختارة ، تفوق كل أمم الأرض فى اصطفائها وتميزها . يقول الأستاذ مقار : إن مشاعر الضآلة والضياع التى لازمت أولئك الرعاة الرحل وهم يتشردون تائهين بين أوطان أقوام متحضرة مستقرة فى أراضيها رافضة لهم ، كارهة لمجرد مرورهم بأراضيها ، دع عنك عيشهم بين ظهرانيها ، هو مايفسر لنا لماذا عنى موسى بأن يطلب إلى يهوه صراحة هذا الطلب الغريب : « فنمتاز أنا وشعبك على جميع الشعوب الذين على وجه الأرض » (خروج ٣٣ : ١٦) ، فأرسى بذلك مفهوم « الشعب المختار » المميت (٤) .

---

(١) بوبر ، ص ١٠٤
(٢) أندرسون ، ص ٩٢ .
(٣) كارل ماركس ، المسألة اليهودية ، مكتبة دار الجيل ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٧
(٤) شفيق مقار ، ص ٣٤ .

وضع موسى - حسب حكاية التوراة - كلمات الرب أمام الشعب ، أى عرض عليهم « العهد » وما التزم به « يهوه » مقابل طاعتهم له وتمسكهم بما يفرضه عليهم من وصايا وشرائع وأحكام .

وافق « الشعب » على كلمات الرب ، لم يعترض أحد : « كل ما تكلم به الرب نفعل » (خروج ١٩ : ١٧) . هذا معناه أنه قد تم قبول « العهد » . عندها قرر « الرب » أن يتجلى أمام عيون « جميع الشعب » على جبل سيناء .

كان لزاما على « الشعب » أن يتقدس ، أن يتطهروا جميعا لمدة يومين كاملين ، ويغسلوا ثيابهم أيضا .. ويكونوا على استعداد للقاء الرب في اليوم الثالث : « لأنه في اليوم الثالث ينزل الرب أما عيون جميع الشعب على جبل سيناء » (خروج ١٩ : ١١)

هناك حدود لابد وأن يعرفها الجميع : غير مسموح لأحد أن يصعد إلى الجبل .. غير مسموح لأحد حتى أن يمس طرفه .. « كل من يمس الجبل يقتل قتلا . لاتمسه يد بل يرجم رجما أو يرمى رميا . بهيمة كان أو إنسانا لايعيش . أما عند صوت البوق فهم يصعدون إلى الجبل » (خروج ١٩ : ١٢ - ١٣) .

هكذا استعد « الشعب » لليوم الثالث .. غسلوا ثيابهم .. تطهروا .. لم يقربوا النساء .. انتظارا لظهور الرب .

في صباح اليوم الثالث فوجئ « الشعب » ببروق ورعود وسحاب كثيف ، وصوت بوق .. كان الجبل كله ملفوفا بالدخان .. نزل عليه الرب بالنار .. ارتجف الجبل وازداد اشتداد صوت البوق .. الشعب يرتعد أسفل الجبل .. نزل الرب على رأس الجبل موسى يتكلم .. الرب يجيبه بصوت من أعلى القمم .

دعا الرب موسى أن يصعد فصعد . طلب منه الرب أن ينحدر .. يحذر الشعب من أن يقتحم الجبل فيسقط منهم كثيرون : « إذهب إنحدر ثم اصعد أنت وهرون معك وأما الكهنة والشعب فلا يقتحموا ليصعدوا إلى الرب لئلا يبطش بهم » (خروج ١٩ : ٢٤ - ٢٥) .

هذا التجلى الربانى على جبل سيناء ، كما صوره كتبة التوراة بأسلوب درامى عالى النغمة عميق الإيقاع ، دفع بعض الدارسين إلى تفسير ماصحب « الرب » من نار

ودخان وبرق ورعود ، بأن جبل سيناء كان جبلا بركانيا ، وأن ماحدث هو مجرد ظاهرة طبيعية لاصلة لها بالتجلي الإلهى .

لكن أندرسون يفسر الحدث ويضفي عليه رؤية مختلفة ، يقول : إنه لأمر بالغ الدلالة أن تستخدم إسرائيل صورا دينية تبعد كل البعد عن جمال الطبيعة وهدوئها وتناغمها ، وتعتمد فى جوهر عقيدتها على العواصف المدمرة التى تزلزل الأرض ، كى تبعث فى أعماق الإنسان إحساسا بقوة وجبروت الذات الإلهيه ، وضعف وتضاؤل الحياة البشرية (١) .

كان على الشعب أن يستمع إلى المبادئ الأساسية التى يقوم عليها « العهد » هنا - كما يقول كاسوتو - تهدأ قوى الطبيعة تعظيما للمجد الربانى . ومن خلال السكون المحير الذى سيطر على الكون بعد هدوء العاصفة المرعبة ، يسمع صوت الرب الذى يتحدث إلى شعبه ، كى يحيط الجميع بالمبادئ الأساسية لتوراته (٢) .

يقول يوسيفوس إن موسى بعد أن تحدث إلى « بنى إسرائيل » عن أمجاد الرب وما أسداه إليهم من معروف وما فعله من أجلهم من معجزات ، طلب منهم أن يقتربوا من الجبل هم ونساؤهم وأطفالهم ، كى يستمعوا إلى كلمات الرب نفسه وهو يتحدث إليهم عن التعاليم التى يجب عليهم أن يتبعوها ويعملوا بها ، وهى كلمات يجب ألايتفوه بها إنسان لأنه لايقدر على ذلك مهما بلغ من أعلى درجات الكمال . وسمعوا جميعا صوتا جاءهم من علٍ ، أى من أعلاهم . ولم تفتهم كلمة واحدة من تلك الكلمات التى كتبها موسى على لوحين (٣) .

ويورد يوسيفوس ماقال به الرب فى وجود كل « إسرائيل » وعلى مسمع منهم جميعا ، وما كتبه موسى على لوحين ، فى صورة الوصايا العشر التالية :

١ - لايكن لك آلهة أخرى أمامى .

٢ - لاتصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما

٣ - لاتنطق باسم الرب إلهك باطلا

٤ - أذكر يوم السبت لتقدسه . ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك . وأما

---

(١) أندرسون ، ص ٩٢ -٩٣ .
(٢) كاسوتو ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .
(٣) يوسيفوس ، ص ٧٠ .

اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك .

٥ - أكرم أباك وأمك .

٦ - لا تقتل .

٧ - لا تزن

٨ - لا تسرق .

٩ - لا تشهد على قريبك شهادة زور .

١٠ - لا تشته بيت قريبك . (خروج ٢٠ : ٣ - ١٧) .

يؤكد يوسيفوس أن الرب قد نطق بكل هذه الوصايا أمام الشعب ، سمعها الجميع ، وكتبها موسى على لوحين . بعدها خاف الشعب جدا .. ارتعدوا « وقالوا لموسى تكلم أنت معنا فنسمع ولايتكلم معنا الرب لئلا نموت » (خروج ٢٠ : ١٩) .

اقترب موسى من الضباب - كما تقول حكاية التوراة - ووقف الشعب ينظر وينتظر .. من بعيد ، وبالطبع لايدرى شيئا عما يحدث أو يقال .

يطلب الرب من موسى أن يبنى له مذبحا من تراب أو من حجارة غير منحوته تذبح عليه المحرقات وذبائح السلامة من غنم وبقر ، ثم يتلو عليه مجموعة من الأحكام التى كان على موسى أن يبلغها لبنى إسرائيل ، ومن أهمها :

١ - إذا اشتريت عبدا عبرانيا فست سنين يخدم وفى السابعة يخرج حرا مجانا . إن دخل وحده فوحده يخرج . إن كان بعل امرأة تخرج امرأته معه .

٢ - من ضرب إنسانا فمات يقتل قتلا . ولكن الذى لم يتعمد بل أوقع الله فى يده فأنا أجعل لك مكانا يهرب إليه . وإذا بغى إنسان على صاحبه ليقتله بغدر فمن عند مذبحى تأخذه للموت .

٣ - من ضرب أباه أو أمه يقتل قتلا .

٤ - من شتم أباه أو أمه يقتل قتلا .

٥ - من سرق إنسانا وباعه أو وجد فى يده يقتل قتلا .

٦ - إذا تخاصم رجال وصدموا امرأة حبلى فسقط ولدها ولم تحصل أذيه يُغْرم كما يضع عليه زوج المرأة ويدفع عن يد القضاة . وإن حصلت أذية تعطى نفسا بنفس وعينا بعين وسنا بسن ويدا بيد ورجلا برجل وكيا بكى وجرحا بجرح ورضا برض .

٧ - إذا نطح ثور رجلا أو مرأة فمات يرجم الثور ولا يؤكل لحمه . وأما صاحب الثور فيكون بريئا . ولكن إذا كان ثورا نطاحا من قبل وقد أشهد على صاحبه ولم يضبطه فقتل رجلا أو امرأة فالثور يرجم وصاحبه أيضا يقتل .

٨ - إذا سرق إنسان ثورا أو شاة فذبحه أو باعه يعوِّض عن الثور بخمسة ثيران وعن الشاة بأربعة من الغنم . إن وجد السارق وهو ينقُب فضرب ومات فليس له دم .

٩ - إذا رعى إنسان حقلا أو كرما وسرَّح مواشيه فرعت فى حقل غيره فمن أجود حقله وأجود كرمه يعوِّض .

١٠ - إذا أعطي إنسان صاحبه فضة أو أمتعه للحفظ فسرقت من بيت الإنسان فإن وجد السارق يعوض باثنين وإن لم يوجد السارق يقدم صاحب البيت إلى الله ليحكم هل لم يمد يده إلى ملك صاحبه .

١١ - إذا راود رجل عذراء لم تخطب فاضطجع معها يمهرها لنفسه زوجة . إن أبى أبوها أن يعطيه إياها يزن له فضة كمهر العذارى .

١٢ - لا تدع ساحرة تعيش .

١٣ - كل من اضطجع مع بهيمة يقتل قتلا .

١٤ - من ذبح لآلهة غير الرب وحده يُهلك .

١٥ - لا تُسِئْ إلى أرملة ما ولا يتيم . إن أسأت إليه فإنى إن صرخ أسمع صراخه . فيحمى غضبى وأقتلكم بالسيف . فتصير نساؤكم أرامل وأولادكم يتامى .

١٦ - لا تسب الله . ولا تلعن رئيسا فى شعبك .

١٧ - أبكار بنيك تعطينى . كذلك تفعل ببقرك وغنمك سبعة أيام يكون مع أمه وفى اليوم الثامن تعطينى إياه .

١٨ - ابتعد عن كلام الكذب ولا تقتل البرئ والبار .. ولا تأخذ رشوة .

١٩ – ست سنين تزرع أرضك وتجمع غلتها .. وأما في السابعة فتريحها وتتركها ليأكل فقراء شعبك .

٢٠ – ستة أيام تعمل عملك . وأما اليوم السابع ففيه تستريح لكي يستريح ثورك وحمارك ويتنفس ابن أمتك والغريب .

٢١ – ثلاث مرات تعيِّد لي في السنة . تحفظ عيد الفطير . تأكل فطيرا سبعة أيام كما أمرتك في وقت شهر أبيب . لأنه خرجت فيه من مصر .. وعيد الحصاد أبكار غلاتك التي تزرع في الحقل . وعيد الجمع في نهاية السنة عندما تجمع غلاتك في الحقل .

٢٢ – لا تطبخ جديا بلبن أمه (١) .

يقول كتبة التوراة : إن موسى « كتب جميع أقوال الرب » (خروج ٢٤ : ٤) .

هنا يثار سؤال : بأية لغة كتب موسى جميع أقوال الرب ؟ هل كتبها باللغة المصرية القديمة ، أي باللغة الهيروغليفية التي تعلمها قراءة وكتابة في بلاط فرعون ، أم كتبها بلغة « إسرائيل » ؟ هذا مع ملاحظة أن جهابذة العلماء – كما يقول الأستاذ عصام الدين حفني ناصف – أجمعوا على أن بني إسرائيل لم يعرفوا القراءة والكتابة إلا منذ القرن التاسع قبل الميلاد ، وعلى أن لغتهم ظلت إلى القرن السابع الميلادي خلوا من علامات الإعجام والضبط أي الشكل الذي يقوم مقام أحرف العلة لخلو اللغة العبرية منها ، وقد نقل اليهود هذه العلامات عن العرب الذين ابتدعوها لضبط القرآن (٢) .

هناك نقطة أخرى مثيرة للتساؤل فيما يختص بالوصايا العشر :

هل تليت على موسى فكتبها ، لأنه « كتب جميع أقوال الرب » ، أم سلمت إليه مكتوبة ولم يقم هو بكتابة كلماتها ؟

هنا تختلف الإجابة ، ويبدو شئ من التناقض فيما خطته أقلام كتبة التوراة .

يقول يوسيفوس إن الوصايا العشر تليت على موسى بصوت الرب أمام كل إسرائيل ، ولم تفتهم كلمة واحدة من تلك الكلمات التي كتبها موسى على لوحين من الحجارة (٣) . وهذا الرأي يؤيده ما جاء في بداية الأصحاح العشرين من سفر الخروج :

---

(١) انظر (خروج ١ : ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣) .
(٢) عصام الدين حفني ناصف : **محنة التوراة على أيدي اليهود** ، ص ٩٣
(٣) يوسيفوس ، ص ٧٠ .

« ثم تكلم الرب بجميع هذه الكلمات قائلا .. » ، « وهذه الكلمات » هى الوصايا العشر وما تلاها من أحكام تستمر حتى بداية الأصحاح الرابع والعشرين ، حيث يحاط القارئ علما بأن موسى كتب « جميع أقوال الرب » .

لكن الأصحاح الحادى والثلاثين من نفس السفر ينص بوضوح على أن الرب ، بعد أن فرغ من الحديث مع موسى فى جبل سيناء ، أعطاه لوحي الشهادة وهما « لوحى حجر مكتوبين بأصبع الله » (خروج ٣١ : ١٨) .

وفى الأصحاح الثانى والثلاثين من نفس السفر ينزل موسى من الجبل ولوحا الشهادة فى يده : « لوحان مكتوبان على جانبيهما من هنا ومن هنا كانا مكتوبين . واللوحان هما صنعة الله والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين » (خروج ٣٢ : ١٥ - ١٦) .

ولا يدرى أحد بالطبع كيف كتب « الرب » كلماته ولا بأية لغة كتبها ، كما أنه لايدرى أحد كيف كتب « الرب » بأصبعه على لوحي الحجر ؟ هل غاص أصبعه المقدس فى الحجر فنقش الكلمات نقشا أو حفرها حفرا ؟ أم أن أصبعه حل محل القلم فكتب على الحجر بمداد لا نعرفه ؟ ثم لماذا أجهد « الرب » نفسه فاستخدم أصبعه فى الكتابة على الحجر ؟ ألم يكن من الأيسر له أن يقول للكلمات : « كن » فتكون ، سواء كان ذلك على الحجر أو على الماء أو حتى على صفحة السماء ؟

يفسر كاسوتو عبارة « أصبع الله » بقوله : لقد تمت صياغة النص بعناية فائقة . إن التوراة لا تقرر أن اللوحين « كتبا بيد الله » ، ولكن كتبا « بأصبع الله » ، وذلك كى تخبرنا بطريقة شديدة الدلالة على أن الكتابة كانت لها قدسيتها وأنها نبعت من عالم الرب . وأصبع الله هنا تشير إلى المقدرة الإلهية ، فكل من يكتب لا يستخدم أصبعا واحدا بل يستخدم اليد بأكملها أو أصبعين على الأقل .. وعلى ذلك فالعبارة لا تشير إلى كلمات تمت كتابتها بالفعل .. فلا يمكن أن يعزى فعل له هذه الطبيعة المادية إلى ذات الرب (١) . ويضيف كاسوتو أن الكتابة على اللوحين كانت من كلا الوجهين ، وأن حجمهما لم يكن كبيرا أو سميكا ، وكان باستطاعة موسى أن يحملهما فى يده ، كما كان من السهل تكسيرهما ويمكن افتراض أن طولهما كان حوالى ثلاثين سنتيمترا ، وكذا عرضهما وسمكهما (٢)

(١) كاسوتو ، ص ٤٠٥ .
(٢) نفس المرجع ، ص ٤١٧ .

ويرى بوبر أن موسى نفسه هو الذى كتب على اللوحين : ما شعر به عن طريق الحواس ، خطه فى كلمات.بذلك كان موسى نفسه هو أصبع الله (١) .

وقصة الكتابة على اللوحين ترد فى التوراة فى صور مختلفة ، ففى الحكاية التى رواها يوسيفوس ، وسبق ذكرها ، كتب موسى الوصايا العشر وقد أمليت عليه من الرب أمام أعين جميع إسرائيل . وفى رواية أخرى يستدعى الرب موسى إلى قمة الجبل كى يسلمه اللوحين وقد كتبت عليهما الوصايا بأصبع الله : « وقال الرب لموسى اصعد إلى الجبل وكن هناك . فأعطيك لوحى الحجارة والشريعة والوصية التى كتبتها لتعليمهم » (خروج ٢٤ : ١٢) . وبعدما حطم موسى اللوحين فى غضب ، عندما وجد قومه يحتفلون بالعجل الذى صنعه هارون ، يطلب منه الرب أن ينحت لوحين من حجر مثل الأولين كى يكتب الرب عليهما الكلمات التى كانت على اللوحين الأولين : « فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التى كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما » (خروج ٣٤ : ١) .

ورغم أن الرب وعد موسى بأن يكتب الكلمات بنفسه : « فأكتب أنا على اللوحين » ، إلا أنه لايفعل ذلك ، ويطلب من موسى أن يقوم هو بكتابة الكلمات : « وقال الرب لموسى اكتب لنفسك هذه الكلمات . لأننى بحسب هذه الكلمات قطعت عهدا معك ومع إسرائيل .. فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر » (خروج ٣٤ : ٢٧ - ٢٨) .

ثم يعود كتبة التوراة إلى التناقض مرة أخرى عندما يقولون فى سفر « التثنية » أن الرب نفسه وليس موسى هو الذى كتب الكلمات . يقول موسى « لبنى إسرائيل » وهو يستعيد أحداثا ماضية ، عندما رأى العجل الذى صنعه هارون وكسّر اللوحين فى غضب : « ذلك الوقت قال لى الرب انحت لك لوحين من حجر مثل الأولين واصعد إلى الجبل واصنع لك تابوتا من خشب فأكتّب على اللوحين الكلمات التى كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما وتضعهما فى التابوت . فصنعت تابوتا من خشب السنط ونحت لوحين من حجر مثل الأولين وصعدت إلى الجبل واللوحان فى يدى . فكتب على اللوحين مثل الكتابة الأولى الكلمات العشر » (تثنيه ١٠ : ١ - ٤) . والتناقض شديد الوضوح ولا يحتاج إلى تعليق .

---

(٢) بوبر ، ص ١٤٠

ويقال إنه إلى زمن ما قبل « صموئيل Samuel » كان يتم استخراج اللوحين وعرضهما ، فى لحظات نادرة ، على الشعب ، كى يتذكر ماحدث فى سنوات التية .. أيام ضاع « بنو إسرائيل » فى برية سيناء

لكن بعد أن تم وضع اللوحين مع تابوت العهد فى قدس الأقداس فى هيكل سليمان ، لم تعد سوى مجرد بقايا أثرية من حجر لاحياة فيه . وفى ساعة مجهولة من تاريخ الزمن تم اختفاء اللوحين ، لا ندرى متى ولا كيف . وكما يقول بوبر : لاتبقى إلا الكلمات (١) .

أما عن صياغة « الوصايا العشر » ذاتها فهى أيضا ليست صياغة واحدة . ووردت فى ثلاث نصوص متفرقة .. اثنتين منها فى سفر « الخروج » : (٢٠ : ١ - ١٧) و (٣٤ : ١٠ - ٢٦) ، والثالثة فى سفر « التثنية » (٥ : ٦ - ٢١) .

يقول الدكتور عبد المنعم درويش إنه قد تمت كتابة هذه الوصايا على لوحى العهد أو الميثاق على النحو التالى :

على الجانب الأيمن توجد الوصايا التى تتعلق بواجبات الإنسان نحو الرب « حقوق الرب » وعددها خمس وصايا وهى : أنا الرب ، لايكن لك آلهة أخرى ، لاتنطق باسم الرب إلهك باطلا ، إحفظ يوم السبت ، أكرم أباك وأمك . وعلى الجانب الأيسر كتبت الوصايا المتعلقة بعلاقة الإنسان مع أخيه الإنسان ، حقوق العبد أو جانب المعاملات ، وعدد تلك الوصايا هى أيضا خمس : لاتقتل ، لاتزن ، لاتسرق . لاتشهد زورا ، لاتفجر باشتهاء امرأة صديقك .

ويرى الدكتور درويش أن مضمون الوصايا العشر - كما جاءت فى سفر الخروج » و « التثنية » وعلى الرغم من الاختلاف فى الصياغة بين السفرين - متحد فى كل منهما . فقد صيغت الوصايا فى السفرين فى صورة أصول عامة يختص بعضها بعبادة التوحيد ويأمر البعض الآخر باحترام الوالدين وتبجيلهما ، وينهى بعضها الآخر عن القتل والسرقة وشهادة الزور والزنا (٢) .

---

(١) بوبر : ص ١٤٠

(٢) عبد المنعم درويش : ص ٨٤ - ٨٦ .

ولا ندرى كيف توصل الدكتور درويش إلى وحدة مضمون الوصايا العشر فى كل من سفرى « الخروج » و « التثنية » ، فهناك فى سفر الخروج وصية تقول « لا تطبخ جديا بلبن أمه » (خروج ٣٤ : ٢٦) ، وهى الوصية العاشرة .. ولا وجود لها مطلقا فى نص الوصايا كما جاءت فى (خروج ٢٠ : '' - ١٧) و(تثنية ٥ : ٦ - ٢١) ، إذ يوجد بدلا منها « لا تشته امرأة قريبك ولا تشته بيت قريبك » .

لايعرف أحد على وجه التحديد ماهى الحكمة فى النص فى إحدى الوصايا العشر على عدم طبخ الجدى بلبن أمه ، وما أهمية ذلك فى التشريع الأساسى ، أى « الكلمات العشر » لشعب اختاره الرب كى يكون له مملكة كهنة وأمة مقدسة .

يقول س . ر . درايفر S . R . Driver إن هناك اختلافا بين نص الوصايا العشر كما جاء فى سفر « التثنية » والنص الذى جاء فى سفر « الخروج » . وصيغة الاختلاف بين النصين تكمن فى أن الصورة الأصلية للوصايا العشر تنص على أن الوصايا قائمة بذاتها فقط . أما التعليقات التوضيحية التى ألحقت بها فى بعض الحالات فقد تمت إضافتها فى عصور لاحقة (١) . وفى هذا المجال يقول كاسوتو : لقد تم تحديد الوصايا العشر باختصار ووضوح كى يسهل حفظها وعدها على أصابع اليدين (٢) .

ومن المثير للاندهاش أن الوصايا العشر التى كتبت « بأصبع الله » لا تتضمن وصية تحرم الكذب !!

أين « لاتكذب » فى وصايا إله إسرائيل ؟!!

يعلق جيمس هنرى برستد على هذه النقطة بصراحة متناهية ، موضحا أن أى قانون أخلاقى لايحرم الكذب يعتبر قانونا ناقصا ، لايمكن الأخذ به أو الثقة فيه .

يقول برستد :

لقد حفظت فى طفولتى مثل إخوانى الصبية « الوصايا العشر » وعُلِّمت أن احترمها لأنه أُكد لي أنها أنزلت من السموات على « موسى » ، وأن اتباعها كان من أجل ذلك لزاما علىّ . وإنى أذكر أننى كلما كذبت كنت أجد لنفسى سلوة فى أنه لاتوجد وصية تقول : « يجب عليك ألا تكذب » ، وأن الوصايا العشر لاتحرم الكذب إلا فى شهادة الزور فقط ، أى عندما يؤدى الإنسان شهادة أمام المحاكم يمكن أن تضر بجاره

(١) س . ر درايفر ، ص ٣٣
(٢) كاسوتو ، ص ٣٥

ولما اشتد ساعدى بدأت أشعر فى نفسى بشئ من القلق وأخذت أحس بأن قانون الأخلاق الذى لايحرم الكذب هو قانون ناقص . وبقيت هذه الفكرة تجول بخلدى زمنا طويلا قبل أن أضع لنفسى السؤال الهام التالى : كيف ظهر فى نفسى الشعور بهذا النقص ؟ ومن أين حصلت بنفسى على المقياس الخلقى الذى كشفت به عن هذا النقص فى الوصايا العشر ؟ ولقد كان يوما أسود على احترامى الموروث للعقيدة الدينية القائلة « بنزول الوحى » عندما بدأت عندى تلك التجربة النفسية . بل لقد ظهرت أمامى تجارب أشد إقلاقا لنفسى وذلك عندما اكتشفت وأنا مستشرق مبتدئ أن المصريين كان لهم مقياس خلقى أسمى بكثير من الوصايا العشر.وأن هذا المقياس ظهر قبل أن تكتب تلك الوصايا بألف سنة (١) .

و« برستد » على حق بكل تأكيد عندما يتحدث عن سمو القوانين الأخلاقية لدى المصريين ، وعن ظهورها وتألقها وتأثيرها الفاعل فى سلوك المصريين قبل أن تكتب « تلك الوصايا » بزمن طويل .

شهادة الزور محرمة فى قانون الأخلاق المصرى منذ فجر التاريخ . يقول أدولف إرمان فى كتابه **ديانة مصر القديمة** : كان شخص حلف زورا باسم بتاح فأراه هذا الإله – سيد الحق – الظلام فى النهار ، وصيره شبيها بالحيوانات التى فى الشوارع ، وجعل الآلهة والناس ينظرون إليه كشئ بغيض عند سيده (٢) .

وعن الصدق وعدم الكذب يكتب إرمان : نحن نقرأ فى متون الأهرام أن الملاح السماوى لايسمح بالعبور لغير الصالحين العادلين ، ويعتبر إله الشمس بصفة خاصة ممثلا للعدالة ، وكان الصدق أو العدالة – كلمة واحدة تعنى أحد المعنيين – تمثل كأنما هى ابنة له . أليس هو القائل بنفسه للإنسان « قل الصدق وافعل ما يقتضيه فهو العظيم القوى » .. هذه الحقيقة وهذا القانون يتضمنان المثل الأعلى لدى المصريين . وهذا هو مايكوّن دولة متحضرة (٣) .

ويتساءل بوبر : أين وصية تحريم الكذب ؟ .. لماذا « السبت » وليس : الفصح » ؟ ألا يدل هذا – على سبيل المثال – على أن الوصايا العشر لم تكتب فى عصر موسى،

---

(١) چيمس هنرى برستد ، **فجر الضمير** ، ترجمة د . سليم حسن ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٩٥ ، ص ١٣
(٢) أدولف إرمان ، **ديانة مصر القديمة : نشأتها وتطورها ونهايتها فى أربعة آلاف سنة** ، ترجمة الدكتور عبد المنعم بكر والدكتور محمد أنور شكرى ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ١٩٩٥ ، ص ٢٠٠ .
(٣) إرمان ، ص ٢٢١ .

وإنما كتبت فى عصر متأخر وهو عصر السبى ، إذ رأى الإسرائيليون فى فترة السبى ، بعيدا عن الهيكل ، أن « السبت » قد أصبح جوهر حياتهم الدينية ؟ (١) .

ويرى فلهاوزن Wellhausen ، وأتباع مدرسته ، أن تاريخ كتابة « الوصايا العشر » يرجع إلى عصر السبى أو مابعد عصر السبى ، وهى تمثل ما يجب على إسرائيل أن تقوم به دينيا وأخلاقيا فى أرض المنفى . وهذا معناه أنها نتاج للاحتياجات الدينية لإسرائيل فى تلك الفترة . والذين يؤيدون وجهة النظر هذه يرون أن الوصايا العشر كانت مستحيلة وغير ضرورية بالنسبة لإسرائيل فى بداياتها الأولى (٢) .

أما ل . م . هوبفى فيعتقد أن أغلب ماجاء فى الوصايا العشر يعكس حياة مجتمع مارس الحياة الزراعية لعدة قرون ، ولا يعكس حياة التيه التى عاشها موسى وأتباعه فى برية سيناء (٣) .

ويعلق ديلى على ماسنّه موسى من وصايا وشرائع وقوانين بقوله : أقام موسى ناموسه على أساس العقلية السائدة . فالقوم - وهم نتاج زمانهم - لايستطيعون فهم الأفكار الروحية ، أو الإحساس بالعواطف المتسامية . لقد كان جل تركيزهم منصبا على الحركة الخارجية الظاهرة لا يسترعى انتباههم غيرها . **كان ناموس موسى ناموسا مؤقتا عابرا ، يقود النفوس إلى كمال نسبى** (٤) .

وبناءً عليه فليس من المستغرب أن نجد بين حكام إسرائيل من يقول بالكثير ويعد بالكثير ، ثم لاينفذ كلمة واحدة مما قال أو وعد ، فتحريم الكذب لاوجود له فى الوصايا العشر . وربما اعتقد « بنو إسرائيل » أن الكذب فى التعامل مع الأجنبى مباح وحلال أيضا .

بعد أن كتب موسى جميع أقوال الرب - كما يحكى كتبة التوراة - بنى مذبحا أسفل الجبل واثنى عشر عمودا لأسباط إسرائيل الإثنى عشر ، ثم أرسل فتيانا من بنى إسرائيل فأصعدوا محرقات للرب وذبحوا ذبائح « سلامة » .

لم يكن الرب قد أعطى تعليماته بعد بتعيين هارون وأبنائه كهنة له ، ولم تكن هناك فئة معينة تقوم رسميا بتقديم القرابين . وكان موسى يستعين فى تنفيذ هذه الأمور

---

(١) بوبر ، ص ١٣٤ .
(٢) نفس المرجع ص ١٢١
(٣) ل . م . هوبفى ، ص ٣٢٧
(٤) ديلى ، ص ١٦٢

المقدسة بالشباب ، الذى كان من الواضح أنه يتم اختيارهم دون إعطاء أى تفضيل لقبيلة معينة . ويرى « بوبر» أنه من المعقول أن نفترض أن هؤلاء الشباب هم الأبكار الذيم طلب « يهوَه » أن يقدسوا له (١) .

أخذ موسى نصف دم الذبائح ورشه على المذبح ، ثم رش بقية الدم على الشعب وقال « هو ذا دم العهد الذى قطعه الرب معكم على جميع هذه الأقوال » (خروج ٢٤ : ٨) . وتعالت أصوات الشعب : كل ما تكلم به الرب نفعل .

ويتم الاحتفال بتوثيق « العهد » ووضعه موضع التنفيذ فى احتفال مهيب فى قلب الجبل ، يحضره موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل .

يقول أندرسون إنه قد احتفل بوضع العهد موضع التنفيذ في وجبة مقدسة على قمة الجبل . وكان المشتركون فى لقاء القمة هذا هم المميزون ، أى الممثلون البارزون لبنى إسرائيل بالاضافة إلى موسى وهارون وولديه .. لم يأكلوا ويشربوا فقط ، لكنهم أيضا رأوا الله (٢) .

والأصحاح الرابع والعشرون من سفر « الخروج » يؤكد هذه الرؤية . إن هذه الصفوة المختارة من شيوخ إسرائيل رأت « إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء فى النقاوة . ولكنه لم يمد يده إلى أشراف إسرائيل . فرأوا الله وأكلوا وشربوا » (خروج ٢٤ : ١٠ - ١١) .

من الغريب أن هذا التجلي الربانى على أشراف بنى إسرائيل .. ورؤيتهم للرب - وتحت رجليه ما تحت رجليه - لم يسبب لهم أى أذى ، بالرغم من التحذير شديد الوضوح والذى يؤكد أنه من المستحيل أن يرى إنسان الرب وبعدها يعيش . يقول موسى للرب : « أرنى مجدك » . ويرد الرب : « لاتقدر أن ترى وجهى لأن الإنسان لايرانى ويعيش » (خروج ٣٣ : ١٨ - ٢٠) .

التناقض واضح ويصعب تفسيره .

هذا ما يؤكده بوبر عندما يؤكد أن ما حدث على قمة الجبل أثناء تناول وجبة « العهد » شئ لم يسمع به من قبل .. لقد رأوا إله إسرائيل !! ولو أن هذه الكلمات تنص حقيقة على أن مختارى بنى إسرائيل قد رأوا الرب رأى العين بهيأته الإلهية : فهذا معناه

(١) بوبر ، ص ١١٤
(٢) أندرسون ، ص ٩٣ .

أن المحرر لم يلحظ التناقض الكبير بين هذا النص ونص آخر يحذر فيه الرب موسى من أن يحاول رؤيته ، لأن « الإنسان لايراني ويعيش » (١).

إن من يرى « يهوه » ، طبقا لهذا التحذير ، لايمكن أبدا أن يعيش . فكيف رأى « أشراف إسرائيل » إله إسرائيل ولم يحدث لهم شئ ؟ .. لقد رأوا « الله » هكذا بكل بساطة ، ثم استمروا فى احتفاليتهم .. وأكلوا وشربوا !!

ويورد الأستاذ شفيق مقار وصف « چوزيف كامبل Joseph Campbell » للمأدبة التى أقامها « يهوه » لشيوخ إسرائيل الذين صعدوا لزيارته فى مسكنه العلوى حيث قدمت إليهم الأطباق الشهية من لحم خصم « يهوه » الذى لاينفذ ، لحم لوياثان ، ولحم .. بهيموث الذى سيذبح فى آخر الزمان ليطعم منه الصالحون جميعا . وقدم إليهم الرحيق من ماء أنهار الجنة الأربعة (٢) !! .

بعد انتهاء الوليمة المهيبة ، يطلب الرب من موسى أن يصعد الجبل ، ربما إلى مستوى أعلى من المستوى الذى وصل إليه هو وهارون وناداب وأبيهو والسبعون من شيوخ إسرائيل . إن الرب يريده وحده كي يعطيه « لوحى الحجارة والشريعة والوصية التى كتبها لتعليمهم » (خروج ٢٤ : ١٢) .

صعد موسى وخادمه يشوع إلى جبل الله .. ترك شيوخ إسرائيل حيث هم .. عليهم أن ينتظروا حتى يعود .. من كان صاحب دعوى فليتقدم بها إلى « هرون وحور » و« حور » هذا لم يتم ذكر اسمه من قبل .. ربما كان واحدا من السبعين .

غطى السحاب الجبل ستة أيام كاملة ، وموسى ينتظر - كما يقول كتبة التوراة - أمام مجد الرب ، لايعرف على وجه التحديد ما يجب عليه أن يفعله . فى اليوم السابع زالت عن موسى حيرته .. سمع صوت الرب يناديه من وسط السحاب .. وكان منظر « مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بنى إسرائيل » (خروج ٢٤ : ١٧) .

لانعرف بالطبع الحكمة « اليهوية » فى ترك موسى ينتظر لمدة ستة أيام كاملة ، ولانعرف أيضا لماذا استدعاه الرب فى اليوم السابع بالتحديد من وسط السحاب .

---

(١) بوبر ، ص ١١٥ .
(٢) شفيق مقار ، ص ٢٥٣ .

المفروض أن اليوم السابع مقدس ، ومن يعمل فيه لابد وأن يقتل قتلا .. هذا مع العلم بأن الرب نفسه استراح فى اليوم السابع وتنفس : « وأما اليوم السابع ففيه سبت عطلة مقدس للرب . كل من صنع عملا فى يوم السبت يقتل قتلا .. لأنه فى ستة أيام صنع الرب السماء والأرض وفى اليوم السابع استراح وتنفس » (خروج ٣١ : ١٥ - ١٧) .

لانريد أن نعلق على شخصية الرب الذى خلق الخلق فى ستة أيام ، ثم شعر بالارهاق وكان لزاما عليه ألا يفعل شيئا فى اليوم السابع ، لأنه - كما يقول كتبة التوراة - كان فى حاجة إلى أن « يستريح ويتنفس » . ونسى كتبة التوراة أنهم فى مكان آخر من كتابهم « المقدس » وصفوا الرب وصفا مغايرا : إنه « إله الدهر الرب خالق أطراف الأرض لايكل ولا يعيا » (إشعياء ٤٠ : ٢٨) . ومن الواضح أن وصفهم هذا يتناقض تناقضا كليا مع وصفهم الأول .

دخل موسى وسط السحاب .. ظل فى الجبل وحده أربعين نهارا وأربعين ليلة . وخلال هذه الفترة الزمنية ، وفى أثناء هذه الخلوة الربانية ، يتحدث الرب « يهوه » مع « نبيه » موسى .. يخبره بما قرر أن يفعل ، وما يجب على موسى أن يفعله بناءً على قرار الرب .

الرب ببساطة متناهية قرر أن يسكن وسط « الشعب » ، أى وسط « بنى إسرائيل» . وبناء عليه فقد تم تكليف موسى بأن يصنع للرب مقدسا .. تابوتا من خشب السنط ، مغشى بذهب نقى .

يتلقى موسى من ربه أوصافا مفصلة للتابوت : الطول ذراعان ونصف .. العرض ذراع ونصف .. الارتفاع ذراع ونصف .. يغشى من الداخل والخارج بذهب نقى .. ويصنع عليه إكليلا من ذهب حواليه .. « وتسبك له أربع حلقات من ذهب وتجعلها على قوائمه الأربع .. وتصنع عصوين من خشب السنط وتغشيهما بذهب . وتدخل العصوين فى الحلقات على جانبى التابوت ليحمل التابوت بهما . تبقى العصوان فى حلقات التابوت . لاتنزعان منه » (خروج ٢٥ : ١٠ - ١٥) .

وعلى غطاء التابوت المصنوع من الذهب النقى ، تتم صناعة كروبين من ذهب . يقول الدكتور أحمد شلبي فيما يختص بالكروبين ، إنهما طائران لم ير الناس مثلهما .

وينسب لموسى قوله إنه رأى هذا النوع من الطيور بالقرب من عرش الله وحراسة التابوت موكولة لهذين الطائرين (١) .

وفى تفسيره لكلمة « كروب » يقول الدكتور السيد يعقوب بكر : الرأى السائد الآن أن كلمة كروب أكدية الأصل ، أخذت من « Karibu » (كارب) .. وهو علم على طائفة خاصة من تلك الكائنات الجنية المجنحة التى كانت تحرس معابد بابل وقصورها . ومادة « كرب » فى الأكدية من معانيها « صلى » و« بارك » ، فكأن هذه الكائنات تصلى للإله فى المعبد أو تبارك الملك فى القصر (٢) .

ويضيف الدكتور بكر فى شرحه للكروبيم وما تؤديه من وظائف : إن الكروبيم فى « العهد القديم » ليست ملائكة .. إذ ليس لها وظيفة الملائكة من حمل رسائل الله . وإنما هى طائفة من المخلوقات لها فى « العهد القديم » وظيفتان أساسيتان : حمل الرب، وحماية الأشياء المقدسة التى تتعلق به (تابوت العهد ، والهيكل عامة ، وشجرة الحياة) . ويرى بعض العلماء أن الوظيفة الأولى هى الأقدم . وأن المعنى الأصلى للكروب هو سحابة العاصفة ، فيهوه هو إله العاصفة ، والكروبيم رمز لسحب العاصفة التى يركبها فى السماء (مزامير ١٠٤ : ٣ - إشعياء ١٩ : ١) . ومن الطبيعى أن يكون الكروب طائرا محضا أى أن يكون له وجه طائر وجناحان . وقد رأينا أن كل كروب من الكروبين اللذين يحرسان تابوت العهد فى خيمة موسى وهيكل سليمان كان له وجه واحد لا نعرف هيئته وجناحان ، فالراجح إذن أن هذا الوجه الواحد كان وجه طائر ، وبهذا يكون كروب التابوت طائرا محضا يمثل الصورة الأولى للكروب (٣) .

يطلب الرب من موسى أن يضع فى التابوت الشهادة التى سوف يعطيه ، ويحيطه علما أنه سوف يتكلم معه من على غطاء التابوت من بين الكروبين اللذين على تابوت الشهادة . وهذا معناه أن موسى لن يكون فى حاجة بعد ذلك إلى أن يصعد إلى الرب على قمة الجبل ، وذلك لأن الرب نفسه هو الذى سيهبط إليه .

ويلفت الأستاذ شفيق مقار النظر إلى أن للتابوت تسميات متعددة فى الترجمة العربية للتوراة ، فهو « تابوت الشهادة » فى سفر الخروج ، « تابوت عهد الرب » فى سفر التثنية ، و« تابوت الرب » فى سفر صموئيل الأول ، بل « وتابوت الله » فى نفس

---

(١) د. أحمد شلبى ، ص ١٩٧
(٢) موسكاتى ، ص ٣٠٤ .
(٣) نفس المرجع ، ص ٢٩٩

السفر فى موضع آخر . ويقول الأستاذ مقار ساخرا ، فى تعليقه على استخدام كلمة « تابوت » : إن لفظة تابوت هنا غير مواتية إطلاقا فالسياق سكنى إله حى فى ذلك الصندوق ، لاسياق وضع إنسان ميت فى تابوت (١) .

حكاية التابوت هذه ليست فكرا موسويا أصيلا ، بمعنى أن موسى لم يأت بجديد ، فالفكرة فى أصولها تنتمى إلى التراث المصرى القديم ، الذى درسه وتربى عليه وتعلم منه . وهذا ما يقرره الدكتور أحمد شلبى عندما يورد رأى « غوستاف لوبون » الذى ذكره فى كتابه : **اليهود فى الحضارات الأولى** ، والذى ينص فيه على أن تابوت العهد إقتباس من الفكر المصرى الذى كان به نظائر لهذا التابوت المقدس . وقد ظل الاعتقاد فى قدسية هذا التابوت حتى عهد إرميا الذى أخذ يتكلم عن إله روحانى ، ووضع من شأن التابوت وقال عنه : لايعودون يقولون تابوت عهد الرب ، ولا يخطر لهم ببال ، ولا يذكرونه ولا يفتقدونه ، ولا يصنع من بعد (٢) .

ويؤكد الأستاذ شفيق مقار فكرة السطو على التراث المصرى ونهب رموزه الدينية دون خجل أو حياء .. يقول : فى سياق السعى الأرضى المحموم إلى إقامة الملك ، كان طبيعيا أن يقتصر النهب من الديانة المصرية على الرموز الدينية دون مضامينها الروحية ، وعلى الأشكال الخارجية دون محتواها الفكرى ، وعلى الشعائر منتزعة من سياقها الدينى الأصلى ومحولة فى معظم أمرها إلى طقوس سحرية . والمثال الواضح على ذلك تابوت العهد .. فبجانب كونه سكنا ليهوه ، ضم التابوت الكلمات العشر التى أملاها يهوه على موسى وأمره أن يحفظها فى التابوت .. وضعت فى التابوت أيضا عصا هارون ، وهى غير « عصا الله » التى كان يحملها موسى ، لكنها - هى الأخرى - كانت عصا سحرية ، عصا مفرخة ، أى تنبت فروعا وورق شجر وتثمر لوزا شهيا (٣) .

ولانعرف بالطبع لماذا لم يضعوا فى التابوت « عصا الله » التى استخدمها موسى وأحدث بها من المعجزات ما لم يسمع بمثله .. من قبل أو من بعد .

ويقول ل . م . هويفى إن تابوت العهد هو صندوق يشبه « النعش » وضعت فيه الآثار المقدسة للخروج . وربما كان هو العرش المحمول للإله يهوه . وكان هذا الصندوق هو أهم مقدسات بنى إسرائيل ، وقد وضع فيما بعد فى معبد سليمان فى القرن العاشر قبل الميلاد . ومن المحتمل أنه ظل فى المعبد حتى دمره البابليون عام ٥٨٦ ق . م .

---

(١) شفيق مقار ، ص ٢١٢ - ٢١٤ .
(٢) د . أحمد شلبى ، ص ١٩٨ .
(٣) شفيق مقار ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

يعتقد الأستاذ عصام الدين حفنى ناصف أن التابوت لم يكن يحتوى إلا على صنم حجرى يمثل الإله يهوه . ولم يكن يهوه فى أول الأمر غير قطع من حجر فى صندوق ، وكانت مشاهدته حراما على غير الكهنة .. بل إنهم ليحظرون حتى الاقتراب منهم فى أثناء مزاولتهم أعمالهم وأهمها سدانة « الرب » وهو صنم حجرى كانوا يحملونه معهم فى صندوق .. والأجنبى الذى يقترب منه يقتل (١) .

نفس الرأى يعرضه ألان جرانت Allen Grant فى كتابه : **تطور فكرة الإله**، حيث يقول إن بنى إسرائيل كانوا يحملون معهم فى بداية أمرهم إلها قبليا يدعى يهوه وأن وجوده بينهم كان ذا صلة وثيقة بصندوق أو تابوت ما احتوى على شئ أو أشياء منحوته من الحجارة .. إن بنى إسرائيل لم يكونوا يعرفون يقينا منشأ الأشياء الحجرية الموضوعة فى ذلك التابوت ، لكنهم كانوا يعتبروها عن يقين « يهوه » إلههم الذى أخرجهم من أرض مصر . وحتى بعد أن أخفيت حقيقة ذلك المعبود وغلفت بمفاهيم روحية ، ظلت تصورات عباده فى العصور اللاحقة مدخولة باستمرار بصورته الأصلية كعمود حجرى (٢)

أما الدكتور أحمد شلبى فيرى أن قادة إسرائيل كانوا يحتفظون فى التابوت بأغلى ما يملكون من ثروات ، ويوهمون الناس أن من يمسه يموت ليضمنوا نجاة هذه الثروات ، بدليل أن العرب فى إحدى جولاتهم أخذوا التابوت من بنى إسرائيل ، ولم يمت أولئك الذين أخذوه (٣) .

وحقيقة الواقعة التى يشير إليها الدكتور أحمد شلبى هى أن الفلسطينيين هم الذين حاربوا « بنى إسرائيل » وهزموهم . وسقط من بنى « إسرائيل » حوالى أربعة آلاف رجل . وقرر شيوخ إسرائيل أن يأخذوا تابوت عهد الرب فيدخل فى وسطهم ويخلصهم من أيدى أعدائهم : « وكان عند دخول تابوت عهد الرب إلى المحلة أن جميع إسرائيل هتفوا هتافا عظيما حتى ارتجت الأرض » (صموئيل الأول ٤ : ٥) . لكن الفلسطينيين ، فى هذه المعركة ، لم يهزموا الإسرائيلين فقط - الذين سقط منهم ثلاثون ألف رجل - بل استولوا أيضا على تابوت « الله » . وظل « تابوت الله » فى أرض الفلسطينيين سبعة أشهر ، فعل خلالها بالفلسطينيين الأعاجيب - كما يقول كتبة التوراة : ضربهم بالبواسير .. وقتل منهم « خمسين ألف رجل وسبعين وجلا » (صموئيل الأول ٦ :

---

(١) عصام الدين حفني ناصف ، **محنة التورة** ، ص ٣١
(٢) من أقتباس الأستاذ شفيق مقار ، ص ٥١٦
(٣) د. أحمد شلبى ، ص ١٩٨

١٩)، مما دفع الفلسطينيين إلى أن يعيدوه إلى إسرائيل ومعه « قربان إثم » ، ذهب كثير وعجول وبقر .

لكن ماذا فعل التابوت للشعب . وماذا فعل بالبابليين عندما هاجموا الهيكل وحرقوا « تابوت الله » معه ؟ لماذا لم يحرق « الرب » ، الجالس على غطاء التابوت ، البابليين بدلا من أن يترك « تابوته » هو نفسه يحترق ؟ ماذا فعل الرب ، « الجالس مابين الكروبين » على غطاء التابوت ، بالبابليين عندما أخذوا « الشعب » أسرى وسبايا ؟ من الواضح أنه لم يفعل شيئا على وجه الإطلاق فى الدفاع عن تابوته ، أو فى الدفاع عن شعبه . لذلك لم يكترث الكهنة ، عندما أعيد بناء الهيكل ، بصنع تابوت آخر .

هكذا اختفى التابوت ، ولم يعد يذكر إلا كحكاية .. مجرد حكاية ، من حكايات كثيرة تضمنها « تأريخ » بنى إسرائيل .

يطلب « يهوه » من موسى - أيضا - أن يقيم له « مسكنا » وهذا « المسكن » اليهوى الموسوى كان على شكل خيمة يسهل نقلها وتحريكها كلما رحل العبرانيون البدو من مكان إلى مكان . كانت تسمى « خيمة الاجتماع » أو « خيمة المعبد » .

يعطى الرب تفاصيل شديدة الدقة عن كيفية إقامة « المسكن » الذى سيوضع « التابوت » فى جزء منه يسمى « قدس الأقداس » ، حيث يستمع موسى لصوت الرب ويتحدث إليه كلما دعت الضرورة . يحدد الرب طول الخيمة وعرضها والمواد التى تصنع منها ، سواء كان ذلك « بوص مبروم وأسمانجونى وأرجوان وقرمز » أو « شعر معزى » ، أو « جلود كباش » ، أو « ألواح من خشب السنط .. طول اللوح عشر أذرع وعرض اللوح الواحد ذراع ونصف » (خروج ٢٦ : ١٥ - ١٦) .

ولا يكتفى يهوه بكل ماسبق من تفصيلات ، وكثير مما أورده غيرها ، فيُظهر لموسى فى الجبل صورة للمسكن بكامل هيئة ، ويطلب منه أن يصنع صورة طبق الأصل، ليس فقط كما سمع ، لكن أيضا كما رأى ، وكأن « يهوه » يشك فى مقدرة موسى على الاستيعاب والفهم وتنفيذ الأمر .

يطلب الرب من موسى أن يصنع داخل الخيمة حجابا يفصل « بين القدس وقدس الأقداس . وتجعل الغطاء على تابوت الشهادة فى قدس الأقداس » (خروج ٢٦ : ٢٤) .

يقول ل . م . هويفى إن السنوات التى قضاها « الإسرائيليون » فى برية سيناء أمدتهم - بالإضافة إلى الوصايا والشرائع الإلهية - بمؤسستين دينيتين هما : تابوت العهد وخيمة الاجتماع . ولم تكن خيمة الاجتماع بنفس أهمية تابوت العهد ، ولم تستمر لمدة طويلة كما حدث فى حالة التابوت . وكانت بصورة موضوعية مجرد خيمة يمكن نقلها من مكان إلى مكان وفقا لتحركات « الإسرائيليين » البدو الهائمين على وجوههم فى البرية . لقد وفرت هذه الخيمة مكانا لعبادة « يهوه » وتقديم القرابين له . وبعد دخول الإسرائيليين أرض كنعان لم يرد لتلك الخيمة ذكر سوى مرة واحدة .. بعدها ابتلعها النسيان (١) .

يحكي يوسيفوس أنهم عندما أقاموا « خيمة الاجتماع » جعلوها وسط المخيمات، وضربت ثلاثة من القبائل خيامها ، كل قبيلة على جانب من جوانب «الخيمة» شقت الطرق وسط تلك الخيام .. كانت مثل سوق جيدة التنظيم .. كل شئ معد للبيع حسب نظام معلوم .. كانت أقرب الشبه بمدينة متحركة أحيانا ، ثابتة فى أحيان أخرى .. كان الكهنة يحتلون أقرب مكان « للخيمة » ، يليهم اللاويون الذين بلغ عددهم ثلاثة وعشرين ألفا وثمانمائة وثمانين (٢٣,٨٨٠) . وطالما كانت السحابة تقف فوق الخيمة دون حراك كان أتباع موسى يظلون فى نفس المكان ، لاعتقادهم أن الرب ساكن بينهم ، لكن عندما كانت السحابة تتحرك كانوا هم أيضا يتحركون (٢) .

يقول كتبة التوراة إنه فى يوم إقامة المسكن « غطت السحابة المسكن ، خيمة الشهادة . وفى المساء كان على المسكن كمنظر نار إلى الصباح . هكذا كان دائما السحابة تغطيه ومنظر النار ليلا . ومتى ارتفعت السحابة عن الخيمة كان بعد ذلك بنو إسرائيل يرتحلون . وفى المكان حيث حلت السحابة هناك كان بنو إسرائيل ينزلون » (عدد ٩ : ١٥ - ١٧) .

ويقرر « كاسوتو » أنه قد ساد رأى بين نقاد التوراة - دون معارضة تذكر ينص على أن خيمة الاجتماع هذه لم يكن لها وجود على وجه الإطلاق ، وأن الجزء الخاص بها يرجع - من وجهة نظرهم - إلى مدونات الكهنة فى الفترة التى تلت بناء الهيكل الثانى . والحكاية كلها لاتقوم إلا على مجرد صورة خيالية ابتدعتها قرائح كهنة تلك الفترة على أساس من ذكريات متوارثة عن هيكل سليمان (٣) .

(١) ل . م . هويفى ، ص ٣٢٧
(٢) يوسيفوس، ص ٨٢
(٣) كاسوتو ، ص ٣١٩ - ٣٢٠

يأمر الرب موسى أن يقيم المذبح - أيضا - كى تقدم عليه المحرقات ، ويقدم له وصفا تفصيليا بأبعاده وأدواته والمواد التى يصنع منها .. ثم يطلب منه أن يعين هارون وبنيه معه من بين « بنى إسرائيل » كى يكهنوا له . بذلك تبدأ الكهانة رسميا بأمر الرب ، ويختص بها هارون وأبناءه ناداب وأبيهو والعازار وإيثامار .

هكذا تم توزيع السلطات : النبوة لموسى ، والكهانة لهارون وأبنائه . وبذلك يتم ترفيع هارون وتمييزه هو وأبنائه ، وخلق طبقة منهم تتفرد بكهانتها تلك عن بقية « بنى إسرائيل » . ولم يكن اختيار هارون وأبنائه نابعا من إرادة « الشعب » ، لكنه - كما هو واضح - كان أمرا وإملاءً من « الرب » .

لم يكن تميز هارون وأبنائه تميزا روحيا فقط ، بل كان تميزا من ناحية المظهر أيضا . لابد وأن تصنع لهم ثياب « مقدسة » ، فمن المستحيل - بالطبع - أن يكهنوا للرب وهم يرتدون ثيابا كتلك التى يرتديها عامة الناس . يصف الرب الثياب التى يجب أن يرتديها هارون وأبناؤه : « صدرة ورداء وجبة وقميص مخرم وعمامة ومنطقة » (خروج ٢٨ : ٤) .

يقدم الرب تفصيلات دقيقة لكيفية صناعة الرداء من « ذهب وأسمانجونى وأرجوان وقرمز وبوص مبروم .. ويصف السلاسل والحلقات الذهبية التى ستوضع على الصدرة وعلى كتفى الرداء وكذا « الأوريم والتميم » فى صدرة القضاء « لتكون على قلب هرون عند دخوله أمام الرب فيحمل هرون قضاء بنى إسرائيل على قلبه أمام الرب دائما » (خروج ٢٨ : ٣) .

يقول كاسوتو إن التوراة لا توضح لنا ماهية « اليوريم والتميم » ، إنها تذكرها كما لو كانت أشياء معروفة ، كما أنها لاتذكر شيئا عن استخدامها . ومن الممكن أن نصل إلى المحصلة التالية فيما يختص باستخدام « اليوريم والتميم » : إنها تستخدم كوسيلة للاستفسار من الرب ، بمعنى الحصول من الرب - وذلك بمساعدة الكاهن - على إجابة لبعض المسائل التى تعجز عن إدراكها عقول البشر .. لكن بعد زمن « الملك داود » لانجد أى شارة لاستخدام اليوريم والتميم .. ربما لأن بنى إسرائيل توقفوا عن الاستفسار من الرب بهذا الأسلوب .. وظل اليوريم والتميم مجرد بقايا من ذكريات الماضى يشار إليها فى إجلال ، لكن دون أن يكون لها أية وظيفة عملية . وعندما تم بناء الهيكل الثانى ، لم يكن لليوريم والتميم فيه أى وجود (١) .

---

(١) كاسوتو ، ص ٣٨٠ -٣٨١

يلفت الرب نظر موسى إلى أنه لابد وأن توضع جلاجل من ذهب على أذيال الجبة حواليها ، « فتكون على هرون للخدمة ليسمع صوتها عند دخوله إلى القدس أمام الرب وعند خروجه لئلا يموت » (خروج ٢٨ : ٣٥) . حتى السراويل التى يجب أن يرتديها هارون وأبناؤه لا ينسى الرب أن يصفها لموسى .

لايكتفى الرب بكل ماسبق وصفه .. إنه يذهب إلى حد تحديد أسماء الصناع الذين سيقومون بتنفيذ كل ماطلب لقد دعا الرب - كما يقول كتبة التوراة - بصلئيل بن أورى بن حور من سبط يهوذا وملأه من روح الله بالحكمة والفهم والمعرفة . ودعا معه أهولياب بن أخيساماك من سبط دان ، ليصنعا كل ما أمر الرب أن يصنع « خيمة الاجتماع وتابوت الشهادة والغطاء الذى عليه وكل آنية الخيمة والمائدة وآنيتها والمنارة الطاهرة وكل آنيتها ومذبح البخور ومذبح المحرقة وكل آنيته والمرحضة وقاعدتها والثياب المنسوجة والثياب المقدسة لهرون الكاهن وثياب بنيه للكهانة ودهن المسحة والبخور العطر للقدس . حسب كل ما أمرتك به يصنعون » (خروج ٣١ : ٢-١١) .

هل نسى إله إسرائيل شيئا لم يذكره من وصف للخيمة ، أو تحديد لأبعاد التابوت ، أو اختيار أنواع معينة من الخشب والأقمشة حتى تلك التى يجب أن تصنع منها السراويل ؟!!

بالطبع لم ينس « الرب » شيئا على وجه الإطلاق حتى المرحضة ، قدم « الرب » بها وصفا تفصيليا لنبيه موسى .

يعلق الأستاذ شفيق مقار على سلوك إله إسرائيل - كما وصفه كتبة التوراة - بقوله : المحررون / المؤلفون جعلوا الرب فى حكاياتهم يفعل كل شئ .. من تصميم أزياء الكهنة ، إلى إملاء الوصفات الطهوية ، إلى تصميم خيمة الهيكل معمارا ونجارة ، وصنع تابوت العهد وأثاث الهيكل نجارة وخراطة وسراجة .. فلم لايجعلونه يعطى دروسا فى التاريخ أيضا ، وذلك أكرم (١) .

وعندما فرغ إله إسرائيل من كل كلامه مع موسى على قمة الجبل ، أعطى موسى « لوحى الشهادة » ، وهما اللوحان المحفور عليهما الوصايا العشر ،« لوحا حجر مكتوبان بأصبع الله » .

---

(١) شفيق كفار ، ص ٦٠

هنا يثار سؤال : ماذا حدث « للشعب » أثناء غياب موسى فى الجبل أربعين نهارا وأربعين ليلة ؟

بعد أسابيع من غياب موسى ، شعر أتباعه بالقلق . إن « الرجل موسى » لم يأخذ معه مايكفى من طعام وشراب .. كيف يظل على قيد الحياة طوال كل تلك الأيام؟ ربما هلك .. ربما مات جوعا .. ربما افترسه وحش فى الجبل .. ربما التهمته على قمة الجبل تلك النار الآكلة !!

لقد « أخرجهم » من أرض مصر حيث قدور اللحم – التى مانسوها أبدا – إلى هذا القفر حيث لاشئ إلا التية .. ولم يكتف بذلك ، بل تركهم واختفى . ربما مات فى الجبل – هذا احتمال . لكن هناك احتمال آخر : ربما نجا بنفسه من تلك العذابات ، أى ربما هرب !!

عليهم أن يتدبروا الأمر .. أن يديروا شئونهم حسب مايرتأونه .. عليهم أن يجدوا البديل .. من يحل محله .. إنهم لن يمكثوا فى هذا القفر حتى يهلكوا .

اتجهوا إلى هارون ، الرجل الثانى فى الزعامة ، والذى كان هو الآخر يحمل « عصا » بيده . قالوا له : إن « هذا الرجل موسى » الذى أخرجنا من أرض مصر ذهب ولم يعد . واستخدامهم لعبارة « هذا الرجل موسى » فيه دلالة على الاستخفاف والضيق والغضب . إنهم لايعرفون على وجه التحديد ماذا أصابه ، ولن ينتظروا بالطبع أن يصيبهم ماأصابه أن كان قد هلك .

« قم » !! هكذا كانت كلمة الأمر من الجموع الغاضبة « قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا » (خروج ٣١ : ٣) . لم يكن إيمان « بنى إسرائيل » قويا .. ربما لم يكن فى قلوبهم منذ البداية إيمان . لقد نسوا معجزات « عصا الله » ، ولم يكترثوا بالعهد والوصايا وقد سمعوها بآذانهم ، بعد أن تكلم الرب معهم : « أنتم رأيتم أننى من السماء تكلمت معكم » (خروج ٢٠ : ٢٢) . نسوا « الخروج » و« معجزة البحر » التى لم يكن قد مضى عليها سوى مايقرب من ثلاثة شهور .

وكما يقول د . عبد المحسن الخشاب ، لم يكن إقناع موسى قومه باختيارهم الله سهلا ، فقد غلبت مصالحهم الأرضية وحاجاتهم الدنيوية وهم الرعاة المستضعفون فى الأرض لايشغلهم إلا حياتهم الصعبة البدائية .. وتقديس كل ماينفعهم .. فتقبلوا دعوة موسى بفتور وسلبية (١) .

(١) د. عبد المحسن الخشاب ، ١٠٦

إنهم يريدون آلهة تسير امامهم ، آلهة غير إله موسى الذى لايعرفون عنه ما يكفى لإقناعهم بالتمسك به ، وقد اختفى « الرجل موسى » ولم يعد هناك مايربطهم به

كان هذا الطلب بالنسبة لهارون حدثا لايمكن أن يتكرر مرتين .. لهذا لم يتردد فى التحرك وبسرعة .. إنها فرصته الآن فى أن يصبح الرجل الأول الذى يقود ويصدر الأوامر بدلا من أن يقاد ويصدر إليه الأمر .. فرصته فى أن يكون القائد الأوحد لكل تلك الفلول الشاردة .. أن يكون الكاهن والنبى معا فى محراب إله غير إله موسى !!

ربما كان فى قلب هارون بعض الغيرة من تميز موسى عليه وهو الأكبر سنا .. ربما لمسة من الحقد لاختصاص موسى بالنبوة وقصرها عليه ، وهذا سيظهر جليا فيما بعد عندما يتحدث هارون وأخته مريم ضد موسى ، مما دفع بعض الدارسين – من أمثال فرويد – إلى القول بأن هارون لم يكن أخو موسى لأن موسى « مصرى » وهارون « لاوى » لكن هارون قبل بانتساب موسى إليه وإلى قومه شريطة أن يكون له من السلطة والنفوذ مالا يباح لغيره ، باستثناء النبى : « ذلك الرجل موسى » .

هذا واضح فى قيام موسى بتعيين هارون وبنيه معه كهنة للرب ، وأن تكون الكهانة فيهم وراثية إلى الأبد .. ومنحهم ثياب « مقدسة » محلاة بالذهب والأحجار الكريمة .. وأن يكون القضاء على قلب هارون وذريته أمام الرب . وفى هذه الكهانة ، وفى هذه القضاء امتياز وثراء ، مابعده امتياز وثراء .

لكن النبوة كانت بالنسبة لهارون هى الأثمن ، فلم لاتكون له وهو الأكبر ؟ ! كما أنه كاهن من سلالة كهنة .

انتهز هارون الفرصة .. لم يتردد . طلب منهم أن ينزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائهم وبنيهم وبناتهم ويأتون بها إليه . سيصنع لهم من الذهب مايريدون . وكما لم يتردد هارون فى الاستجابة ، لم يتردد « بنو إسرائيل » فى العطاء . خلع الشعب كل أقراط الذهب وسلموها له .. ماقيمة الذهب مهما كان وزنه وثمنه مقابل خلق إله ؟!!

أخذ هارون الذهب – كما تقول حكاية التوراة – وصوره بالأزميل وصنعه عجلا مسبوكا . وعندما رأى « بنو إسرائيل » العجل تعالت هتافاتهم : « هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر » (خروج ٣٢ : ٤) .

لم يكتف هارون بصناعة العجل الذى هتفت له الجموع بل بنى أمامه مذبحا .

ونادى هارون .. القائد الجديد .. صاحب الزعامة والريادة .. و« نبى » الوثن الذهبي .. نادى موجها حديثه للجموع الهادرة .. صائحا فى سلطة آمرة : غدا عيد للرب !!

قضى الأمر .. هارون الآن هو « النبى » .. هو الذى يوجه الجموع .. هو الذى يصدر الأمر . هو الذى سيقف بجوار المذبح أمام العجل الذهبى كى تقدم له القرابين . وبكر بنو إسرائيل « فى الغد وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة . وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب » (خروج ٣٢ : ٦) .

يعلل كاسوتو سلوك هارون ، وصناعته للعجل ، تعليلا يرفضه المنطق . يقول إن الشخص الذى قام بصناعة العجل فى الصحراء هو هارون ، نفس الشخص الذى أختير كى يكون كاهن إسرائيل .. لقد قام هارون بصناعة العجل لا ليعبد ولكن لكى يكون عرشا يجلس عليه الإله . والسؤال الذى يثار هنا : لماذا سمحت التوراة بإقامة الكروبيم فى خيمة الاجتماع وفى نفس الوقت اعتبرت صناعة العجل خطأ جسيما ؟ والإجابة هى : بالرغم من التشابه بين الشيئين ، إلا أنه كان هناك اختلاف جوهرى بينهما . لقد نصت الوصايا العشر على تحريم إقامة أى تمثال يصور أى شكل فى الأرض أو السماء أو البحر أو ما تحت الأرض .. والثور مخلوق أرضى ، إذن فهو من المحرمات أما الكروبيم فهى مخلوقات خيالية لا وجود لها فى أرض أو ماء أو سماء (١) .

وحتى لو أخذنا برأى كاسوتو ، وهو أن هارون صنع العجل كى يكون عرشا يجلس عليه الرب ، فإن هذا لم يتم فى أرض الواقع . **لقد هلل « بنو إسرائيل » للعجل .. واحتفلوا بالعجل .. وغنوا ورقصوا للعجل .. وقدموا القرابين للعجل .. ونسوا «الرب» الذى سوف يجلس فوق العجل !!**

ربما يسأل سائل : لماذا صنع هارون تمثالا لعجل ، ولم يصنع تمثالا لأى حيوان آخر ، كبش - مثلا - أو حمل أو بقرة ؟

لم يكن العجل غريبا على هارون . ولا على أتباع موسى ، فقد عاشوا فى مصر حيث كان ينظر للعجل كرمز لإله القوة والفحولة والخصوبة والعطاء . وكما هو مألوف حل الرمز محل الأصل فأصبح هو المعبود . لم يحدث هذا فى مصر فقط ، بل وفى الأناضول - كما يقول د . عبد المحسن الخشاب - وفى آشور عبدوا العجل المجنح الذى

---

(١) كاسوتو ، ص ٤٠٧ .

زينوا به قصورهم . وكان علم الملك سارجون نفسه يحمل رمزا : عجلين ورأس عجل . وعند الحيثين وفى سومر وبابل والهند .. الكل يرجو ويلتمس من « الإله العجل » القوة والخصوبة بما يقومون به من عبادة له فى معابدهم وأناشيدهم وتماثيلهم يتقربون بها إليه منذ آلاف السنين .

كانت عبادة العجل - إذن - مألوفة لهارون وكل أتباع موسى . ويقال إن هارون نفسه أثناء وجوده فى مصر كان كاهنا لعجل أبيس (١).

ولقد ظلت عبادة العجل تتجدد فى بنى إسرائيل ، على فترات ، فهم لم ينسوا العجل أبدا . كان حنينهم إليه يقودهم إلى عبادته من حين لآخر . فعلى سبيل المثال ، عندما انقسمت إسرائيل ، بعد موت سليمان ، إلى مملكتين - مملكة الشمال (إفرايم) ، ومملكة الجنوب (يهودا) - أقام يربعام أول ملوك مملكة الشمال (٩٢٢ - ٩٠١ ق . م . تقريبا) تمثالين لعجلين ذهبيين ، وضع أحدهما فى بيت إيل ، وجعل الآخر فى « دان » . وكان هدفه الأساسى هو ألا يذهب « الشعب » إلى « بيت الرب » فى أورشليم حيث يحكم رحبعام بن سليمان فى مملكة الجنوب . خاف يربعام - وكان من عامة الناس - أن يميل « الشعب » إلى بيت داود فيقتلوه .

قال يربعام للشعب بعد أن صنع التمثالين : « هو ذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر » (الملوك الأول ١٢ : ٢٨) .. نفس الصيحة التى صدرت عن الجموع من أتباع موسى وقد ارتدوا فى البرية وخلعوا ثيابهم ورقصوا حول العجل الذهبى الذى صنعه لهم هارون .. نفس الردة التى حدثت أيام موسى .. ونفس الصيحة .. لدرجة أن بعض النقاد - كما يقول أندرسون - ذهبوا إلى حد افتراض أن قصة العجل الذهبى ذاتها ما هى إلا حكاية تم تأليفها كى تكون هجوما هجائيا عنيفا على ملك الشمال الذى دفع بإسرائيل إلى هذه الخطية (١) .

على أية حال ، يطلب الرب من موسى وهو على قمة الجبل - حسب الحكاية التوراتية - أن يسرع بالنزول لأن الشعب قد فسد : « صنعوا لهم عجلا مسبوكا وسجدوا له وذبحوا له وقالوا هذه آلهتك ياإسرائيل » (خروج ٣٢ : ٨) .

لم يحفظ « بنوإسرائيل » العهد .. نسوا كلمات « الرب » ولم يكترثوا بوصاياه .. رقصوا « عرايا » أمام « العجل » .

---

(١) د. عبد المحسن الخشاب ، ص ٢٤٠ .
(٢) أندرسون ، ص ١٠٣ .

الآن ، يقول الرب لموسى ، « أتركني ليحمى غضبى عليهم وأفنيهم . فأصيرك شعبا عظيما » (خروج ٣٢ : ١٠) . وكأن الرب ، بهذه الكلمات المثيرة للاستغراب ، يستأذن موسى كى يسمح له فى أن يغضب على « بنى إسرائيل » ويفنيهم جميعا ، ثم يجعل من نسل موسى شعبا يحل محلهم فى مملكة « الرب » .

ومن الغريب شديد الغرابة ، والملفت للنظر بصورة مستفزة أنه لا يأتى ذكر فى التوراة كلها لنسل موسى ، بعد أن أعاد له حموه ، كاهن مديان ، زوجته وولديه جرشوم وأليعازر . ماذا حدث لجرشوم وأخيه ؟ هل توليا مناصب فى القيادة ؟ هل اشتركا فى معارك ؟ هل أصبحا من كهنة الرب ؟ هل رقصا حول « العجل » مع الراقصين فقتلهما موسى ضمن من قتل ؟ لا أحد يدرى وكتبة التوراة لا يشيرون لأى منهما بخير أو شر .

يرفض موسى عرض الرب .. إنه لايرضى بإفناء « الشعب » كى يكون هو أمة عظيمة .. إنه لا يجادل الرب فقط ، بل يشتد عليه فى الكلام ويطلب منه أن يندم .

موسى يطلب من الرب أن يندم !! ولايقف بكلماته عند هذا الحد .. إنه يصل فى خطابه مع ربه إلى حد التوبيخ واللوم : « إرجع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك » (خروج ٣٢ : ١٢) . ماذا سيقول المصريون ؟ هكذا يجادل موسى ربه : سيقولون إنك أخرجت هذا الشعب « بخبث » كى تفنيهم فى الجبال وتبيدهم جميعا عن وجه الأرض .. ثم ماذا عن وعدك لإبراهيم وإسحق ويعقوب وقد قلت لهم أكثر نسلكم وأعطيهم كل هذه الأرض التى تكلمت عنها فتكون لهم ملكا أبديا .. هل يكون كلامك هذا عبثا ؟!!

يستمع الرب – حسب حكاية التوراة – إلى كلام موسى ولايناقشه ، وكأنه تلميذ صغير يستمع إلى توجيهات معلمه ولومه وتوبيخه . وفى النهاية لايتردد الرب فى أن يعرب عن خالص أسفه وندمه : « فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه » (خروج ٣٢ : ١٤) .

إن إله إسرائيل – فى رأى هيتون Heaton – يوصف بأنه الإله الحى ، لذلك فهم لايترددون فى أن ينسبوا إليه أشد المشاعر الإنسانية وأكثرها .. مثل التوبة والغضب ونفاد الصبر والألم والابتهاج والأسف والتعاطف والفرح والغضب والانتقاد والاحتقار والكراهية والحب .... ففى عالم الشعر العبرى يعيش الرب والبشر حياة مشتركة (١)

(١) هيتون ، ص ١٠٢ - ١٠٣

نزل موسى من الجبل واللوحان فى يده . كان يشوع على الصخر قرب السفح ينتظر .. ظل هو أيضا فى الجبل أربعين نهارا وأربعين ليلة . كان لايمكن أن يقترب .. فقط يقبع بعيدا ينتظر ، فهو تابع موسى المخلص وحارسه وخليفته الذى يقود إسرائيل - بعد موت موسى - إلى أرض « اللبن والعسل » .

سمع يشوع صوت هتاف . قال لموسى : قتال هناك . لكن موسى كان يعرف أكثر . إنه ليس قتال .. إنه رقص وغناء .. إسرائيل تترنم .. تقدس إلهها الذهبى .. العجل المعبود !!

اقترب موسى .. شاهد الرقص وأبصر العجل . الإحساس الذى سيطر عليه لم يكن الإحساس بالدهشة .. بل الإحساس بالغضب .. الغضب الذى تملك « يهوه » من قبل ، سيطر الآن على موسى : حمى غضب الرب وموسى على قمة الجبل ، أما الذى حمى الآن عند السفح فهو غضب موسى ، وكأن غضب موسى قد حل محل غضب الرب . ورغم أن موسى ناقش ربه عندما حمى غضبه وطلب منه أن يندم على الشر الذى أراد أن يفعله بشعبه ، إلا أنه الآن لايستطيع أن يسيطر على غضبه هو .

طرح موسى اللوحين .. كسرهما أسفل الجبل .. رغم أنهما من صنعة الله .. وأنهما كتبا بأصبع الله . لكنه لايفكر كثيرا فى صنعة الله ، ولا فى أصبع الله ، إنه فى غضبه لايكترث . لقد نقضت إسرائيل عهدها مع الرب وارتدت إلى عبادة الأوثان ، ولم يعد للوحين فى هذا المجتمع المدنس مكان .

إقتحم موسى الجمع .. فى ثورته العارمة « أخذ العجل الذى صنعوا وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعما وذراه على وجه الماء وسقى بنى إسرائيل » (خروج ٣٢ : ٢٠)

ليس من السهل تفسير كيف أحرق موسى العجل - لو كان من الذهب الخالص - وطحنه حتى صار ناعما . لكن كاسوتو يحاول توضيح هذه النقطة بقوله : إنه من الضرورى أن نلفت الانتباه إلى الطريقة التى كانوا يصنعون بها الأوثان فى الأيام الغابرة . لقد كانوا يصنعون أولا تمثالا من الخشب ، ثم يقومون بكسوه بعد ذلك بطبقة من معدن ثمين . ووجود هذا « القالب » الخشبى الذى يمثل الجزء الأكبر من الوثن ، يفسر ذلك الجزء الخاص بحرق موسى للعجل وطحنه حتى صار ناعما (١) ، أى أن

(١) كاسوتو ، ص ٤١٢

الذى حرقه موسى ، وحوله إلى ذرات رماد طرحها على وجه الماء ، هو الجزء الخشبى من العجل الذى صنعه هارون .

وقد يثار هنا سؤال وسؤال : لماذا أحرق موسى العجل وذراه على رجه الماء ثم سقى « بنى إسرائيل » ؟ ثم ، أى ماء ذلك الذى طرح فيه موسى الرماد ؟

فى سفر « الخروج » لايوجد تحديد لمكان الماء أو نوعيته سواء كان ماء بئر أو ماء عين أوماء نهر أو ماء مخزنا فى أوعيه ، إنه مجرد « الماء » .. « ذراه على وجه الماء » أما فى سفر « التثنية » فمصدر الماء محدد ، ومكانه أيضا محدد . يقول موسى للشعب مستعيدا أحداث ماكان : « وأما خطيتكم العجل الذى صنعتموه فأخذته وأحرقته بالنار ورضضته وطحنته جيدا حتى نعم كالغبار . ثم طرحت غباره فى النهر المنحدر من الجبل » (تثنية ٩ : ٢١) .

والإشارة إلى « نهر منحدر من الجبل » ، إشارة شديدة الغرابة ، ولم يرد لها أى ذكر فى سفر « الخروج » . ولا تذكر لنا كتب التاريخ أو كتب الجغرافيا أنه كان هناك نهر أيام موسى فى جبل سيناء أو فى جبل حوريب أو جبل الله وهى تسميات مختلفة لنفس الجبل الذى تجلى منه الرب وتحدث إلى موسى . ثم من أين ينبع النهر وأين يصب؟ ولووجد هذا النهر فعلا لتم حل الكثير من مشكلات أتباع موسى ، وخفّت حدة تذمرهم وتمردهم الذى وصل يوما إلى حد محاولة رجم موسى بسبب نقص الماء . ولو وجد هذا النهر جدلا ، فكيف يشرب منه « الشعب » الماء المختلط بالرماد ومياه النهر جارية وعدد أفراد الشعب - كما يقول كتبة التوراة - تجاوز المليونين ؟

ربما يكون الأقرب إلى المنطق أن يقال إن موسى ذرى الرماد فى الأوعية التى اختزن فيها « بنو إسرائيل » الماء ، ثم طلب منهم أن يشربوا ، بعد أن ظهر لهم بصورة واضحة - كما يقول كاسوتو - عجز ذلك الوثن الذى صنعوه (١)

ربما أراد موسى أن يتجرع « بنو إسرائيل » وماد ردتهم وخيانتهم لرب الجنود .. إنه يريدهم أن يتذوقوا مرارة الغدر بأن يظل طعم الرماد فى حلوقهم حتى الموت . وربما يكون فى ذلك إشارة لما سيأتى ذكره فيما بعد ، فى سفر « العدد » ، عن المرأة الخائنة وماء اللعنة المر .

---

(١) كاسوتو ، ص ٤٠٩

يقول «يهوه» فيما يختص بالحكم على المرأة التى يتهمها زوجها بالزنى وليس شاهد عليها وهى لم تؤخذ : يأخذها زوجها إلى الكاهن ومعها قربانها . ويستحلف الكاهن المرأة ويقول لها « إن كان لم يضطجع معك رجل وإن كنت لم تزيغى إلى نجاسة من تحت رجلك وتنجست وجعل معك رجل غير رجلك مضجعه . يستحلف الكاهن المرأة بحلف اللعنة ويقول الكاهن للمرأة يجعلك الرب لعنة وحلفا بين شعبك بأن يجعل الرب فخذك ساقطة وبطنك وارمة . ويدخل ماء اللعنة هذا فى أحشائك .. ويكتب الكاهن هذه اللعنات فى الكتاب ثم يمحوها فى الماء المر . ويسقى المرأة ماء اللعنة المر فيدخل فيها ماء اللعنة للمرارة » (عدد ٥ : ١٩ - ٢٤) . فإن كانت المرأة قد خانت زوجها وتنجست يسقط فخذها وترم بطنها . أما إن كانت بريئة فلا يحدث لها من ذلك شئ .

وكأن موسى بإجباره « قومه » على أن يشربوا الماء الممزوج برماد « العجل » ، يريد أن يطبق عليهم حكم المرأة الزانية ، فيعرف من الذى زنى بإيمانه « بيهوه » ومن الذى لم يزن ، وبذلك ربما يستطيع أن يفرز الطاهر من النجس .

لكن يبدو أن لجوء موسى إلى « ماء اللعنة المر » لم يصل به إلى نتيجة ، فبنو إسرائيل قبل أن يشربوا هم بنو إسرائيل بعد أن شربوا . لم يتغير شئ .

لذا فقد لجأ موسى إلى العنف المتأصل فيه . وقف فى باب المحلة ، أى فى أحد مداخل المخيمات ، وصاح بصوت جهورى سمعه كل الشعب ، فموسى الآن لا يتأتئ ولا يتهته ولا يتعلثم ، كما وصفه كتبة التوراة فى بداية اللقاء مع « إله الآباء » . صاح موسى فى حزم القائد الدموى لحظة الخطر : « من للرب فإلىّ » . فاجتمع إليه «جميع» بنى لاوى .

واستخدام كلمة « جميع » فى هذا المقام مبالغة واضحة ، ذلك لأنه إن كان كل اللاويين قد انضموا إليه ، فكيف يطلب منهم أن يقتل الواحد أخاه . إنها معركة سيقتل فيها اللاوى اللاوى ، ولا ننسى أن الذى صنع العجل هو كبير اللاويين . وعندما احتشد جمع كبير من بنى لاوى حول موسى ، قال لهم : « هكذا قال الرب إله إسرائيل . ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومروا وارجعوا من باب إلى باب فى المحلة واقتلوا كل واحد أخاه وكل صاحبه وكل واحد قريبه » (خروج ٣٢ : ٢٧) .

وفى الحقيقة هذا كلام لم يقله « الرب إله إسرائيل » !! لقد أحل موسى غضبه - من قبل - محل غضب الرب . والآن يضع نفسه هو مكان الرب ، ويتحدث بكلام لم يقله الرب . والسؤال هو : متى قال الرب هذا الكلام ؟

إن « الرب إله إسرائيل » عندما كان يتكلم كان الشعب يسمعه ويرتعد ، لدرجة أنهم قالوا لموسى « تكلم أنت معنا فنسمع ولا يتكلم معنا الرب لئلا نموت » .. « أنتم رأيتم أنني من السماء تكلمت معكم » (خروج ٢٠ : ٢١ - ٢٢) . كما أن « الرب » كان يكلم موسى ويصدر إليه أوامره مباشرة ، فما لفم ووجها لوجه ، كما يكلم الرجل صاحبه (خروج ٣٣ : ١١) . ولم يكن موسى رجل وحي فيقال : قد أوحى إليه . ولو كان الرب يريد تلك المذبحة لأخبر موسى بذلك مباشرة على مرأى ومسمع من كل إسرائيل . .

وفى معركة دموية رهيبة ، كان الهدف منها حفظ النظام وتخويف وترويض الجموع الشاردة المتمردة ، سقط من « الشعب » مايقرب من ثلاثة آلاف رجل فى يوم واحد .. سقطوا بالسيف ، بأمر من « ذلك الرجل موسى » .

ونسى « ذلك الرجل موسى » الوصية السادسة من الوصايا العشر والتى تقول : لا تقتل !!

يحكى كتبة التوراة أن الرب - بعد حادثة العجل - قرر ألا يسكن وسط إسرائيل وألا يقودهم بنفسه . وهذا معناه أن « المسكن » الذى أمر موسى بإقامته ، وأعطاه كل تفاصيل صناعته ، لن يقام . سيكتفى الرب بأن يرسل أمامهم ملاكا يقودهم إلى أرض « اللبن والعسل » ، أما هو « فإنى لا أصعد فى وسطك لأنك شعب صلب الرقبة . لئلا أفنيك فى الطريق » (خروج ٣٣ : ٣) .

أتخذ موسى هو أيضا قرارا مشابها لقرار الرب : إن خيمته هو ، أى خيمة القيادة ، لن تظل وسط خيام « إسرائيل» . أمر موسى بنقلها خارج « المحلة » ، بعيدا عن مئات الآلاف من الخيام . وجعل موسى عليها حارسا لايبرحها وهو خادمه : يشوع بن نون .

وبانتقال الخيمة تغيرت طبيعتها ، فبعد أن كانت خيمة القائد ، أو خيمة « الرجل موسى » ، أصبحت خيمة الاجتماع أى ذلك المكان المقدس الذى يجتمع فيه موسى بإله إسرائيل . ويقول كاسوتو إن موسى كان يأمل أن يلتقى به الرب فى « خيمة

الاجتماع » هذه ، ولم يخيب الرب رجاءه (١) . ومن الملاحظ أن موسى فعل ذلك من تلقاء نفسه دون أن يتلقى أوامر من الرب ، وكأنه على يقين من أن الرب سيلتقي به هناك .

في نفس الوقت يحتفظ موسى لنفسه بمكان وسط خيام إسرائيل . إنه ينتمي إلى نفس المكان ، كما كان من قبل . لكن المكان تم تدنيسه بعد حادث « العجل » ، لذا كان من المستبعد إن لم يكن من المستحيل أن يحل به « يهوه » .

وكان موسى ، كلما دعت الضرورة ، يترك مكانه وسط الخيام ويتوجه إلى « خيمة الاجتماع » كي يلتقي بربه ، يتحدث إليه .. يسأله ويستفسر منه ويتلقى تعاليمه . ولقد استمر الحال على هذا المنوال إلى أن تم - فيما بعد - تشييد « المسكن اليهوى Tabernacle » . « وكان جميع الشعب إذا خرج موسى إلى الخيمة يقومون ويقفون كل واحد في باب خيمته وينظرون وراء موسى حتى يدخل الخيمة . وكان عمود السحاب إذا دخل موسى الخيمة ينزل ويقف عند باب الخيمة . ويتكلم الرب مع موسى فيرى جميع الشعب عمود السحاب واقفا عند باب الخيمة . ويقوم كل الشعب ويسجدون كل واحد في باب خيمته . ويكلم الرب موسى وجها لوجه كما يكلم الرجل صاحبه » (خروج ٣٣ : ٨ - ١١) .

يتوسل موسى لربه أن يغفر لقومه خطيئتهم ، وأن يسير في وسطهم كما وعد من قبل ، « فنمتاز أنا وشعبك على جميع الشعوب الذين على وجه الأرض » (خروج ٣٣ : ١٦) .

وعبارة موسى الأخيرة تبدو شديدة العنصرية ، فهو لا يطلب من ربه أن يحقق العدالة والمساواة بين البشر ، كل البشر ، بصفتهم خلقه وعباده ، بل يريد التفرد والتميز لنفسه أولا ، عندما يصدر كلامه بـ أل « أنا » ، ثم لشعب إسرائيل ثانيا .

ويمكن أن يقال بكل بساطة أن موسى هذا - كما تصوره التوراة - كان عنصريا متعصبا ، وأنه أول من نادى - بين « بني إسرائيل » - بالتفرقة العنصرية والتميز العرقي ، وربما يكون ذلك بدافع من إحساسه بضآلة قدره وقدر تلك الأشتات الضالة التي يقودها ولا يعرف بصورة واضحة ماذا يفعل بها في تلك البرية .

---

(١) كاسوتو ، ص ٤٣٠

يطلب الرب من موسى أن ينحت لوحين جديدين من حجر مثل الأولين ، وأن يصعد فى الصباح إلى قمة الجبل . لقد قرر الرب أن يكتب كلمات العهد ، أى الكلمات العشر ، مرة أخرى . وهذا معناه أنه قد عاد إلى سالف عهده مع « بنى إسرائيل » .

صعد موسى وهو يحمل فى « يده لوحى الحجر » .. تجلى الرب فى السحاب .. خر موسى ساجدا متوسلا إلى ربه كى يصفح عن « بنى إسرائيل » .. أن يغفر لهم .. وأن يكون لهم ملكا .

ويتم الرضا الربانى .. وتكون علامة الرضا والصفح أن يملى الرب على موسى الوصايا العشر مرة أخرى : « أكتب لنفسك هذه الكلمات لأننى بحسب هذه الكلمات قطعت عهدا معك ومع إسرائيل » (خروج ٣٤ : ٢٧) . ويقطع الرب على نفسه عهدا بأن يفعل من أجل إسرائيل عجائب ما شهدها بشر ، أى عجائب لم تخلق فى كل الأرض وفى جميع الأمم ، كما يقول كتبة التوراة .

كتب موسى الكلمات العشر كما طلب منه الرب .. كتب « على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر » (خروج ٣٤ : ٢٨) . وهذه الكلمات العشر ، رغم أنها تجديد لنفس العهد ، تختلف نصا وموضوعا عن الكلمات العشر التى كتبت على اللوحين الأولين .. وهذا هو نصها :

١ - لا تسجد لإله آخر .

٢ - لا تصنع لنفسك آلهة مسبوكة .

٣ - تحفظ عيد الفطير سبعة أيام تأكل فطيرا كما أمرتك فى وقت شهر أبيب .

٤ - لى كل فاتح رحم .

٥ - ستة أيام تعمل وأما اليوم السابع فتستريح فيه .

٦ - تصنع لنفسك عيد الأسابيع أبكار حصاد الحنطة وعيد الجمع فى آخر السنة

٧ - لا تذبح على خمير ذبيحتى .

٨ - لا تبت إلى الغد ذبيحة الفصح .

٩ - أول أبكار أرضك تحضره إلى بيت الرب إلهك .

١٠ - لا تطبخ جديا بلبن أمه . (١)

(خروج ٣٤ : ١٤ - ٢٦)

ومن الملفت للنظر أن هذه الرواية الثانية للوصايا العشر تهمل تماما العلاقات الإنسانية التي تم التركيز عليها في الكلمات العشر الأولى - وهي أكرم أباك وأمك ، لاتقتل ، لا تزن ، لاتسرق ، لاتشهد على قريبك شهادة زور ، لاتشته بيت قريبك ، لاتشته امرأة قريبك - وتركز على ما يجب أن يؤديه بنو إسرائيل لإلههم وإله آبائهم .

وكما يقول فريزر إن القيم الأخلاقية تختفي كلية في هذه الرواية : إنها تشير جميعا بدون استثناء إلى أمور تتعلق بالشعائر .. إنها تتعرض في دقة وبطريقة تثير الشك إلى صغائر الأمور . أما عن العلاقة بين الإنسان والرب والإنسان والإنسان ، فليس هناك شئ يذكر بهذا الصدد . وعلاقة الإنسان بالرب وفقا لهذه الوصايا أشبه بعلاقة السيد الإقطاعي بأتباعه ، فهو يفرض عليهم أن يؤدوا له حقه ، بله أتفه مظاهر هذا الحق . ولكنه لايهتم بعد ذلك بعلاقة هؤلاء الأتباع بعضهم ببعض ، طالما أن هذه العلاقة ليست لها صلة بالجزية التي يدفعونها له (٢) .

يمكن القول بأن هذه الوصايا لم يكتبها موسى ، ويستبعد أن تكون قد كتبت حتى في عصره ، ذلك لأن الحياة التي عاشها موسى وأتباعه في البرية كانت حياة جفاف واحتياج وقحط ، بلاغرس وبلازرع ، على عكس ماجاء في هذه الوصايا من فلاحة وأبكار حصاد وعيد الجمع وأبكار الأرض .

من أين لمجتمع « البرية » البدوى ، القاطن بين الجبال والرمال ، بكل هذه الفلاحة والغرس والزرع والحصاد ؟ أغلب الظن أن الكهنة كتبوا هذه الوصايا بعد أن استقر « بنو إسرائيل » في أرض كنعان وتحولوا من قبائل بدوية إلى مجتمع زراعي .

ويرى أندرسون أن هذه التعاليم التي سميت باسم الكلمات العشر - رغم أنه من الصعب جدا أن نجد على وجه التحديد هنا أى كلمات عشر - غالبا مايشار إليها على أنها « الوصايا العشر الشعائرية » ، وذلك لتركيزها على شئون تتصل بالشعائر ،

---

(١) هناك رواية أخرى للوصايا في الاصحاح الخامس من سفر « التثنية » .
(٢) فريزر ، ص ٧١٤ .

مثل الاحتفالات الموسمية والنهى عما كان يمارسه الكنعانيون من طبخ الجدى فى لبن أمه . إن أغلب هذه التعاليم تشير إلى حياة إسرائيل عندما استقرت فيما بعد فى أرض كنعان حيث كانت تقام أعياد فى مواسم الزراعة والحصاد . وهذا ماأخذه عنهم بنو إسرائيل (١) .

ظل موسى فى الجبل - هذه المرة أيضا - أربعين نهارا وأربعين ليلة دون طعام أو شراب . هذا ما يقوله كتبة التوراة : « لم يأكل خبزا ولم يشرب ماء » .

هذا معناه أن موسى ، طوال هذه المدة ، قد تم تجريده من صفاته البشرية ، والسمو به إلى مجال الملائكة أو ربما تم التحليق به فى سماوات الآلهة ، فالآلهة لا يأكلون ولا يشربون - باستثناء إله إبراهيم الذى أكل وشرب - لأنهم إن فعلوا فقد يجدوا أنفسهم مضطرين إلى فعل مايفعله البشر .. والتوراة تشير إلى التعدد والكثرة فى عالم الالهة .

على أية حال ، نزل موسى من الجبل بعد أربعين يوما و« لوحا الشهادة » فى يده ولم يكن يعلم أن شيئا فيه قد تغير ، رغم أنه كان لابد وأن يعتريه شئ من التغيير وقد تسامى لمدة أربعين يوما فوق حياة البشر .

لم يكن موسى يعلم عندما نزل من الجبل « أن جلد وجهه صار يلمع فى كلامه معه . فنظر هرون وجميع بنى إسرائيل موسى وإذا جلد وجهه يلمع . فخافوا أن يقتربوا إليه » (خروج ٣٤ : ٣٠) . هذا اللمعان ، أو هذه الهالة النورانية - فى رأى ميير - تعتبر دليلا حيا على أن موسى كان فى صحبة الرب يكلمه وجها لوجه كما يكلم الرجل صاحبه . وهذا معناه أن الهالة النورانية التى تحيط بمجد الرب قد أثرت على وجه موسى فجعلته هو أيضا يشع هالات من نور (٢) .

لكن الذى أخاف هارون « وجميع بنى إسرائيل » لم يكن - فى رأى بعض الدارسين - لمعان فى وجه موسى ، بل شئ آخر مفاجئ وغريب لم يروه فيه من قبل : لقد نبت لموسى قرنان .

وأصحاب هذا الرأى يعتمدون فى تفسيرهم على الترجمة اللاتينية المعتمدة Latin Vulgate التى يبدو بها النص وكأنه يشير بالفعل إلى قرنين حقيقيين كقرنى

---

(١) أندرسون ، ص ١٠٦ .
(٢) ميير ، ص ١٢١ .

الثور . يقول كاسوتو إن هذا هو المعنى الأصلي لكلمة « Qeren » ويضيف : إن موسى قد تم تصويره بالفعل على هذه الهيئة في الفن الأروبي (١) . وهكذا نحت له مايكل أنجلو تمثالا هائلا له قرنا ثور ، ومازال هذا التمثال موجودا في كنيسة « سانت بيترو » في روما .

وينقل د . عبد المحسن الخشاب ماذكره راندولف كونراد J . Randolf Conrad من أن الترجمة اللاتينية تذكر أن موسى كان بقرني ثور ، ولا تقول هذه الترجمة إن على رأسه هالة ، وهما تعبيران بمعنى عبرى واحد . كما أن بعض المفسرين ذهب إلى أن الهالة نشأت أصلا من تتويج الرأس بقرني ثور ، على أساس مايمكن أن يناله الإنسان من تكريم بالغ إذا ماشبه بالثور (٢) . وقد كان رمزا للقوة والشجاعة والخصوبة والعطاء .

وفي فترة من فترات التاريخ القديم ، كان القرنان أيضا رمزا للألوهة . يقول « أدولف إرمان » في حديثه عن الإله « رشف » : إنه إله محارب مسلح بحربة ودرع ، هويلبس تاجا لمصر العليا ، ولكن لباسه يكفي لإثبات أصلة الأجنبي ، فيه تعلق شرائط على « النقية » وشريط آخر طويل يتدلى من تاجه الذى يزينه من الأمام قرنان (٣) . كما يورد « إرمان » نصا من أحد الأناشيد يمجد الإله أوزيريس ، ذا القرنين : « لتتمجد أى أوزيريس بن نوت الذى له قرنان ويتكئ على عمود عال ، الذي أعطى التاج والسرور أمام التسعة الآلهة » (٤) .

يروى د . أحمد سوسة أنه في المتحف الوطني بدمشق تمثال للإله « إيل » ، كبير آلهة الكنعانيين وسيدها ، عثر عليه في أوغتريت (تل رأس شمرا) ؛ يشاهد وهو جالس فوق عرشه وعلى رأسه تاج وعلى جانبي الرأس يوجد ثقبان هما مكان القرنين اللذين يعتبران من رموز الربوبية (٥) .

وفي تعليقه على قصة قرني موسى وطمسها في الترجمات الحديثة للتوراة ، يورد الأستاذ شفيق مقار رأى « لويد جراهام Lloyd Graham » الذى يقول : أفلتت حكايات عن موسى عند تحرير « العهد القديم » فتضمنتها نصوصه الأصلية ، وصفته

---

(١) كاسوتو ، ٤٤٩ .

(٢) د . عبد المحسن الخشاب ، ص ١٠٩

(٣) أدولف إرمان ، ص ٢١١

(٤) نفس المرجع ، ص ٢٤٧ .

(٥) د . أحمد سوسة ، ص ١٣٤

بأنه – عندما نزل من الجبل إثر اجتماعه بيهوه وسط كل تلك النار المتقدة كالأتون – كانت هيئته قد تغيرت ، إذ نبت له قرنان فى رأسه . وقد كان تصوير مايكل أنجلو له بهذين القرنين من قبيل الورع والالتزام بما جاء فى النص التوراتى الوارد فى الترجمة اللاتينية ،وهى الترجمة المعتمدة فى الكنيسة الغربية . إلا أن مترجمى نص الملك جيمس تصوروا أن ذلك خطأ ، فغيروا النص ليجعلوا لموسى – بدلا من القرنين – لمعانا فى وجهه ..... والنص كما ورد باللاتينية كما يلى :

Cumque descenderet Moyses de monte Sinai tenebat duas tabulas testimonii , et ignorabat quod cornuta esset facies ex consortio sermonis Domini .

وترجمته : ولما نزل موسى من جبل سيناء وبيده لوحا الشهادة ، كان غير دارٍ بالقرنين اللذين أصبحا فى وجهه من جراء التكلم مع الإله .

وكانت حجة من أدخلوا التغيير على النص أنهم وجدوا أن « القرون » خطأ وأن الصواب هو « إشعاع » . لكن ذلك كان جهلا منهم ، سواء بموسى أو بأصول الترجمة . وقد فاتهم أن الاجتهادات التى من هذا النوع إنما تجرد التوراة من مغزاها الحقيقى (١) . لهذا كان موسى يضع على وجهه برقعا .

ويرى بعض الدارسين أن موسى كان يضع على وجهه برقعا لابسبب القرنين ، ولكن بسبب لمعان وجهه الذى كان يرجع إلى إصابته بالبرص . هذا الرأى يورده المؤرخ اليهودى يوسيفوس ، ويرد عليه بقوله : إن الإنسان لايسعه إلا أن يبطش بهؤلاء الذين يقولون إن موسى نفسه كان مصابا بالبرص عندما هرب من مصر ، متزعما هؤلاء الذين تركوا البلدة لنفس السبب .. ولو كان هذا صحيحا ما شرّع موسى تلك القوانين الخاصة بالبرص ، لأنها تشينه هو نفسه .. بل وربما عارضها لو حاول الآخرون فرضها .. لقد كان موسى طاهرا نقيا ، بريئا من مثل هذه العلّة (٢) .

طلب موسى من « بنى إسرائيل » أن يأتى كل من يسمح قلبه بتقدمة للرب كى يتم صنع « المسكن وخيمته وغطائه وأشظته وألواحه وعوارضه وأعمدته وقواعده والتابوت وعصويه والغطاء وحجاب السَّجْف » (خروج ٣٥ : ١١ -١٢) ، وكذا صنع

(١) شفيق مقار : ص ١٥١ .
(٢) يوسيفوس : ص ٨٠ .

المائدة وعصويها ، ومنارة الضوء ، ومذبح البخور ، ومذبح المحرقة ، والثياب المنسوجة للخدمة فى القدس ، والثياب المقدسة لهارون وكذا ثياب بنيه للكهانة .

تمت إقامة « المسكن » فى أول الشهر الأول من السنة الثانية ، بعد مغادرتهم مصر . وبسط موسى الخيمة فوق المسكن ، وأخذ لوحى الشهادة ووضعهما فى التابوت ، ثم أدخل التابوت إلى المسكن ، « ثم غطت السحابة خيمة الاجتماع وملأ بهاء الرب المسكن » (خروج ٤٠ : ٣٦) .

هكذا حل « المسكن » ، المسمى « بخيمة الشهادة » أو « خيمة الاجتماع » ، محل خيمة موسى التى كان قد نقلها إلى خارج المخيم وأطلق عليها اسم « خيمة الاجتماع » . وكان إقدامه على هذا الفعل مؤقتا إلى أن يرضى الرب ويأمر بإقامة « الخيمة المسكن » . وبذلك ينتهى دور خيمة موسى كخيمة للاجتماع بالإله « يهوه » .

كانت السحابة تغطى « الخيمة المسكن » نهارا ، وفى الليل يحل محلها عمود النار . وكانت السحابة هى دليل « بنى إسرائيل » فى الترحال ، فمتى تحركت يرحلون ، وحيثما تحل ينزلون ، ويصنع موسى ، بأمر الرب ، بوقين من فضة ، « لمناداة الجماعة ولارتحال المحلات » . وكان المسكن - كما يقول يوسيفوس - يحمل على عربة (١) .

طبقا لحركة السحابة ، ارتحل « بنو إسرائيل » مسيرة ثلاثة أيام من برية سيناء إلى برية فاران (٢) . كان ذلك فى العشرين من الشهر الثانى من السنة الثانية . وكان تابوت عهد الرب راحلا أمامهم . وعند ارتحال التابوت ، كان موسى يصيح بأعلى صوته : « قم يارب فلتتبدد أعداؤك ويهرب مبغضوك من أمامك . وعند حلوله كان يقول ارجع يارب إلى ربوات ألوف إسرائيل » (عدد ١٠ : ٣٥ - ٣٦) . ويطلق أندرسون على هذه العبارات : « ترنيمة تابوت العهد » (٣) .

طلب موسى من « حوباب بن رعوئيل المديانى » أن يصحبهم إلى الأرض التى « وعد بها الرب » ، فهو يعرف المكان معرفة جيدة وبذلك يكون عينا لهم . وأغراه موسى بأن يكون له نصيب مما تصيبه « إسرائيل » . لكن حوباب قابل عرض موسى بالرفض ، قال بنبرة قاطعة « لا أذهب بل إلى أرضى وعشيرتى أمضى » (عدد ١٠ : ٣٠) .

---

(١) يوسيفوس ، ص ٧٨ .
(٢) تسمى برية « باران » نسبة إلى وادى باران فى جنوب فلسطين (غطاس عبد الملك ، ص ٢٢٠) .
(٣) أندرسون ، ص ١١٧ .

يعلق « ميير» على رفض حوباب بقوله : **لم يخضع الزعيم القبلى لإغراء العرض الذى قدمه زوج أخته العظيم ، لم يرغب فى ترك قبيلته ومنتجعه وحياته السهلة المريحة ، كى يربط مصيره بمصير شعب مشاكس سئ السلوك** .. لقد سمع بالطبع عما حدث لابنى هارون ، إن لم يكن قد رأى النار وهى تلتهمهما بعد شهر واحد فقط من تكريس هارون وأبنائه كهنة للرب .. ربما أخطأ الابنان فى أداء طقوسهما الدينية .. ربما أساءا السلوك .. فالتهمهما نار الرب الحارقة . وبعد هذا الحادث بوقت قصير يشهد حوباب حادثا آخر يروعه : **جدف ابن امرأة إسرائيلية من أب مصرى وأساء إلى اسم الرب ، وسب ولعن فى خصامه مع رجل إسرائيلى . وكانت النتيجة أن تم رجم ابن المصرى حتى الموت** . كان هذا الانتقام السريع المروع دافعا آخر لحوباب كى يرفض عرض موسى : « **لن أذهب معكم** » (١) .

ربما كان هذا سببا من الآسباب التى دفعت موسى فيما بعد إلى الأمر بإبادة المديانيين إبادة كاملة ، ناسيا الأربعين عاما التى عاشها بينهم .

فى برية « فاران » بدأ الشعب يتذمر من جديد ، وقد عضهم الجوع .. صرخوا : من يطعمنا لحما ؟؟ .. تذكروا أرض مصر وما استمتعوا به فيها من خيرات : « قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله فى مصر مجانا والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم» (عدد ١١ : ٥) .. قارنوا بين حالهم آنذاك وحالهم فى هذا القفر ، وقد يبست منهم الأجساد وضاقت النفوس

كان لابد من تأديب هؤلاء المتمردين . اشتعلت النار فى « طرف المحلة » .. أحرقت الكثيرين . وهذا معناه أنه قد تم إعدام عدد كبير من متذمرى « بنى إسرائيل » حرقا . ولولا صراخ موسى – كما يقول كتبة التوراة – وتضرعه إلى الرب ماخمدت النار (عدد ١١ : ١ –٢) . كان عليهم أن يتعلموا : من يتمرد يموت حرقا .. تأكله نار الرب .

يعلق الأستاذ شفيق مقار على قدرة موسى فى التعامل مع النار بقوله : أعطى سفر « الخروج » موسى صفة رئيسية من صفات الساحر ، هى القدرة على التعامل مع النار ، والدخول فيها والخروج منها وكأنه يستحم بالماء ، فلا يحترق ولا يلحقه من لهيبها أذى ، حيث هى خاضعة لقدرته السحرية . ولقد كان إعطاء تلك القدرة لموسى

---

(٣) ميير ، ص ١٥١ .

أمرا طبيعيا ، بل ومطلبا لا مهرب منه ، بالنظر إلى أنه ظل يتعامل مع معبود أكدت التوراة ذاتها أن النار كانت ملازمة لوجوده مندلعة في كل مكان حل فيه .. ولم يقتصر سحر موسى على دخول النار والخروج منها دون أن يلحقه أذى ، بل اتسع أيضا فشمل القدرة على التحكم فيها ، كتلك المرة التى سمع فيها الرب « الشعب » وهو يتذمر كعاته « فحمى غضبه فاشتعلت فيهم النار » .. إلى أن صلى موسى إلى الرب .. وصلى هنا تعنى أنه رتل كلمات قدرة معينة ، أى قرأ تعويذة سحرية فانطفأت النار ، رغم أن الرب هو الذى أشعلها من ناره (١).

« من يطعمنا لحما » ؟!! .. كانت الصرخة تصم أذنى موسى رغم الحريق ورائحة الموت .

يصور كتبة التوراة موقفا بين موسى وربه يعاتب فيه موسى ربه ، فى سخرية مريرة ، مطالبا إياه بأن يتحمل مسئولية « هذا الشعب » معه ، ولا يتركه وحده يواجه صراخ الجموع الذى - رغم الموت - لاينقطع .

« لماذا أسأت إليّ ؟ يوجه موسى سؤاله الغاضب إلى الرب « لماذا وضعت ثقل جميع هذا الشعب عليّ . ألعلى حبلت بجميع هذا الشعب أو لعلى ولدته حتى تقول لى احمله فى حضنك كما يحمل المربى الرضيع إلى الأرض التى حلفت لآبائه » (عدد ١١ : ١١ -١٢) .

فى مواجهة هذا الغضب الموسوى المغلف بالسخرية ، يستجيب الرب ، ويعد موسى بأنه سيطعم الشعب لحما وبوفرة هائلة لا لمدة يوم أو يومين ، ولكن لمدة شهر كامل ، حتى يصابوا بالتخمة ويصبح اللحم كراهة لهم .

وبالرغم من أن الرب هو الذى يتكلم .. والرب هو الذى يعد ، إلا أن موسى يقابل ذلك بسخرية لاذعة وعدم إيمان بيِّن ، وكأنه هو نفسه قد فقد إيمانه بالإله الذى عاد به من أرض مديان : « قال موسى ست مئة ألف ماش هو الشعب الذى أنا فى وسطه . وأنت قد قلت أعطيهم لحما ليأكلوا شهرا من الزمان أيُذبح .. لهم غنم وبقر ليكفيهم أم يُجمع لهم كل سمكِ البحر ليكفيهم » (عدد ١١ : ٢١ - ٢٢) .

---

(١) شفيق مقار ، ص ١٤٩ - ١٥١

ساقت الرياح أعدادا هائلة من « السلوى » ، وهى طيور مهاجرة ، وبدأ الشعب يأكل حتى الشبع ، لكن « يهوه » للأسف ، بعد أن أطعمهم لحما ضربهم ضربة عظيمة جدا : « فدعى اسم ذلك الموضع قبروت هتأوة لأنهم هناك دفنوا القوم الذين اشتهوا » (عدد ١١ : ٣٤) . بعدها ارتحل موسى ومن معه إلى حضيروت (١) .

لكن المتاعب التى لاحقت موسى لم تكن من الجموع الجائعة الغاضبة فقط ، لكنها روعته من داخل بيته هو نفسه . أخوه هارون وأخته مريم يتكلمان ضده بسبب من أطلق عليها اسم « المرأة الكوشية » التى تزوجها . وقد يكون فى هذا إشارة إلى المرأة الحبشية التى قيل إن موسى قد تزوجها عند غزوه للحبشة .

فى هذا المضمار يقول شفيق مقار : حكاية المرأة الكوشية هذه من الملامح الكاشفة عن أصل موسى ، فأساطير اليهود ذاتها ترجع « أخذه للمرأة الكوشية » كمحظية إلى حملة قادها موسى ، كقائد مصرى ، على أرض كوش ، وعاد منها منتصرا بسبايا وغنائم كثيرة ، كانت تلك المرأة الكوشية من بينها . ويبدو أن موسى عندما خرج إلى القفر كان قد أخذ المرأة الكوشية معه ، وإلا لما تكلمت عليه مريام بسببها (٢) .

لكن « ميير » فى تحليله لموضوع « المرأة الكوشية » يرجع كلام هارون ومريم ضد موسى إلى الغيرة التى بدأت تنهش قلب هارون وتثير نفس مريم من استئثار موسى بالزعامة والنبوة ، متخذين من موضوع المرأة الكوشية ستارا يخفيان وراءه مايعتمل فى صدريهما . يقول « ميير » فى التسعين من عمرها انقلبت مريم ضد ذلك الذى أحبته طفلاً رضيعا ، وسممت فكر أخيه الأكبر الذى كان يده اليمنى والمتحدث باسمه . لقد اتخذا موقفا ضده بسبب المرأة « الإثيوبية » التى تزوجها . ولقد تصور البعض أن موسى قد تزوج للمرة الثانية . لكن هذا التصور من الممكن أن يكون خاطئا حيث أن موت « صفورة » لم يذكر فى أى مكان [فى التوراة] . لذا فإنه من الأفضل الاعتقاد بأن مريم كانت تقصد « صفورة » ، خصوصا وأنه من المحتمل أن صفورة كانت – بسبب لونها – موصومة بالانتماء إلى جنس آخر ، وقد وفدت حديثا إلى موسى وقومه . لقد شعرت مريم بالغيرة منها .. أثارتها فكرة أن تحل محلها – فى الأولوية – امرأة أخرى .

(١) حضيروت : فى الجنوب من جبل خلال ، عند وادى العريش فى سيناء (غطاس عبد الملك : ص ٢٢٠) .
(٢) شفيق مقار ، ص ٣٨٦ .

ويمكن أن نتصور حديثها إلى هارون وإلى النساء الأخريات القريبات منها عن تلك « الكوشية » حتى أثارت عاصفة من المشاعر ضدها .

كان هذا السلوك من جانبها رديئا بما فيه الكفاية ، لكنه كان أسوأ بكثير من جانب هارون الذى كان يحتل أعلى مكانة فى المعسكر العبرانى . لقد كانت مكانة موسى مكانة قيادية تنتهى بموته ، أما مكانة هارون فقد كانت دائمة ولسلالته من بعده . ورغم ذلك لم يستطع هارون أن ينسى ذلك الفارق الكبير بينه وبين أخيه .

من هنا نبعت تلك الغيرة التى اتخذت من صفورة وسيلة لها (١) .

لم يكن الأمر ، إذن ، أمر امرأة تزوجها موسى ، سواء كانت كوشية أو مديانية ، فزوجة موسى - أيا كانت جسيتها - لم تلعب أى دور يذكر فى مجرى الأحداث منذ بدأ موسى قيادته للفلول الشاردة .. فبعد أن زار « كاهن مديان » موسى وسلمه زوجته وولديه لايرد أى ذكر لهذه الزوجة أو للولدين ، وكان وجودهم جميعا قد أصبح خارج دائرة الحدث .

وعلى ذلك فغيرة مريم من هذه المرأة غير منطقية ، كما أنه لايمكن وسط هذا الخضم الهائل من الأحداث المروعة أن ينقلب هارون « الكاهن » ضد موسى « النبى » بسبب امرأة لايهمه من أمرها شيئا .

كان الأمر أكبر من ذلك بكثير ، أكثر عمقا وأشد خطورة . قالا - أى مريم وهارون - « هل كلم الرب موسى وحده . ألم يكلمنا نحن أيضا » (عدد ١٣ : ٢) . المسألة واضحة ، شديدة الوضوح .. لم تكن القضية قضية امرأة .. بل كانت غيرة وتطلعاً نحو تلك المكانة السامقة التى تربع فوقها موسى .

لم يتردد « يهوه » ، كالمعتاد ، فى التدخل وبسرعة كى يحسم المشكلة : « فقال الرب حالا لموسى وهرون ومريم أخرجوا أنتم الثلاثة إلى خيمة الاجتماع » (عدد ١٢ : ٤) . كان لابد من الطاعة وتنفيذ الأمر . خرجوا . نزل الرب فى عمود سحاب ووقف بباب الخيمة - حسب حكاية التوراة . دعا هارون ومريم قال لهما ، بنبرة لانعرف كيف تكون عندما يتحدث « رب » : « اسمعا كلامى . إن كان منكم نبى للرب فبالرؤيا استعلن له فى الحلم أكلمه . وأما عبدى موسى فليس هكذا بل هو أمين فى كل بيتى . فما إلى فم وعيانا أتكلم معه » (عدد ١٢ : ٦ - ٧) .

---

(١) مير ، ص ١٥٨ .

هكذا تم حسم الأمر ، لكن « يهوه » لم يكتف بذلك . بل حمى غضبه عليهما ، أى على هارون ومريم ، فإذا مريم برصاء كالثلج .

المثير للاستغراب هو أن الرب قد غضب « عليهما » أى على الإثنين معا ، لكنه أصاب مريم فقط بالبرص ، أما هارون فلا يصيبه شئ وكأن الرب لم يغضب أبدا عليه . تعاقب مريم فقط ولا يعاقب هارون رغم أنه شـ [illegible] من الواجب أن يكون عقابه أشد قسوة وأكثر إيلاما من عقاب مريم ، ذلك لأنه كاهن للرب يعرف جيدا قدر موسى ومكانته ، وكان من الواجب عليه أن يقف بجانبه ويؤازره ، لا أن يقف ضده ويتكلم عليه . لكنه لايصاب بأى أذى ، ولا حتى بمجرد تهديد من الرب « يهوه » أو من « عبده » موسى .

هارون هذا الذى تكلم ضد موسى ولم يعاقب ، هو نفسه الذى صنع العجل الذهبى وبنى له مذبحا ، وهلل صائحا فى الجموع المحتشدة : « غدا عيد للرب » وفى يوم واحد سقط ثلاثة آلاف قتيل ، ذلك لأنهم احتفلوا وغنوا ورقصوا للعجل . أما الذى صنع العجل وبنى له مذبحا فلا يصاب بشئ . على العكس ، إنه بعدها ، يصبح أول كاهن للرب - « يهوه » وليس « العجل » - وأبا لسلالة من الكهنة يتوارثون الكهانة ولا تنزع منهم أبدا . هذا أمر مثير للدهشة والاستنكار !!!

تظل مريم برصاء لمدة أسبوع ثم تشفى ، بعد أن توسط لها هارون !!

ارتحل موسى بالشعب المتمرد من حضيروت إلى برية فاران حتى بلغ قادش (١) كان وحيدا وسط جموع جامحة صلبة الرقبة ، تحمّله وزر متاعبها ، وتضع على كتفيه كل أثقال مشكلاتها ، وكأنه - كما قال لربه - حبل بهذا الشعب وولده وأصبح لزاما عليه إن يرضعه وينشئه ويقوده حتى يصل به إلى بر الأمان ، أى إلى الأرض الموعودة المسماة بأرض الميعاد . حتى أخوه وأخته لم يعودا كما كانا ، بعد أن تكلما عليه .

وفى وحدته الهائلة ، وكأنه « جبل الله » يقف وحده شامخا فى مواجهة الكون، يتحمل موسى قدره ويقود جموعه فى الطريق إلى حيث اعتقد أنهم وعدوا ... وكأنه بالفعل هو « رجل الله » .

---

(١) قادش . فى شمال شرقى سيناء .

اقتربوا من الأرض التي قيل إن الرب قد وعد بها « بني إسرائيل » . أرسل موسى، بناءً على أوامر « يهوه » ، إثنى عشر رجلا كي يتجسسوا ويأتوه بالأخبار .. رجل من كل سبط .. كان من بينهم كالب بن يفته من سبط يهوذا ، ومن سبط أفرايم هوشع بن نون الذى أطلق عليه موسى اسم « يشوع » . طلب منهم موسى - كما يقول ديلى - أن يتوجهوا إلى بئر سبع ، وهى على بعد ثمانين كيلوا مترا من قادش ، للتعرف على الطريق لدخول تلك الأرض (١) .

عاد الرجال بعد أربعين يوما . كان التقرير الذى قدموه مثيرا للفزع : إن الأرض بالفعل تفيض لبنا وعسلا ، لكنها أرض « تأكل سكانها » ولا طاقة لهم بها ، ولا قدرة لهم عليها . أجمع على هذا التقرير عشرة رجال ، واختلف معهم اثنان هما : كالب ويشوع قالا : نحن قادرون عليها .

ثارت ثائرة الجموع لهذه الأخبار .. شبت نيران الفتنة بينهم .. تمردوا كما هى عادتهم .. صرخوا وبكوا . « ليتنا متنا فى أرض مصر أو ليتنا متنا فى هذا القفر . لماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف . تصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة » (عدد ١٤ : ٣) .

كان هذا التمرد أشد من كل ماسبق وأكثر خطورة ، إذ لم يقف الأمر عند حدود الاعتراض على اقتحام الأرض والقتال .. **لقد قرروا فى ثورتهم العارمة أن يختاروا لهم رئيسا آخر غير موسى يعود بهم إلى أرض مصر .**

يقول « مير » إن هذه اللحظة كانت من أشد اللحظات مرارة فى حياة موسى . لقد اقترحوا من قبل اختيار قائد آخر ، لكن ذلك حدث عندما كان بعيدا عنهم . هذه فقد كانوا يواجهونه ويحيطون به .. إن لم يقبل بالقائد الجديد يذهب معهم ، فإنهم لامحالة تاركيه كى يواجه قدره وحده .

إرتمى موسى على وجهه أمام كل الشعب ، ليس فقط لأنه كان سينحى عن القيادة بهذه الطريقة المهينة ، ولكن لأن غضب الرب كان لامحالة سيحل بذلك الشعب الذى أحبه (٢) .

---

(١) ديلى ، ص ١٦٤

(٢) مير ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

صعب يائس – شديد الصعوبة واليأس – كان الموقف بالنسبة لموسى . لم يفعل هارون شيئا .. لم ينطق بكلمة .. ربما كان ينتظر نهاية موسى ، كى يصنع لبنى إسرائيل عجلا آخر .

لكن يشوع بن نون وكالب بن يفتة ، بعد أن مزقا ثيابهما حزنا على ماحدث ، حاولا إثناء القوم عما اعتزموا القيام به .. قالا : الأرض جيدة جدا ونحن قادرون عليها إن سُرَّ بنا الرب . « لا تتمردوا على الرب ولا تخافوا من شعب الأرض لأنهم خبزنا » (عدد ١٤ : ٩) .

لم تستجب الجموع .. كان رد فعلها ضاريا فى عدوانيته .. لقد حاولوا رجم هذين الاثنين بالحجارة .

وكما هو متوقع تدخل الإله « يهوه » قبل أن يستفحل الأمر ويصل بموسى ومن ناصروه إلى حدود الكارثة ، إن لم يكن إلى الكارثة ذاتها .. وهى أن يتم رجم موسى ، والقلة التى ناصرته ، بالحجارة حتى الموت .

عرض « يهوه » على موسى نفس العرض الذى قدمه له فى مناسبة سابقة .. أن يبيد الشعب كله « بالوبأ » ، ويجعل من موسى وسلالته شعبا أكبر وأعظم . **رفض موسى عرض الرب ، كما رفض من قبل .. جادل الرب بمنطق قوى مثير للاندهاش . وكأن « هذا الرجل موسى » كان يمتلك المقدرة على إقناع الرب ويفتقدها عندما يتعامل مع « الشعب » .. كأنه كان يقدر على « الرب » ولا يقدر على الناس .**

قال موسى بمنطقه المفحم دوما للإله : « فإن قتلت هذا الشعب كرجل واحد يتكلم الشعوب الذين سمعوا بخبرك قائلين لأن الرب لم يقدر أن يدخل هذا الشعب إلى الأرض التى حلف لهم قتلهم فى القفر » (عدد ١٤ : ١٥) .. طلب موسى من ربه أن يصفح عنهم ويغفر لهم .. واستجاب يهوه – كالمعتاد – لكلمات موسى ، فصفح وغفر .

لكن الصفح لم يكن مطلقا ، والمغفرة لم تكن جامعة : لقد فقد الشعب إيمانه بيهوه ولم يصدق كلماته ، وهذه إهانة للرب من المستحيل أن تمر دون عقاب . إنه لن يفنيهم فى التو واللحظة كما انتوى ، لولا تدخل موسى ، لكنه سيفنيهم بالتدريج خلال أربعين عاما يقاسون فيها فى القفر حتى تسقط جثثهم جميعا ولايدخل إلى « الأرض الموعودة » منهم أحد ، باستثناء كالب ويشوع . أما أبناؤهم فيدخلون .

هكذا صدر الحكم : « فى هذا القفر تسقط جثثكم جميع المعدودين منكم حسب عددكم من ابن عشرين سنة فصاعدا الذين تذمروا على . لن تدخلوا الأرض التى رفعت يدى لأسكنكم فيها ماعدا كالب بن يفته ويشوع بن نون . وأما أطفالكم الذين قلتم يكونون غنيمة فإنى سأدخلهم فيعرفون الأرض التى احتقرتموها . فجثثكم أنتم تسقط فى هذا القفر . وبنوكم يكونون رعاة فى القفر أربعين سنة ويحملون فجوركم حتى تفنى جثثكم فى القفر . كعدد الأيام التى تجسستم فيها الأرض أربعين يوما للسنة يوم تحملون ذنوبكم أربعين سنة فتعرفون ابتعادى » (عدد ١٤ : ٢٩ -٣٥) .

أما العشرة رجال الذين تجسسوا وخوفوا الشعب فقد حكم عليهم بالموت فى الحال .. ماتوا « بالوبأ أمام الرب » .

يقول بوبر عن كثرة أحداث التمرد ضد موسى : من المحتمل أن بعض هذه الحكايات مخترع ، وبعضها مكرر ، ويعود التكرار إلى تسجيل نفس الحدث فى أكثر من تراث ، هذا بالإضافة إلى أن المادة التراثية الأصلية قد أضيف لها الكثير مما أبدعه الخيال (١) .

كان على « بنى إسرائيل » - إذن - أن يتوهوا فى البرية - جنوب بئر سبع - لمدة أربعين عاما . لقد تيقن موسى أن هذا الجيل لن يقدر على القتال واقتحام الإرض ، كان فى حاجة إلى جيل يخلو قلبه من مشاعر العبودية والإحساس بالنقص تجاه الآخرين . إنه لم ينس ماقاله هؤلاء الذين أرسلهم ليتجسسوا عن الجبابرة سكان تلك الأرض ؛ « فكنا فى أعيننا كالجراد وهكذا كنا فى أعينهم » (عدد ١٣ : ٣٣) . وبالطبع لا يستطيع « الجراد » أن يهزم الجبابرة من بنى عناق .

أربعون عاما من الضياع فى أرض التيه .. كان هذا هو قدر الذين خرجوا مع موسى .. التوهان فى البرية حتى تلتهمهم الرمال . **وهكذا - كما يقول بوبر - حرر إله إسرائيل شعبه من عبوديتهم فى مصر كى يخضعهم لعبوديته هو فى أرض التية (٢) . وكانت عبودية بلا خلاص .. حتى الموت .**

يقول الدكتور جمال حمدان إن العودة إلى أرض كنعان ، بعد الخروج من مصر، كانت هى الهدف . غير أن خرف « اليهود » (٣) من الكنعانيين « العمالقة »

---

(١) بوبر ، ص ٨٦ .
(٢) نفس المرجع ، ص ٣٤
(٣) لانعرف لماذا استخدم الدكتور جمال حمدان كلمة « يهود » في هذا السياق ، رغم أنه لم يكن هناك شعب يعرف باسم الشعب اليهودى أيام موسى ، . إلا إذا كان قد استخدمها عن طريق المجاز .

أدى بهم إلى المعصية ، فعقاب التيه فى سيناء أربعين سنة . ويرى البعض أن الحكمة من التيه ، الذى امتد بذلك إلى مدى جيل كامل تاريخيا فى بيئة صحراوية قاسية جغرافيا ، هو إخضاع « اليهود » لعملية صارمة من « الانتخاب الطبيعى » تصفى وتستبعد منهم العناصر الضعيفة الخائرة وتنتخب العناصر القوية الصلبة . وبذلك تديل من جيل هش منسحق إلى جيل مجدد فوار يصلح للرسالة (١) .

وطبقا لحكاية التوراة ، بكى بنو إسرائيل بكاءً مرا عندما سمعوا الحكم .. ندموا على مافعلوا فى حق موسى وفى حق الرب .. قرروا أن يخرجوا للقتال . ورغم أن موسى نهاهم عن الخروج للحرب ولم يخرج معهم هو أو « تابوت الرب » إلا أنهم خرجوا . وكانت النتيجة أن ضربهم « العمالقة والكنعانيون » ، فعادوا إلى موسى مكسورين . وكانت بداية العقاب المدمر : أربعون سنة فى أرض التيه .. بلا أمل فى الخلاص إلا عن طريق الموت .

كانت المرارة تملأ النفوس ، والتمرد ضد موسى كامن فى الأعماق لايسهل محوه . إنه هو الذى أخرجهم ، وهو الذى ضيعهم ، وهو الذى سبب لهم كل مايعانونه من بلاء . كان تمردهم فى أغلب الأحيان من أجل قدور اللحم والسمك والخبز ، وأيضا من أجل الماء .

لكن الأمر تطور بعد ذلك فلم يعد مجرد مطالبة بما يقيم أود الأجساد . لقد غرس هارون وأخته مريم بذرة جديدة فى حقل الأحقاد ، عندما قالا فى استياء : « هل كلم الرب موسى وحده . ألم يكلمنا نحن أيضا » . وكان لابد لهذه البذرة أن تنبت حقدا ينمو ويستفحل وينتشر مدمرا كما الخراب ، لو لم يتم استئصاله بالنار .

برز من بين القوم رجل له من العزوة والمال الكثير ، اسمه قورح بن يصهار وهو من نسل لاوى وابن عم هارون . وآزره من بنى رأوبين داثان وأبيرام وأون ، كما وقف إلى جانبهم مائتان وخمسون من عتاة « بنى إسرائيل » ، وهم جميعا يطالبون بحقهم فى القيادة والزعامة . لقد أفرخ الحقد الذى زرعه هارون وأخته مريم ، إذ أن الجماعة المتمردة استخدمت نفس المنطق الذى استخدمه هارون وأخته ضد موسى .

اجتمع « العتاة » .. واجهوا موسى وهارون .. قالوا لهما : « كفا كما » !! لقد حصل موسى - فى رأيهم - على الكثير ، وكذا حصل هارون . وكفاهما ماحصلا

---

(١) جمال حمدان ، ص ٥٨ - ٥٩ .

عليه . لابد وأن يكون لبقية زعماء الجماعة نصيب ، خصوصا وأنهم - كما يعتقدون - لايقلون عن موسى وهارون فى الأصالة والثراء والقوة . هذا بالإضافة إلى « أن كل الجماعة بأسرها مقدسة وفى وسطها الرب . فما بالكما ترتفعان على جماعة الرب » (عدد ١٦ : ٣)

لقد نبع الانشقاق - كما يقول أندرسون - من قبيلة موسى نفسها .. لاويون ضد لاويين .. من أجل الزعامة . ويؤكد أندرسون أن هذا التمرد يرجع فى أصله إلى ماقام به هارون ومريم من تحريض للقوم ضد موسى .. وهاهو ذا التحريض يتجدد بقيادة قورح وداثان وأبيرام الذين نجحوا فى إثارة القبائل ضد موسى (١) .

ويرى « ميير » أن ثورة قورح كانت ثورة عتاة ، إذ طوت تحت لوائها مائتين وخمسين من مشاهير فحول الرجال . كانت ثورتهم ضد السلطة التى احتكرها موسى لنفسه ولأخيه .. لقد رأى قورح والمتآمرون معه أن موسى وهارون قد احتفظا لنفسيهما بمكان الصدارة : الأول « كملك » على هذا الشعب . والآخر « ككاهن أعظم » . لماذا يستأثر هذان الأخوان بكل هذا السلطان لنفسيهما ويحرم منه كل بنى إسرائيل ؟ أليس من بين الشعب من يماثلهما ؟ أليس كل هذا الشعب مقدس ؟ .. لقد كانت ثورة أمراء ضد أمير وقائد ، ومؤامرة لاويين ضد شيخ لاوى إحتكر لنفسه ولأسرته كل امتيازات الكهانة (٢) .

أما يوسيفوس فيقول إن قورح كان يعتقد أنه لايقل عن موسى فى شئ ، بل ربما اعتقد أنه هو الأعظم (٣) .. لهذا لم يستجب لموسى عندما سقط موسى على وجهه متوسلا ألا ينشق القوم على أنفسهم ، لأن فى اختلافهم دمار وفى تنازعهم هلاك ، ونار الفتنة لن تبقى على أحد .

أرسل موسى يدعو داثان وأبيرام على أمل أن يقنعهما بعدم جدوى التمرد والثورة ، فرفضا فى استعلاء دعوته . وكان منطقهم أنه هو سبب بلاء القوم ومحنتهم ولاحق له فى أن يكون بينهم قائدا وزعيما : « أقليل أنك أصعدتنا من أرض تفيض لبنا وعسلا لتميتنا فى البرية حتى تترأس علينا ترؤسا » (عدد ١٦ : ١٣) .

لازعامة لموسى ، من وجهة نظر هؤلاء ، ولا كهانة لهارون . لقد أثاروا الجموع الحاشدة وحرضوهم على الفتنة ، لدرجة أنهم - كما يقول يوسيفوس - حاولوا قتل

---

(١) أندرسون ، ص ١١٥ .
(٢) ميير ، ص ١٦٨ .
(٣) يوسيفوس ، ص ٨٥ .

موسى رميا بالحجارة .. تجمهروا حول « مسكن الرب » صارخين بأعلى مايكون الصراخ، مطالبين بإعدام الطاغية كي تتحرر من عبوديته كل تلك الجموع الضائعة .

إتخذ موسى قراره .. برزت ملامح القسوة الكامنة في أعماقه .. لن يسمح لهم أبدا أن يعترضوا على مشيئته أو يقاوموا سلطانه . إغتاظ موسى جدا - رغم تأكيد كتبة التوراة في أكثر من موضع أنه حليم جدا - قال للرب : « لاتلتفت إلى تقدمتهما » ، أي إلى مايقدمه داثان وأبيرام ، وبالتالي إلى مايقدمه قورح وكبار القوم الذين معه .

إن موسى هنا يبدو وكأنه يوحي للرب .. بل إن حديثه يصل إلى صيغة النهي : « لاتلتفت » !!

طلب موسى من قورح وكل جماعته أن يأخذوا مجامرهم ويجعلوا فيها بخورا ، ويفعل هارون نفس الشيء ، ويقدم الجميع أمام الرب كل واحد مجمرته ، عندها يعرف بوضوح لا لبس فيه من يتقبل منه .. من يريده الرب ، ومن هو غاضب عليه .

كان هذا السلوك من موسى سلوكا تآمريا لايتسم بالعدالة ، إذ أنه مسبقا كان قد وجه حديثه للرب في صورة النهي « لاتلتفت » إليهم . وهذا معناه أنه قد صدر الأمر ، قبل أن تبدأ المحاولة ، بإعدامهم .

قال الرب « كلم الجماعة قائلا اطلعوا من حوالي مسكن قورح وداثان وأبيرام » (عدد ١٦ : ٢٤) . لقد صدر الحكم بالإعدام حرقا : « انشقت الأرض التي تحتهم وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم وكل من كان لقورح مع كل الأموال . فنزلوا هم وكل ما كان لهم أحياء إلى الهاوية وانطبقت عليهم الأرض فبادوا من بين الجماعة .. وخرجت نار من عند الرب وأكلت المئتين والخمسين رجلا الذين قربوا البخور (عدد ١٦ : ٣٢- ٣٥) .

ويعتقد بوبر أنه بكل تأكيد يوجد شيء مشئوم تخفيه أسطورة الأرض التي فتحت فاها وابتلعت المتمردين (١) .

وفي تعليقه على هذا التمرد - دوافعه ونهايته - يقول الأستاذ شفيق مقار : من الواضح أن الغيرة من تسيد موسى كقائد ورئيس (وهو دخيل على الشعب) والغيظ من تواطؤ هارون معه مقابل شغلة لمنصب كبير الكهنة ، كانا الدافع إلى التمرد .... كان

---

(١) بوبر ، ص ١٨٩ .

المتمردون الذين بلغ عددهم ٢٥٠ من كبار رؤوس الأسباط ، وبخاصة الرأوبينيين ، مما يشير إلى أن بني رأوبين وجدوا الفرصة سانحة للمطالبة بحق البكورية بالنسبة للمكانة والإرث في غمار ذلك التمرد الذي لقي ترحيبا واسعا بين الشعب من منطلق أن بكر إسرائيل ، سبط رأوبين ، كان قد حرم ظلما من حق البكورية ، وبالتالي من حق النصيبين في الإرث وحق التكهن للرب ، الذي اغتصبه اللاويون ، بينما تمرد جناح من اللاويين أنفسهم على انفراد هارون وأبنائه بالغنائم الكهنوتية .. التي قصرها موسى على هارون اعترافا بفضل قبول هارون لموسى كأخ له ....

والذي يرجح أنه حدث أن موسى والكهنة قاموا بعملية تطهير أجهز فيها على قادة التمرد بسرعة وكفاءة .. **هي مذبحة تطهير سياسية حاسمة بالغة الكفاءة وضعها موسى كغيرها في حجر « يهوه » فأمّن سلطانه وأحكم قبضة كهنوته على أعناق الشعب (١)** .

وعندما تذمر كل جماعة « بني إسرائيل » بسبب تلك المذبحة الرهيبة ، قوبلوا بنفس القسوة المتناهية التي لا تعرف حدودا في فتكها وتدميرها ، وسقط منهم أربعة عشر ألفا وسبعمائة . يقول كتبة التوراة إنهم « ماتوا بالوبأ » .. وهكذا تم إخماد التمرد ى ضراوة بالنار و « الوبأ » .

رأى الإله « يهوه » أن يحسم موضوع الكهانة حسما نهائيا فاقترح على موسى أن يحتكم إلى « العصا المفرخة » ، وذلك بأن يأخذ موسى عصا من كل بيت من بيوت رؤساء الأسباط .. اثنتي عشرة عصا ، ويكتب اسم كل واحد على عصاه ، واسم هارون يكتب علي عصا لاوي . وتوضع العصي كلها في « خيمة الشهادة » والرجل الذي يختاره الرب كي يكون كاهنا له تفرخ عصاه . وبذلك لايجد أي من بني إسرائيل سببا للتذمر بسبب الكهانة ، بعد أن اختار الرب .

فعل موسى ذلك ، « وفي الغد دخل موسى إلى خيمة الشهادة وإذا عصا هارون لبيت لاوي قد أفرخت أخرجت فروخا وأزهرت زهرا وأنضجت لوزا .. وقال الرب لموسى رد عصا هارون إلي أمام الشهادة لأجل الحفظ علامة لبني التمرد فتكف تذمراتهم عني لكي لايموتوا » (عدد ١٧ : ٨ - ١١) .

صدر الحكم : من يتمرد لن يقابل إلا بالموت .

---

(١) شفيق مقار ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧

وفي تعليقة على حكاية « العصا المفرخة » ، يقول الأستاذ عصام الدين حفني ناصف : وفي أساطير الرومان أن رومولوس (مؤسس روما) أطلق رمحه في الهواء فمضى بونا شاسعا ثم سقط على تل الأفنين حيث استحال شجرة مورقة (١) .

أقام الشعب في قادش . وكلمة قادش - كما يفسرها بوبر - معناها « الحرم » .. أى « المقدس » و« الملاذ » ومنذ أقدم العصور كانت تسمى « نبع العدالة » (٢)

هناك ماتت مريم ودفنت ، بعد أن قضت في البرية ما يقارب الأربعين عاما .

ضاق نطاق العزلة حول موسى واشتد شعوره بالوحدة فقد كانت مريم - كما يقول ميير - واحدة من القلة القليلة التى كان باستطاعة موسى أن يتحدث إليها عن حياة ماقبل البرية والتيه .. عن وديان مديان ، ومياه البحر الأحمر ، وتلك الأرض البعيدة الرائعة حيث الأهرام والفراعنة . لم يتبق من كل الجموع التى خرجت معه إلا هارون وكالب ويشوع . لقد قاربت الأربعين عاما من الضياع في أرض التيه على الانتهاء (٣)

ازدادت عزلة موسى وثقلت عليه الأعباء بين قوم حاول أن يجعل منهم أمة «مقدسة » فلم يكفوا عن مخاصمته والتمرد عليه ، بل ووصل الأمر بهم في أكثر من مناسبة إلى محاولة قتله رجما والتخلص منه .

وهاهم أولاء من جديد يتذمرون ويتمردون ويعوون كالذئاب حول « الرجل موسى » وقد بلغ من الأعوام ما يقارب المائة والعشرين ، لم يكن هناك ماء .

خاصم الشعب موسى كما هى عادته . قالوا : « ليتنا فنينا فناء إخوتنا أمام الرب. لماذا أتيتما بجماعة الرب إلى هذه البرية لكي نموت فيها نحن ومواشينا . ولماذا أصعدتمانا من مصر لتأتيا بنا إلى هذا المكان الردئ . ليس هو مكان زرع .. ولا فيه ماء للشرب » (عدد ٢٠ : ٤ - ٥) .

لم يترك « يهوه » موسى كى ينكسر أمام تلك الجموع المتذائبة . أصدر أمره لموسى كى يأخذ عصاه . وما دامت « عصا الله » هناك ، فلابد وأن يحدث شئ خارق . لكن الرب لايطلب من موسى أن لايستخدم عصاه .. يكفيه هو وهارون أن يكلما الصخرة أن تعطى ماءها أمام أعين الجماعة كلها .. عندها سوف ينفجر من الماء ما يكفي ويزيد .

---

(١) عصام الدين حفنى ناصف ، ص ٤٩ .
(٢) بوبر ، ص ١٧٥ .
(٣) ميير ، ص ١٧٤ .

لكن موسى ، دون أن يدرى ، أخطأ فى تنفيذ الأمر ، فبدلا من أن يكلم الصخرة كما أمر ، اندفع فى انفعال وضرب الصخرة بعصاه مرتين .

كانت هذه هى خطيئة موسى التى كان لابد وأن يعاقبه عليها الرب فيما بعد «فقال الرب لموسى وهرون من أجل أنكما لم تؤمنا بى حتى تقدساني أمام أعين بنى إسرائيل لذلك لا تدخلان هذه الجماعة إلى الأرض التى أعطيتهم إياها . هذا ماء مريبة حيث خاصم بنو إسرائيل الرب فتقدس فيهم» (عدد ٢٠ : ١٢ - ١٣) . لقد صدر الحكم على موسى وهارون : لن يدخلا الأرض التى وعد الرب بها « بنى إسرائيل » .

ارتحل « بنو إسرائيل » من قادش إلى جبل هور (١) ، بعد أن رفض ملك أدوم أن يسمح لهم بالمرور فى أرضه وتوعدهم بالخروج للقائهم بالسيف ، رغم أن موسى وعده بأن يدفع ثمن كل مايحتاجون حتى ولو كان شربة ماء « فتحول إسرائيل عنه » .

وفى جبل هور ، على تخم أرض أدوم (٢) ، يصدر « يهوه » حكمه بالموت على هارون . إنه لن يدخل « الأرض » وكذا موسى ، لأنهما عصيا قوله عند ماء مريبة . كان على موسى أن يأخذ هارون ومعه ابنه ألعازار ويصعد بهما إلى جبل هور . هناك ينزع عن هارون ثيابه ويضعها على ابنه ألعازار .. عندها يموت هارون : « ففعل موسى كما امر الرب وصعدوا إلى جبل هور أمام أعين كل الجماعة . فخلع موسى عن هرون ثيابه وألبس ألعازار ابنه إياها . فمات هرون هناك على رأس الجبل » (عدد ٢٠ : ٢٧) . كان ذلك فى السنة الأربعين لخروج « بنى إسرائيل » من مصر ، فى اليوم الخامس من الشهر الأول . وكان هارون ابن مائة وثلاث وعشرين سنة حين مات .. ولقد مات في نفس العام الذى ماتت فيه أخته مريم .

واصل موسى السير بمن معه . ارتحلوا من جبل هور فى طريق بحر سوف ، ليدوروا حول أرض أدوم التى رفض ملكها أن يصرح لهم بالعبور .

وتمرد « بنو إسرائيل » على موسى من جديد ، بعد أن قاسوا من الجوع والعطش وهول الطريق .. تذكروا حياتهم الرغدة فى أرض مصر وندموا لأنهم غادروها . وكان التذمر هذه المرة ليس ضد موسى وحده وإنما ضد الرب أيضا : « وتكلم الشعب على الله وعلى موسى قائلين لماذا أصعدتمانا من مصر لنموت فى البرية لأنه لاخبز ولاماء » (عدد ٢١ : ٥) .

---

(١) جبل هور : شرقى خليج العقبة .
(٢) من بحر لوط إلى خليج العقبة ، وهى تتبع الأردن الآن (غطاس عبد الملك ، ص ٢٢١) .

لم يتردد « يهوه » فى أن يعاقب شعبه المختار فى الحال . أرسل عليه « الحيات المحرقة » . كل من تلدغه الحية يموت . واستمرت الحيات المهلكة فى تأدية دورها ، وهو إفناء الكثرة من متمردى « بنى إسرائيل » ، كى يتعلموا الخضوع الكامل والطاعة العمياء لإلههم المنتقم بكل أنواع العذابات من زلزال وبرق ورعد ونار وحيات محرقات .

انحنى القوم تحت وطأة الموت الفاجع . اعترفوا بأن قد أخطأوا . توسلوا إلى موسى .. رجوه أن يطلب من ربه رفع البلاء . وقبل موسى توسلاتهم وتذللهم .. صلى من أجلهم .

كان بأمكان الإله « يهوه » - إن كان إلها حقا - أن يضع حدا لما أحدثته الحيات من هول وهلاك بكلمة واحدة منه . لكنه لا يفعل . بل يفضل أن يقوم موسى نفسه بعملية الإنقاذ البطولى : « قال الرب لموسى اصنع لك حية محرقة وضعها على راية فكل من لُدغ ونظر إليها يحيا . فصنع موسى حية من نحاس ووضعها على الراية فكان متى لدغت حية إنسانا ونظر إلى حية النحاس يحيا » (عدد ٢١ : ٨ - ٩) .

ويرى الأستاذ شفيق مقار أن تلك الحية التى من نحاس قد أحدثت أثرها المطلوب فى نفوس الشعب فيما يختص بقدرات موسى السحرية ، إلى حد أنها تحولت بمرور الزمن إلى موضوع عبادة إلى أن سحقها حزقيا ملك يهوذا لأن قومه كانوا قد ظلوا إلى أيامه يتعبدون لها « الملوك الثانى ١٨ : ٤٠) . وتلك الحية النحاس التى خلبت ألباب القوم حتى عهد حزقيا (٧١٥ - ٦٨٧ ق . م) كانت أصلا تميمة مصرية شائعة من العاج ألف المصريون أن يضعوها حول أعناقهم وعليها رسم لحورس الطفل واقفا على ظهر تمساح ويده تهصر الحيات هصرا .. وفيما يخص المصريين ، كان استخدام التمائم العاجية للحماية من الحيات وغيرها من الزواحف السامة شائعا من أقدم العصور (١) .

ولم يكن بمستغرب على موسى أن يفعل مافعل ، فقد كان على دراية كاملة بالتراث المصرى الذى تعلمه وتربى عليه .

استمر موسى يرتحل بمن معه ، إلى أن وصل إلى « الجواء التى فى صحراء موآب عند رأس الفسجة التى تشرف على وجه البرية » ، وفى هذا الأحوال كان لابد وأن يكون هناك قتال ، فأصحاب الأرض لن يدعوا هؤلاء الدخلاء يمرون فى سلام

(١) شفيق مقار ، ص ١٢٩ .

أرسل موسى رسولا إلى سيحون ملك الأموريين (١) يطلب منه الإذن بالمرور فى تخومه . لم يكتف ملك الأموريين بالرفض ، بل خرج فى جيش للقاء « إسرائيل » وقتالهم دفاعا عن أرضه . وكانت النتيجة : أول نصر عسكرى كبير يحرزه « بنو إسرائيل » . استولوا على مملكة سيحون وأقاموا فى أرض الأموريين .

دفعهم النصر إلى التحرك أكثر نحو الشمال ، حيث صعدوا في طريق « باشان » ، فخرج « عوج » ملك باشان لقتالهم ، « فضربوه وبنيه وجميع قومه حتى لم يبق له شارد وملكوا أرضه » (عدد ٢١ : ٣٥) . هكذا استولوا على مساحة كبيرة من الأرض عبر الأردن ، وعسكروا فى السهول مقابل أرض موآب (٢) . وبذلك أصبح المسرح معدا لغزوة جريئة لأرض كنعان من جهة الشرق .

فزع ملك موآب « بالاق بن صفُّور » ، بعد أن رأى مافعله « بنو إسرائيل » بالأموريين . استشار شيوخ مديان الذين كان بينهم وبينه صداقة وعهد ، فأشاروا عليه أن يرسل إلى « بلعام بن بعور » – وهو متنبئ بابلى فى رأى أندرسون (٣) ، وأحد كبار أنبياء ذلك الزمان فى رأى يوسيفوس (٤) – كى يأتى إلى موآب ويلعن « بنى إسرائيل » .

وحكاية بلعام مع أتانه – الذى توقف به فى الطريق ثلاث مرات رافضا المسير ، وضرب بلعام له ثلاث مرات حتى فتح الأتان فمه وتحدث إلى راكبه معترضا على ضربه له – قد ترسم بسمة خفيفة على الشفاة ، لكنها لاتسهم بصورة فعالة فى تطور الأحداث . وخلاصة قصة بلعام أنه بدلا من أن يلعن « بنى إسرائيل » باركهم وتنبأ لهم بالمجد القادم فى مستقبل الأيام : « يبرز كوكب من يعقوب ويقوم قضيب من إسرائيل فيحطم طرفى موآب ويهلك كل بنى الوغى » (عدد ٢٤ : ١٧) .

لكن بلعام قبل أن يرحل مغضوبا عليه من ملك موآب – كما يحكى يوسيفوس – يقدم نصيحة صغيرة لبالاق ملك موآب وكذا للأمراء المديانيين . إن أرادوا أن يحرزوا نصرا ، ولو لفترة وجيزة من الزمن على « بنى إسرائيل » ، فعليهم فعل ما يلى : أن يطلقوا أجمل نسائهم وأشدهن جاذبية على مخيمات « إسرائيل » . لن يقاوم رجال «

---

(١) الأموريون : بطن من كنعان كانوا يقطنون شرقى نهر الأردن ، وجنوب شرقى فلسطين (غطاس عبد الملك ، ص ٢٢١).
(٢) شرقى بحر الميت
(٣) أندرسون ، ص ١٢١
(٤) يوسيفوس ، ص ٩٠

إسرائيل » إغراء الفتنة . يصبح تعلقهم ببنات موآب ومديان رهيبا . يذيبهم التعلق حبا بأرداف النساء . عندها تبدى بنات موآب رغبتهن في العودة من حيث أتين . وهذا مالن يطيقه رجال « إسرائيل » . هنا يبدأ الدور الخطير الذى يجب أن تلعبه الفاتنات .. إذا أراد العاشقون من « بنى إسرائيل » منهن البقاء ، فعليهم أن ينصرفوا عن عبادة ذلك الإله الذى يعبدون وأن يسجدوا لآلهة مديان وآلهة موآب . هذا هو الطريق الوحيد كي يغضب الرب عليهم ويتخلى عنهم ، وربما يضربهم بنقمته فيوفر الكثير على الموآبيين والمديانيين (١) .

بدأ الشعب يزنى مع بنات موآب .. زنت « إسرائيل » . وكفرت برب الجنود ، رغم أن مسكنه وتابوته رابضان وسط الخيام . سجد الشعب لآلهة أخرى وقدم الذبائح والقرابين .

وجاء رجل من إسرائيل علنا بامرأة مديانية ، أمام عينى موسى وأعين كل الجماعة . وقادها إلى خيمته كي يزنى بها . كان هذا أكثر مما يحتمله موسى . برز العنف الكامن في أعماقه . تم القضاء على أربعة وعشرين ألفا ، يقول كتبة التوراة إنهم ماتوا « بالوبأ » ، رغم وضوح الأمر الذى أصدره موسى لقضاة « إسرائيل » : « أقتلوا كل واحد قومه المتعلقين ببعل فغور » (عدد ٢٥ : ٥) .

يعلق بوبر على « الدعارة المقدسة » : التي كانت تمارس علنا في الاحتفال بأعياد « بعل » وانجذاب « بنى إسرائيل » إليها وخضوعهم لها ، بقوله : إن خطيئة الأموريين الذين قرر الرب أن يقتلعهم من أرضهم كي يحل محلهم بنو إسرائيل تكاد أن تصبح هي نفسها خطيئة الإسرائيليين (٢) .

كان على موسى أن يوجه كل ثقل بطشه إلى المديانيين الذين تحالفوا مع ملك موآب وكادوا له وأطلقوا نساءهم كي يغووا « بنى إسرائيل » ويصرفوهم عن عبادة « يهوه » .. وقد تم قتل إحداهن داخل خيمة رجل إسرائيلى ، وهى ابنة رئيس لمديان . لابد وأن ينتقم موسى من المديانيين . ويمكن القول إن موسى – أيضا – لم ينس بكل تأكيد رفض حوباب ابن كاهن مديان أن يصحبه وأن يكون عينا له . لقد حانت ساعة العقاب .

---

(١) يوسيفوس ، ص ٩٢ .
(٢) بوبر ، ص ١٩١ .

أرسل موسى اثنى عشر ألفا للحرب ، ألفا من كل سبط .. وكان القتل والنهب والحرق والسبى والتدمير فى وحشية متجردة من كل المشاعر ، كما لوكانوا قطيعا من الذئاب الجائعة أطلق لنهش أجساد البشر : « فتجندوا على مديان كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر . وملوك مديان قتلوهم فوق قتلاهم .... خمسة ملوك .. وبلعام بن بعور قتلوه بالسيف . وسبى بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم . وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار » (عدد ٣١ : ٧ - ١٠) .

الملاحظ هنا هو قدر الحقد الكامن فى نفوس « بنى إسرائيل » وإرادة التدمير المتأصلة فى أعماقهم .. إنهم يقتلون الأطفال والشيوخ والنساء .. يسفكون الدم فى همجية بدائية غير مسئولة .. دون واعز من دين أو ضمير .. وكان « يهوه » لم يعلمهم كيف يكون الإنسان إنسانا .. بل على العكس علمهم كيف يكون الإنسان بلا ذرة من رحمة فى قلبه ، عندما قال لهم فيما يختص بمعاملة الأعداء : « لاتقطع لهم عهدا ولا تشفق عيناك عليهم » (تثنيه ٧ : ٢) .

كان هذا هو نفس الأسلوب الذى استخدمه سلالة هؤلاء الذئاب - أو من يدعون أنهم سلالتهم - فى الاستيلاء حديثا على أرض فلسطين . ويصف المفكر الفرنسى رجاء جارودى مذبحة « دير ياسين » بشجاعة منقطعة النظير ، غير مبال بالخطر الصهيونى .. يقول : كان الأسلوب المستخدم والمتبع هو أسلوب الترهيب والتخويف . والمثل الصارخ على ذلك هو دير ياسين . ففى التاسع من إبريل ١٩٤٨ ، بطريقة مماثلة لطريقة النازى فى أورادور ، قتل أهالى هذه القرية البالغ عددهم ٢٥٤ نسمة (الرجال والنساء والأطفال والشيوخ) على أيدى قوات الأرجون التى كان يرأسها مناجم بيجين . ويقول مناجم بيجين إنه يدون « الانتصار » فى دير ياسين ماقامت دولة إسرائيل (١) .

وافق موسى أن يعطى الأرض ، التى استولى عليها من ملك الأموريين وملك باشان ، إلى بنى جاد وبنى رأوبين ونصف سبط منسى بناء على طلبهم ، بشرط أن يستمر اشتراكهم فى القتال حتى يتم استيلاء « بنى إسرائيل » على كل أرض كنعان . وكانت هذه الأرض عبر « أردن أريحا شرقا » . قال موسى للكاهن العازار ويشوع بن نون ورؤوس آباء الأسباط : « إن عبر الأردن معكم بنو جاد وبنو رأوبين كل متجرد

---

(١) رجاء جارودى ، **الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية** ، دار الغد العربى : القاهرة ، ١٩٩٦ ، ص ١٥٨ ، (ترجمة عن الفرنسية قسم الترجمة بدار الغد العربى) .

للحرب أمام الرب فمتى أخضعتم الأرض أمامكم تعطونهم أرض جلعاد ملكا » (عدد ٣٢ : ٢٩) .

ويدعي كتبة التوراة أن الرب قد وعد «بني إسرائيل» على لسان موسى أن يعطيهم كل مكان تطؤه أقدامهم ، أي حيثما يدوسون يملكون ، حتى ولو لم تكن الأرض أرضهم ولا مستها يوما أقدام آبائهم : **« كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم من البرية ولبنان من النهر نهر الفرات إلى البحر الغربي يكون تخمكم لايقف إنسان في وجهكم . الرب إلهكم يجعل خشيتكم ورعبكم على كل الأرض التي تدوسونها كما كلمكم »** (تثنية ١١ : ٢٤ - ٢٥) .

ووعد كهذا يجب ألا يصدر عن إله عادل .. إن كان إلها حقا ، وإن كان عادلا حقا .

موسى لن يعبر الأردن .. لن يدخل الأرض التي تفيض لبنا وعسلا والتي وعد بها يهوه « بني إسرائيل » كي تكون لهم ملكا وميراثا . كان هذا عقابا . الرب يعاقب النبي

لقد طلب « يهوه » من موسى ، في برية صين عندما ثار الشعب طلبا للماء ، أن يكلم الصخرة أمام أعين « بني إسرائيل » كي تعطي ماءها . لكن موسى بدلا من أن يكلم الصخرة ضربها بالعصا . وبفعله هذا بدلا من أن يطيع عصى . و« يهوه » إله منتقم .. لابد وأن يعاقب من أخطأ ، حتى لو كان هو النبي .

لقد أساء موسى استخدام « عصا الله » ، عندما فجر بها الماء دون أن يؤمر . وبذلك أحل إرادته هو محل إرادة « الرب » ، وبدا وكأنه قد غدا هو النبي والرب معا . معصية لامراء فيها . و« يهوه » إله له صفات البشر . ومن أبرز صفاته أنه غضوب وعندما يغضب يغدو مدمرا في غضبه وقسوته . لهذا صدر حكمه الفوري على موسى : أن يموت دون أن تطأ قدماه أرض اللبن والعسل .

وعن سوء استخدام موسى العصا يقول بوبر : إن العصا التي تفعل العجائب في يد موسى لاتحول صاحبها إلى مخلوق « فوبشري » ، يمتلك طاقة تفوق كل طاقات البشر . إن استخدامه لها ، ولو لمرة واحدة ، دون أن يؤمر بذلك ، يجعله عرضة للمحاكمة والعقاب (١) . لكن الحكم في هذه الحالة يصدر على « النبي » دون محاكمة .

---

(١) بوبر . ص ١٧

يحلل مير هذه النقطة تحليلا رائعا يغرى باستفاضة عرضه ، يقول : لقد أمر موسى هذه المرة ، على عكس مرات سابقة ، ألا يستخدم العصا رغم أنه كان يحملها فى يده ... كان عليه أن يتحدث إلى الصخرة بنبرات حاسمة قاطعة يكون لها نفس التأثير الذى كان من قبل للعصا . نعم .. عندما يكون الله مع نبيه فإن قوة الكلمات تكون لها نفس قوة العصا . لقد كانت العصا مهمة فى بداية الدعوة عندما كان الإيمان قليلا . لكن فى المراحل المتقدمة من الإيمان وتربية الروح ، يصبح من الممكن دون أى تردد أن تنحى العصا جانبا .

لكن موسى كان مستاءً وغاضبا من تجمهر الجموع حوله واتهامهم له ولأخيه هارون بأنهما سبب كل ما حل بالقوم من بلاء . وفى ثورة الاستياء والغضب ضرب موسى الصخرة بعصاه مرتين ، بدلا من أن يكلمها كما أمره الرب . وكان فى دوىّ هاتين الضربتين نهاية آمال موسى وأحلامه . قال الرب لموسى وهارون : « من أجل أنكما لم تؤمنا بى حتى تقدسانى أمام أعين بنى إسرائيل لذلك لا تدخلان هذه الجماعة إلى الأرض التى أعطيتهم إياها » (عدد ٢٠ : ١٢) .

لقد فرض موسى إرادته على إرادة الله . وكان من المستحيل السكوت على سلوك كهذا ، خصوصا عندما يصدر من رجل قُدِّر عليه أن يقود شعبا ويعلم أمة .. لم ينفذ موسى الأمر الربانى واتبع هواه ، وفى هذا عصيان وعدم تقديس لإله إسرائيل .. كأن موسى قد شعر بأن الكلمة وحدها لاتكفى فاستخدم العصا . عدم إيمان هذا ودوى صوت الرب : إنكما لم تؤمنا بى .

ماذا حدث لموسى ؟ هل خارت قواه وضاقت روحه نتيجة لوبال الشتات أربعين عاما فى أرض التيه ؟ ربما !!

وبدلا من أن يتوسل موسى من أجل الشعب ، كما كان يفعل دوما ، بدأ يتوسل من أجل نفسه هو . لكن عبثا . قضى الأمر . لقد غفر « يهوه » لموسى خطيئته ، لكنه سمح لنتائجها أن تصل إلى غايتها المحزنة : موسى لن يدخل الأرض (١) .

يرفض الأستاذ شفيق مقار التحليل السابق للخطأ المأساوى الذى بسببه حكم على موسى بالموت .. يقول : الذى يمكن للعقل أن يقبله أن قيادات منافسة طامعة فى السلطة والغنائم وجدت من الضرورى تصفية قيادة موسى وهارون عندما باتت الجماعة

---

(١) مير ، انظر ص ١٧٥ - ١٧٩ .

على مشارف الأرض التي ستغتصب ووجدت في يهوه .. أداة مفيدة للتخلص من القيادة القديمة التي استنفذت أغراضها ، فأجرت على لسانه هذا الكلام الغريب المتناقض الذي ورد في سفرى الخروج والعدد عن « مسة ومريبة » والمخاصمة والعصيان ورفض التقديس بالماء (١) .

كان على موسى أن يسلم القيادة لمن يخلفه ، ويعد نفسه للموت . لم يكن هناك مهرب أو مفر . وخليفة موسى هو الرجل القوى الذى قاد المعارك وأحرز النصر ، وهو الذى اختاره « يهوه » كى يعبر نهر الأردن ويستولى على الأرض ويقسمها بين القبائل ، وعلى موسى أن يباركه ويوصيه ويشجعه ، لأنه أصبح من هذه اللحظة هو رجل الله المختار . أصدر الرب أمره لموسى : « خذ يشوع بن نون رجلا فيه روح وضع يدك عليه . وأوقفه أمام ألعازار الكاهن وقدام كل الجماعة وأوصه أمام أعينهم واجعل من هيبتك عليه لكى يسمع له كل جماعة بنى إسرائيل » (عدد ٢٧ : ١٨ - ٢٠) .

إكتفى موسى بأن وضع يده على كتف يشوع . هكذا وببساطة متناهية تم تبديل القائد . ويشوع هذا هو التابع الذى اصطفاه موسى وفضله ، وأولاه قيادة المعارك ، وحراسة الخيمة المقدسة ، ولم يكلف أحدا من اللاويين بذلك ولاحتى أخاه هارون ، رغم أن يشوع كان من نسل أفرايم . وهذا يدل - فى رأى بعض المحللين - على أن العلاقة بين موسى وقبيلته لم تكن على مايرام .

ويرى « بوبر » أنه ليس من السهل تصور شخصية يشوع تاريخيا .. إذ يمكن اعتباره أحد رؤساء القبائل .. ويمكن النظر إليه كأول القضاة .. ويعزى إليه بعض الدارسين الكثير من أعمال موسى ، خصوصا فى مجال العقيدة (٢) .

هكذا تم تجريد موسى من سلطاته وسلطانه أمام كل جماعة إسرائيل : نهاية مأساوية لبطل مأساوى عانى من كثرة الآلام وتحمل الكثير من الأحزان فى صراع دموى من أجل الإله « يهوه » . وكانت النتيجة أن كافأه ذلك الإله فى النهاية بالحرمان والموت !!

ويلقى موسى خطبة طويلة رائعة تسمعها الجموع المحتشدة وينشد نشيدا ، ثم يبارك الشعب الذى تمرد عليه وثار ضده ، بل وحاول رجمه ، طوال تلك السنين .

---

(١) شفيق مقار ، ص ٤٤٥

(٢) بوبر : ص ١٩٦ .

يشعر « الشعب » أن هذه هي آخر كلمات « هذا الرجل موسى » الملقب برجل الله . وتبكي إسرائيل - كما يقول كتبة التوراة - تبكي كل إسرائيل !!

ومن المثير للدهشة والحيرة في آن واحد ، أن موسى هذا الذي يودع قومه الوداع الأخير ، يختلف تماما عن موسى الذي التقى به الرب لأول مرة عند « جبل الله » . لقد اختفى موسى « المتعلثم » ثقيل اللسان . وبدا موسى في وداعه لقومه فصيحا بليغا تنساب من بين شفتيه الكلمات في قوة وسلاسة واقتدار .. صورة من النوع البطولي النادر لرجل حاول أن يصنع شعبا ويخلق أمة ويرسي دعائم دين .. وكأنه في وقفته الخاتمة المسيطرة - بشعره الفضي المنساب ولحيته الكثة وثيابه الواسعة الفضفاضة وقد بلغ المائة والعشرين - قد تحول بلمسة سحرية بارعة إلى بطل من أبطال الأساطير !!

صعد وحيدا ، كما عاش وحيدا ، إلى قمة جبل « نبّو » قبالة أريحا نظر حوله . عيون مئات الآلاف ترنو إليه .. تشهد النهاية المفجعة .

رأى الأرض « الموعودة » التي حرم عليه أن يدخلها . احتضنها بعينيه المرهقتين .. تعزى برؤياها من مرتقاه .. رن في أذنيه صوت الإله الرهيب « قد أريتك إياها بعينيك لكنك إلى هناك لاتعبر » .

بلغت الوحدة ذروتها المأساوية وهو يقف فوق تلك الصخور شديدة الوعورة شديدة الخطورة ، يواجه قدره . مانطق أحد بكلمة ، ما تحدث هو إلى أحد ، فلا أحد هناك كي يتحدث إليه .. هو الذي كان يكلم الرب وجها لوجه وفما لفم كما يكلم الرجل صاحبه .

شعر في أعماقه أن دوره قد انتهى .. أنهم لم يعودوا في حاجة إليه .. أن وجوده قد أصبح عبثا .. أن أيامه لو امتدت قد تغدو عبثا .. أن الرب نفسه لم يعد ينظر إليه . دمره من الداخل إحساس بالجحود .. ألقى بجسده المرهق على إحدى الصخور .. ومات .

يقول كتبة التوراة إن موسى عبد الرب مات هناك في أرض موآب (حوالي عام ١١٨٥ ق . م) ، ويدعون أن الرب هو الذي قام بدفنه « في الجواء في مقابل بيت فغور (١) ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم » (تثنية ٣٤ : ٦) .

هكذا تغزل أسطورة النهاية حول موت موسى : الرب هو الذي قام بدفنه !!

---

(١) قريبا من حشبون في اتجاه أريحا من الجانب الآخر غربي نهر الأردن (غطاس عبد الملك ، ص ٢٢٢٢) .

تقول الأسطورة الإسرائيلية - كما يحكيها ميير - إن الملائكة الواحد تلو الآخر حاولوا قبض روح موسى وانهاء حياته فلم يستطيعوا . جاءه فى البداية ذلك الملك الذى كان يعلمه كى يقبض روحه ، لكن شجاعته خانته عندما حاول أن يحطم « المادة » التى أسهم فى صنع فكرها . وعلى ذلك فقد تم استدعاء ملك الموت كى يقوم بتلك المهمة الصعبة . اقترب ملك الموت من موسى فى فضول ، لكنه عندما رأى تلك الهالة النورانية تحيط بوجهه وتشع منه كما الشمس ، واستمع إليه وهو يردد أمجاد ماضيه البطولى ، تراجع هو أيضا ولم يستطع .

وعندما أعلن هذان الملكان العظيمان أن هذا العمل يفوق مقدرتهما ، التفت موسى إلى إله إسرائيل الجبار - هكذا تحكى الاسطورة - وقال : « يارب هذا الكون .. يامن أفصحت لى عن سر وجودك فى ضوء نار العليقة المشتعلة .. تذكر أنك قد حملتنى إلى سمائك حيث مكثت أربعين يوما وأربعين ليلة .. إشملنى برحمتك الآن .. لا تسلمنى إلى ملك الموت » .

وتروى الأسطورة ، المزينة بالحب والمدبجة بالإجلال والتى تناقلتها الأجيال ، أن موسى قد مات « بكلمة من الله » . ويبالغ بعض صناع الأسطورة فيقولون إنه مات « بقبلة من الله » .. أى أن إله إسرائيل قد قبلَّ موسى فانطلقت روحه إلى بارئها .. فى لحظة عناق حلو رقيق !!

تستمر الأسطورة الإسرائيلية فى سرد الأحداث ، تقول : إن الرب قد دفنه فى واد فى أرض موآب ، رغم معارضة كبير الأبالسة وصراعه مع كبير الملائكة الذى كان قد تم تكليفه بتجهيز الضريح .

لكن مادخل كبير الأبالسة بدفن « النبى » ؟ هل كان يريد أن يجعل من ضريح موسى معبدا ينافس به معبد الرب ؟ لا أحد يدرى .. لكن الرب اعتنى بنفسه بجسد « ولده » رغم أنه كان بقايا .. مجرد حطام .. إلا أنه كان نفيسا عند الرب .. لذا لم يسمح الرب حتى لجماعة الملائكة بالمشاركة فى طقوس الدفن المقدسة .

ويقال إنه هو نفسه ، أى الرب ، قد قام بدفن « النبى » فى مكان لم يعرفه إنسان حتى اليوم (١) .

---

(١) ميير ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .

لكن هذه الأسطورة لاترضى بعض الدارسين المحدثين ولاتحظى بموافقتهم ، وهذا طبيعي في عصر لم تعد فيه للأساطير أهمية تذكر ، حتى ولو كانت إسرائيلية

لقد توصل الباحث الألماني إرنست سيلن Ernest Sellin ، عام ١٩٢٢ إلى ما يمكن أن نسميه كشفا عن حقيقة مجهولة وهو أن النبي موسى مات مقتولا ولم يمت بقبلة على شفتيه من فم الرب ، كما تدعى الأسطورة . يقول العالم اليهودى فرويد : لقد وجد إرنست سيلن في سفر النبى هوشع آثارا لا تخطئ لرواية تفيد أن مؤسس ديانتهم موسى قد لاقى نهاية عنيفة في تمرد شعبه العنيد المشاكس ، لأنهم كانوا قد هجروا في ذلك الوقت الدين الذى أقامه (١) .

ولايعتمد إرنست سيلين على سفر النبى هوشع فقط ، بل يرجع إلى رواية في التلمود ، تختلف تماما عن تلك التى وردت في سفر التثنية ، فحواها أن موسى لم يستلق على أحد الصخور ويموت بصورة طبيعية وفي هدوء ؛ لكنه تصارع صراعا طويلا عنيفا مع خصم له فوق الجبل . ويقال إن ذلك الخصم كان ملك الموت (٢)

وبالطبع لاتصدق الكثرة من الدارسين حكاية أن ذلك الذى صارع موسى هو ملك الموت .. إنه - في رأيهم - واحد من تلك الشراذم البدائية الشرسة التى كانت تمردت عليه وانقلبت ضده ، ثم أخيرا افترسته .

يقول الدكتور أحمد سوسه وهو يورد رأى « سيلين » ويعلق عليه : لقد استخلص الباحث الألماني سيلين من بعض الفقرات في سفر هوشع من العهد القديم ؛ أن هناك دلائل بأن موسى مات شهيدا » اغتاله الكهنة الذين قاوموه فهدموا كل مانادى به من تعاليم دينية تقريبا . **وهناك من يرى أن يشوع بن نون هو الذى اغتال موسى حيث اصطحبه إلى أعلى الجبل ثم عاد بدونه ليعلن أن الأمر بموت موسى قد تم تنفيذه وفقا لأمر الرب . وإذا كان موسى في نظر التوراة التى بين أيدينا خاتنا فكيف تنسب هذه التوراة إليه وتسبغ عليه صفة القدسية (٣)** .

يتفق رأى الأستاذ شفيق مقار مع ماقال به د . أحمد سوسه ، عندما يقرر الأستاذ مقار أن : **السماء قد لزمت الصمت تماما ، وتركت يشوع السفاح يأخذ موسى إلى مكان منعزل فيذبحه ، ويدفنه في قبر مجهول** ، ويعود ليقول « مسجلو » ذلك التاريخ

---

(١) فرويد : ص ٨٩
(٢) عبد المنعم درويش ، ص ٤٦
(٣) : أحمد سوسة : ص ٥٦٣
(٣) شفيق مقار : ص ٣٦٧

« المقدس » أن الذى أمات موسى كان « يهوه » لأن موسى خانه فى مسّة رمرية . وقد كان بوسعهم - لو كان موسى قد مات ميته طبيعية - أن ينسبوا موته إلى تقدمه فى السن .. لقد استخدم الكهنة شخصية الإله روائيا فى حكيهم لتغطية الجرم بادعاء أن موت موسى كان بفعل إلهى (١) .

إن « بنى إسرائيل » يعرفون جيدا أين دفن إبراهيم ، وأين دفنت سارة وإسحق ويعقوب ورفقة وراحيل . إنهم لم ينسوا عظام يوسف فحملوها معهم عند : خروجهم » من مصر ، بعد موته بمئات السنين . فكيف لايعرفون أين دفن موسى وهو « النبى » الأعظم فى تاريخ « العقيدة » ؟!! كيف لايعرفون ؟ أم أنهم يعرفون ولا يتكلمون ؟ هل تم قتله وتمزيق جثته وإلقائها للكواسر كى لا يتبقى منه شئ - إلا الأسطورة ؟!

يقول الأستاذ مقار ، وقد يكون فى قوله إجابة على ماسبق من تساؤلات : **لقد اغتيل موسى ودفن فى مكان ما بالصحراء ، ولم يحقق فى النهاية حلمه المميت الذى جعله يطلق الوحش على العالم (٢) .**

إن عناصر الخيال والمعجزات - كما يقول فريزر - قد داخلت قصة موسى ، إذ أن موسى - ذلك الذى عاش فى الماضى السحيق - قد أضيف له الكثير عبر العصور فأصبح ما هو عليه الآن فى التوراة (٣) . أما حقيقة الرجل كوجود تاريخى - فى رأى بوبر - فلا أحد يستطيع أن يجزم بها أو يؤكد أبعادها (٤) .

ويورد بوبر رأى إدوارد مير الذى عبر عنه عام ١٩٠٦ بخصوص عدم إيمانه بتاريخية موسى . يقول مير :

إن موسى ليس شخصية تاريخية .. وباستثناء هؤلاء الذين يقبلون التراث على علاته ، لم يستطع شخص واحد ممن يتعاملون مع موسى كحقيقة تاريخية أن يملأه بأى محتوى من أى نوع وأن يظهره كشخصية تاريخية لها وجود ملموس ، أو أن يقدم أى شئ من الممكن أى يكون قد أبدعه أو يمكن أن يقال عنه : هذا عمل تاريخى (٤)

وقد يكون من المناسب فى الختام أن نورد رأى أحد « الوحوش » الذين أطلقهم موسى على العالم ، كما يقول الأستاذ شفيق مقار .

---

(١) شفيق مقار ، ص ٣٦٧ .
(٢) فريزر ، ص ٥٣٢ .
(٣) بوبر ، ص ١٨ .
(٤) نفس المرجع ، ص ٧

سئل بن جوريون ذات مرة صراحة عما إذا كان قد آمن بوجود الله ، فكان جوابه :

الله !! إن السؤال هو : من يكون الله هذا ؟ !! أنا أعرف أن هناك يهودا ، يهودا كثيرين يتصورونه رجلا عجوزا ذا لحية بيضاء مسترسلة قاعدا هناك بأعلى عرشه السماوى ، ويصدقون فعلا أنه تكلم مع موسى . **لكنى لا أعتقد أن إلها تكلم مع موسى . كل مافى الأمر أن موسى هجس فى قلبه ذلك الصوت الإنسانى فأدرك أن عليه أن يفعل مافعل** (١) .

فيلا الكزمتان

طنطا - ١٩٩٩ م

(١) شفيق مقار ، ص ٥٤٢ نقلا عن
Segev , Tom , 1949 , The First Israelis , The Free Press (Macmillan) , New York , 1986 , P . 260

مراجع عربية

- أبو العينين ، سعيد ، **الفرعون الذي يطارد اليهود** ، كتاب اليوم ، دار أخبار اليوم ، القاهرة ، ١٩٩٧ .

- أحمد ، د . محمد خليفة حسن ، **علاقة الإسلام باليهودية** ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٨٨ .

- أحمد ، د . محمد خليفة حسن ، « نظرة نقدية فى قضية الأصل المصرى القديم لموسى وديانته » ، مجلة الدراسات الشرقية ، العدد الثالث ، القاهرة ، ديسمبر ١٩٨٥ .

- إرمان ، أدولف ، **ديانة مصر القديمة : نشأتها وتطورها ونهايتها فى أربعة آلاف سنة** ، ترجمة د . عبد المنعم أبو بكر ود . محمد أنور شكرى ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ١٩٩٥ .

- الأسيوطى ، د . ثروت أنيس ، **نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين : الجماعات البدائية . بنو إسرائيل** ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، بدون تاريخ

- التونسي ، محمد خليفة ، مترجم ، **الخطر اليهودى : بروتوكولات حكماء صهيون** ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ١٩٧٢

- الخشاب ، د . عبد المحسن ، **تاريخ اليهود القديم بمصر** ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ١٩٨٩

- الخشبة ، غطاس عبد الملك ، **رحلة بنى إسرائيل إلى مصر الفرعونية .. والخروج** ، دار الهلال ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٩٩

- العقاد ، عباس محمود ، **الله** ، نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٩٤

- العقاد ، إبراهيم أبو الأنبياء ، نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٩٣ .

- برستد ، جيمس هنرى ، فجر الضمير ، ترجمة د . سليم حسن ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٩٥ .

- بورتر ، هارفى ، موسوعة مختصر التاريخ القديم ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ١٩٩١

- بوكاى ، موريس ، دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، لبنان ١٩٧٧ .

- جارودى ، رجاء ، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية ، دار الغد العربى ، القاهرة ، ١٩٩٦ (ترجمة عن الفرنسية قسم الترجمة بدار الغد العربى)

- حسن ، د . محمد أحمد محمود ، الرسالة والإعجاز : محمد وموسى (فى التوراة والإنجيل والقرآن) ، مطبعة نور الأمل ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

- حمدان ، د . جمال ، اليهود ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٩٦ .

- درويش ، د. عبد المنعم ، الشريعة اليهودية : دراسة تحليلية على ضوء نصوص التوراة ، طنطا ، ١٩٩٦ .

- ديلتى ، الأب ، تاريخ شعب العهد القديم ، عرّبه الأب جرجس ماردينى ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٦١ .

J . DHeilly, **Le Peuple De L Ancienne Alliance** (3édition) , Les Editions de L` Ecole , Paris .

- ربيع ، د . محمد محمود ، أزمة الفكر الصهيونى المعاصر ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧١ .

- رسلان ، د . صلاح الدين بسيونى ، **الأخلاق والسياسة عند ابن حزم** ، مكتبة نهضة الشـــرق ، القـــاهرة ، ١٩٨٥ .

- سوسة ، د. احمد ، **مفصل العرب واليهود فى التاريخ** ، دار الرشيد للنشر ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، الجمهورية العراقية ، الطبعة الخامسة ، ١٩٨١ .

- شلبى ، د. أحـمـد ، **مقارنة الأديان : اليهودية** ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٣

- عبد القادر ، حامد ، **الأمم السامية : مصادر تاريخها وحضارتها** ، دار نهضة مصر ، الفجالة ، القاهرة ١٩٨١

- عثمان ، أحمد ، **تاريخ اليهود** ، مكتبة الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٤

- عليان ، د . سيد سليمان ، **نساء العهد القديم : دراسات فى الأنساب والمعانى** ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ١٩٩٦ .

- غربال ، د . محمد شفيق غربال ونخبة من العلماء ، **تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعونى** ، المجلد الأول ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، بدون تاريخ .

- فريزر ، چيمس ، **الفولكلور فى العهد القديم (التوراة)** ، الجزء الثانى ، ترجمة د . نبيلة إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

- فرويد ، سيجموند ، **موسى والتوحيد : اليهودية فى ضوء التحليل النفسى** ، ترجمة وتقديم د . عبد المنعم حفنى ، مطبعة الدار المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٧٨ .

- لنتـون ، رالف ، **شجرة الحضارة** (الجزء الثالث) ، ترجمة د . أحمد فخرى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦١ .

- ماركس ، كارل ، **المسألة اليهودية** ، دار مكتبة الجيل ، القاهرة ، بدون تاريخ .

- مقار ، شفيق ، **السحر فى التوراة والعهد القديم** ، رياض الريس للكتب والنشر ، لندن ، ١٩٩٠ .

- موسكاتى ، سبتينو ، **الحضارات السامية القديمة** ، ترجمة وتعليق د . السيد يعقوب بكر ، دار الرقى ، بيروت ، ١٩٨٦ .

- ناصف ، عصام الدين حفنى ، **محنة التوراة على أيدى اليهود** ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

- ... ، **موسى وفرعون : بين الأسطورية والتاريخية** ، دار العالم الجديد ، القاهرة ، ١٩٧٥

- وافى ، د . على عبد الواحد ، **اليهودية واليهود** ، مكتبة غريب ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

- « **الكتاب المقدس** » ، دار الكتاب المقدس ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

مراجع أجنبية

- Anderson , Bernhard , w ., **The Living World of The Old Testament** . Fourth Edition . Longman Honse .Esex , England , 1988 .

- Anonymous , **New Heavens And A New Earth** , Watchtower Bible and Tract Society , New York , U . S . A , 1953 .

- Bilton , Percy , **Russia , Israel , Christ , and You** , Purnell & Sons , LTD . , London , 1959 .

- Buber , Martin, Moses : **The Revelation and The Covenant** , Harper Torchbooks , The Cloister Library , New York , 1958 .

- Cassuto . U . **A Commentary On The Book & Exodus** Translated from Hebrew by Israel Abrahams Jerusalem , The Magness Press, The Hebrew University , 1964

- **Collier's Encyclopedia** . Macmillan Educational Corporation , New York . 1988

- Driver . S R . **An Introduction To The Literature Of The Old Testament** , The Meridian Library , New York , 1956 .

- Frazer , Sir James , **TheGolden Bough , A Study in Magic and Religion** , Abridged Edition , London , 1924 .

Friedmann , Richard Eliot , **Who Wrote The Bible ?** , Summit Books, New York , 1987 .

- Grubb , Edward , **The Personality Of God** , Headley Brothers , London , 1911 .

- Heaton , E . W . , **The Old Testament Prophets** , a Pelican Book , R & R . Clark Ltd , Edinburgh , 1961 .

- Herford , R . Travers , **Judaism In The New Testament Period** , The Lindsey Press, London , 1928 .

- Hopfe , Lewis M . , **Religions OF The World** , Collier Macmillan Publishers , London , 1983 .

- Josephus , Flavius , **The Works of Flavius Josephus** , Translated by William Whiston , Edinburgh , W . P . Nimmo , Hay & Mitchell , n . d .

- Lodge , Sir Oliver , **Reason and Belief** , Methuen & Co . Ltd . , London , Eighth Edition , 1916 .

- Meyer , Rev . F . B . , **Moses The Servant Of God** , Fleming H . Revell Company , New York , n . d .

- Murry , John Middleton , **God** , Jonathan Cape , London , 1929 .

- Waterhouse , Eric S . , **The Philosophical Approach To Religion** , The Epworth Press , London , 1953 .

A Guide To Further Reading

1 - Alon , Gedaliah , **The Jews in their Land in the Talmudic Age** , Jerusalem , 1980 .

2 - Anderson , G . W . , **A Critical Introduction to the Old Testament** , Duckworth , 1959 .

3 - Beegle , Dewey M . , **Moses , Servant Of Yahweh** , Grand Rapids , Mich . , Eerdmans , 1972 .

4 - Breasted , James Henry , **The Dawn Of Conscience** , Charles Scribner's Sons , New York , 1934 .

5 - Bryce , Glendon E . , **A Legacy Of Wisdom : The Egyptian Contribution to the Wisdom Of Israel** , Lewisburg , Pa : Bucknell University Press , 1979 .

6 - Cassuto , U . , **The Documentary Hypothesis and The Composition Of The Pentateuch** , Trans by Israel Abrahams , Jerusalem , Magnes , 1961 .

7 - Coats George W . **Rebellion in the Wilderness** . New York Abingdon , 1968 .

8 - De Uaux . Roland . **Ancient Israel , Its Life and Institutions** ., trans by John Mc Hugh , London , Longman and Todd . 1961 .

9 - Driver , S R . **Introduction to the Literature Of the Old Testament** . rev . ed ., New York , Scribner`s 1913 . Meridian , 1956 .

10 - Ginzberg , Louis **Legends Of The Bible** . The Jewish Publication Society of America , 1956

11 - Greenberg , Moshe , **Understanding Exodus** . New York , Melton Research Center of Jewish Theological Seminary of America , 1969 .

12 - Gunkel , Hermann . **The Legends of Genesis . The Bible Saga and History** , New York , Schocken , 1964

13 - Jeremiah , A , **The Ancient East** , trans . from German by C . L . Beaumont , 2 vols , London , 1911 .

14 - Katch , I . Abraham . **Judaism and the Koran** A S . Barnes and Company , New York , 1962 .

15 - Liebman , Arthur , **Jews and The Left** . John Willey & Sons , New york , 1979 .

16 - Montet , Pievre , **Eternal Egypt** , Trans . from French by Doreen Weightman , The New American Library New York . 1964 .

17 - Newman , Murray Lee , **The People of The Covenant . A Study of Israel from Moses to the Monarchy** . New York . Abingdon , 1962 .

18 - Nicholson E . W . . **Exodus and Sinai in History and Tradition** , Richmond , John Knox . 1973 .

19 - Nielsen , Eduard , **The Ten Commandments in New Perspective** , trans by David J . Bourke , Studies in Biblical Theology , 2 nd Series , No . 7 Naperville , III . Alec R . Allenson , 1968 .

20 - Otzen , Benedikt , **Myths in the Old Testament** . Trans by Frederick Cryer , London S C M Press , 1980 .

21 - Parkes , James , **A History of The Jewish People** , Penguin Books , Great Britain , 1964 .

22 - Pfeiffer , R . H ., **Introduction to the Old Testament** , London , 1952 .

23 - Red , Gerhard von , **Moses** . World Christian Books , London , Lutterworth , 1960 .

24 - Robinson , H . W . . **Inspiration and Revelation in the Old Testament** . Oxford University Press , 1946 .

25 - Robinson , H . W . . **The Religious Ideas of the Old Testament** . Duckworth , 1913 .

26 - Rowley , H . H . , **The Faith of Israel** , London , 1956 .

27 - Rowley , H . H . , **The Old Testament and Modern Study** , Oxford Univ. Press , 1951 .

28 - Rowley , H . H . , **From Moses to Qumran Studies in the Old Testament** , London , Lutterworth Press 1963 .

29 - Smith , J . M . P . , **Prophets and their Times** , revised by W . A . Irwin , Chicago University Press , 1941 .

30 - Wolff , H . W . and Walter Brueggemann , **The Vitality of the Old Testament Tradition** , 2 nd ed , Atlanta , John Knox Press , 1982 .

محتويات الكتاب

		صفحة
تصدير	:	٤
الفصل الأول	: مدخل	٦
الفصل الثانى	: الآباء	٢٨
الفصل الثالث	: الميلاد والنشأة	٨٨
الفصل الرابع	بداية الدعوة	١١٨
الفصل الخامس	: إله ضد فرعون	١٤٦
الفصل السادس	: الخروج ومعجزة البحر	١٨٣
الفصل السابع	: التية والموت	٢١٠
قائمة المراجع	:	٢٨٩

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية
٣٨٨٣ / ٢٠٠٠

الأستاذ الدكتور وجدى الفيشاوى يتميز بسعة الإطلاع وحصافة الرأى فيما يقرأ ، وحسن الانتقاء فيما يختار ، وصدق الحكم فيما ينتقد .

وقد عودنا منذ خطواته الأولى فى التأليف المسرحى أو القصصى أو الفكر الإنسانى ، أن تكون له شخصية بارزة توضح مكانتها بين أعلام العلماء والمفكرين والكتاب والنقادو أصحاب الرأى الجرئ الذى يدعمه بمختلف ما وصلت إليه الحصيلة الفكرية ، للقمم العلمية ، وشجاعة الرأى عنده فيما يطرحه على القراء ، جليةُ فيما يصدره للمتخصصين ، ويدلى به أمام المثقفين ، ويختار مصادره دائما فى كتاباته مما لا يصل إليه الشك وأساس منهجه الثقافى يدل على ثبوت قدميه فى مجال الفكر المتطور والتراث التليد .

أستاذ دكتور

عبد الرحيم محمود زلط

العميد الأسبق لكلية آداب طنطا

الثمن ٢٠ جنيه

09/Jun/2001 00:20